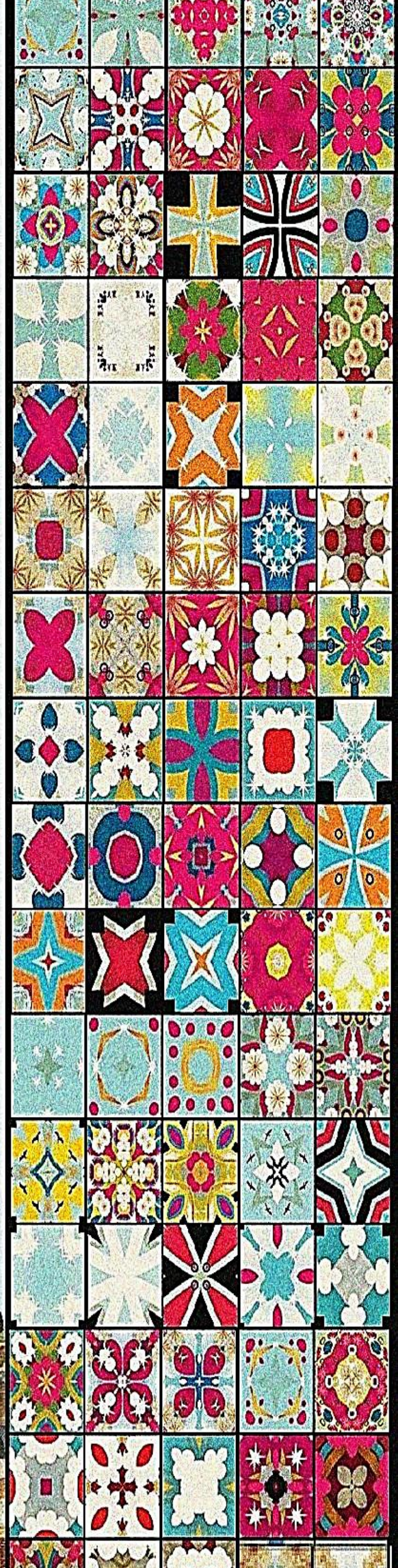




إشراف : ف . دياكوف / س . كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الأول

ترجمة : نسيم واكيم اليازجي

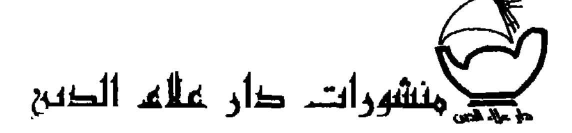


إشراف: ف. دياكوف س. كوفاليف

الحضارات القديمة

الجزء الأول

ترجمة نسيم واكيم اليازجي



منشورات دار علاء الدين

دمشق - الطبعة الأولى ٢٠٠٠ - ١٠٠٠ نسخة

التنضيد الضوئي والإخراج الفني: سلام أبوكرم.

التدقيق اللغوي الأستاذ: صالح جادالله شقير.

يطلب الكتاب على العنوان التالي : دمشق ص.ب : ٣٠٥٩٨
هاتف:- ٥٦١٧٠٧١ فاكس : ٥٦١٣٢٤١ -

- جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف.
- في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

الفصل الأول

المجتمع البدائي

المقدمة

النظام المشاعي البدائي: يدرس الفصل الأول من التاريخ ولادة، تطور وتفكك النظام المشاعي البدائي. نقصد بهذا التعبير التشكيلة الاجتماعية والاقتصادية التي عاشت حقبة طويلة من الزمان، أي منذ ظهور المجتمع البشري حتى تشكيل الدول الأولى. وبينما قسم تاريخ المجتمع الطبقي(عبودية، إقطاعية، رأسمالية)ولم يتجاوز خمسة آلاف سنة، فقد استمر النظام المشاعي البدائي مئات آلاف السنين.

ما هي سماته المتميزة؟ في المجتمع البدائي، بنيت علاقات الإنتاج على الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وعلى رأسها، الأرض. بسبب ضعف مستوى القوى المنتجة، الذي يحول دون الامتلاك الفردي لوسائل العيش الضرورية: كان الناس ملزمين بالعيش والعمل سوية والعمل الجماعي يولد الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج وثمار العمل. ما يجنيه الناس معا يخصهم معا. لم تكن قد ولدت بعد فكرة الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ولا استغلال الإنسان للإنسان، ولا الطبقات.

فالنظام المشاعي البدائي مرحلة واسعة من تاريخ البشرية وعامة، هذا يعني أن كل الشعوب مرت من هنا، وان المجتمع المنقسم إلى طبقات غير خاص بشعب دون آخر، وأن المجتمع بني على بقايا النظام المشاعي البدائي.

يخص تاريخ المجتمع البدائي العصور الغابرة، التي تخولنا دراستها إلقاء الضوء على مسائل هامة مثل أصل الإنسان، ولادة الدين، والفنون والعلوم، تشكل الطبقات والدولة، كما يتقصى الدرب الصعب الذي شقته البشرية، والنضال البطولي الذي خاضه جدودنا لمواجهة الطبيعة.

إن تاريخ المجتمع البدائي، كغيره، عام: غرضه دراسة قوانين ارتقاء النظام

المشاعي البدائي. ولا أحد يستطيع دراسة هذه القوانين إلا على ضوء المادية الجدلية والتاريخية.

لقد توقف بناة الماركسية على قضايا التاريخ البدائي في العديد من أعمالهم. في "الإيديولوجيا الألمانية"التي كتبت في ١٨٤٥ ــ ١٨٤٦، أشار ماركس وانجلز، عند بداية نشاطهما الاجتماعي، أن الناس، منذ فجر المجتمع البشري، يوم كانوا يعيشون على الصيد والقنص والزراعة، وتربية الدواجن، عرفوا ملكية العشيرة، أي هيمنة الملكية التعاونية. "ورأس المال"، "انتي دوهرينغ"وأعمال أخرى مثل رسائل ماركس وانجلز تتضمن ملاحظات قيمة في مختلف مشاكل نظام المشاعية البدائية. وفي العام ١٨٧٦، كتب انجلز"دور العمل في انتقال القرد إلى إنسان "الذي يعطي شرحاً معمقاً علمياً ومادياً، للتطور المعقد لظهور الإنسان.

كان العلم البورجوازي قد كدس حوالي العام ١٨٨٠ كمًّا من الوثائق؛ ولدى دراستها بطريقة نقدية، شرع ماركس وانجلز بعمل توليفي حول تاريخ المجتمع البدائي. بدأ العمل ماركس الذي اطلع وعلق على أهم ما جاء في كتاب للعالم الشهير الأمريكي ل.هـ. مورغن. وبعد موت ماركس، تابع انجلز العمل وأنجزه؛ ونشر في العام ١٨٨٤ كتابا هاما بعنوان: "أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة"، يكشف، استناداً إلى وقائع عديدة، عن القوانين الأساسية لارتقاء المجتمع البدائي ويعطي تاريخه الأول الجاد العلمي.

لم يكتف ماركس وانجلز بنقد النظريات اللا-علمية وتعليل قوانين ارتقاء المجتمع البدائي، بل دللا على الخاصة المؤقتة لمؤسسات مثل الطبقات، الملكية الخاصة والدولة. وهكذا أفادا من تاريخ المجتمع البدائي ليبينا نظرية الإشتراكية العلمية.

كان لينين قد عمق علم المجتمع البدائي. وظهرت ملاحظات هامة، تتعلق بالسمات الأساسية للنظام المشاعي البدائي، في أعماله من هم أصدقاء الشعب"وكيف يناضلون ضد الإشتراكية الديموقراطية، والقضية الزراعية و"ملاحظات ماركس"ومؤتمره"في الدولة".

مصادر أخبار النظام المشاعي البدائي

لدراسة المجتمع البدائي خواصها. فبينما تركت لنا حقب التاريخ البشري التالية نصوصا عديدة ومتنوعة(مخطوطات، مدونات، وغيرها)،كان النظام المشاعي البدائي، بعامة، يجهل الكتابة، الأمر الذي يلزمنا البحث عن آثار من نوع آخر.

لقد استقينا المعلومات الأساسية حول المجتمع البدائي من مصدرين تاريخيين: علم العاديات وعلم العراقة. الأول يعيد تركيب ماضي البشرية استناداً إلى آثار الثقافة المادية؛ بهدف البحث عنها، وضعها وتصنيفها. تتضمن هذه الآثار معلومات عن العمل، والأسلحة والأواني، مخلفات السكان والسكن، الأعمال الفنية ومواد الطقوس والشعائر. وتميز بقايا العاديات أيضاً، إلى مدى ضيق، أيديولوجيا الماضي. يسبر علماء الآثار التجمعات القديمة (محطات، قرى) ونقوشات وأنصاب شخصية أو اجتماعية؛ يحفرون الطبقات الأثرية، أي الأرض التي تضم المخلفات اللاعضوية والعضوية للحياة والنشاط البشري،والتي يتجاوز عمقها أو سماكتها أحياناً عشرات الأمتار. في هذا المجال، تمكننا الجيولوجيا، البقايا الحيوانية القديمة،وكذلك النباتية من تحديد دقيق لتتابع الحضارات. ولقد أعدت حديثاً سبل فيزيائية ــ كيماوية لمعرفة عمر اللقى. سبل مؤسسة على دراسة التحولات التي تعرضت لها البقايا العضوية خلال آلاف السنين. كما يكشف الباحثون في العظام، في فضلات المحارق، وغيرها، كمية النظير الكربوني المشع، المسمى"كربون *14*". ولدى معرفتهم أنه يعود لحوالي ٥٥٠٠ سنة، يحددون تاريخ النقش أو الحفر أو التجمع.

يدرس علم العراقة ثقافة وأخلاق القبائل والشعوب، بخاصة، الشعوب القديمة. ففي القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، كانت مناطق أفريقية، أمريكية، أسيوية، محيطية، وبعض أقاليم روسيا، تسكنها شعوب ما تزال تحافظ على بقايا من النظام المشاعي البدائي. كانت هذه التجمعات الشعبية كثيرة جداً منذ ألفي عام، في زمن هيرودوت، سترابون، تاسيت وكتاب آخرين من العصور الغابرة، الذين تحدثوا عن أشياء هامة.

يعالج علم العراقة: الإنتاج، الثقافة المادية، النظام الاجتماعي والحياة الروحية لهذه الشعوب،ويعيد تركيب سمات المجتمع البدائي استناداً إلى بقاياه؛ وكذلك المعطيات الاتية هي الوحيدة التي تنير تاريخ الأسرة، التنظيمات الإرشادية، التقاليد الشفهية والحق في المجتمع البدائي. ولجمع وثائق غنية، يجب على علماء الشعوب أن يبقوا مدة طويلة في كنف هذه القبيلة أو تلك، يتعلمون لغتها، يتعرفون عاداتها. مثلاً، كان ل. هـ. مورغن ضيف قبيلة السينكواز، وعاش الرحالة الروسي الشهير ميكلوكوف ــ ماكلاي مدة طويلة عند البابو في غينيا الجديدة، يدرسان عاداتها وحتى يجهدان في الدفاع عنها ضد الاضطهاد الاستعماري.

تشكل المواد الاثنية، على قيمتها الكبرى، نواقص عميقة. بداية، كانت القبائل الأكثر تخلفا التي لم يدرسها أي اثنوغرافي قد تطورت فعلا لدى اتصالها بالشعوب المتحضرة وخضعت للتأثير المدمر الذي تنشره الرأسمالية. فأخلاقها وعاداتها توفر غالبا مزيجا غريبا من التشبه بالقديم ومن العناصر الجديدة.

بالتالي يعطي العلماء الذين درسوا تجمعات شعبية من مستويات ارتقاء متباينة، سمات عامة. أما كيف نعرف أشكال اقتصادها وتنظيماتها الاجتماعية والايديولوجية، وأيها أقدم، وكيف ننتقل من الوصف البسيط للأدوات، للمساكن، للنقوش إلى تاريخ المجتمع. دون تحديد الوثائق المتوفرة في سرير[1] ***DE PROTUSTE*** للمخطط التحكمي؟ لا يمكن تخطي هذه العقبة إلا بتعاضد مواد العاديات مع المواد الأثنية.

حقب تاريخ المجتمع البدائي

خلال آلاف السنين، تعرض المجتمع البدائي إلى تبدلات هامة اقتصادية واجتماعية. فلا بد إذن من تمييز عدة مراحل في تاريخه. لنعرف حسب أي مبدأ يتم هذا.

منذ النصف الثاني من القرن الماضي، أدخل عالم الآثار الدانمركي ش. تومسون في تصنيف اللقى فكرة ثلاثة "أعمار" أو"عصور: عصر الحجر، "البرونز والحديد، حسب المادة الأساسية المستخدمة في صناعة الأدوات،واختار هذا المبدأ لتقسيم ما قبل التاريخ. وبالتالي قسم كلا من هذه العصور إلى محطات: مثلا، في عصر الحجر، ميز الحجر القديم ***PALEOLITHIQUE***، الحجر الأوسط ***MESOLITHIQUE***، والحجر الجديد ***NEOLITHIQUE***، التي تختلف من حيث عمل الحجر ومهمة أو وظيفة الأدوات. وقسمت هذه المحطات إلى حجر قديم أبعد وأقرب وإلى مراحل أو حضارات تمتاز بهذه الآثار المادية أو تلك؛ تسمى المرحلة بشكل عام باسم المكان الذي اكتشفت فيه المواد الخاصة به (شاليان، أشليان، موستريان، الخ).

يقدم هذا التصنيف مكاسب أكيدة قبلها علماء آثار ومؤرخو العالم قاطبة. لكنها تعاب كونها وحيدة الجانب، وترجع الفرق بين مراحل التاريخ البدائي إلى طبيعة المادة الأولى بأداة وأسلوب عملها: قد يفضي هذا إلى تفسيرات آلية للتاريخ، وإلى فصل التطور التقني

---

[1] – *de procuste* أسطورة يونانية تقول إن بروكست هذا كان ينهب ويعذب المسافرين.

عن تطور المجتمع. وهكذا، تخص نفس الحقبة الآثارية غالبا شعوبا من مستويات تطور، بينما انحل وتفكك النظام البدائي في أمكنة أخرى وفي بعض الأمصار تكون الزراعة وتربية الدواجن في بدايتها ويستمر النظام القبلي في الحياة. وهكذا لا يمكن ربط هذه النماذج الثلاثة بنفس المحطة التاريخية.

وحوالي العام ١٨٨٠، اقترح ل.هـ. مورغن تصنيفا آخر، في كتابه"المجتمع القديم"بخلاف التصنيف الأول، لا يكتفي التنصيف الجديد بالمعيار التكنولوجي بل يبنى على الخصيصة العامة للثقافة المادية لكل حقبة. يميز مورغن محطتين في التاريخ البدائي: الوحشية والبربرية. تنتهي الأولى مع اختراع القوس والنشاب؛ وتبدأ الثانية باختراع الفخار وتشمل ولادة وتطور الزراعة والتدجين. تقسم كل محطة إلى ثلاث درجات: سفلى، وسطى، وعليا.

يعتمد انجلز تصنيف مورغن في الفصل الأول من كتابه"أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة. لكنه يراه غير كاف ويشير إلى أن جمع المواد الأولى تكرهه على إفساح المجال لنهج آخر.

وفي الوقت الراهن، يرى بعض العلماء أن التقسيم المورغاني لتاريخ المجتمع البدائي عفى عليه الزمن،ولم يعد ينسجم مع المكتشفات الأخيرة لعلمي الآثار والعراقة؛ لكن ليس ثمة حل شامل عام حتى الآن.

يرى كل المؤرخين ضرورة إيجاد مكان خاص للمحطة الأولى للتاريخ البدائي، في أثنائها يتم التشكل البيولوجي للإنسان ذاته؛ يسمى اتفاقا محطة القطيع البدائي[1].

ولقد تلت محطة القطيع البدائي محطة النظام القبلي، الذي ترافق أوجهه بعامة مع نظام الأمومة، أي المساواة بين الرجل والمرأة.

أخيرا، وشم تطور القوى المنتجة، ولادة التدجين، حراثة الأرض بالسكة الحديدية ومعالجة المعادن(البرونز والحديد)، بداية مرحلة الاستغلال الأولى والملكية الخاصة: استبدلت الأمومة بالأبوة، والديموقراطية القبلية بالديموقراطية العسكرية التي هيأت إرساء أسس الدولة.

---

[1] ـــ إقرأ ف. انجلز"أصل الأسرة، والملكية الخاصة والدولة، المنشورات الإجتماعية، باريس ١٩٥٤ ص ٢٨، ولينين، الأعمال الكاملة، مجلد ٣٥، ص ٩٣،(منشورات ـــ روسية).

طبعا، لا يجوز أن ننظر الآن إلى هذا التصنيف المبني علىسمة العلاقات الاجتماعية إلا كفرضية.

فالتقسيم إلى مراحل أو محطات يمكن من تقديم تنسيق التطور التاريخي. والصعوبة الأخرى الكأداء هي التسلسل التاريخي لهذه المحطة أو تلك. وغالبا ما نكون أمام استحالة تحديد دقيق لبداية أو نهاية هذه المرحلة أو تلك مما قبل التاريخ: فكلما توغلنا في الزمن، كان التسلسل التاريخي المطلق غير أكيد.

نظرة في التأريخ

لمدة طويلة، بقيت حياة الإنسان الأول غامضة. كان كتاب التاريخ القديم يرددون خرافة"العصر الذهبي"الذي كان في فجر البشرية، أو يرسمون كائنات حيوانية سلاحها يداها، أسنانها وهراواتها. ففي العصر الوسيط، حالت هيمنة الكنيسة دون تطور الأفكار العلمية حول الأزمنة البدائية: يعلم اللاهوتيون أن الناس الأولين، آدم وحواء، خلقهم الله، وتؤكد الكنيسة سلطتها بطردهما من الجنة، والطوفان وحكايا التوراة الساذجة. وكانت الأنباء حول أخلاق الشعوب المتخلفة مجرد خيالات: كانوا يتصورون هؤلاء الناس برؤوس كلاب أو حتى بدون رأس، والعينان في الصدر.

فقط، المكتشفات الجغرافية الضخمة التي تمت من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر، بدءا برحلات كولومبوس وماجلان(وبخاصة رحلات المستكشفين الروس كراتشنينكوف، بالاس، ميللر)، التي أطلعت علماء أوروبا على حياة الشعوب المتخلفة، دشنت علم العراقة وسهلت طرح مسألة التاريخ البدائي.

ففي بداية القرن الثامن عشر، كان المبشر لافتو، الذي عاش طويلا في كنف هنود أمريكا الشمالية، أول من نشر فكرة تقول :إن عادات الأوربيين تقدر أن تعلل وتجلو تاريخهم البعيد. مع ذلك، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، اكتفى العلم بالفرضيات التحكمية حول ما قبل التاريخ، وتحدث كثير من المتشككين بالعزوف عن دراسته، بدعوى أننا لن نعرف المرحلة الغامضة، بل الطلاسم، التي سبقت اكتشاف الكتابة.

لقد اصطدمت أولى الحفريات الأثرية التي كشفت أدوات الناس بين الحيوانات المتحجرة في بداية العصر الرابع(مسنري في انكلترا حوالي ١٨٣٠ ويوشردي بيرش في فرنسا حوالي ١٨٤٠)، اصطدمت بالجحود، بل الموقف المعادي بصراحة، رغم أنها

طرحت أسس علم الآثار وإناسة العالم البدائي وانتقال الفرضيات النظرية إلى وثائق جادة حول مجتمع ما قبل التاريخ. ولم يعرف العالم المثقف القيمة الصحيحة لأعمال مسنري وبوشردي بيرش إلا بعد كشوفات داروين.

كان تاريخ المجتمع البدائي موضع اهتمام عميق لدى الديموقراطيين الثوريين الروس، وفي مقدمتهم تشرنثفسكي، الذي قال: إن المجتمع الأبوي الذي افترض العدالة بين الناس، كان محطة شاملة. واهتم بخاصة بانتقال مشاعية الأرض إلى الملكية الخاصة، فسهل عليه فهم تاريخ الزراعة الروسي.

في القرن التاسع عشر، أسهم العلم البورجوازي بسعة بتنهيج المعارف حول المجتمع البدائي. ولقد اعتمد القانوني السويسري ج.ج. باشوفن على دارسي العصور القديمة للتدليل على وجود عهد الأمومة، الذي تلاه عهد الأبوة. وتقصى ل.ه. مورغن كنصير للمادية العفوية أو الطبيعية طبيعة النظام القبلي، فأيد فكرة وحدة ارتقاء البشرية وجهد في إجلاء التطور التاريخي لليونان والرومان مستنداً إلى دراسة التنظيم الاجتماعي لدى هنود أمريكا الشمالية. وطرح العالم والسياسي التقدمي الفرنسي ج. موتليت وعالم الآثار السويدي او. موتليوس أسس تصنيف آثار العصر الحجري والبرونزي. ودرس العالم الروسي م. كوفالفسكي المجتمع الأبوي وبرهن أنه كان شكلاً انتقالياً بين الأمومة والأسرة وحيدة الزواج المعاصرة. أخيراً، كتب ن. سيبر، الذي كان أول من عمم في روسيا نظرية ماركس في الاقتصاد، مقالات حول الثقافة الاقتصادية البدائية التي لم تفقد أهميتها حتى يومنا هذا.

لقد جمع علماء العراقة والآثار البورجوازيون في القرن العشرين وثائق واسعة وفيرة حول تاريخ المجتمع البدائي، الأمر الذي خولهم تقويم الكثير من بيانات أسلافهم النظرية، التي كانت بالضرورة تقريبية، بسبب نقص الوقائع المعروفة. وبينما أشار مورغن ومورتليت إلى خط واحد لارتقاء المجتمع البشري، استطاع علماء القرن العشرين ترسم طرق معقدة وعديدة لتقدم الإنسان، حتى في العصر الحجري الأقدم *PALEOLITHIQUE* إذ أنجز المؤرخ الإنكليزي ج. كلارك ميزان الأعمال المنجزة قبله ودلّ إلى التطور الاقتصادي لحياة مختلف التجمعات البدائية في أوروبا انطلاقاً من العصر الحجري الوسيط *MESOLITHIQUE* .

لكن بعض مؤرخي الحقبة الامبريالية، بنقدهم الأفكار البيانية لعلماء القرن التاسع عشر حول الارتقاء البشري، أنكروا إنكارا قاطعا مبدأ الارتقاء. وحسب نظرية الروابط الثقافية، لعالم العراقة الألماني ف. غريبنر لم تكن الثقافة البشرية، عوضا من التطور عبر الزمن، سوى ثقافة متنوعة، وكانت البشرية كلها جملة من الحلقات الثقافية الجامدة. كما لجأ العالم الألماني او. مانجن إلى علم الآثار لنشر أفكاره ناكرا عملية الارتقاء. ترك فلسفة المعطيات، ويقدم تاريخ المجتمع البدائي كمحصلة لهجرات القبائل المنتسبة إلى مختلف الحلقات أو الروابط الثقافية. أفضت هذه النظريات إلى المفاهيم الرجعية المكشوفة لصاحبها ج. كوسينا، الذي جعل من تاريخ المجتمع البدائي تمجيدا لحملات وغزوات أسلاف"العرق الآري".

يبرهن العديد من علماء العراقة البورجوازيين على الطبيعة الأبدية والثابتة للملكية الخاصة، لاستغلال الإنسان للإنسان، والدور التابع للمرأة في الأسرة وفي المجتمع والكثير من قاذورات النظام الرأسمالي الأخرى، ونسبوا وجود الطبقات في المحطات الأقدم من المجتمع البشري. كما ساهم علم العراقة البورجوازي في تبرير الاضطهاد الامبريالي في المستعمرات.

لكن علماء الآثار والعراقة التقدميين في القرن العشرين، مثل أ. اردلسكا، ج. ليبس، ف. بواس، رفضوا هذه النظريات الرجعية وهاجموها ودافعوا عن خيرة تقاليد تطوريي القرن الماضي. علماء الطليعة أمثال ج. شيلد، أنصار أفكار ماركس.

والمؤرخون السوفيات، الأوفياء للماركسية-اللينينية، حققوا نجاحات ضخمة في دراسة ما قبل التاريخ. فأعمال علماء الآثار ف. غورودتسوف، ب. إفمانكو، أ. برسوف، ت. باسيك، ب. بوفتين، س. كسليف، ف. رافدوننكا، وآخرون مكنوا من متابعة التاريخ في مناطق عدة خلال آلاف السنين، منذ مراحل المجتمع البدائي الأول حتى ولادة المجتمع الطبقي. إذ أعطوا كمية من المواد والوثائق من أجل الدراسة النظرية لأهم تطورات ما قبل التاريخ. ونشرت نتائج أعمال علم الآثار بانتظام في دوريات"علم الآثار السوفياتي" و"أنباء" معهد تاريخ الثقافة المادية.

وساهم علماء الإناسة السوفيات إ. روغنسكي، ف. بوناك، م. نستورك، وسواهم بعمق بإيضاح أصل الإنسان، العنصر الأساسي للدراسة الجادة للمحطة الأولى للمجتمع

البشري، وتقصوا أيضا مسألة تشكل الأعراق ودللوا علـــى ضحالـــة النظريـــة العرقيـــة. وعززت معرفة ما قبل التاريخ بأسلوب م. غيراسمون الذي أعاد تركيب الوجـــه البشـــري استنادا إلى عظم الجمجمة. خلق غيراسمون عشرات البورتريـــهات_ ***PORTROITS*** ، لأناس عاشوا منذ آلاف السنين.

وأعمال علماء العراقة الســـوفيات س. تولســـتوف، م. كوســـفنن د. أولـــدروج، س. توكريف، وسواهم، ساهمت بوضوح بدراسة نظام المشـــاعية البدائيـــة" أصـــل الزراعـــة والتدجين، ولادة الأديان أدركت بروح مادية، وبرهن أن الأمومة كانت مرحلة عامة مـــن تاريخ البشرية، وعرفت بالتالي السمات المحددة لتفكك نظام القبلية وتشكل المجتمع التـــالي، وغير ذلك. ودوريات علم العراقة عندنا هي مجلات"العراقة السوفياتي"،"أعمال معهد علـــم العراقة وحولية متحف الاناسة والعراقة".

الفصل الثاني

القطيع البدائي

ظهور النظام القبلي

ظهور الإنسان: يبدأ تاريخ البشرية بظهور الإنسان والمجتمع الإنساني. لقد دعم العلماء المثاليون طويلا نظرية الحد المغلق بين الإنسان و الحيوان. تشتق هذه النظرية من الأسطورة التوراتية. عارضها داروين بفرضية تقول:إن الإنسان انحدر من عرق قردي راق يشبه البشر .والمكتشفات اللاحقة أكدت رأيه وأثبتت أنه في نهاية العصر الثالث أو بداية العصرالرابع عاشت فعلا قرود مشابهة ،يمكن اعتبارها أسلافا للإنسان.

هكذا، في جنوب أفريقيا ، اكتشف كثير من عظام القرود العالية سميت *AUSTRALOPITHEQUES*. كانت تعيش في مغارات حراجية أو شبه صحراوية، تمشي على قوائمها الخلفية، وتقنص الحيوانات الأصغر، وللهجوم والدفاع، كانت تستخدم عصاة أو عظاما ضخمة طويلة، وقد أفضى الغذاء اللحمي، الوقوف واستخدام الأطراف الأمامية لتناول الأشياء إلى كبر حجم دماغها.

إن مسألة معرفة إن كان القرد الاسترالي سلفنا المباشر، أو يشكل "فرعا جانبيا" في تكوين الإنسان، تبقى معلقة. لكن الأمر الأكيد هو أن الإنسان المتحجر ينحدر من قردة مشابهة،اكتشفت عظامها في أمكنة عديدة من العالم القديم، بخاصة في القفقاس. ومن زرافات القردة الشبيهة بالإنسان انحدر،في بداية العصر الرابع(أي منذ مليون سنة)،قطيع الإنسان البدائي.

لقد كان موضوع مكان إتمام تحول القرد إلى إنسان مجالا لمناظرات حادة وحيوية:تبنى بعض العلماء نظرية التعددية ، وأكدوا أن التطور حدث بالتوازي في أماكن عدة وأن الإنسان انحدر من أنواع مختلفة من القردة. ليس العلماء السوفيات من هذا الرأي، بل هم يرون أن القرد تحول إلى إنسان في إقليم من الأرض الواسعة التي تشمل

جنوب آسيا ، الشرق الأدنى، شرق القفقاس و بقاع واسعة من أفريقيا؛ والوضع الراهن للعلوم يسمح بتحديد التطور بدقة كبرى.

يعلل بعض الباحثين ظهور الإنسان بأسباب طارئة ، خارجية. هكذا يقدم الأكاديمي ب. سوشكين اختفاء الغابات كعنصر أساسي: فاضطرار القرد للعيش على الأرض خلق تباينا في أطرافه وجعله يمشي منتصبا. تنكر هذه النظرية تحول القرد إلى إنسان تحولا منتظما.

إن تعليلا علميا فعلا للظاهرة زودنا به انجلز في كتابه"دور العمل في تحويل القرد إلى إنسان". حيث يشير المؤلف إلى أن العنصر الأساسي هو العمل."العمل خلق الإنسان نفسه"[1]. لكن بم بدا هذا العمل البشري؟ كانت القردة تتناول حجرا أو عصاة كما كان يفعل القرد الأسترالي، لكن أحدا لم يستطع صنع الأداة الأكثر بدائية. فبصنع الأدوات يبدأ العمل.

إن النشاط الجاد المثابر، صنع الأدوات البدائية ،أفضى إلى تقسيم الوظائف بين الأعضاء الأمامية والخلفية. وتصير صناعة الأدوات المهمة النوعية للطرفين الأماميين، الأمر الذي زاد مهارتهما وحولهما إلى يدين. وبكلمة، لم تكن"اليد عضو العمل فقط، بل أيضا ثمرة العمل[2]".

كلما أطلقت اليدان وتخصصتا بمهمة العمل، تدعمت عادة المشية المنتصبة أكثر فأكثر، وهذا أدى بدوره إلى تطور اليدين وحررهما من أجل النشاط الجاد، وعزز بالتالي تطور الحنجرة والحبال الصوتية. ولقد أثبتت دراسة عظام الإنسان المتحجرة أن تباين الأطراف يسبق ارتقاء الجمجمة، وهذا يؤكد تماما فكرة انجلز حول دور العمل في دور ظهور الإنسان.

البشر المتحجرون

لقد اكتشفت في جاوا في الأعوام١٨٩١-١٨٩٤، أقدم بقايا الإنسان المتحجر المسمى إنسان جاوا. ومؤخرا وجدت في جاوا عظام أنواع أخرى. وحوالي١٩٢٥، اكتشف عالم

---

[1]- ف. انجلز، ديالكتيك الطبيعة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس١٩٥٥، ص١٧١.

[2] - المصدر ذاته، ص١٧٣.

الآثار الصيني بي اوان-تشونغ في كهف شوكو- تيـــان، قـــرب بكيـــن، رفـــاة عظميـــة لحوالي٢٥ نموذجا لرجل متحجر سمي إنسان بكين. كما كشفت عظـــام مبعـــثرة عديـــدة، أكثرها افكاك وأسنان لكائنات قريبة من إنسان بكين، في وسط فيات- نـــام، فـــي جنـــوب أفريقيا وقرب هيلدبورغ، في ألمانيا. وفي العام١٩٥٤، عثر علماء فرنسيون في الجزائـــر على بقايا من نموذج إنسان آخر مما قبل التاريخ، سمي اتلانتروب.

إن الأحفاد المباشرين للناس المتحجريـــن هـــم النياندرتـــاليون ونموذجـــهم إنســـان نياندرتال، وقد سمي هكذا لأن رفاته وجدت في وادي بهذا الاسم، قرب دوسلدروف. كـــان النياندرتاليون يسكنون العالم القديم، وصودفت بقاياهم في جاوا، في أفريقيا، فـــي الشـــرق الأدنى ومناطق أخرى أوروبية. وعلى الأرض الروســـية عـــثر عليـــهم علمـــاء الآثـــار السوفيات: ففي١٩٢٤، اكتشف ج. بوننتش _ اوسمولوفسكي أجزاء من هيكل عظمي فـــي مغارة تشيك _ تشاك، في جنوب أوزبكستان.

يتميز الناس المتحجرون عن البشر الحاليون بجبهة مائلة وتجويف جمجمي منخفض؛ وأقواس حواجب متينة فوق العينين، العظام الوجهية بارزة، وفقدان الذقن.

كانوا يمشون بسيقان ملتوية ويركضون وقد انحنوا كثيراً إلى الأمام؛ تشـــبه أيديـــهم القوائم، أي أن الإبهام كان أقل تعارضاً مما لدى إنسان هذه الأيام. غـــير أنـــهم يتمـــيزون بوضوح عن القرود العليا بالمشية وسعة العلبة الجمجمية. من حيث الحجم، يتجاوز دمـــاغ ابن جاوا (٩٠٠سم٣) كثيراً دماغ الغوريلا أو الإنسان الأوسترالي، ودماغ ابن بكين أكـــبر (حتى١٢٠٠ سم٣) ودماغ إنسان نياندرتال (قرابة١٤٠٠ سم٣) يقترب من السعة الوســـطى لجمجمة الإنسان الحالي (١٤٠٠ -١٥٠٠سم٣).

بخلاف الإنسان الأسترالي، ما كان البشر المتحجـــرون يكتفـــون باســـتعمال بعـــض المواد(عصا أو عظم)، بل كانوا يعرفون صناعة الأدوات. إذ وجدت بين رفاة ابـــن بكيـــن والنياندرتاليين، أدوات حجرية بدائية. وفي كثير من المناطق، اكتشف علماء الآثار أدواتـــاً ليست من عظام الناس المتحجرين.

عاش ابن جاوا، ابن بكين وابن نياندرتال في العصر الأبعـــد أي الأدنـــى - الأقـــل تطوراً.

العصر الحجري الأدنى

في بداية العصر الرابع، عند تشكل المجتمع البشري، كان المناخ ألطف وأكثر رطوبة. كانت أوروبا مغطاة بغابات شبه استوائية تسكنها الماضغات، الخرطوميات ووحيدات القرن غير الموجودة في هذه الأيام. لكن شيئا فشيئا صار المناخ أقسى: الجليديات تزحف آتية من الشمال. طبقة كثيفة من الجليد غطت مساحات شاسعة من أوروبا وأمريكا الشمالية. وجليديات أخرى كانت تهبط من سلاسل جبال الألب وهملايا.

وفي الجوار المباشرة للجليد استبدلت الغابات شبه الاستوائية بالتوندرا حيث ترعى الماموث الوبري، الأحقب والحصان الوحش. يشمل العصر الحجري الأدنى بالتحديد مرحلة تمتد من بدء العصر الرابع حتى نهاية العصر الجليدي(قرابة أربعين ألف سنة).

كانت صناعات العصر الحجري الأدنى بدائية. عدا السهراوات، استخدمت شظايا الحجارة ذات الحواف الحادة. وشيئا فشيئا، تعلموا أن يصنعوا من الصوان قبضات سميكة، بشكل اللوزة، تزن أحيانا أكثر من كيلو. كانت تقطع بواسطة صوانات أخرى. أفادت هذه الأداة البدائية بتفصيل أوتاد خشبية، لقلع الجذور، لتحطيم تلعات الأرض، لذبح حيوان جريح؛ لا شك أنها لم تستخدم في الصيد بخاصة، فأي عصي تقوم بهذا الغرض. فضلا عن هذا، كان الناس يعدون صفائح من الصوان الحاد.

بهدوء، تتكدس الخبرة وتتحسن التقنية: في بقاع عديدة وسبل متباينة، ينتقل الناس إلى صنع أدوات أصغر وأنعم. وتصير أهم الوسائل الصوانية النياندرتالية صفائح مثلثة الشكل: مروسة للقص أو الثقب، مكاشط لسلخ الحيوانات الذبيحة. أداة القنص هي المذراة والرمح الخشبي المصنوعان من الخشب.

طبعا، لم يكن لإنسان بكين مساكن ثابتة و لا ألبسة. كثيرا ما كانت الأشجار ملاجيء للإنسان تقيه من الحيوانات المتوحشة. وانتهى إلى تعلم إعداد ستائر أو حواجز تحميه من تقلبات الجو، ثم احتل كهوف الحيوانات المفترسة التي يستخدم جلودها لصنع سرير وثوب، نوع من غطاء الرأس مجهز بأربطة أو علاقات.

لقد تعلم أناس العصر الحجري الأدنى إيقاد النار. ربما كان أولا يستخدم ويحفظ النار الطبيعية وبعدئذ أوقدها بصدم قطعتي صوان ببعضهما أو بحك قطعة خشبية بقضيب خاص. والنثار الناتج يحمى ويشتعل؛ وآنئذ تمد فتيلة صوفية أو ليفة نباتية تلتهب، ثم ينفخ

على النار لتتقد. كانت صعوبة العملية تكره الناس البدائيين على معاملة النار بعناية.

كان استخدام النار ذا أهمية بالغة: فهي تقي البشر من البرد والكواسر، وتمكنهم من شوي أغذيتهم، الأمر الذي يسهل التمثل الغذائي ويغني الوجبة. إن اختراع النار"... أعطى الإنسان لأول مرة السيادة على قوة طبيعية، وبهذا، أبعده عن مملكة الحيوان"[1].

في الاتحاد السوفياتي، كانت قد اكتشفت أقدم أدوات الإنسان المتحجر فوق تلة ساتاني _ دار، في أرمينيا، واكتشفت آثار أخرى من العصر الحجري الأدنى في القفقاس، في أبخازيا وفي جنوب أوسيتي، في القرم، في حوض الدنبير والدنستر وفي المجرى الأوسط للفولغا.

أخلاق أول تعاونية بشرية وتنظيمها الاجتماعي

كانت التجمعات الأكثر تخلفاً، التي لم يدرسها أبداً علماء العراقة، أرقى بكثير من البشر المتحجرين من العصر الحجري الأدنى. و لا يمكن معرفة حياة أول تعاونية بشرية إلا استناداً إلى المواد الأثرية، الأمر الذي يجعل آراءنا حول تنظيمها الاجتماعي ناقصة جداً وفرضية.

كان إنسان العصر الحجري الأدنى يعيش من القطاف والصيد. يقتات بالثمار، بالجذور والعنب البري، يأسر بعض الضرعيات الصغيرة، الضب والحشرات. وبدأ مبكراً بصيد الحيوانات الضخمة: في محطات قبل التاريخ، يكشف علماء الآثار غالباً، بين الأدوات البدائية، عظام الماموث والبيزون، الأحصنة والغزلان، التي بقر أغلبها ليأخذ نخاعها. كان الإنسان البدائي يأكل كل شيء، الأمر الذي مكنه من العيش في كل مكان.

كانت حياته قاسية: ما كان يستطيع منافسة الكواسر الرهيبة في بداية العصر الرابع لا بسرعة الركض، ولا بالقوة الجسدية. كان الجوع يترصده أبدا، وكذلك الموت بين مخالب الحيوانات. وعقد زحف الجليد نضاله ضد الطبيعة. بقي الإنسان القديم على قيد الحياة بفعل سببين اثنين: بداية، صار كائنا واعيا يصنع أدوات، ثم، عمل منذ البدء متعاونا.

إن صنع الأداة نفسها غير ممكن إلا تعاونيا، لأن هذا الأخير هو الذي يصون ويعضد

---

[1] – أنجلز، أنتي دوهرينغ، دار المنشورات الاجتماعية، باريس١٩٥٦، ص١٤٧.

الانجازات، الخبرة البدائية بمادة الانتاج، ويؤمـــن توريثـها. والصيـد، بخاصـة صيـد الحيوانات الضخمة التي تخاف النار وتدافع برشق الحجارة نحو وهدة أو سبخة، كان يتـم جماعة.

هذا هو تجمع إنسان العصر الحجري الأدنى الذي سمي اتفاقا القطيع البدائـي. كـان قليل العدد وغير مستقر ولا شك: كان يستطيع بأعضائه الانتقال إلى قطيـع آخـر. كـان يرأسه مشرف، رجل أو امرأة. وتسود حياته الجنسية البلبلة والاختلاط، مع إمكانيـة قيـام علاقة بين اثنين فقط، رجل وامرأة، مستقرة إلى هذا الحد أو ذاك.

إن شكل الأداة البدائي، مستوى الاقتصاد المتخلف، والنضال الضاري مع الطبيعـة، كلها عاشت في قلب القطيع البدائي"الفردية الحيوانية" الموروث من الأسـلاف الحيوانيـة، التي تتبدى أحيانا بصراعات دامية، بفصول من الكفاح من أجل الوجـود. كمـا عرفـت حالات من أكل لحوم البشر.

تدريجيا، ومع رسوخ التنظيم الاجتماعي في التجمع البشـري ومضاعفـة منجـزات الانتاج، تراجعت الغرائز الحيوانية؛ كما قال لينين، أخمـد القطيـع البدائـي والمشـاعية البدائية"الفردية الحيوانية" لدى البشر الأقدمين[1]".

ولادة الفكر واللغة

تنجم ولادة الفكر من نشاط الناس المنتج. والعبور من الاستخدام الغريـزي للـهراوة والحجر إلى صناعة الأدوات، على جلافتها، أفرز النشاط العقلي لدى الإنسان، والوعـي. وشكلت منجزات الانتاج الخبرة الأولى عنده واستقرت في ذهنه.

والعمل التعاوني صان منجزات الانتاج وبصم الفكر البدائي بسمته النموذجيـة: فـي الأزمنة الأولى، ما كان الإنسان ينفصل عن التجمع التعاوني.

واللغة قديمة أيضا كالفكر"... اللغة هي الوعي العملي، حية لدى الجميـع، حيـة إذن عندي، واقعية، واللغة لا تولد، كما الوعي، إلا من الحاجة، من ضرورة المتاجرة مع الناس الآخرين"، كتب ماركس وانجلز. والمفاهيم الأولى العامة لا تعرف في التجمع التعـاوني إلا إذا حددتها الأصوات. والتلاقي بين الناس والعمل التعاوني يستحيلان بدون اللغة.

---

[1] – لينين، الأعمال الكاملة، المجلد٣٥، ص٩٣(منشورات روسية).

ليس لدينا أي فكرة عن بنية اللغات البدائية. بل يفترض العالم السوفياتي ف. بونـــاك أنها وُلدت من الإشارات الصائتة لدى القرود شبيهة الإنسان، وتنامت مع تكديـــس خـبرة الإنتاج، وتطورت الحنجرة بفعل الوضع العمودي وتراجع حجم الفك الأسفل.

كانت هذه اللغات تتألف من عدد متواضع من الكلمات أو، بكلمة أدق، من عبـــارات وحيدة المقطع، منعزلة وعديدة الدلالة. وكان كلام الإنسان البدائي يترافق مع حركـــات لا تلعب مع ذلك سوى دور ثانوي.

الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى

لقد أتى بعد العصر الحجري الأدنى، حسب التصنيف المقبول في علم الآثار، العصـر الحجري الأعلى(دام من الألف الأربعين حتى الألف الثاني عشر قبل الميلاد).

تبدلت الشروط المناخية مرارا في أثناء هذه الحقبة. تراجع الجليد وصار المناخ فـــي أوروبا وسيبيريا الجنوبية معتدلا. ثم عاد الجليد، هذه الهجمة الرابعة والأخيرة، الأقل عتـوا مما سبق، جعلت المناخ مع ذلك قاسيا جدا. بادت الماموث، انتشر الأحقب علـــى شـاطئ البحر الأبيض المتوسط، والقرم والقفقاس.

تم الانتقال إلى العصر الحجري الأعلى بتطورات هامة في بنية الإنســـان الجسـدية، وكذلك بطبيعة الإنتاج والتنظيم الاجتماعي. والنموذج البيولوجي المعاصر: الإنسان العـــاقل ***HOMO SOPIEMS***، تشكل نهائيا؛ وتطورت تقنيات واقتصاد التجمع التعاوني وظـهرت بخاصة أدوات نوعية، مخصصة لصنع أدوات أخرى، ووسائل من الخشب والعظم أو مـن الخشب والعظم معا؛ غادر الناس الكهف ليعيشوا في ملاجئ مصنوعة ومدفـــأة؛ وتشـكل نمط جديد من التنظيم الاجتماعي:القبيلة البدائية؛ أخيرا، ظهرت الفنون. كـــل هـذا خـول العالمين السوفياتيين إي. روغنسكي وف. إياكموف اعتبار الانتقال إلى العصر الحجـــري الأعلى، وانتقال إنسان نياندرتال إلى الإنسان العاقل، كوثبة نوعية تبقى أهميتها التاريخيـــة مع ذلك أقل من انتقال القردة من النموذج الاسترالي إلى الإنسان المتحجر مـــن النمـوذج الجاوي. وكان الانتقال إلى نوع جديد قد أعده ارتقاء المجتمع البشري في نهايـــة العصـر الحجري الأدنى.

تثبت بقايا العصر الحجري الأعلى في أوربا الغربية والشرقية تنامي القوى المنتجـة. وتتجاوز تقنيات هذه الحقبة كثيرا تقنيات العصر السابق؛ اتقنت صناعة الأدوات الصوانيـة،

وضغطت مساحتها: بمساعدة قضيب عظمي، يؤخذ ببساطة، من شظية صوانية، صفيحات ناعمة، للحصول على أداة مشذبة ذات حواف حادة ومتينة. وعدا الحجر، صنعوا العظم والقرن.

كانت الوسائل المستخدمة لجني الغذاء متنوعة جدا: صنعت الرماح القصيرة ذات الرأس العاجي أو الصواني، والخناجر من القرون، والخطافات للصيد والقنص، والمكاشط والصفائح لسلخ الحيوانات الذبيحة ومعالجة الجلود؛ وخيطت الثياب من جلود المواشي بإبر عظمية. وأعدت الأزاميل لحفر أو نحت القرن أو العظم.

اتسع صيد الحيوانات اتساعا لم يسبق له مثيل: في المحطات، يكتشف علماء الآثار بقايا وفيرة من الأسلاب. ففي بردقوست (تشكوسلوفاكيا) مدفن عظام لألف ماموث. وحوالي نهاية هذه الحقبة، مورس الصيد أيضا بسعة. حدد هذا التطور في الإنتاج أسلوب حياة أكثر حضارية، نشهد شاهدا رائعا عليه في غنى آثار العصر الحجري الأعلى.

يبدأ الإنسان باحتلال ملاجئ مصنوعة، ذات طنف، أخصاص وملاجئ محفورة في الأرض. كشف علماء آثار(ب. أفمانكو، س. زامياتنين وسواهما)عن أكواخ من العصر الحجري الأعلى على ضفتي الدون وغيرها. كانت مساكن من التراب المقولب، بشكل بيضوي. أفخاذ الماموث تدعم السقف المغطى بالتراب. في وسط الكوخ توضع موقدة أو أكثر تغذيها عظام الحيوانات. إلى جانب المساكن حفروا حفرا لحفظ الطرائد والأغذية الأخرى.

على أرض روسيا. عثروا على آثار من العصر الحجري الأعلى في شرق القفقاس، في حوض الدنيبر والدون، وعلى مجرى تشوسوفايا وفي سيبيريا.

تشكل ثقافة القبائل التي كانت تعيش بعيدا عن مناطق الجليد سمات فريدة. في أفريقيا الشمالية ازدهرت حضارة سميت كابسا(الآن غافسا، في تونس)؛ وبخلاف صيادي وقناصي الشمال، كان تجمع كابسا يعيش على القطاف؛ ما كانوا يخشون مهاجمة الوحوش كالأسد والفهد، لكن المكان الرئيسي لاقتصادهم يرجع إلى جمع الرخويات الأكولة، السلاحف، بيض النعام، وغيرها. وشروط اقتصادية مشابهة كانت، يومئذ، في شرق الأبيض المتوسط، في القرم وفي القفقاس.

تشكل القبيلة

لقد وطد التطور التدريجي لقوى الإنتاج والانتقال إلى الحياة المقيمة التجمع التعاوني البشري، ونجم عن هذا كبح"الفردية الحيوانية". وبارح القطيع البدائي المكان لتنظيم إجتماعي أرقى.

ارتقت البنية القطيعية أساسا في ثلاثة مناحي. بداية، مكن نمو إنتاجية العمل الناس من الحياة في تجمعات أقل عددا، أتت من القطيع لكنها استمرت في إقامة علاقات اقتصادية معه. تعتبر هذه التجمعات متقاربة ويمكن أن تساعد بعضها، بل تتبادل الدعوة إلى حقول الصيد.

ثم، منع التجمع البدائي العلاقات الزوجية الداخلية. يرتبط هذا التدبير المسمى الزواج الخارجي، بشكل متين مع التطور الاقتصادي. ولم يعد الزواج ظاهرة بيولوجية بحتة، بل مؤسسة نظمها المجتمع.

لم يدم الزواج الخارجي سوى حقبة معينة، لأن القطيع البدائي كان تعاونية مغلقة، لا تتصل بغيرها. وصار الزواج الخارجي ممكنا بعدما اعتبرت تجمعات الأمومة والتبني ذات علاقات قربى واستمر أفرادها يتزاوجون فيما بينهم. إذن، عدا المبدأ السلبي: منع الزيجات ضمن التعاونية، أدخل الزواج الخارجي مبدأ إيجابيا: الالتزام بالزواج من أعضاء تعاونية أخرى، لكنها تعاونية معينة. فمن الآن فصاعدا، ارتبط تجمعان متقاربان بعادة الزواج المتبادل: لا يمكن الزواج إلا من تجمع بنوي. سميت هذه العادة التي تنص على الزواج في حدود التعاونية الكبرى الزواج اللحمي.

هكذا تكون في الوقت ذاته قبيلة خارجية الزواج ،وعشيرة لحمية الزواج مؤلفة من مشاعيتين متقاربتين. اعتبر انجلز هذا الزواج المزدوج الشكل الأول لمجتمع الزواج الخارجي المبني على القبيلة. ثمة شواهد من مستويات أرقى بكثير: رآها علماء العراقة لدى شعوب معاصرة، مثل التركمان، الايفانك، القرغيز وكراكلبك. كانت تجمعات القبيلة خارجية الزواج تتكاثر ببطء.

كان الزواج في هذه المرحلة جماعيا، أي نساء مشاعية ما هن نساء فعليات أو مفترضات لكل رجال مشاعية أخرى من القبيلة. رغم أن هذا النظام لا يلغي الصيغة المؤقتة للزواج المستقر إلى هذا الحد أو ذاك، ليس لأحد حق منع شريكه.

شواهد الزواج الجماعي مستمرة لدى الشعوب التي درسها علمـــاء العراقــة، لـــدى الاستراليين، مثلا، الذين تتقسم قبيلتهم إلى جماعتين أو أربع جماعات مرتبطـــة زواجيــا؛ وفي روسيا، لوحظت القضية لدى النيغكس(غولياك)؛ وفي نهاية القرن التاسع عشر لاحــظ ل. سترنبرغ أن الحكومة القيصرية نفتهم إلى الشرق الأقصـــى لنشــاطهم فــي صفــوف "منظمة إرادة الشعب".

أخيرا، تتعقد بنية القطيع البدائي نتيجة ارتقاء التقسيم الطبيعي للعمل. ربما كان تقســيم العمل حسب العمر موجودا منذ ولادة المجتمع البشري، لكن رجال ونســـاء آنئــذ كـــانوا يلعبون ذات الدور في الاقتصاد. فقط في نهاية العصر الحجري الأدنى انقسم العمل حســب الجنس :تخصص الرجال بالصيد وتركوا القطاف للنساء والفتيان.يفترض عالم الآثـــار ب. فمانكو أن الأدوات النياندرتالية تخـــص الجنســين: فكـــانت الشــظايا الحــادة ســكاكين للرجال،وللنساء المكاشط.

يلحظ علماء العراقة تقسيم العمل حسب الجنس والعمر لدى مختلف الشعوب.هكـــذا، في استراليا، النساء و الفتيان يصيدون ويقطفون عطاءات الطبيعة. بينما الرجال يقنصــون. ينتج من هذا فرق معين أكيد بين رجال ونساء القبيلة: يخيمون منعزليــن، لا يعــدون ذات الطعام، يتكلمون لهجات مختلفة. على هذا، يضع مبدأ تقسيم العمـــل علـــى رأس القبيلـــة جماعة من الشيوخ ،كنوز الخبرة والتجربة الاجتماعية.

في بداية العصر الحجري الأعلى، فقدت التعاونية البشرية إذن بنيتها الجماعية البكــو: بحسب تطور القوى المنتجة وتقسيم العمل، يترك القطيع مكانـــه لتنظيـــم أرقـــى: الشـــكل البدائي للمشاعية المبنية على القبيلة.

تشكل النموذج البيولوجي للإنسان المعاصر

يتميز إنسان العصر الحجري الأعلى جسديا عن مثيله النياندرتالي. تثبت بنية عمــوده الفقري المشية بالوضع المنتصب مطلقا. لا يتجاوز حجم دماغه(١٤٠٠ سم٣)أبـــدا ســـعة قحف سلالته، لكن شكله بدل الأجزاء الصدغية، الجبهية والجدارية، أي الأجزاء المتعلقـــة بتطور الكلمة. التي تميز الإنسان كائنا اجتماعيا، كبرت بشكل محسوس. وبالتالي، صـــارت الجمجمة مستطيلة، تحررت الجبهة، لم تعد أقواس الحاجبين كثيفة. وأخيرا، الفك الأســـفل أقل ثقلا وتشكل الذقن، على أثر تطور اللغة المستخدمة.

لقد حاول العلم التاريخي البورجوازي مرارا أن يثبت أن"الإنسان العاقل"كان قد ظهر منذ الزمن السحيق وأنه"كان يعمر الأرض"مع اليناندرتالي في حقبة واحدة.وهكذا كان المؤرخون البورجوازيون يحاولون بتر الإنسان المعاصر عن أسلافه ويقدمون ظهوره كأعجوبة.إذن، ينحدر"الإنسان الحكيم ***L'HOMNE SAGE*** " مباشرة من إنسان يناندرتال في نهاية العصر الحجري الأدنى. معروف اليوم أن أعمدة فقرية عديدة لليناندرتاليين تقدم سمات انتقالية كثيرة. اكتشف أحدها في العام١٩٥٣ العالم الأثري أ.فورموزوف في ستاروسليا،في القرم.

إن عوامل عديدة تعلل تشكل النوع البيولوجي للإنسان الحالي. فكثافة الصيد والنمو المكافيء لنسبة الغذاء اللحمي عززت التطور الجسدي لأسلافنا؛وتعقيد النشاط المنتج طور وحسن الفكر والكلام؛ والكبح المتدرج"للغرائز الحيوانية"وتحديد الروابط الجنسية داخل القطيع ساهم أيضا بارتقاء الكائن البشري. وانتهى التطور بظهور"***LHOMO S APIEMS'*** .

إن عددا من النماذج العرقية تمثل إنسان العصر الحجري الأعلى. ففي أوروبا، ثمة النموذج الأوروبي"*EUROPAIOLE*"المسمى أيضا كرو ــماينون(نسبة إلى كهف في الميدي الفرنسي)؛ وجد منه بقايا على الأرض الروسية. كان إنسان كرو_مانيون كبير القامة، عريض الوجه، ناتيء الذقن. وفي إفريقيا(في جنوب الصحراء وفي أوروبة الجنوبية(إيطاليا)، اكتشفت هياكل عظمية بشرية تشابه كثيرا نموذج العرق الزنجي الحالي. سكن زنوج العصر الحجري الأعلى في وقت ما أوروبا الشرقية، منها الحجري الأعلى لنهر الدون. وفي الصين، في المغارة العليا لشو كو_تيان، وفي سيبيريا، ليس بعيدا عن كراسنويارمك، اكتشفت رفاة إنسان من النموذج المنغولي.

إن مسألة العروق قضية إيديولوجية وسياسية حادة جدا، فقد سعى علماء رجعيون من العالم الرأسمالي إلى النظرية العرقية محاولين تبرير العدوان على الشعوب الأخرى واستعبادها. ونشروا نظرية مغلفة بغلاف العلم حول وجود عروق عليا وأخرى دنيا. وحاول مؤرخون بورجوازيون "تلقيحها" بمفاهيم خاطئة.يدعي البعض أن الأعراق وجدت في كل الأزمنة، وأن أوروبا مسكونة أبدا بإنسان النموذج الراهن. بينما الزنوج وأعراق أخرى "أدنى" انحدرت من أنواع أقل رقيا:ابن جاوا، ابن بكين واليناندرتالي. وهكذا نرى ضرورة وضع النقاط على الحروف.

لقد قرر العلماء التقدميون أن العروق البشرية الثلاثة الكبرى(زنجي، أوروبي، منغولي) لا تتميز عن بعضها إلا بالمظهر الخارجي،الثانوي(لون الجلد، شكل العينين، والشعر، وسواها). لكن حجم القحف، هيكل اليدين، الكفاءات الذهنية والجسدية متشابهة. فلا فوقية أو غلبة لعرق على آخر.

لقد كشف علماء الطبيعة أن الأعراق لا تشكل استمرارا للارتقاء التاريخي. النياندرتاليون المنتشرون في أمصار عديدة من العالم القديم يتشابهون فيما بينهم أكثر من تشابه الأعراق المتشكلة أخيرا في هذه المناطق. وبالتالي، لم تعرف النماذج العرقية إلا منذ العصر الحجري الأعلى.

كيف يعلل تشكل الأعراق؟منذ نهاية العصر الحجري الأول، لمست فوارق في الثقافة المادية في بعض الأقاليم، نابعة من تفرد الشروط الطبيعية وبخاصة المادة المتوفرة لصنع الأدوات. وتنامت هذه الفوارق في العصر الحجري الأعلى، والنظام الاقتصادي التعاوني. يذكر عالم الآثار الروسي، س.زمياتنين تميز ثلاث مناطق كبرى، خلال هذا الزمن، بسمات نوعية في ثقافتها المادية: المناطق الأفرو-أوسطية، الأوروبية غير الجليدية والصينية-السيبيرية. لسبب أو آخر، كانت معزولة في بداية العصر الحجري الأعلى، الأمر الذي حدد الفوارق الثقافية. فقد أثار انعزالها بالضرورة تكدسا تدريجيا لتمايزات خارجية، ثانوية، مرتبطة إلى حد ما بالشروط الطبيعية لهذه المنطقة أو تلك.

هكذا، يتلاءم تشكل النوع البيولوجي للإنسان المعاصر مع ولادة التجمع المبني على القبيلة، الذي بلغ أوجه في الحقب الأثرية التالية.

الفصل الثالث

أوج النظام المشاعي البدائي

الخصائص الأساسية لتجمع الأمومة

كانت قمة المجتمع البدائي، الشكل الاجتماعي الأساسي، هي التجمع المبني على العشيرة أي التعاونية المتحدة بمصالح اقتصادية وروحية، ذات الأصل الواحد وروابط القربى. ولما كان الزواج من الخارج هو القانون الأساسي، فلن يتيسر للعشيرة الوجود إلا بالاتصال بالعشائر الأخرى من ذات القبيلة.

التجمع البدائي العشائري، الذي ولد في ظل النظام الأمومي الجماعي، لن يكون إلا أموميا ، أي مبنيا على وشائج القربى لجهة الأم. هذا يعني، في الزواج الجماعي، أي قيام رابطة أمومة بين عدة نساء لعدد من الرجال، عدم إمكانية قيام رابطة أبوية: الابن يعرف أمه، لكنه لا يعرف أباه، فالأبوان ينتسبان بالضرورة إلى عدة عشائر، والابن جزء من عشيرة الأم دوما.

إن عشيرة الأم هي نقطة الانطلاق في التجمع العشائري وبالتالي، هي حقبة أساسية في ارتقاء المجتمع البشري. في ظل الأمومة، المرأة تساوي الرجل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

يجهد مؤرخون بورجوازيون لنفي هذه الفكرة التي يتبناها انجلز. هكذا، ابتغى عالم العراقة الألماني هـ. شورتز التدليل أن الرجل كان دوما رأس الأسرة،"حامل المبدأ النشط، الخالق"، وليست الأمومة إلا شذوذا. إن هذه المزاعم التي تهدف البرهنة على أبدية دور المرأة تابعا أو مرؤوسا، تناقض الواقع. دحضها الأدب السوفياتي في"الأمومة" بقلم م.كوسفن. وذكر علماء العراقة السوفيات أ.أنسموف، أ.زولاتريف وآخرون شواهد أمومة لدى مختلف شعوب شمال آسيا(ايفانكس، اولتش، وسواها). إن العلم البورجوازي يعتبر ممثلا كلاسيكيا للعلاقات الأبوية.

يبدأ أوج نظام العشائر مع العصر الحجري الوسيط ويستمر إلى العصر الحجري الجديد.

تطور القوى المنتجة في العصر الحجري الوسيط والعصر الحجري الجديد الأدنى

منذ بداية العصر الحجري الأعلى، يتراجع الجليد، وتتغطى مساحات واسعة من أوروبا وآسيا، الصحراوية والسهبية حتى آنئذ، بغابات كثيفة. وتباد القطعان العشبية الضخمة، التي كانت ضحايا صيادي العصر الحجري الأعلى، أو تهاجر نحو الشمال. وفي نهاية العصر الجليدي(حوالي اثني عشر ألف سنة قبل الميلاد)وتوسع الغابات، ألغيت الشروط المألوفة لإثارة الطرائد: اقتصر الإنسان على صيد الطرائد الصغيرة والأنعام غير الجماعية، كالأيل. جعلت هذه الشروط (القاسية) الحياة المستقرة التي اختيرت في أيام صيد الماموت الوفير، مستحيلة. فاضطر الإنسان من جديد العودة إلى الترحال بحثا عن الغذاء.

تطلب هذا الوضع في المقام الأول تحسين وسائل الصيد: لذا انتشر القوس والنشاب منذ العصر الحجري الأعلى عند إنسان كابسا والقبائل القريبة منها، وبخاصة في العصر الحجري الوسيط(من الألف الثاني عشر حتى الألف السادس قبل الميلاد، طاردا الخطاف. فالسهم سلاح أكثر إتقانا من الرمح القصير أو المزراق. وهو عند الرمي أقدر على إصابة الهدف وعند الفشل، يمكن في الحال إطلاق قوس آخر. ويؤمن القوس والنشاب صيد الطيور.

تضم محطات العصر الحجري الأوسط عددا ضخما من الأدوات المصنوعة الصخور البركانية الثلاثية، بشكل شبه منحرف أو بشكل الهلال، بيد خشبية أو قرن، وتساهم بخاصة بترويس السهم. كشف الكثير من محطات العصر الحجري الأوسط في القرم. وعلى نهر الدونتز وغيرها.

في هذه الحقبة أتى الصياد بمؤازر هام هو الكلب. تعود أقدم عظام الكلب الأليف التي عثر عليها، إلى العصر الحجري الأعلى(أفونتوفا غورا، قرب كراسنويارسك)؛وتصادف كثيرا عظام الكلب في محطات العصر الحجري الأوسط، في القرم، كان هذا أول حيوان دجنه الإنسان وآلفه.

ولقد أكره تراجع توفر الصيد الإنسان على البحث عن مصادر غذاء جديدة.وسيكون القطاف أغناها: جمعت الرخويات القابلة للأكل، الثمار، الجوز، عسل النمل البري، وسواها.لدى قبائل الساحل، كان جني الرخويات النشاط الاقتصادي الرئيسي،كما تشهد الأكوام الضخمة من الأصداف المكتشفة في أمكنة عديدة وسميت"فتات المطبخ".

مع بدء العصر الحجري الأدنى(حوالي الألف الخامس قبل الميلاد)يأخذ القنص أهمية كبرى. يقيم الصيادون والقناصون على شواطىء البحار وضفاف الأنهر، في جزر البحيرات، ويبنون غالبا مساكنهم على الأعمدة، قرب الشطآن. في هذه الحقبة أتقن الناس عمل الخشب. بالبلطات والمطارق الضخمة يصنعون الطوافات، القوارب، والمساكن الخشبية. ومن العصر الحجري الأدنى جمعت بقايا بيوت ومراكب في روسيا البيضاء، استونيا، على مجاري الفولغا العليا وسواها.

حسب تراجع الجليديات، يعمر الصيادون والقناصون أقاليم جديدة: في العصر الحجري الوسيط سكنت استراليا وأمريكا، ومضيق بهرينغ؛ وفي تقدمهم نحو الشمال، وصل الناس إلى شواطىء المحيط المتجمد الشمالي قرب مورمانسك.

إن معطيات علم العراقة تخولنا الحديث بصورة أصح عن المجتمع البدائي خلال العصر الحجري الأوسط والعصر الحجري الجديد الأدنى، لأن بعض التجمعات البشرية التي درست حفظت لنا بعض آثاره. لا شك أنهم ساروا دربا طويلة تاريخية صعبة؛ فعلاقاتهم الاجتماعية وأيديولوجيتهم تختلف بوضوح عن الأشكال البدائية للمجتمع والأيديولوجيا التي تكونت في أوج عصر الأمومة. لكنهم في الشروط الطبيعية القاسية، مارسوا تقنية واقتصادا قديما.لا بل عادوا أحيانا إلى أدوات العصر الحجري القديم.

إلى الجماعات الأثنية الأكثر تخلفا ينتسب التسمانيون، الذين أبادهم المستعمرون الانكليزفي ١٨٨٠ ،وسكان أستراليا الأصليون ،والفوجيون،بوشيوجنوب أفريقيا وقبائل أخرى. كانوا يتغذون من الصيد والقطاف،وبعضهم يهتم بالقنص،وكانوا يعيشون جماعات صغيرة وعشائر أتلفتها الشروط القاسية. الأستراليون خير من يمثل هذه الأفخاذ.

كانوا يستخدمون في الصيد الهراوة المقذوفة والنصال الحادة التي طرقها الحداد، ولرمي السهام كانوا يستخدمون أداة خاصة تقوي الضربة وتزيد مداها، كما استعملوا البلطة الحجرية.

عدا الصيد، كانوا يجمعون بيض اللقلق ،الحلزون، الضفادع، والجذور،واستنادا إلى أحد علماء الأعراق،كانوا يعرفون قرابة ثلاثمائة نوع من النباتات القابلة للأكل.

كان تقسيم العمل يخضع لمبدأ العمر والجنس: الرجال يصطادون، والنساء والأبناء، مسلحين بالعصي، يبحثون عن الغذاء في التربة. و كان الصيد والقنص يتمان جماعة.كانت شروط القارة الأسترالية الطبيعية القاسية تكره السكان على الترحال المستمر بحثا عن الماء و الغذاء، ولاتقاء البرد كانوا ينصبون أكواخا أو أخصاصا بسيطة، فضلا عن قدرتهم على بناء نوع من البيوت المتينة بأغصان و قشور الأوكالبتوس[1]. وثيابهم، البسيطة جدا، تنحصر أحيانا بأنواع من النبات الكثيف المربوط عند البطن. كان الأستراليون يعيشون أسرا من أربعين فردا يتنقلون على "أرض غذائية" محددة، محرمة على "الغير". وعلى رأس الأسرة الشيوخ.

العصر الحجري الأعلى

يتميز هذا العصر بتقنية جديدة لعمل الحجر: الصقل، الثقب، والنشر. يتم الصقل على شرائح من البلاط المصنوع من الصلصال المبلل. ويتم الثقب بواسطة حجر صوان أو أنابيب من سيقان الخيزران المقاوم، أو العظام المجوفة، تبرم باليد أولا، ثم بواسطة حبال مقوسة؛ على الخشب المروس يصب الرمل الرطب. أن صقل وثقب الصخر الصلب تطور طويل جدا: فصنع بلطة جيدة، بهذه الطريقة، يدوم عدة سنين.

استمرت غالبية قبائل العصر الحجري الأعلى بالحياة على الصيد، القنص والجمع. ففي شمال القسم الأوربي من الاتحاد السوفياتي، كانوا ينكبون بخاصة على صيد وقنص الطيور المائية.كانت المحطات الحجرية في هذه المنطقة تجاور الماء بشكل عام: كان الناس يسكنون كهوفا محفورة في الأرض أو بيوتا مرفوعة على أوتاد، على ضفاف البحيرات.وكان صيد الطرائد الضخمة(كالأيائل، وسواها)يلعب دورا اقتصاديا هاما.

وكان الاقتصاد المؤسس على الصيد والقنص، في العصر الحجري الأعلى، معروفا في مناطق أخرى من الاتحاد السوفياتي: على شطآن بحر آزوف، حول بحيرة بايكال، في آسيا الصغرى. وعلى شواطيء آمر–داريا، اكتشف العالم السوفياتي س_تولستوف آثار

---

[1] – شجر حراجي يزرع في المناطق الحارة – المترجم.

ثقافة مبنية على الصيد والقنص، سميت حضارة كلتمينار(من نهاية القرن الرابع حتى بداية القرن الثالث الألفي قبل الميلاد).

إن مناطق عديدة من الكرة الأرضية سكنتها قبائل ماتزال ثقافتها تحافظ على خصيصة العصر الحجري الجديد. هكذا، في نهاية القرن السابع عشر، صادف الرحالة القوزاقي ف.أتلاتوف في كاماشاتكا الايتلمن الذين وصف نظامهم وبدقة المستكشف الشهير س.كراشنينكوف. كانت قبائل الايتلمن قد صنعت البلطات الحجرية، انشغلت بالصيد، بالقنص وبالالتقاط. ولقد دجنوا وربوا أعدادا ضخمة من كلاب الجر وعاشوا حياة مستقرة وثابتة في مخيمات محصنة.

توفر لنا مواد علم العراقة فكرة تامة عن الصيد، والقنص والالتقاط لدى القبائل البدائية. كان الصيد يتطلب جهودا شاقة، ومهارة ودما باردا: يبقى الصياد فترة طويلة يترقب ويكمن للطريدة لمسافة واسعة. ابتكر الصيادون العديد من أنواع الشرك: فخ مطمور بالتراب، أي أجهزة يكفي أن تلمس لكي ينطلق النَّبوت إلى الحيوان ويرميه أرضا؛ المقلاع والشباك للطيور والأيائل. كانوا مهرة بالتقرب من الطريدة، مقنعين بجلد الدواب، فيشدونها بتقليد صوتها. ومن أهم نجاحات صيادي الشمال هو ابتكار التزلج الذي يخولهم مطاردة الحيوان عبر حقول الثلج.

ومن أجل صيد السمك، كانوا يقيمون السدود على الأنهار، والشباك والصنارات(المعروفة منذ العصر الحجري الوسيط)؛ ويأسرون السمك بالقفف، والرماح القصيرة والخطاطيف.

ولقد أفضى تحسين القطاف إلى تشكل القبائل التي يسميها ج.ليبس"القاطفون". ومنذ نهاية العصر الحجري الوسيط، سكن الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط شعب ينتسب للحضارة المسماة"ناتوفيين"(الألف الرابع قبل الميلاد)، شعب حصد سنابل الحبوب البرية؛ ولقد تكاثرت هذه القبائل في العصر الحجري الحديث.

يطلعنا علم العراقة بوضوح على أخلاق"القاطفين"الذين حصدوا بانتظام الرز البري والتقطوا ثمار الصنوبر والسنديان. وفي أيام نضج البلوط، كان هنود كالفورنيا يرتحلون جميعا(كل القرية)إلى غابات السنديان، يسقط الرجال الثمار ضربا بالعصي، تحمله النسوة بالسلال، ينزعن قشرته، يجففنه ليصنعن منه مؤونة يحفظ في خصائص مبنية على الشجر

أو الأوتاد، يعد الخبز ومشتقاته من البلوط المسحوق. كان القاطفون يعرفون طرقا عديدة لحفظ الحبوب؛ بخاصة التخمير. لكن القنص يبقى المصدر الأهم للغذاء.

ومن جهة أخرى، يتسم العصر الحجري الأعلى بالزراعة والتدجين البدائيين.

لقد صاغ عالم الجغرافيا والعراقة الألماني ي. هاهن نظرية مثالية في ظهور الزراعة والتدجين، هادفا لتعليل هذا التقدم بالأفكار الدينية. يرى أن التدجين نجم من عبادة الحيوانات، وبدأ بتأهيل الحيوان المقدس. أما الزراعة، فقد ولدت من عبادة الأرض ـ الأم، واشتق الحرث من نحلة تقديس خصوبة التربة.

لكننا لسنا بحاجة للجوء إلى النحل والطوائف لنفهم كيف ترك"الحصاد البري" المكان تدريجيا للزراعة البدائية، ولتنمية النباتات؛ فبالإنتقاء الاصطناعي، التهجين وخلق الشروط المناسبة(تعمير الأرض، الري، الاصلاح والتحسين)، عدل الناس الأنواع شيئا فشيئا وحسنوها. بداية، كان الحراث يحرثون بالعصا المروسة المستخدمة في اللقط؛ ثم ابتكرت المجرفة. وخلق القاطفون أيضا سكين الحصاد وجرن الحبوب.

كانوا يبذرون غالبا الأراضي السبخية، الغنية بالطمي والمغمورة بالفيضان. وكانت الأرض الخصبة، المشربة بالماء، تمونهم بمحاصيل وفيرة. لذا كانوا يعتدون على الغابات. كان العمل هنا قاسيا: يمكن قطع العليق والأغصان بالبلطة الحجرية، لكن قص الأشجار الضخمة مستحيل؛ كانوا يعرونها من قشورها والجذوع تشخص هنا وهنا في الحقول. ثم يحرقون الخشب اليابس ويذرون الرماد كسماد. وبعد أعوام، عند استنفاد التربة، يستصلحون قطعا آخر. كان هذا يسمى زراعة الفرج[1].

أصول التدجين غير واضحة. على كل حال، يفترض أسلوب حياة مستقرة، ظهر بوضوح لدى القاطفين. بداية، كانت الحيوانات المقنوصة تشكل مصدرا هاما للغذاء: تزرب في الأحواش، حيث يتدجن هذا أو ذاك فجأة. ولقد مضى زمن طويل قبل أن ينجح الناس في جعلها تتكاثر عندهم. مع ذلك، لم يكن التدجين أبدا ذا قيمة اقتصادية. فالتدجين الفعلي بدأ مع بدء تأهيل الأنعام، وخلق عروق جديدة، أليفة. فكانت هذه النقلة، الناجمة عن نشاط الإنسان الواعي بطيئة جدا.

---

[1] - بعكس زراعة السهول. حيث لا أشجار.

لقد اطلعت المرأة بالزراعة البدائية المتولدة من عملية القطاف، أما التدجين، المشتق من القنص، كان أساسا مهمة الرجل. وهكذا، حرض تطور هذين المنهلين الاقتصاديين على تقسيم العمل حسب الجنس.

كان التدجين والزراعة في البداية جنينيين. ارتقاؤهما وانتشارهما في الاقتصاد لا يلحظان إلا نادرا في العصر الحجري الحديث: أيا كان الأمر، إنها بداية مرحلة جديدة تاريخية.

يدعي أنصار نظرية"الحلقات الثقافية"، مثلا، الأثني الألماني أو ما نجن، أن الزراعة والتدجين تشكلا في نفس المكان، ومنه انتشرا إلى أقاليم أخرى. بينما بدأ العمل في الأرض وتأهيل الحيوان في بقاع مختلفة في العالم القديم والجديد.

تقع المواطن الأولى للزراعة والتدجين في الشمال الشرقي من أفريقيا، وفي غرب إيران وفي وادي الهندوس. تشهد آثار العصر الحجري الأعلى في وادي النيل، التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد، أن الشعب المقيم في شمال شرق أفريقيا كان يربي الخراف، البقر والخنازير، ويبذر القمح والشعير. لكن الصيد والقنص استمرا طويلا في لعب دور هام.

كانت أقدم آثار الزراعة والتدجين قد اكتشفت في تركمانيا، في طبقات هضبة أنوو(في الألف الرابع قبل الميلاد)، حيث عثر على عظام بقرة، خنزير وخروف، وبقايا قمح وشعير. وعند تخوم الألفين الرابع والثالث، ظهرت الزراعة في شرق القفقاس وفي الأورال: يشهد الكثير من المعاول المصنوعة من العظم والقرون في محطة العصر الحجري الجديد للـ"سهم"(قرب نجني ـ تاغي، في الأورال)أن الزراعة وجدت هناك في زمن بعيد مما قبل التاريخ.

ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كانت بعض قبائل اوروبا تبذر القمح، الشعير، الذرة البيضاء، العدس، الحمص، الجزر، وبدون ريب التفاح. وكانت شعوب الشرق الأدنى تعرف آنئذ كثيرا من النباتات البقلية والمثمرة: البلح، الزيتون، الكرمة، التين، اليقطين، البصل، الثوم، الخس والسمسم.

أول الحيوانات الأليفة المنتشرة في منطقة الغابات هي الخنزير والبقرة؛ ولقد تأخر تدجين الخروف.

وشعوب قديمة من أمريكا والمحيط مارسوا طويلا الحرث البدائي للأرض، قبل أن يقدروا على تربية الحيوان، لقلة الحيوانات القابلة للتأهيل وأسباب أخرى طبيعية غير مناسبة. هكذا، البابوس في غينيا الجديدة الذين درسهم العالم الشهير ميكلوكو ـ ماكلي، كانوا أرقى من الايتلمن، لأنهم زرعوا البقول. ووجدت بذور الزراعة لدى العديد من قبائل الصيادين في البرازيل: أما بعض قبائل الهنود في شمال أمريكا، فقد عرفوا الفاصوليا، الذرة، اليقطين، والتبغ.

أدوات وسلاح قمة نظام العشائر

تطلعنا معطيات علم الآثار والعراقة على بعض نقاط المجتمع البشري في أوج نظام العشائر. إنسان تلك الحقبة أرقى بوضوح من أسلافه المتحجرين، الذين اقتصرت أداتهم على سلاح صواني بدون تسوية. لكن تجربة وخبرة الأجيال أفضت إلى خلق أدوات متنوعة ومعقدة.

إن أدوات وأسلحة كانت قد صنعت من صخور مختلفة، بخاصة من الصوان، العظم القرون، الخشب، القواقع، الأوتار والجلد وسواها. ففي الصيد، تستخدم كل الوسائل. كان للمزراق والرمح رؤوس حجرية وعظمية، مصنوعة بعناية ومهارة؛ ولزيادة قوة الضربة ومداها، كانوا يستخدمون شطيرة قذف تشبه الشطيرة الاسترالية. كان الابتكار الأهم هو البوميران، المعروف لدى الاستراليين وبعض شعوب الهنود وأمريكا الشمالية: إنه قطعة خشب مقوسة تطير وهي تدور وتضرب الطريدة فجأة؛ ومنها ما يعود إلى قدمي الصياد إذا أخطأت الضربة.

القوس والنشاب هما السلاح الأكثر انتشارا في ذلك العصر. ثمة أقواس خشبية بسيطة ذات قبضة، وأخرى مؤلفة من نصل خشبي، من قرن وعظم. أبعادها متباينة جدا، تبلغ أحيانا قامة الإنسان. يصنع الحبل من القنب أو الألياف النباتية؛ والسهام مصنوعة عادة من الخشب أو الخيزران، مع ترويسة حجرية أو عظمية وريشة تنظم التحليق. كانت أساليب القذف متباينة جدا. للتسديد على طير، مثلا. ينام بعض الصيادين على ظهورهم، القوس مضغوط بين الساقين، ويمدون الحبل باليدين. كثير من القبائل يسمم أسهمه، ويستعمل هنود شمال أمريكا أسهما مشتعلة.

لم يكن ثمة فرق كبير بين أسلحة الصيد والمعركة؛ كانت فؤوس الهنود الحمر

مستخدمة كبلطات بيتية. وكان السلاح الدفاعي يلعب مع ذلك دورا نوعيا قتاليـا: كـالدرع ذي الأشكال والأبعاد المتباينة جدا، المصنوع من الخشب، والأكمام المجدولة مـن الجلـد، وسعف النخيل، والخيزران، وسواها.

لم تكن الأدوات الزراعية أقل تنوعا. كانت التربة تنكش بمنكاش يقتصر على عصـا بسيطة معقدة ومصنوع في حالات أخرى من نصل حجري أو من قرن الأيل ومـن ذراع خشبي. وللحصاد، تؤخذ السكاكين والمناجل الحجرية أو الغضارية، تركب عليها صفيحـة قاطعة، يضرب القمح بالعصي، ولطحن الحبوب يستخدمون الأجران، حجارة واسعة عاليـة الحواف أحيانا، وأيدي الأجران البيضوية.

كان إنسان العصر الحجري الحديث يصنع أدوات نوعية، صقيلـة دومـا أو تكـاد: أزاميل، بلطات، سكاكين، صحون وغيرها. تتكيف البلطة الصقيلة مع ذراع مكوع يضغـط نوعا من الحجر؛ ثم يثبت بالأحزمة والقطران. وتركب البلطة المثقوبة على ذراع مسـتقيم. لقد عزز ظهور هذه الأدوات التي مكنت الإنسان من قطع الأشجار الضخمة، عزز ارتقـاء المسكن وصقل فن العمل بالخشب.

ولصناعة النسيج، ابتكر مغزل جهز طرفه الأدنى بمعـزل حجـري أو غضـاري؛ ظهرت مهنة النسيج، كما تثبت لقى العصر الحجري الجديد في وادي النيل؛ كانت الألبسـة تخاط بإبر عظمية.

في أثناء الهجرات، كان الناس يحملون متاعهم؛ كانت وسيلة النقـل الأبسـط عربـة تجرها الكلاب، تحمل الخيمة وأوعية المنزل الصلبة. ومنذ الألف الرابـع قبـل الميـلاد، استعمل الحمار كدابة، ولركوب متن الأنهار والبحيرات، صنعت، منذ العصـر الحجـري الوسيط، فلوكات من جذوع الأشجار المحفورة أو من الخشب والقشور.

المسكن، الأثاث، الألبسة

بقيت المغارة المحفورة في الأرض، المستخدمة في العصر الحجري القديم، الشـكل الرئيسي للسكن في الإقليم المعتدل في العصر الحجري الحديث.

فضلا عن هذا، كانت الخيمة القائمة على أعمدة مغطاة بالجلود، بلحاء الشجر، وفـي المناطق الاستوائية، بسعف النخيل. ثم ظهر البيـت المسـتطيل أو البيضـوي، بجـدران وسقف. كان سكان المناطق المعتدلة في أوربا يبنون بيوتهم بعامـة بـالعصي الضخمـة؛

أحيانا كانت الجدران من حصر الصفصاف المطلية بمزيج من الغضار والروث. وكانوا يغطون البيوت بالقش، بالخيزران، بلحاء الشجر وبتلع الأعشاب؛ وكان السقف مائلا تسهيلا لانسياب ماء المطر. وفي شبه جزيرة البلقان تبنى البيوت بالآجر؛ وفي جزيرة كريت، من الحجارة الكلسية؛ هنا، كان السطح منبسطا، مخصص لجمع ماء المطر وليس لتسريبه. وكانت أرض البيت مغطاة بقشر السندر أو حصير القصب.

كانوا يرفعون البيوت على أعمدة خشبية، غالبا في المناطق المستنقعية، وعلى البحيرات، وفي الأمكنة الجافة، ليتقوا الوحوش والعداء. تثبت على الأعمدة شرائح خشبية وفوقها يقوم العرزال. كشف التنقيب في سويسرا عن آثار هذه الأكواخ، التي صنعها السكان بأدوات العصر الحجري الحديث، العائشين على الزراعة وتربية المواشي والطيور.

لم تكن المساكن الأولى مجهزة بأبواب أو نوافذ: حصيرة بسيطة تسد المدخل. أما في أثناء العصر الحجري الحديث، جهزت قبائل الشرق _ الأدنى بيوتها بأبواب تدور في أجران حجرية. وإن كان الموقد في الداخل، يفتحون ثغرة لتهريب الدخان. يستضيئون بفتيلة تسبح في كوب مليء بالشحم أو المشاعل.

ينام الناس على الأرض، على طبقة من الأغصان، من الجلد والحصر، أو في أراجيح. والوسادة تكأة خشبية. لم تعرف مناطق الشمال السرير إلا في العصر الحجري الحديث. وكانوا يقعدون على الحصر أو الجلود؛ وتعود المقاعد إلى زمن أبعد. كانت آنية المائدة من الجلد، من الخشب، من الأغصان المحفورة أو من القشور؛ وجذع الخيزران المحفور والكرنيب يستخدم كوعاء أو آنية. لكن ابتكار صناعة الخزف أو الفخار مكن الناس من طهي الغذاء بشكل منهاجي، الأمر الذي أغنى إلى مدى بعيد انتقاء الأغذية وجعلها أكثر قابلية للهضم. وأقدم طريقة لصناعة الفخار تكمن في الحصول على خليط من الفخار والرمل، لصنع مكاو نابضية تنضد بشكل حلقي أو حلزوني. وهذه الأواني تشوى بالنار. وكان عندهم قدور مدببة أو دائرية.

كانت النساء تمارس هذا الفن: ولدى بعض الشعوب، كان محرما على الرجال الاقتراب من أمكنة صناعة الأواني حيث تزين النسوة أوعيتهم بصمت مطلق. فأفضت صناعة الفخار إذن إلى تقسيم العمل حسب الجنس.

يثبت ظهور الأوعية الغضارية أسلوب حياة أكثر استقرارا، إذ يستحيل نقل هذه الأوعية الثقيلة وسريعة العطب مرارا متتالية.

وتستخدم الألبسة لوقاية الجسم من البرد والهواطل(المطر والثلج وسواه). أشكالها الأقدم هي الصدار، القبعة، المريلة والتنورة، لكن هذا لم يكن متوفرا لدى كل الشعوب. مثلا، يقتصر لباس الغوجيين على مريلة ومربع جلدي مرمي على الكتفين. وبعد هذا _ وفي بعض الأمكنة فقط _ ظهرت الأكمام والسراويل. السترة والسروال هي أيضا من أصل أحدث. والمادة الأولية المتنوعة لصنع الثوب، ترتبط بشروط طبيعية: الجلد، أوراق الشجر ولحاؤه، والأسل؛ وبعد ابتكار الغزل والنسيج، صنعوا ثيابا من الصوف وأنسجة من ألياف النبات: كالقراص، الكتان، القنب والقطن.

استخدام الحذاء، الذي تخلف عن اللباس، تحدد في بعض الأمصار، وقد صنع من الجلد والفرو، وأحيانا من الخشب والتيل.

تنظيم الإنتاج

في أوج النظام العشائري، كان الشكل الأساسي للإنتاج هو التعاون البسيط، العمل المشترك من كل عناصر العشيرة. غارات الصيد، والصيد بالشبك، والقطاف المنظم _ ما كان يمكن تحقيق كل هذه الأشكال من العمل إلا تعاونيا.

لم يلغ تطور الزراعة البدائية الصفة التعاونية للعمل، بل رسخه: لأن صعوبات حرث التربة بأدوات بدائية صلبة (بلطة من حجر لإصلاح الأرض. منكاش من خشب أو عصبي بسيطة لتسوية التربة وتمهيدها) كانت تفرض وحدة الجهود.

عاش العمل التعاوني في الأرض مع كل الشعوب التي مارست الزراعة؛ بابوغينيا _ الجديدة بدأوا بتسوية التربة بالعصى المدببة؛ وخلف صفوف الرجال المكلفين بهذا العمل، تأتي النساء المسلحات بمعزقة بدائية، ثم الأبناء الذين يفتتون الكدر بأيديهم ويرفعون الحصى. وكل العمل اللاحق(البذر، العزق، التسبيج، الحماية من الطفيليات، الطيور والقواضم، والجني) تقع على كاهل النسوة فالعمل إذن مشترك وتعاوني.

العمل الجماعي يفترض الملكية الجماعية. ترى العشيرة حقل صيدها ملكية مشتركة وتصد بحزم دخول الغرباء والطفيليين إليه. للعشيرة(أو جزء منها) المساكن وأحيانا حتى بعض الأدوات(المراكب الكبيرة، وشباك الصيد)؛ بداية، كانت الدواب ملكية جماعية، هي

الأخرى. أخيرا، تثبت المخلفات الأثنية أن بعض التجمعات الشعبية(مثلا، النيفيك والايفيك) كانوا يعتبرون النار ملكية جماعية و لا يتركونها إلا للأقرباء.

بينما كانت غالبية الأدوات ملكية شخصية. القوس والسهام، المناكيش، البلطات، الخ. تخص من استعملها وصنعها. وكذلك الحلي ووسائل الزينة. وانتقل هذا بسرعة إلى المواشي. غير أن الملكية الشخصية لوسائل العمل، كالأنعام والحلي كانت خاضعة للملكية الجماعية لوسيلة الإنتاج الأساسية: الأرض، وانتقال الأشياء الشخصية لم يتم بإرادة صاحبها: التركة تبقى بشكل عام في العشيرة؛ وعلى من يذبح خنزيره أن يوزع اللحم للأهل؛ ليس لأحد أن يكتنز، لأن الرأي العام يريد أن تقسم الفضلة بين أعضاء العشيرة.

التدبير المنزلي كان أيضا ذا طبيعة مشتركة. كانوا يسكنون في بيوت تتسع حتى لمئات الناس. الشكل الأولي للمسكن الضخم تمثله مساكن حضارة كلتمنار في المجرى الأسفل لنهر آمو _ داريا، التي أعاد تشكيلها س. تولستوف؛ كان بيتا واسعا بمخطط دائري، في وسطه تتقد النار باستمرار. تبني الأسر فيها مطبخها قرب مواقد مقامة حوله وهنا يبيتون.

في تلك الحقبة، كانت قبائل العصر الحجري الحديث في أوروبا الوسطى، الذين يعملون في الأرض بالمنكاش في المناطق الغابية للدانوب والرين، تبني بيوتا واسعة(حتى ٣٥م طولا) بجدران من حصر الصفصاف قامت على أعمدة. وتدريجيا، في أثناء الألف الثالث قبل الميلاد، تقلصت أبعاد المسكن، وفي نهاية العصر الحجري الحديث عم الكوخ الصغير المصنوع من الأغصان.

يطلعنا علم العراقة على تربية وأخلاق سكان"البيوت الضخمة". يقص مورغن أن الإروكو كانوا يعيشون جماعات كبيرة العدد في بيوت شاسعة مصنوعة بالأعمدة، مخصصة لخمس حتى عشرين أسرة. لكل أسرة حيز يشرف على الرواق العام حيث أقيمت المواقد. الجماعة الكبرى تدير بيتها شراكة: كل ثمار الصيد والقنص والزراعة تحت تصرف التعاونية. لكنه لاحظ لدى الإروكوا بداية فردانية الإنتاج، فالصيد بالقوس خول الإنسان أن يجني غذاءه بشخصه وحده. كانت ثقافة عهد الفخار فردية جزئيا، وما تزال توزع الأنصبة بين الأسر. إنما ما تزال القبيلة تحافظ على حقوقها في ملكية الأرض. لكل شاب هندي يتزوج، قطعة من الأرض لا يجوز له التصرف بها، مقتطعة من الأرض المشتركة.

هكذا إذن، في أوج نظام العشير، كان يهيمن الإنتاج والإدارة التعاونيان؛ لكـــن مـــع تطور القوى المنتجة يتفرد الإنتاج، الأمر الذي أفضى إلى انعزال الأسر. تشهد على هـــذا الأكواخ الصغيرة لأبناء الدانوب في العصر الحجري الأعلى. ومع ذلـــك، بقيـــت وســـائل الإنتاج الأساسية بيد العشير.

اقتسام العمل حسب الجنس، الذي يعود إلى العصر الحجري الأدنـــى، تدعـــم أكـــثر فأكثر مع تطور أشكال الاقتصاد الجديدة. فالصيد والتدجين المشـــتقان منـــه همـــا مهمـــة الرجل، بينما تضطلع المرأة بالقطاف والجمع، بحرث التربة وتتفـــرغ للشـــؤون الإداريـــة والتدبيرية، بما فيها صنع الفخار. ينجم من هذا روابط ذكرية وأنثوية متميزة، لها محالّـــها وأعيادها وطقوسها الخاصة.

العشير الأمومي

كانت الوحدة الأساسية للمجتمع هي العشير الأمومي. أعطت الزراعة والفخار أهميـــة واسعة للدور الاقتصادي للمرأة، وفي أوج نظام العشير، شغلت المرأة أحياناً موقعاً أوســـع من موقع الرجل.

وكما دل مورغان، كانت عادات الإروكوا تمثل ســـمات الأمومـــة بوضـــوح؛ فبعـــد الزواج، ينتقل الزوج إلى عشير زوجته ويقيم في"بيتها" الواسع. وإن لـــم يســـتطع تـــأمين غذائه يمكن طرده، حتى ولو كان والد أسرة عديدة الأبناء، إلا إذا ناصرته خالـــة أو جـــد متنفذ. وأبناء الإروكوا ينتسبون إلى عشير الأم.

في أوج النظام العشيري، تدعمت الأسرة، دون أن تصير مع ذلك الخلية القائدة فـــي المجتمع. وبسبب الزواج الخارجي، كان الأزواج ينتسبون إلى عشائر عديدة، وبعد تفكـــك العائلة كانت أرزاقها توزع بين التعاونيتين. لم يكن للأسرة بشكل عام حقل مغـــذي: تبقـــى الأرزاق منفصلة؛ كان الزوج غالباً مرتبطاً بمصالح اقتصادية بأعضاء عشـــيره ويشـــترك بنشاطهم الإنتاجي. تؤخذ الأسرة إذن من اتحاد زواجي غير مستقر، مؤقت؛ يعقد الـــزواج دون صيغ وطقوس متميزة، وينفسخ بسهولة بطلب أحد الزوجين. وكـــانت تســـتمر بقايـــا الزواج الجماعي بشكل زنا مشروع، زواج السلف(إلزام الأرملة علـــى الـــزواج مـــن أخ المتوفى) أو زواج من الأخت الصغرى (حق ممنوع للرجل أن يتزوج شقيقة زوجته، بعـــد موتها).

كان أبناء العشير يقطنون سوية أو يشكلون عدة بيوت أو أسر، تسمى"اسر كبيرة أمومية: وكان لهم حقوق محدودة. للرجل والمرأة حق الانتخاب، وحسب الحاجة، يخلعون رئيسهم والقائد العسكري المسمى أو المعين لمدة الصراع أو الخصام. كان أفراد العشير مستعدون للتآزر والدفاع المتبادل. وللعشير أعياده الدينية ومقابره.

وثمة تنظيم اجتماعي أوسع هو الأخوة المؤلف من عدة عشائر (في الأصل، عدد زوجي). كان عشيرا كبر ثم تفتت. كان تضامنه يتبدى بمجلس عام وأعياد مشتركة؛ وفي أثناء النزاعات المسلحة، تصير الأخوية وحدة مقاتلة. والوحدة التي تلت المجتمع البدائي كانت القبيلة التي تملك أرضا خاصا بها تجاور منطقة محايدة، عادة غابية، لها لغتها وعبادتها. ومجلس القبيلة، الذي يضم قادة العشائر والقادة العسكريين، يعلن الحرب ويعقد السلم، لكن القرارات تؤخذ بالضرورة بالإجماع. ورئيس القبيلة، وهو عادة رئيس العشير، لم يكن ذا سلطة واسعة.

نفوذ الرئيس يتعلق بمناقبه الشخصية: مهارة في الصيد، يقظة في المعركة، الحكمة، الاريحية، وسواها. وسلطته غير وراثية، بل مبنية على رضى الجمهور وليس على القوة البدنية: الرئيس معرض دوما للإزاحة. ليس أغنى من الآخرين. يقتسم مع ذويه حصته من الصيد والمنتوج الزراعي. وهذا يساهم بتوطيد مقامه.

يعترف للمرأة باحترام واسع، إنها التي تضطلع بإدارة المنزل وقد تكون المنظم الفعلي للنشاط الإنتاجي للعائلة الأمومية الكبرى؛ والرئيس نفسه يشركها في شؤون العشير. وتنظيم العشير ديموقراطي كليا: لا ميزة لأحد والكل أحرار. الإنسان البدائي لا يميز بين واجباته وحقوقه: اشتراكه بالإنتاج، الاجتماعات، وبالمعارك الحربية حق وواجب. رغم أن هذا النشاط تطوعي، رفضه يعرض الرافض عمليا للإبعاد الاجتماعي. لكننا نخطئ إن نظرنا إلى هذا العهد نظرة مثالية. فالافتقار إلى القوى المنتجة، والاكراه الشخصي في الصراع الضاري مع الطبيعة، تترجم بعادات قاسية، فظة، بخاصة وأد حديثي الولادة المشوهين جسدا وذهنا.

العشير والقبيلة مؤسستان مغلقتان. وبينما تسوى الخلافات الداخلية بمشاركة كل عناصر العشير، تستوجب الأضرار التي يسببها عشير آخر الثأر أو الانتقام: الكل يدافع عن المتضرر. والقبيلة مغلقة هي الأخرى: كل شيء خارجي، هو خارج القانون. في

الحديث عن الحرب في المجتمع البدائي، يلذ للكتاب البرجوازيين الرجعيين أن يذكروا "وحشية" قصص سلخ الرأس، وصيادي البشر، وأكل لحم البشر، والتعذيب وسواها. رغم ندرة هذه الواقعات أصلا، فهي تكثر فقط بتأثير المستعمرين الأوربيين، المستفيدين من إثارة القبائل ضد بعضها. وليس صدفة أن يتحدث مكلوكو- ماكلي عن مزاج البابو المسالم.

وإن بالغ العلماء البرجوازيون بدور الحروب في المجتمع البدائي، فذلك ليثبتوا أنها قائمة أبدا وليبرروا ايدلوجية الفتن غير الإنسانية. في الحق، ليست الحرب ظاهرة طبيعية. فالأستراليون ، مثلا، لا يقتتلون تقريبا أبدا وتدور معاركهم تحت نظر شيوخهم الذين يوقفونها ما أن تذهب الأمور بعيدا . ونادرا ما كانت هذه "الحروب" دموية. فقط في نهاية العصر، يوم وصل نظام العشير إلى أوجه، كثرت النزاعات المسلحة و توحشت. فمع توطد أسلوب الحياة المستقر و تكديس المؤن، كانت القبيلة الحبيسة ضمن تخوم محددة ،

تبدو أكثر عدائية تجاه الجوار. و تجر الحروب غالبا الدمار و المذابح. و ليس بدون سبب أن تحاط القرى من الآن فصاعدا بالأسوار أو تبنى في أمكنة حصينة صعبة المنال.

أحيانا، يلتحق المنهزمون بعشير من القبيلة المنتصرة . وفي أثناء الاحتفال، يأخذ أحد الأسرى ثدي امرأة عجوز، رمزا لتكوين القرابة عن طريق الأم.

و لقد ظهر أخيرا أن ضيق نظام العشير، في الواقع، و تقاليده تخنق مصالح الفرد، تحد حريته، وروح المبادرة لديه. فكان لا بد من تفكك النظام المشاعي البدائي.

الثقافة الروحية في أوج نظام العشير

لقد أكد تنامي قوى النتاج تطور الحياة الروحية للبشرية. فتجويد وسائل الصيد والقنص، وتدجين المواشي، وثقافة المزروعات، وتنفيذ ثقب، نشر وصقل الحجر، وبناء البيوت، وصنع الفخار، والنسيج -كل هذا وسع شيئا فشيئا تجربة وخبرة الإنسان التقنية وأغنى روحه وفكره.

يتبدى تقدم الفكر الإنساني بخاصة بتكوين الآراء المجردة، التي ساهمت بتعميق مبادرة فن الحساب. ففي فجر التاريخ، لم يكن الإنسان يحسب أو يعد ١،٢،٣ على الأكثر. لكن الذاكرة الأريبة طورت هذه الطاقة الحسابية إلى مدى جيد: كانوا يتذكرون كل خروف من القطيع، كل شجرة مثمرة، لكنهم لم يتوصلوا بعد لفهم تجريدي لعدد الأشجار أو

الخراف. ولم يتطور الحساب إلا في مرحلة متقدمة من ارتقاء الفكر.

الخبرة المكتسبة في مجال الإنتاج أثرت مباشرة على اللغة. تكشف أعمال مؤسسي الماركسية-اللينينية جوهر وخصيصة اللغة كظاهرة اجتماعية وتجلو إشكالية تطورها المعقد. ولما كانت اللغة مرتبطة صحيحا بنشاط وطاقة الإنسان الإنتاجية، فقد تأثرت مباشرة بالتبدلات التي عرفها الإنتاج. بداية، تمتاز اللغة بطبيعتها المحددة، بسبب التطور البطيء للفكر المجرد. يشير علماء العراقة أن لغات غالبية الشعوب المتخلفة المعاصرة فقيرة بالمفهومات المجردة. إنها تخلو من كلمات مثل"سمكة"،"طير"،"حيوان"، بينما تكثر فيها التعابير المتنوعة التي تدل على أنواع (ونماذج) الأشجار، الحيوانات، الطيور وسواها. وتظهر هذه السمة الوصفية أيضا في بنيتها القواعدية، مثلا، في وجود المثنى والمثلث، في مضاعفة الأنواع (الصفوف) والأغراض، وغيرها. ونمو مكتسبات العمل يوسع المفردات ويجود البنية القواعدية. وارتقاء الفكر يولد باستمرار تعابير مجردة. والخبرة التي ادخرتها الأجيال مكنت الإنسان البدائي من التلاؤم في الوسط المحيط: يعرف الصياد، استنادا إلى البصمات أو الإمارات، مع أي حيوان يتعامل، ذكرا أم أنثى، شابا مغفلا أو شيخا مدربا. وقد خبر كل عادات الطريدة، ينصب الصياد بمهارة الأشراك في الأمكنة الملائمة. ومشية الحيوانات وهيئته تنبئه بمجيء الربيع. إن روابط عديدة وعلاقات منطقية، تكون خبرة البشرية البدائية.

هكذا تطورت معارف الإنسان الإيجابية، وأفكاره حول نفسه وحول العالم المحيط. والمسير الطويل في السهوب والأحراج ألزمه أن يسترشد بالنجوم، وبالتالي استنادا إلى"الخريطة الكوكبية"، وضع النجوم في السماء. وتعلم بسرعة أن يرسم على الرمل أو القشور خرائط جغرافية بدائية.

عودت الزراعة الإنسان على الفصول التي يجب معرفتها لتنفذ في الوقت المعين الأعمال، والبذور، مثلا، وأفضت مراقبة الفصول إلى خلق تقويم بدائي، شهوره(القمرية بعامة) غير متساوية.

لعلاج الأمراض لجأوا إلى الأمور البسيطة، كالتدليك وسواه. لكن هذا الطب البدائي، التجريبي تماما، غير مؤسس بعد على معرفة الجسم البشري.

لم يتوصل الإنسان إلى تركيب الخبرة التي جمعها جيلا بعد جيل إلا ببطء شديد: فقد عرف تحضير سم زعاف دون تعليل فاعليته.

وفي أيام نظام العشير عرف أول أشكال الكتابة:*LA PICTOGRAPHIE*(الكتابة بالرسم).

لرسم حصان مغطى بالبقع يتصور الإنسان البدائي موتان الفحم. وثمة طرق أخرى للنقش أو الحفر: صفائح، أوتار أو حبال معقدة. في هذه الحالة، لكل شارة معناها التوافقي. وظهور أول أشكال الكتابة تشهد على تطور كبير في الفكر المجرد.

تنتقل الخبرة في مجال الإنتاج وبذور المعارف العلمية في العشير أو القبيلة إلى الجيل الجديد بواسطة التربية. وفي ظل نظام العشير، التربية نفسها ذات طبيعة عامة: يوضع الذكور والإناث تحت رقابة كبارهم. يستقل الأبناء بسرعة ويساهمون وهم صغار بنشاط العشير الإنتاجي، بخاصة الصيد، حيث يبدون الصبر والمواظبة والمهارة الغريبة. يستطيع صغار الكنغول البقاء لساعات طويلة في الكمين دون حركة، والحبوب في يدهم المبسوطة: وما أن يقع طير على لقينه، حتى يلتقط بحركة رشيقة.

مختلف مكاسب العمل، التدريب الجسدي والصحي، بذور المعارف العلمية وتقاليد العشير _ هي العناصر المكونة للتربية في المجتمع البدائي. وعند حلول المراهقة، يخضع الصبية وأحيانا البنات لسلسلة من الاختبارات تسمى"المبادرة". تتم في أيام الأعياد وفي جو رسمي. إنها فريضة موروثة في أثناء أدائها يلتزم الصبية أن يثبتوا ليس فقط أنهم يعرفون تقاليد العشير والقبيلة، بل أيضا أنهم يتحملون جيدا مصاعبها: يصفعون، تكسر أسنانهم، تشرط أجسامهم بعمق، ويكرهون أيضا على التمدد فوق محطبة مغطاة بالأغصان الخضراء، ويستمرون رغم الحرارة وأذى الدخان، حتى يأمر الشيوخ بإنهاء العذاب.

فقط، ذاك الذي عبر المحنة أو المبادهة يصير عضوا كامل العضوية في العشير، بينما يحال الضعفاء إلى الامتهان العام.

في المجتمع البدائي، ظهرت بدايات الفنون التشكيلية. وفن العصر الحجري الأعلى تعبيري بحت. ففي عمق الكهوف المظلمة، على ضوء الجمر الشاحب، وضع الفنانون رسوما ملونة: أحصنة غضوب، بيزون تخب أو تنام نوما هادئا، ومناظر صيد واسعة. وفي الحقبة ذاتها، نقشت بالعاج أو بالقرن تماثيل لأيائل منطلقة بأقصى سرعتها أو كائنات بشرية(بخاصة نساء) يعتمرن قبعات غريبة ويتدلى من كفلهن حزام أشبه بالذيل. وبدءا، من العصر الحجري الأوسط، فقدت الفنون في الغالب واقعيتها: صارت الرسوم تشابكا

من الشارات التوافقية التي لا تشبه أحيانا الكائن الذي تمثله.

الإنسان البدائي يهوى الزينة والمظهر: يشم وجهه أو يديه، يحمل الأساور والأطـواق لا بل يصقل أسنانه، يخضب جلده ويصبغ شعره. يزين بعشق مسـكنه، أوانـي المـنزل وبعض أثاثه. وخزفه بعامة مفتول أو مضلع أو محفور. الأعمدة والأواني الخشبية منقوشـة وملونة. للوشم والنقش على الخشب معنى رمزي: الدوائـر والزخـارف عليـه تلخـص أساطير وخرافات عائلية وملاحم.

الموسيقى البدائية غير معروفة طبعاً إلا من المعطيات الأثنية. الوسـيلة الموسـيقية الأقدم هي القوس: أحد أطرافه يدخل الفم المستخدم كصندوق رنين، بينما يؤخـذ الصـوت من الوتر بضربه بقضيب صغير. ثم أعطي القوس صندوق رنين مصنوع، الأمـر الـذي أفضى إلى ابتكار أدوات وترية. كما حاز الإنسان البدائي أدوات وتريـة ينقرهـا الـهواء والصدم. كانت الطبلة-الصغيرة (الطنطن) أكثرها انتشاراً. وكان الرقص المديـد يرافـق الموسيقى البدائية في أغلب الأحيان. وكثيراً ما يستبدل هذا الرقص برقص إيمائي.

والتقليد الشفهي(الفولكلور)يتميز بتنوع واسع.لكل القبائل أسـاطيرها التـي تسـتدعي أصل العالم والناس الأولين، وماضي القبيلة، نضال الإنسان ضد الطبيعة وانتصاراته علـى الوحوش والعمالقة. أساطير مليئة عادة بالتفاؤل والثقة بانتصـار الإنسـان علـى القـوى المعادية.

الدين البدائي

عدا الآراء الصحيحة حول العالم، كان لدى الإنسـان مفـاهيم خاطئـة، خياليـة، أو معتقدات دينية. لإيضاح أصل الدين، نشر ي.ب.تايلور، العالم الإنكليزي للقـرن التاسـع عشر، نظرية مثالية تقول إن المعتقدات الدينية صدرت من تأملات الإنسان البدائي. وبدفـع التفكير بالأحلام والموت، خلص الإنسان إلى أنه له مثيل، روح قادرة على ترك الجسـم، ثم بسط هذه الفكرة على الطبيعة، ووهب أرواحاً أو نفوساً للحيوانات، للنباتات وللحجـارة. إنما، في الحق، لا ينبع الدين من تأملات لغو، لا نفع فيها، بل من نشاط الإنسان المنتـج: نتيجة تطور بسيط، غير كاف في الخبرة والفكر البشري، تتكون في الأغلـب آراء خطـأ حول موقفه من الطبيعة.

في ظل نظام العشير، كان الإنسان يزعم أنه جدير بممارسة سلطة فـوق _ طبيعيـة

على الطبيعة، والحيوانات والنباتات، بواسطة حركات سحرية، تولد مع المعتقدات الدينية. وثمة إيماءات تقلد الصيد حفظت حتى نهاية القرن التاسع عشر لدى عدد كبير من التجمعات الشعبية، بما فيها تجمعات شمال روسيا. الاتلمن، مثلا، يعدون قبل صيد الحوت مجسما له، مصنوعا من الأعشاب، يوضع على ظهر امرأة. وهذه تزحف حول الموقد، وينقض الأبناء عليها ويحيلون المجسم إلى نثار. الأمر الذي يؤمن نجاح المشروع. وينظم الهنود الحمر قبل صيد البيزون رقصات تدوم أياما مستمرة، يجب أن تؤثر على الحيوانات، وتقنعها بالاستسلام للقتل. ولمشاهد الصيد المرسومة في مغائر العصر الحجري الأعلى مغزى سحري.

في الشعائر الأقدم، كثيرا ما تذكر أنواع الطرائد. وتدريجيا، ومع تطور هذه العبادة، يميز من بين جملة هذه الحيوانات(أو النباتات بالنسبة لمن ينكب على القطاف)نوع معين يدعى أنه عضو في العشير المقصود. هو الطوطم، الذي يتصور العشير أنه انحدر منه. هكذا كانت الطوطمية، وهي عبادة الحيوان المصطاد، ثم ترتبط بتطور الإنتاج بشكل مغلوط.

نحن نتصور أفكار الاستراليين التي تتصور أن كل جمع اقتصادي قريب هذا الحيوان أو النبات أو ذاك(أمو[1]، كنغر[2]، وسواها). والشعيرة الأساسية لهذه العبادة تكمن في أن أحد الأقدمين يداعب بطن الناس بحجر خاص، مرددا:"ليكن غذاؤكم وفيرا" يعني هذا، بداية، تأمين نجاح النشاط المنتج عن طريق السحر.

لكن المعتقدات الطوطمية تحوي التناقض الذي اشترط تطورها اللاحق: فالطوطم(المعبود)هو بنفس الوقت غنيمة الصياد والجد العام للعشير. إذن، الصيد للطوطم هو صيد لأحد الأهل، وقتل الحيوان الموقر يجب أن يعرض سمعة الصياد للثلم أو يعرضه هو للخطر، بل يدينه. تتبدى هذه الثنائية بخاصة في عبادة الدب، التي يمارسها الايفانك وكثير من شعوب سيبيريا الأخرى العائشة على الصيد، التي تندم وتطلب عفو وغفران الحيوان الذي اصطادته.

---

[1] – طائر من فصيلة النعاميات.

[2] – جنس حيوانات أسترالية من فصيلة الجرابيات، ذو أيد قصيرة وأرجل طويلة.

ثمة عنصر رئيسي آخر في العبادة في ظل نظام العشير هو فكـرة"الإلهـة"، المـرأة الخبيرة في العرافة والسحر والرقي. يكمن هذا في أساس عشير الأمومـة، حيـث تجسـد المرأة اتحاد التعاونية. بينما ينتسب الرجال إلى فخذ أو عشير آخر أو حتى إلى عدد مـن الأفخاذ الغريبة. والاعتقاد بقيم المرأة السحرية يعود إلى العصر الحجري الأعلـى، كمـا تثبت النصب النسوية لتلك الحقبة، المكتشفة في أوروبا وجنوب سيبيريا. وبترمـيز سـحر النساء، تشهد هذه النصب على العبادة المنحدرة من الجدة، مؤسسة العشيرة.

في ذات العصر تتشكل عبادة"الروح"أو"النفس"التي تحيي الطبيعة. وهذا مـا يسـمى الإيحائية[1]. فالنفس، حسب المفاهيم البدائية، كحيوان مستنفر، يسكن كل الأشياء.

لدى إنسان العصر الحجري الأعلى فكرة مشوشة جـدا حـول المـوت: بدايـة، لا يفصلون العالم الواقع عن"الغيبي". والخوف من الموتى أتاهم شيئا فشيئا، حسـب الشـعائر التي تهدف تلطيف الأمر، وحماية الأحياء من الأموات.

في أثناء تطور الزراعة والتدجين، انزاحت الطوطمية، الديانة المهيمنـة فـي أيـام الصيد والقطاف، إلى المقام الثاني لتحل محلها أفكار شـديدة التعقيـد. فـالأرض، طاقـة الخصب، تصير مطرح العبادة التي، في شروط نظام الأمومة، تختلط مع تقديس الإلهـة؛ هذا هو أصل عبادة الأرض المرضع، الهادفة المسـاهمة بخصـب التربـة والمتجسـدة بممارسة سحر خصبها.

ارتقاء الاقتصاد والفكر يدفع الإنسان إلى تمييز قوى الطبيعة المعتـبرة حتـى آنئـذ ككل. ويسند مقام هام إلى القوى الفضائية والظاهرات الطبيعية: الشمس، المطـر وغـيره، التي تؤمن المحصول، ومن هنا كان المجتمع البشري. مع ذلك، كثيرا ما اختلطت عبـادة الطبيعة مع بقايا الطوطمية، فتولدت صور هجينة مثل الشمس _ الحيـوان أو الشـمس _ الطير.

من جهة أخرى، غير توطيد نظام العشير ،عبادة الموتى. فلا ينظـر إلـى المتوفيـن كقوة معادية يجب التخلص منها بأسرع ما يمكن: بل بدأوا يرون فيها أصولا تحميهم. نجـم هذا من أن الإنسان، وقد عرف شيئا عن الطبيعـة بالتجربـة، انتقـل مـن عبـادة الجـد

---

[1] – الاعتقاد أن النفس هي مبدأ الفكر والحياة العضوية في وقت واحد.

الحيوان • الطوطم)إلى عبادة الجد البشري. في هذه الحقبة بدأت خرافات انتصار الإنسان على أخوته -الطيور والحيوانات- والتجسيم، خلع الصفات البشرية على الله وتشبيهه بالإنسان).

وفي عبادة الأرض، وقوى الطبيعة والجدود، يعود الدور الأول إلى التضحية والصلاة. والصلاة هي التعبير المباشر عن الرغبة: تسأل أرواح الحيوانات، والأطفال، موسما وفيرا. وتكمن التضحية الأولى في تغذية الروح لكسب رعايتها. تروي الخرافة الساذجة لدى هنود الشيبويز ،أن الشمس عندما تجوع ترمي فتى جميلا بحجر وتمرضه؛ فلا يشفى حتى يقدم لها تضحية.

وهكذا، بالأصل، كانت الشعائر ترتبط بتطورات المنتوج وتطرح هدفا لها التأثير على الطبيعة عن طريق السحر. وفي الوقت ذاته، كانت المنعكس الخيالي للقوى المهيمنة على الناس في حياتهم اليومية.

اعتقادا بقدرتهم على التأثير على الطبيعة بالسحر لتأمين نجاح الصيد، القطاف، والقنص، ما كان للناس، بالمحصلة، إلا تعزيز علاقتهم بالطبيعة: وكان السحر يحول اهتمامهم عن الحاجات الفعلية، ويحجم طاقتهم الخلاقة. وهكذا كرس الدين البدائي عجز الإنسان أمام الطبيعة، العجز الذي كان هو نفسه منعكسا.

الفصل الرابع

تفكك النظام المشاعي البدائي. تشكل الطبقات والدولة

الزراعة والتدجين الراقيان. بداية التعدين

إن تفكك نظام العشير وتشكل مجتمع منقسم إلى طبقات هدف أولاً إلى تطور القوى المنتجة وبخاصة الزراعة والتدجين، وقد صارا فرعي النشاط الاقتصادي الرئيسيين.

ففي بعض البلدان ترجع ولادة الزراعة والتدجين الراقيين إلى العصر الحجري الأعلى؛ لكن اتساعهما بدأ في عصر النحاس. يبدأ العمل بالنحاس في الشرق الأدنى حوالي الألف الرابع قبل الميلاد. وصل إلى أوروبا متأخراً، في الألف الثالث. بداية، استخدم الناس النحاس الطبيعي وعالجوه بارداً. واكتشاف إمكانية صهره وجعله بالشكل المطلوب، طور صناعة الأدوات. كان المعدن المنصهر يصب في قوالب، وبعد تبرده تخضع الأداة إلى التشذيب والتمليس بالمطرقة الحجرية.

مع ذلك لم يستطع النحاس إبعاد الحجر، الذي لم يكن آنئذ أقسى منه. فمن أجل أعمال الزراعة، وقطع الأشجار وحتى العمل بالنحاس، كانوا يستخدمون دوماً أدوات حجرية من العصر الحجري الحديث، أو العظم أو الخشب.

ذكر أنجلز طريقين أساسيين لتطور المجتمع في تلك المرحلة. عن الطريق الأول، يذكر قبائل نصف الكرة الغربي. كان لدى هنود المكسيك الجديدة وقبائل أخرى أمريكية، أثناء الغزو الإسباني، تقنيات راقية، مبنية على حرث الأرض بالمعول؛ حيث تزرع النساء الذرة المروية... وكانوا يبنون منازل واسعة بالآجر أو الحجر، تحوي حتى خمسمائة غرفة؛ مع استمرار صناعة الفخار وتطورها بوضوح؛ لكن العمل بالنحاس، كان قد عرف.

واتبعت الطريق الثاني قبائل من العالم القديم، كان اقتصادها مبنيـــا علـــى التدجيـــن الراقي، بينما لعبت الزراعة دورا مساعدا واستعمل الدخن علفا رئيسيا.

تثبت المعطيات الأثارية المكتشفة بعد موت أنجلز هذا التحديد للأمور؛ فقد اكتشـــف، بخاصة في العالم القديم، آثار حرث التربة يشبه حرثها في المكسيك الجديدة، وقـــد انتشـــر في أمصار عديدة: وادي النيل، الفرات، الهند وهوانغ _ هو، آسيا الصغرى، شبه جزيـــرة البلقان، آسيا الوسطى(حضارة أناوو)، وأوكرانيا.

في الألف الرابع قبل الميلاد، كان وادي النيل آهلا بحراث مقيمين يعرفـــون صنـــع السكاكين، الأبازيم والصنارات من النحاس، مع استخدامهم بخاصة البلطات والسكاكين مـــن الصخور الصلبة، ومرتدات من خشب وأغراض من العاج. وعرفوا تقنية مياه النيل نحـــو حقولهم، وكان هذا الري الملائم لخصب التربة وحرارة المناخ يضمن محـــاصيل وفـــيرة ونموا سريعا للقوى المنتجة. وكانت أعمال المصريين الهدروليكية مع ذلك بدائية: وكـــانوا يحفرون أقنية في أجراف النيل لتسهيل وصول الماء إلى الحقول، وأقاموا ســـدودا لتســـوية أمور البيع.

عندما لا تسمح الشروط الطبيعية للحراث في العصر الحجـــري الجديـــد أن يـــروي أرضه، كان يتباطأ نمو القوى المنتجة طبعا. ففي الألف الثالث قبـــل الميـــلاد، كـــان فـــي أوكرانيا، رومانيا، وبلغاريا حضارة زراعية، سميت تريبوليـــــة، اكتشـــفها عـــالم الآثـــار الروسي ف. كفويكو، ودرسها بعمق العلماء السوفيات، وعلى رأسهم ت. باســـيك. كـــان عمل التريبوليين الأساسي حرث الأرض بالمنكاش؛ لكنهم كانوا يربون أيضا أنواعا عديـــدة من الدواب. كانت معاولهم ومناجلهم بعامة من الحجر أو القرن؛ وكان النحـــاس يســـتخدم لصنع البلطات. وبيوت الآجر، الواسعة والمستطيلة، كانت تتألف من عـــدة بيـــوت مبنيـــة حول ميدان مركزي.

كانت مادة الأثاث الأساسية هي الآجر: صنعوا منه المناضد، المقـــاعد، والأفـــران. كانت فخاريات التريبوليين غريبة تثير الفضول، شديدة التنوع، مع قواعد منبسطة(فـــالقدر المدبب لا يمكن وضعه على المائدة أو في الفرن)عدا أواني المطبخ الضخمة، عثر علـــى الكثير من القدور المدهونة، المزدانة بالحلزنات وأحيانا برسومات تمثل وجوه الحيوانات.

بين المواد الأكثر تمايزا لهذه الحضارة، كان ثمة نصب آجرية تمثل الجدود، وتؤكـــد

عهد الأمومة، طبعا في شروط الزراعة البدائية، التي تمارسها النساء أساسا.

يعود تشكل قبائل الأبوة إلى عهد أقل قدما: عهد البرونز. والبرونز، خليط من النحاس والقصدير أو مواد أخرى، اكتشف في الألف الثالث قبل الميلاد. كانت الأدوات البرونزية امتن وأرق من الأشياء النحاسية، لكن انتشارها كان بطيئا: بداية، استخدم هذا المعدن لصنع الأسلحة والحلي. فالنحاس، القصدير، والرصاص التي تشكل البرونز، نادرة في الطبيعة واستخراجها صعب. فقط إتقان الصناعة المنجمية المكشوفة، قليلة العمق في منتصف الألف الثاني، سمحت بحفر مناجم بعمق حتى مائه متر. وحتى هذا العصر استخدم المنكاش والمناجل البرونزية، لكن هذا الخليط، كما النحاس، لم يستطع أن يطرد الحجر.

ساهم استخدام الأدوات المعدنية بإتقان العمل بالخشب. فصار نجارو عصر البرونز يقدرون أن يبنوا بيوتا متينة، بربط العوارض بالأسنان أو الحدود. لكن الابتكار الأهم هو ابتكار العربة. التي ظهرت في الشرق الأدنى قبل ٣٠٠٠ عام من الميلاد. ومنذ منتصف الألف الثالث، كانت قد عرفت في سهوب أوربا الشرقية: في ***kourgane*** من شط الدنيير المستقيم، اكتشفت بقايا عربة خشبية، ذات عجلتين، تعود لتلك الحقبة. كانت عجلاتها الكثيفة، المستديرة، المصنوعة من قطعة، ذات ثقوب دائرية من اجل المحور. إلى هذه العربات الثقيلة كانوا يقرنون الثيران. وحوالي بداية الألف الثاني ابتكرت العجلة الدائرية، الذي مكن من صنع عربات خفيفة، تجرها أحصنة رشيقة.

لم تكن الأشكال القديمة لتربية الطيور والمواشي الموجودة أكثر أيام السنة ترعى في الغابة، الأوراق والبلوط، لم تكن توفر النمو السريع لهذه الأنعام. وكان ارتقاء هذا الفرع الاقتصادي عنصر تشكيل الشعوب المتنقلة التي تربي قطعانها في الوديان في أثناء الشتاء، والمناخ معتدل، وفي الصيف في الجبال. وكان استخدام الحصان كراحلة ركوب وابتكار العربة شروطا طبيعية للانتقال إلى حياة الترحال، وبتعبير آخر، ولادة تدجين واسع. وإلى عنصر الزنك بالضبط يعود تشكيل شعوب هيكسوس، كاسيت، الآيين، الذين ربوا الخيول والحيوانات الأخرى وتميزوا بترحالهم. وفي الألف الثاني كانت المنطقة الغابية في روسيا آهلة بالقبائل الرعوية لحضارة فاتيا نوفو، التي كانت تربي الأبقار، الخراف، الخنازير والخيول. وحتى على الجانب الشمالي للبحر الأسود، صارت تربية المواشي أساسا

اقتصاديا: كان أحفاد التريبوليين، مع الحياة المستقرة، يفضلون التدجين على الزراعة.

لكن وضع التدجين كان مغايرا في سهوب جنوب سيبريا، الآهلة في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد بالمدجنين والزراع القاطنين كهوفا واسعة مستطيلة ذات عدة مواقد. ففي نهاية الألف الثاني، صارت تربية الأغنام الشاغل الأساسي: كان سكان السهول ينتقلون بالعربات، خلف قطعانهم. وهكذا، تحولت التربية التي كانت في البداية مستقرة ومرفقة بزراعة مساعدة، إلى تربية راحلة واسعة.

في هذه الحقبة، كان التدجين في مداه الأوسع في القفقاس، أحد مراكز صناعة البرونز. وعصر البرونز في آسيا الوسطى لم يدرس بعد جيدا، وثمة مجال لاكتشافات هامة فيه.

كانت بعض شعوب الاتحاد السوفييتي في مستوى من التطور الملائم المماثل عند بدء اتصالها مع الروس. فالتشوكتش، الذين حافظوا على تقنية العصر الحجري الحديث. كانوا يربون قطعانا واسعة من الرنة[1]، معها يتجولون عبر السهول الواسعة في الشمال.

عرف الإنسان الحديد بعد البرونز. والاستخدام المتفرق للحديد النيزكي قد وجد حتما منذ الألف الثالث والثاني، لكن صناعة الحديد الفعلية لم تظهر إلا في نهاية الألف الثاني. انتشر هذا المعدن انتشارا واسعا، وأبعد الحجر والبرونز إلى الخط الثاني. صفتان أمنتا له الانتصار على المواد الأولية الأخرى: بداية، يعطي أدوات أصلب وأرق؛ ثم، هو واسع الوجود في باطن الأرض ولا يتطلب استخراجه أجهزة معقدة.

لقد أمن تطور صناعة الحديد للناس أدوات متينة وفيرة. صنعوا البلطات والمعاول، المناجل، الرفوش، عدا الأسلحة. وسهل استخدام الأدوات الحديدية العمل بالحجر وأتقنت تسوية الحجارة تقنية البناء. والبلطة والرفش مكنا من استئصال أرومات الأشجار، واستصلاح مساحات واسعة من الغابات من أجل الحرث والرعي.

يتلاءم عصر الحديد مع حرث مناطق واسعة بواسطة سكة الحديد. فالمحراث البسيط، الذي ظهر بدون شك في الشرق الأدنى في الألف الرابع، كان من الخشب، لكن صناعة هذه الأداة، المؤلفة على الأقل من جزئين مترابطين، لم تكن ممكنة إلا بعد انطلاق

---

[1] – جيوان مجتر من فصيلة الآيليات.

النجارة، الناجم من استخدام أدوات معدنية. في أوربا، لم يعرف المحراث قبل العصر البرونزي. كان يخدش التربة فقط، وكانوا يضطرون لحرث الأرض طولا وعرضا. ولم تعرف سكة المحراث المعدنية إلا في بداية عصر الحديد، واستئصال الجذور الكثيفة نشر استخدام السكة في كل المناطق معتدلة المناخ. وكانت أهم حيوانات الجر الثور والحمار.

العبودية البطزيركية

إن حرث الحقول والمراعي بالمنكاش في الأراضي المروية، والتدجين الواسع وبخاصة العمل بالأرض بالسكة الحديدية، زاد كثيرا من إنتاجية العمل: صار بوسع الإنسان من الآن إنتاج كثير من الأشياء تؤمن له صيانة قواه وتربية الأبناء. وبدأ الحراث والمربون يجنون من المنتوج أكثر من الصيادين والقناصين؛ وكان نتاجهم أكثر أمانا من الطريدة المعرضة للهرب بسهولة. وراحت القبائل الزراعية تدخر كمية من المؤن تحفظ في حفر أو صناديق خشبية؛ وتجني القبائل الرعوية من قطعانها الحليب واللحم، الصوف والجلد، اللباد لبناء المسكن، العظام والروث الجاف للتدفئة. وهكذا توصل الإنسان لإنتاج أكثر ما يستهلك. نجم عن هذا الاستغلال، تمكين الإنسان من تملك ملكية منهاجية لأكثر مما يستهلك، وهو منتوج عمل شخص آخر. وعوضا عن قتل المساجين لتقديمهم ضحايا للآلهة أو لأكلهم، أو بشكل أصح ضمهم إلى الفخذ أو القبيلة، مكنت من زيادة الإنتاج من استغلال جهدهم، واستثمارهم كأسرى.

تطلعنا مخلفات الأعراق على العبودية البدائية، التي تذكر بالعلاقات الاجتماعية الوليدة في أثناء تشكل أولى الطبقات. تطور هذا بشكل ملحوظ لدى الهنود صيادي شمال غرب أمريكا الشمالية (جزيرة فانكوفر، جنوب ألاسكا). كانت هذه التجمعات تستخدم بعض الأدوات الحجرية، يدخر النحاس لصناعة الحلي فقط؛ كانت زراعتهم متخلفة ويعيشون أساسا على الصيد، لكن وفرة السمك مكنتهم من إنتاج فضلات ضخمة. فكان المردود الكبير للصيد الأساس الاقتصادي لتطور العبودية لدى الهنود الحمر في أمريكا الشمالية.

حسب إحصائيات علماء العراقة بلغ عدد العبيد في ذاك البلد ١/٧ السكان ولا غرابة، وفي بعض الأحيان الثلث. كان المصدر الأساسي للعبودية هو الحرب؛ كان الهنود يهاجمون جيرانهم غالبا في الليل ويقتادون الأسرى، نساء ورجالا. ومن يؤسر أثناء القتال

يتحول إلى عبد. وتشكل العبيد بطريق النخاسة. كان جهدهم يستغل في مختلف فروع الاقتصاد: يقيمون الحواجز من أجل الصيد، يجدفون على المراكب، ينظفون الأسماك، ويقومون بأعمال إدارة المنزل الصعبة. ونادراً ما اشتركوا بالأعمال النبيلة: صيد الحوت، بناء المراكب، وصنع السهام. كان العبد محروماً من الحقوق وليس لحياته أي قيمة. وكانوا يذبحون في مآتم القيادات. يقص الضابط البحار الروسي ج. دافيدوف، الذي تواجد في ألاسكا في بداية القرن التاسع عشر، يقص أن الهنود في أثناء الاحتفاء بهذه المآتم، يُرقصون عبيدهم ويطلقون عليهم السهام. ويقتل العبيد لدى بناء بيت جديد وعند وصول القائد؛ وكان أكل لحوم البشر يمارس أيضا. كانت هذه المذابح واحدة من بقايا فترة عدم الإفادة من عمل أسرى الحرب. وكانت غزوات الشباب الهنود ذات طبيعة أخرى: يرهبون العبيد بحرق وسلب أكواخهم.

العبودية هي الشكل الأول لاستغلال الإنسان على يد إنسان آخر. وظهورها حادثة طبيعية ومنطقية، ناجمة من تطور القوى المنتجة. على ذلك، عرف هذا العهد تطورا واسعا. فاستغلال العبيد ساهم بتكديس الخيرات الناتجة حتما من النمو اللاحق للإنتاج؛ كما غززت العبودية تقسيم العمل.

أقدم أشكال العبودية هو ما يسمي العبودية الأبوية(أو الأهلية)؛ في ذلك الزمن، لم يكن للعبودية بعد دور في الإنتاج، كان العبد يعمل إلى جانب الرجل الحر، كمساعد له. كما كان له أن يمتلك خصا، وقطيع خنازير وقطفة أرض. وكان يرتدي ثيابا مشابهة لثياب الحر وأبناؤهما يلعبون سوية؛ ولم يكن التزاوج بينهما نادرا: ليست المرأة فقط تتزوج من حر وتنجب له أطفالا أحرارا، بل العبد أيضا يتزوج حرة ويعيش معها في بيته. على ذلك، كان ملكا لسيده الذي له حق الحياة والموت.

الإنتاج البضاعي

لقد نتج عن تطور الزراعة والتدجين زيادة إنتاجية العمل، وولد تبادل المنتوجات بانتظام. التداول المتفرق، النادر عرف منذ عصور قديمة، أما الآن فقط تعمم هذا النهج إلى هذا الحد أو ذاك.

من حيث أن القبائل الرعوية تمتاز عن كتلة البربر، رأى انجلز أن بذور التقسيم الاجتماعي الواسع للعمل، يختلف عن تقسيمه حسب العمر والجنس، الذي عرف في أيام

نظام العشير."إن القبائل الرعوية، يقول انجلز، تنتج ليس فقط أكثر، بل تنتج أغذية أخـــرى غير بقايا البربر."[1]وبدأ القاطفون والصيادون يكثرون من تبـــادل منتوجـــهم مـــع القبـــائل الرعوية المجاورة.

لكن التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي قواهم وحثـــهم، فـــافترقت المهنـــة عـــن الزراعة. وعقد اكتشاف البرونز ومعالجة فلزات الحديد صناعة الأدوات بشـــكل ملحـــوظ. كان فلز النحاس قد استخرج من المناجم، نقلته العربات في دلاء جلدية وحطـــم بمطرقـــة حجرية؛ ثم صب مع الفحم الخشبي في أفران محفورة في التربة، يصلها الـــهواء بأنـــابيب آجرية. وللحصول على الحديد بدءا بالفلز، استخدموا موقدا واطئا من حجر وآجر. لكـــن لا بد من تحديد هذه العقدة الضخمة للحصول على معدن صلب، لهذا يحمى حتى الاحمـــرار ويطرق بسكبه فوق الفحم الخشبي. يستخدم الحداد كل أنواع الأدوات الســـندان،المطرقـــة، القارص، النصل، وسواها. تطلب تعقيد تطور التعدين توفر صاهرين وحدادين مختصين.

جعل تطور التعدين التقنية المهنية أكثر تعقيدا، وهذا ما أفضى إلى تباين المهن.

ففي الهند، في فارس، فيما بين النهرين، في مصـــر، ظـــهر منـــذ الألـــف الثـــالث الفخاريون الحرفيون الذين، عوضا من صنع القواعد باليد، صنعوها بوضعها على قـــرص يدور، سمي"قرص الفخار". وفي البلقان، لم يعرف هذا القرص إلا فـــي الألـــف الثـــاني. وتعود أقدم الأوعية المكتشفة في تركمانيا إلى الحقبة ذاتها. واستخدم الفخاريون أيضا فرنـــا خاصا للطهي والخبز. وإلى الفخـــاريين، الصـــاهرين والحداديـــن أضيـــف النجـــارون، النساجون، الصائغون، ومعدو الحجارة وغيرهم. وهكذا، تفرعت من الاقتصـــاد الخدمـــي عدة فروع كي يصل إلى أيدي المختصين؛ وانفصلت الحرفة عن الزراعة.

سابقا، لم تتم أغلب المبادلات بين أشخاص منعزلين، معرضين للأخطار والأخطـــاء، بل بين عشائر يمثلهم الرؤساء أو الشيوخ. وكـــان التبـــادل البدائـــي يتـــم بيـــن مختلـــف المشاعيات، لأن كلا منها تنتج ذات الشيء، الأمر الذي يجعـــل التبـــادل محـــالا. كـــانوا يتبادلون بخاصة مواد الزينة والحلي، وأوعية من النحاس والسبائك. ولدى تطور التبـــادل بين القبائل، لعبت بعضها، بفعل موقعها الجغرافي، دور الوسيط.

غير التقسيم الثاني الواسع للعمل الاجتماعي من طبيعة التبادل وأفضى إلـــى الإنتـــاج

---

[1] ـــ ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، دار المنشورات الاجتماعية، باريس ١٩٥٤.

البضاعي، يعني صنع منتوجات معدة خصيصا للتبادل. فالحرفيون (الحدادون، الفخـارون، والنساجون، الخ) لا يستطيعون الحياة إلا بتبادل ثمرة عملهم مع مواد أخرى. وكلما انتظـم التبادل برز أكثر مفهوم القيمة والسعر. بداية، كان التبادل تحكميا: اليـوم خـنزير مقـابل حقين، وغدا ستة خنازير. ويستقر التبادل المعادل شيئا فشيئا، ويساهم تطور المهن فيه إلـى حد بعيد. ففي العمل الحرفي (الأكثر استقلالا عن الصدفة مـن الصيـد والقطـاف مـن الزراعة والتدجين البدائيين، حيث يلعب الحظ والوقت دورا واسعا) يتعلم الإنسان ويعـرف العلاقة بين كمية العمل المبذول وكمية البضاعة الناتجة. فالحرفي هو أول من قاس قيمـة المنتوج بكمية العمل المبذول لإنتاجه.

يسعى الإنتاج البضاعي إلى تكديس الثروات، الأمر الذي يولد الحاجة لبضائع قابلـة للحفظ والتخزين. فالحبوب، الثمار، السمك والمواد الغذائية الأخرى سريعة التلـف، بينمـا الماشية، القواقع النادرة والمعادن الثمينة تقوم تماما بهذا الدور. يشـير مـاركس إلـى أن تداول البضائع منذ حالتها الجنينية، يولد الميل إلى تقليد ليس المنتوج نفسـه، بـل شـكله المتبدل "خروجه" الذهبي[1]. عوضا عن تكديس الاحتياط بشكله الطبيعي، يسعى النـاس إلـى استبداله بالقواقع النادرة أو المعادن الثمينة، التي، عند الحاجة، يمكن تبديلها بمواد غذائيـة، ألبسة، أوعية، الخ. وبعبارة أخرى، تهدف فضلة المنتوج إلى التحول إلى كنز، إلى مـال. والكنوز المكدسة شاهد فعلي على قدرة الأسرة الأبوية.

كلما تطور التبادل وحدد مفهوم القيمة، صار المال مقياس القيمة ووسـيلة التـداول. وتترك المقايضة المكان للتبادل النقدي. بداية، استبدل النقـد بالماشـية، ثـم بـالقواقع أو المحارات، والمعادن الثمينة، وغيرها.

تحول الأمومة إلى أبوة

لقد بدل تطور التدجين الرعوي وحرث الأرض بالسكة الحديد والتقسيم الثاني الواسـع للعمل الاجتماعي نظام العلاقات الأسرية. يصف أنجلز هذا التبدل فيقول: ثورة في رحـم الأسرة. فبينما كانت المرأة في ذروة نظام الأفخاذ تتمتع بحقوق الرجـل ذاتـها و، لـدى

---

[1] - ك. ماركس، رأس المال، المجلد الأول، الكتاب الأول، دار المنشورات الإجتماعية، باريس، ١٩٥٠، ص١٣٦.

المزارعين البدائيين. كانت تتمتع حتى بالهيمنة كونها ترشد الاقتصاد وتديره، أمن تحول الزراعة والتدجين إلى فرعين اقتصاديين أساسيين، أمن للرجل، الراعي والحارث، الأفضلية وتصدر المجتمع. وألغيت مواقع المرأة حتى في المنزل، الذي انتقل كثير من فروعه إلى مجال عمل الصناع الحرفيين(الرجال). وهكذا، استبعدت المرأة نهائيا من الإنتاج، ولم يبق لها سوى مهام منزلية لا أهمية لها. فضلا عن استخدام المنزل العبيد أكثر فأكثر، الأمر الذي زعزع أعمال المنزل وساهم أيضا بتحجيم المرأة إلى وضع قريب من العبودية."حتى في البيت، يقول أنجلز، أخذ الرجل بيده الإدارة؛ أبعدت المرأة، استعبدت، وصارت عبدة ملاذ الرجل وأداة عادية من أدوات الإنتاج[1]".

في بعض الحالات تيسر للأبوة أن تقوم لدى شعوب ليست من الرعاة ولا من الحراث، بل حيث يحوز عمل الرجل _ صيادا كان أم قناصا _ لسبب أو آخر، قيمة اجتماعية أعلى بوضوح من قيمة العمل المنزلي الباقي في يدي المرأة. بالعكس، حيث بدأ تفكك نظام الأفخاذ في شروط الزراعة البدائية(مثلا، في قبيلة الآشانتس الأفريقية)، كانت المرأة تساوي الرجل أو تفضله. أخيرا، فقد بقيت المرأة، لدى بعض الشعوب، محترمة مكرمة. هكذا، كانت نساء مربي الخيول السومرية تحمل السلاح، الأمر الذي سهل خلق الخرافة الأغريقية حول قبائل الأمازون.

تم انتقال الأمومة إلى أبوة ببطء، وبأشكال منوعة. بداية، بقيت أرومة الأمومة وتعايشت مع أرومة الأبوة: أعتبر أعضاء عشير الأب أهلا للأبناء، دون أن يفقد عشير الأم حقوق الأهل. نجم من هذه الخؤولة، نظام علاقات يحتل الخال الدور الأول فيه، أي الذكر الأقرب من جهة الأم. فلا الأب ولا الأم، بل أخ الأم هو المكلف بتربية وحماية الأبناء: وهو أهم من الأب. وتمركز الزواج يتبدل رويدا رويدا. في الأمومة، كان الزواج أموميا: يقيم الزوج في كنف عشير زوجته(أو في عائلة الأمومة الكبرى)؛ وعند الانتقال إلى الأبوة، صار أبوي المركز: تقيم المرأة لدى عشير زوجها.

لا يقتصر تشكل علاقات الأبوة على تغيير تمركز الزواج ومفهوم القرابة، بل ولد نظام أسري جديد: الأسرة الأبوية. تتألف الأسرة الأبوية الكبرى من عدة أجيال من

---

[1] – ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص٥٧.

الرجال، من صلب أب واحد، يقطنون مع نسائهم في دار واحدة، يتغذون ويلبسون من نفس المصدر ويشتركون في كل ما يملكون. وكما دل العالم الشهير الروسي م. كوفالفسكي، الأسرة الأبوية الكبرى هي انتقال أسرة الأمومة إلى أسرة أحادية الزواج.

على رأسها أحد الشيوخ، سيد البيت، الذي يرشد ويوجه كل حياة المشاعية البدائية. وسيد البيت هذا غالبا منتخب؛ يحد سلطته مجلس الأسرة، المؤلف من نساء ورجال راشدين، يقدم الحساب لهم. الشؤون الهامة: نقل الأرزاق، التدابير الانضباطية التي يفرضها على أعضاء الأسرة، زواج الشابات، الخ، من اختصاص المجلس.

في الأسرة الأبوية، الهيمنة للرجل. ويبدو دور المرأة الثانوي في الزواج الذي تراجع في الأغلب إلى شراء الخطيبة من أبيها. والزواج الواحد مفروض على المرأة فقط: عدم وفاء الزوجة ثمنه عقوبة صارمة، بينما يحق للزوج اتخاذ خليلات له من الأسرى. بوسع الزوج إرسال زوجته، دون أي دعوى، إلى دار والدها، بينما لا يحق للزوجة الطلاق إلا نادرا. فضلا عن هذا، عند وفاة الزوج، على الحليلة أو الخليلة أن تضحي أحيانا، لتدفن مع الحصان، والسلاح وأغراض الميت المفضلة.

لم تنجم إزاحة المرأة عن أفضلية الرجل"الطبيعية"، كما يدعي بعض المؤرخين البورجوازيين؛ بل هي محصلة ثورة اقتصادية. يكتب أنجلز في هذا أيضا:"ليتحقق عتق المرأة وتحررها، يجب عليها أولا أن تشارك في الإنتاج على نطاق اجتماعي واسع وأن لا يشغلها العمل المنزلي إلا في حدود ضيقة[1]". ولا يمكن ممارسة هذا المبدأ إلا في ظل الاشتراكية التي تؤمن المساواة الفعلية بين المرأة والرجل.

من جهة أخرى، حفظت أسرة الأبوة بقايا من الأمومة: المرأة الأكبر سنا التي توجه عمل النساء الأخريات والبنات الشابات، تتمتع بسلطة واسعة. وتضم الأسرة الأبوية أيضا العبيد.

لقد هدم تشكلها البطيء، نظام العشير. وفي البداية كان العشير الأبوي الذي حافظ على عناصر المشاعية والوحدة: ملكية العشير للأرض، ميراث متبادل في رحم العشير، عند عدم وجود ورثة مباشرين من جهة الأب. الأرزاق، على رأسها الأرض، يجب أن

---

[1] - ف. أنجلز، أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة، ص١٤٨.

تبقى مشاعية روحية: واجب المعاضدة، الواصل حتى الثأر، الأعياد المشتركة والمقبرة المشتركة. لكن العشير الأبوي يمتاز بعمق عن مشاعية الأمومة، لأنه كان يرهص بـذور الملكية الخاصة.

ولادة الملكية الخاصة

أفضى نمو انتاجية العمل إلى جعل الإنتاج فرديا. فالتدجين والزراعة المتطوران، عدا الصناعة الحرفية، لا تفترضان التعاون البسيط إلا في حالات استثنائية، مثلا، لبناء وترميم منشآت الري. فالإنتاج الفردي هو المبدأ الاقتصادي الذي أنتج الملكية الأسرية وتكديس الثروات بين يدي بعض الناس.

يمكننا أن نرى المرحلة الأولى من التطور لدى هنود شمال غرب أمريكا الشمالية، حيث ما يزال العشير يملك مجاري المياه وأرض الصيد والقطاف، بينما تمتلك الأسر الأدوات، السلاح، العبيد وحواجز الصيد على الأنهار، القوارب والفراء.

ما يزال الاقتصاد الفردي يتطور لدى القبائل الرعوية والزراعية. فيعطي مردود التدجين كل أسرة إمكانية مصارعة الطبيعة. وسمحت البلطة الحديدية لاستصلاح الأرض وسكةالمحراث الحديدية المقرونة إلى ثورين، سمحت للأسرة أن تحرث الأرض التي لم يكن حرثها سابقا إلا على أيدي ومساعدة التعاونية الزراعية المجهزة بالمعول فقط.

كما نجم عن الإنتاج الفردي تمركز الوفر بين أيدي بعض الأسر، التي حققت الغنى. ومنذ انهاية الألف الرابع قبل الميلاد، ظهرت في وادي النيل أسر غنية لم تعد تضع موتاها في حفر بسيطة تعلوها طبقة عليا هشة من الآجر، بل في قبور فخمة، مؤلفة من عشرات الغرف. وعلى الأرض الروسية، أقدم أثر يثبت وجود أسر غنية، هـو ***KOURGANE*** مايكوف، الذي يعود إلى الألف الثالث. فقد كشفت التنقيبات، تحت ردم سماكته أحد عشر مترا، بقايا رجل بثياب تزدان بسبائك ذهبية تمثل أسودا وثيرانا، يحيط رأسه إكليلان؛ ستة أنابيب من الفضة، ونصب ضخمة لثيران، كانت تحمل سرادق في السابق. ويضم الرمس أوان ذهبية، فضية، وحجرية، وأغراضا نحاسية(خنجر، بلطات،الخ)، وجثتين لامرأتين، ضحيتين ولا شك للمأتم لمرافقة المتوفى إلى العالم الآخر.

، عدد كبير من الآثار المماثلة يعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، لدى انطلاقه صناعة البرونز والتدجين. لقد نقب ب. كوفتين في جيورجيا عن رموس رعاة في بداية

الألف الثاني، كان موتاها محمولين على عربات خاصة. وعدا عظام الحيوانات والفخاريـــات، وجدت أوان ذهبية وفضية مزدانة برسوم حيوانات وعظام. ووجدت قبور غنيـة أخـرى مـن عهد البرونز في السهوب الجنوبية لشاطيء البحر الأسود وحوض الغولغا.

في الأصل، لم تكن الثروات المكنوزة ملكا حصريـــا للأسـرة. فقوانيـن الضيافـة والتعاضد تلزم الأغنياء الجدد بترك جزء من أرزاقهم إلـــى أعضـاء القبيلـة الآخريـن: فالرؤساء، والشيوخ. كانوا يلتزمون من حين إلى آخر بذبح الماشية للأعيـــاد وتوزيعـها: وعند وفاة أحد الأثرياء، ينفق جزء من ثروته لوجبة المأتم، وجزء آخر يدفن مع الجـدث، وجزء ثالث يعود ليوزع في العشير. فـــالثروة الشـخصية، المعارضـة لتقـاليد النظـام العشيري، كانت بداية مقسمة.

مع ذلك، ولد تكديس الثروات بين يدي الأسر الملكية الفردية التي، بخـــلاف الملكيـة الشخصية التي تشكلت في أوج النظام العشيري، استخدمت لاستثمار عمل الآخر. فالملكيـة الفردية في الأسرة تتناول الماشية، المسكن، الثروة، بينما بقيـــت الأرض طويـلا ملكيـة تعاونية، جماعية. والسمة المميزة للملكية الفردية هي بعامة قابلية التصـــرف ب: العبيـد، الماشية، المراكب، الخ .، التي تخص الأسرة الأبوية، تصـــير بضـائع يمكـن بيعـها أو تبديلها.وهكذا هربت الملكية الفردية من مراقبة المشاعة.

تفكك نظام العشير

أفضى تطور الإنتاج إلى نشر اللامساوة التي تمثل بداية الصفة الجمعية: تشكل فـــي القبيلة ثلاث شرائح تتمتع بحقوق متباينة. كان هذا إحدى محصلات قسـمة العمـل: كمـا أشار ماركس وانجلز، ولدت قسمة العمل البدائية نظام الفئات المغلقة. وبـــالفعل، حولـت قسمة العمل الاجتماعية الكبرى المهنيين، وعلى رأسهم الحدادون، إلى فئة مغلقة، متمـــيزة في بعض الحالات، مهانة في حالات أخرى. وكان المحاربون يقـــدرون أن يشـكلوا فئـة خاصة بهم. وهكذا تشكل، شيئا فشيئا نظام التراتب.

بتراكم المدخرات الكبير والمتعاظم ، منذ ظهور الكنوز ،وتحوله إلى نقـــود، خلـق الفرق بالثروة بين أفخاذ وعائلات أبوية في نفس العشـــير. إذ امتلكـت بعـض العـائلات الكبرى أخصب الأراضي وأوسعها، القطعان العديدة، والكثير من العبيد. وافتقرت عـائلات أخرى، فقدت مواشيها، وأرهقتها الفاقة في السنين القاحلة. كما ولد اتساع الملكية الخاصـة التناحرات التي ساهمت أيضا بتفكك العشير. فمن جهة، يسعى قائد العائلة إلى امتلاك كـل ما يخص المشاعة الأبوية، والتأثير على أرزاق ومصائر أعضائها؛ أوصل هـذا السـعي،

في النهاية العائلة الضخمة إلى العبودية، رابطا إياها بسلطة رب البيت المطلقة. ومن طرف آخر، هدم تزايد فردية الإنتاج على أثر تطور الزراعة بسكة الحديد، العائلة الكبرى من الداخل. ففي أحشائها، ولدت الأسر الصغيرة التي حصلت على ملكيتها الخاصة، و مسكنها و غذائها.حدث تجزؤ العائلة الكبرى بالضرورة قبل هذا: فمن المشاعة الأبوية المتضخمة، انفصلت مشاعة بنوية، كبرت و تجزأت بدورها. لكن كلما تأكد الاقتصاد الفردي و توطد، ازداد توزع و تجزؤ العائلة الكبرى و أفضى إلى انفراط منهجي للعائلات الصغرى المزودة بملكيتها.

قضى تطور الملكية الفردية بالتدريج على عادة توزيع الأرزاق و أرسى حقوق الأبناء الوراثية. ينجم من هذا أن العائلة الصغرى، أو العائلة الفردية، تأسست على هيمنة الرجل و هدفت إلى ولادة أبناء لا ريب في انتسابهم الأبوي.

إن تبدد المشاعة إلى عائلات صغيرة أغلبها سيعيش وحده، كان كثيفا بخاصة في المشاعات الفقيرة، الأضعف من وجهة نظر الاقتصاد .بالمقابل، تجهد المشاعات الغنية في الحفاظ على تقاليد العشير، وهذا لعدة أسباب أهمها الإبقاء على طاعة عبيدها.و بالتالي، يأخذ تعاضد العشير في أثناء تشتت المشاعة معنى آخر.وبينما كان في السابق يتوجب على أعضاء التعاونية الأوفر حظا أن يقتسموا مع الآخرين نتاج عملهم، كلما كانت الثروة أكبر، يطلب هؤلاء الذين يقومون بهذا التوزيع هدايا بالمقابل. وينظم رؤساء العائلات الكبرى الغنية ما يسمى"بوتلاتش[1]"، يوم توزع الأدوات، المواشي، الجلود، الخ، على رجال العشير والقبيلة. وبعد فترة زمنية، بعيد من أخذ ما أخذ وزيادة. وفي حالات أخرى، يفترض الرجل من الرئيس أو سيد البيت. وإن لم يستطع إيفاء دينه، سقط في حظيرة الدائن. أخيرا، يتيسر للرؤساء والأعضاء الأغنياء، الأغنى أرضا، ومصائد ومراعي، أن يعتمدوا دوما على مساعدة الآخرين الذين، لهذا الواقع، يعملون مجانا. وهكذا تصير مبادئ التعاضد، المندحرة في أثناء تفكك نظام العشير ونمو الثروة، وسيلة استغلال الأغنياء للفقراء. من هنا كان صالح الأثرياء في الحفاظ على علاقات كانوا هم أنفسهم أدانوها منذ برهة.

هكذا كانت الأسر الأبوية الغنية بالضبط هي التي تحافظ على التقاليد وترعاها بالظاهر. وبينما كانت المشاعات الفقيرة تتفتت إلى أسر صغيرة تنتقل إلى أفخاذ أجنبية، ينعزل الأغنياء كنبلاء بالولادة. وهم وحدهم يتذكرون أصلهم ويفخرون به، ويتحدثون

---

[1] ــ مهرجان ديني عند الهنود الحمر، تتبادل فيه الهدايا.

دوما عن جدودهم الأماجد وهكذا تلتحق الثروة ب"النبل" الوراثي. في هذه الحقبة من الزمن كان الغنى يرافق النبل أبدا. والفقراء، ما أن يخرجوا من العشير، حتى يفقدوا دعم المنظمة التي كانوا آنئذ قوتها الواقية الوحيدة. لذا يشتد ارتباطهم بالأغنياء، بالنبلاء: يدفعهم عوزهم الاقتصادي والاضطهاد الذي يمارسه أغنياء العشيرة إلى وضع أنفسهم تحت"حماية" الرؤساء والشيوخ، فيتحولون أخيرا إلى شبه عبيد. ويتفاقم التناقض بين الأغنياء والفقراء من الآن ومعه بين العبيد والرجال الأحرار. وعقبت فوارق الثروة في رحم العشير والقبيلة شراكة المصالح البدائية، مخلفة الاستثمار والتناحر.

بداية، بقيت الأسر المستقلة، المنحدرة من العشير الأبوي، على تواصل. لكن فوارق الثروة والتناحر بين غني وفقير قطع كل أواصر القربى. أحيانا، كانت إقامة العائلات الصغيرة عند عشائر أخرى تتم التفكك. فذابت وحدة العشير والأرض، وهي إحدى أهم سمات المجتمع المشاعي البدائي. ولم تعد الأفخاذ الجديدة تبنى على أساس القرابة الدموية، بل على أساس الجوار؛ الأمر الذي نسميه مشاعيات"الجوار"أو"الأرض".

يمكن أن تتكون من أسر كبيرة وصغيرة متقاربة، وأيضا من أسر انحدرت من أفخاذ مختلفة، لكن في الحالين لا يعتبر أعضاؤها أقرباء. فخلق مشاعيات الجوار سهل النشاط الاقتصادي؛ وعند تفكك العشير، كانت الشكل الوحيد الممكن للاتحاد بين الناس، تحفظ في بنيتها بعض سمات العشير: المشاعة تتمتع، مثلا، بحق الأفضلية على أراضي أعضائها، الحق الذي يمكن أن يترجم أحيانا إلى تقسيم جديد دوري، له موظفوه الخاصون. إذن، تتضمن كل مشاعة ثنائية، كانت تسمى تناقضات بين ملكية الأرض المشتركة والملكية الخاصة لكل عائلة: البيت والباحة، الماشية والأدوات. ففي رحم مشاعة الجوار"الزراعة المجزأة ، والملكية الفردية للثمار، تعطي الفردية انطلاقة لا تقاس بتنظيم مشاعات أكثر بدائية"[1]وتصير هذه الثنائية مع الزمن مصدر تشتيت مشاعية الجوار

وحسب الشروط الطبيعية والتاريخية، تشكلت نماذج عديدة من مشاعيات الجوار المتميزة بدرجة تطور الملكية الخاصة.

الديموقراطية العسكرية

إن تفكك نظام العشير كان يثور العلاقات الاجتماعية القائمة ولا يمكن أن يتم سلميا. ويشير مؤسسو الماركسية أن الاضطهاد هو قابلة المجتمع القديم، وأم المجتمع الجديد. كان

---

[1] ـــ١ـــ ك. ماركس و ف. انجلز، محفوظات، ي باند، ص ٣٣٧، معهد الماركسية اللينينية.

النبل الولادي بحاجة لتنظيم يتكفل بالدفاع عن الثروات وكبح كفاح العبيد والفقراء؛ أي بحاجة لبناء فوقي سياسي يعزز مجيء مجتمع جديد طبقي.

بداية، اضطلعت بهذه المهام اتحادات سرية ذكرية. في تلك الحقبة والثروة تحتل أهمية بالغة، لم يكن القبول في الاتحادات السرية مشروطاً بالمبادرة، إنما بالولائم والهبات: فالشاب الذي لا يستطيع أبوه أن يذبح لمأدبة ما كفاية من الخنازير، أبواب الاتحاد مغلقة في وجهه. إذن، في ذلك العهد، لم تكن الاتحادات السرية ترفض العبيد والنساء فقط، بل أيضاً الفقراء الأحرار. ويعارض الاتحاد كلياً من ليس عضواً فيه ويجهد، بالتالي، أن يؤثر على السر. وتعمل الاتحادات السرية على إخافة الجهلاء، وتقتص منهم، وتنلهم. هيمنت هذه الاتحادات على ظاهرات الحياة الاجتماعية الجديدة، وفي رأسها الأبوة والثروة.

كان لها الحق في أن تعلن قداسة ملكية أعضائها وتعاقب بقسوة وفظاظة من يجرؤ على الاعتداء عليها. وبالمقابل، كانت ملكيات الجهلاء أو الدنيويين غير محمية وتتعرض للنهب. ويضطهد الاتحاد المرأة والعبيد، ويبرز سطوة الرجل والسيد. يلزم المدينين المتخلفين بالوفاء وفي حال العجز يصادر أرزاقهم. وقد يتولى القضاء أحياناً للنظر في الخلافات بين القرى. تمنع إراقة الدم أثناء جلساته القضائية العليا. لكن القرية المدانة كانت تعاقب بلا رحمة: محاربون مقنعون يهاجمونها ليلاً، على ضوء المشاعل وصخب الصاخبين المتسكعين، ويسيئون معاملة الناس ويسطون على المواشي.

كلما توطد تفوق الأغنياء والنبلاء، تترك الديموقراطية القديمة المكان لفوقية سياسية جديدة: الديموقراطية العسكرية. يقودها، كما العشير، قائد، مجلس شيوخ وجمعية شعبية. لكن هذه التنظيمات كانت ذات طبيعة أخرى. الرئيس الأكبر يختار من الرؤساء الأغنى في الأسر الأبوية؛ ثم تصير مهمته وراثية في حدود هذه الأسرة النبيلة أو تلك. تستند سلطته إلى غناه، وعدد ذويه وعبيده وناس قبيلته، قبل مناقبه الشخصية. وكثيراً ما دعم سطوته بتصرفات بربرية. هكذا، عند موت زعيم داهومي(أفريقيا الغربية)، يقتل على القبر أولئك الذين حفروه؛ فضلاً عن دفن نسائه، ثمانون راقصاً وخمسون مقاتلاً أحياء؛ وطيلة ١٦ شهراً التالية ترسل له رسائل للاطلاع على أحداث البلد. يقر الزعيم ومجلس الشيوخ دوماً كل القرارات، بينما يقتصر دور الجمعية الشعبية، المكونة فقط من المحاربين، على الإصغاء لهما منفعلة بالصراخ وقعقعة السلاح.

إن سمي البناء الفوقي السياسي لزمن تفكك العشير ديموقراطية عسكرية، فذلك لأن

الحرب وتنظيم الشعب لهذه الغايات يصير آنئذ وظائف عادية للحيـــاة البشـــرية. وتبـــدل الحرب طبيعتها: سابقا كانت تنشب الحرب للثأر من خرق الحدود أو لبسط حقول الصيـــد، أما الآن تهدف الحرب النهب؛ ويصير الإغتناء مهنة.في هذه الحــــروب، تتشـــكل الاتحـــادات القبلية، يأمرها زعيم منتخب من بين رؤساء القبيلة.وتعزز حروب السلب سلطتها التي تتبســـط لتتحول إلى سلطة آبدة. وفي الوقت ذاته، نرى ولادة المؤسسة التي تدعم جدا ســـلطة الزعيـــم: جمعية السلاح. فحرب السلب تهيء مكانا لشركات أو حلقـــات خاصـــة تتعـــرض للأخطـــار والأهوال، مستقلة عن العشير. يجمع الرئيس حوله رجالا يعشقون الســـلب ويتحـــدون بالوفـــاء وليس بالقربى.كان ثمة أبناء نبلاء وعبيد أيضا. وبدعم من جمعيته، يصل الرئيـــس العســـكري أخيرا إلى السلطة المطلقة. هكذا تنفصل المنظمات التي توجهها الديموقراطيـــة العشـــيرية مـــن الشعب وتصير نقيضه: منظمات هيمنة واضطهاد موجهة ضد الشعب.

ولادة الدولة

ليس في التأريخ البورجوازي مسألة أكثر ضبابية من مســـألة الدولـــة. فـــالمؤرخون الفلاسفة والحقوقيون البورجوازيون يقدمون الدولة كمنظمة تهدف الخير العام. ويجـــهدون في تجميلها وجعلها مثالية، المحامي عن كل الناس، أيا كانت طبقتهم.

في الحق، الدولة هي"...جهاز مرهون للحفاظ على هيمنة طبقة على أخرى"[1]. آلـــة مؤذية تولد حيث تكون الطبقات قد وجدت؛ يشهد تأسيسها تناقضات لا حل لها مـــن أجـــل منظمات النظام العشيري. وبعبارة أخرى، ما أن تتشكل طبقات من عبيد وأنـــاس أحـــرار، ويظهر التناحر بين العبيد والأحرار، بين الأغنياء والفقراء، حتى تظهر الحاجة للمنظمـــات التي عوضا من إخماد هذه التناقضات، تضغط على مصالح طبقة لمصلحة طبقة أخـــرى، تضطهد العبيد والفقراء لمصلحة النبل العبودي.

لقد نهضت الدولة على أنقاض نظام العشائر، الذي ربى في رحمه منظمات الدولـــة. تتميز الدولة بسمتين:بداية، وجود سلطة عامة منعزلة عن المجتمع وتعارضه(أركان هـــذه السلطة هم أخوة السلاح والمحكمة المكونة من الزعماء والشيوخ)؛ وبالتالي، يتحد النـــاس حسب مبدأ الأرض وليس مبدأ القربى. تقوم الدولة بمـــهمتين أساســـيتين: كبـــح مقاومـــة الجماهير الشعبية(أولا) وتوسيع حدودها أو تدافع عنها ضد الجوار.

يجد تباين الطبقات والدولة تعبيره الإيديولوجي في الدين. ففـــي أيـــام انـــهيار نظـــام

---

[1] – لينين، الدولة، للنشر باللغات الأجنبية، موسكو ١٩٥٤، ص ١٥

العشائر، كانت عبادة الأجداد تقدس وتمارس بحماس في كنف الأسر النبيلة، بينما يفقد الفقراء، الزاحفون بأفخاذهم وأخلافهم، بشكل طبيعي حتى ذكرى أصولهم. تنبع من هذا فكرة الفرق بين أقدار مصائر المتوفين بالنسبة للأغنياء (النبلاء) والفقراء. يتصور بعض الشعوب أن الفقراء يتحولون بعد الوفاة إلى حيوانات، بينما يؤول الأغنياء إلى أرواح إنسانية الشكل. وتعتقد قبائل أخرى أن أرواح الأغنياء والقادة فقط خالدة بينما تتفسخ أرواح الفقراء والمرؤوسين. في أثناء تفكك نظام الأفخاذ، يعود دور يزداد بروزا لعبادة الرئيس والقبيلة. ينتقل هذا منذ الآن كرمز لرفاه التعاونية. ويطلب منه أيضا النقاء المطلق: لا وجود للعاهات والجروح؛ لا تناول إلا الغذاء الخاص، مثلاً حليب قطيع معين. والقيافة تشهد على الازدهار العام: تزدهي قبائل الزولو المحاربة ببدانة زعمائها المفرطة، فبعضهم ينتقل أو يتحرك بصعوبة بدون معونة. لا ينشغل هؤلاء القادة بالإنتاج، تطول أظافرهم وتطول. وروح القائد المتوفى قوة سحرية واسعة، قادرة على مؤازرة الآخرين. فتطلب عبادة فخمة وتقديساً فريداً وفي أثناء محو ذكرى الوجود الحقيقي للزعيم، تصير روحه روح حامي القبيلة . هو ذا تعدد الآلهة الممزوج بالمعتقدات القديمة: فكرة السلف الحامي الإنساني الشكل تختلط بفكرة الطوطم وقوى الطبيعة. من هنا أدرك الله بداية إلهاً ـ حيواناً، إلهاً ـ شمساً، إلهاً ـ قمراً، الخ.فتشكلت تدريجياً شريحة مغلقة مهنتها إدارة العبادة. هي الاكليروس الذي يدعي أنه الأقرب إلى أرواح الجدود ويطلب لهذا السبب حق التأثير عليهم. فمن الآن وصاعداً، التأثير على الأرواح، أي على الطبيعة، هو امتيازها. مرتدياً ثياباً باذخة مزدانة بالتمائم، خافي الوجه وراء قناع حيوان، يصير الكاهن، المسلح بالطبلة وقضيبها الموروث، وسيطاً بين المجتمع وقوى الطبيعة: ومحتكراً هذا الحق، يحول الأفكار الساذجة في تمكنه من التأثير بالسحر على الحيوانات والنباتات بواسطة التأثير على المجتمع ذاته. ففي أيدي فئة مغلقة قليلة العدد تدافع عن مصالح النبالة،تصير العبادة الدينية في المجتمع المنقسم إلى طبقات وسيلة ضغط. والتفسير الخيالي لظاهرات الطبيعة التي تهيمن على الإنسان، يستغلها النبلاء، لاستعباد الكادحين، إخضاعهم لقوى فوق ـ طبيعية وللقوى الاجتماعية الجديدة. ويصير الدين أداة هيمنة في يد طبقة على أخرى.

لقد ولدت الطبقات والدولة في شروط وفترات متباينة. وهكذا، بفضل الري، يتوصل سكان وادي النيل، قبل اكتشاف البرونز إلى إنتاجية عمل تمكّن من تشكل طبقات. وفي هذه المنطقة، وكذلك فيما بين النهرين، تشكلت الدولة في العصر الحجري الجديد، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. في حالات أخرى، أمّن ارتقاء الزراعة واتساع التدجين

انقسام المجتمع إلى طبقات في عصر البرونز، كما لدى الحثيين وبعض شعوب آسيا الأخرى. إنما الأمر بالنسبة لأغلب شعوب أوروبا، آسيا وأفريقيا، يتفكك النظام العشائري ولا تظهر الطبقات إلا بعد خلق صناعة الحديد. وفيما يخص العالم الجديد، انتقل عدد صغير فقط من القبائل(بخاصة في المكسيك والبيرو)، عند اكتشاف أمريكا، إلى تفكك النظام العشائري وأسس أولى الدول. مع أن الحديد لم يكن قد عرف بعد.

اللوحة الأولى: تاريخ المجتمع البدائي

الأزمنة الجيولوجية	تاريخ مطلق	عصور وحقب	تشكل الإنسان	طبيعة العلاقات الاجتماعية
بليستوسين		العصر الحجوي الأدنى		
محطة قبل الجليدية	منذ مليون سنة	بريسليان	ظهور الإنسان	قطيع بدائي
	من ٤٠٠٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠٠	سليمان		
بداية المحطة الجليدية	من ١٠٠٠٠٠ ـ ٤٠٠٠٠٠	آشليان	إنسان نياندرتال	
التوسع الجليدي الأقصى	حوالي ٤٠٠٠٠	موستريان		
نهاية المحطة الجليدية	من ٤٠٠٠٠ ـ ١٢٠٠٠	العصر الحجوي الأعلى	الإنسان العاقل	بداية عصر الأمومة
الرابع....	من ١٢٠٠٠ ـ ٦٠٠٠	العصر الحجوي الأوسط		انطلاقه نظام العشائر
	من ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠	الحجر الجديد الأعلى		تفكك نظام العشير وظهور الطبقات في الشرق
	من ٣٠٠٠ ـ ٢٠٠٠	عصر البرونز		تفكك نظام العشير في المنطقة السهبية من أوروبا وآسيا
	١٠٠٠	عصر الحديد		تشكل الطبقات في اليونان وروما

الفصل الخامس

الشرق

تمهيد

بلدان الشرق القديمة:

في الشرق تكونت أولى الدول. الشرق القديم مساحة شاسعة يبدأ من مصر حتى الصين ويضم الجزء الجنوبي من آسيا وشمال ـ شرق أفريقيا. يطلعنا تاريخ شعوبه على ولادة وتطور أقدم دول العبودية، المبنية على انقسام المجتمع البدائي إلى طبقات.

يضم بلدان هذا الشرق شرط طبيعي فريد هو تتالي الوديان الخصبة مع أمصار واسعة صحراوية والسلاسل الجبلية. خمسة وديان واسعة نهرية: وادي النيل في أفريقيا الشمالية؛ وادي دجلة والفرات(ما بين النهرين)في الجنوب ـ الغربي من آسيا، قرب الخليج العربي، وديان الهندوس والغانج في الهندستان ووادي هوانغ ـ هو في الصين. تحد وادي النيل من الغرب الصحراء الكبرى؛ تتاخم بين النهرين من الغرب الصحراء العربية وفي الشرق سلسلة زاغروس؛ في الشمال والشمال الشرقي من وادي الغانج، تنتصب جبال هملايا؛ ويضم وادي هوانغ ـ هو في الشمال والشمال الغربي مناطق منغوليا الصحراوية.

إنها لوديان ملائمة جدا للزراعة. تروي فيضانات مجاري المياه هنا الحقول، المناخ حار، التربة ثرية ومهيأة للعمل. وقد بدأت الزراعة هنا قبل غيرها ـ وتطورت بسرعة.

في أثناء تاريخها، خلقت مجتمعات الشرق حضارات غابرة مارست تأثيرا عظيما على ارتقاء بلدان القديمة أوروبا. كانت الحضارات الأكثر نفوذا هي حضارات مصر، ما بين النهرين وبلدان وسيطة بين فلسطين وسوريا. أقامت

هذه البلدان، الواقعة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، علاقات تجارية وثقافية مع جيرانها، بما فيها مناطق الشاطئ الأوربي، التي أخذت قبائلها وشعوبها من مصر،ما بين النهرين،فلسطين،سوريا والهند الكثير من عناصر ثقافتها.انتقلت هذه المقتبسات إلى شعوب أوروبا الحديثة وصارت وقفا على الحضارة الأوروبية.

يبدأ تاريخ الشرق بتشكيل المجتمع العبودي والدولة، أي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد. لا يريد التقليد ان ينتهي التاريخ القديم بتوقيت أو حتى بقرن محدد: ففي الغرب، وصل بنا حتى انهيار إمبراطورية الفرس (القرن الرابع قبل الميلاد)، بينما استمر تاريخ الهند والصين حتى قيام النظام الإقطاعي، الذي بزغ في القرون الأولى للميلاد.

هكذا، كانت الأطر الإقليمية والمتسلسلة زمنياً للتاريخ القديم للشرق اتفاقية: لا يشمل بعامة تاريخ الايجيين قبل-الهللينيين، الذين عاشوا في الألف الثاني قبل الميلاد ولم يقيموا علاقات مع بلدان الشرق. كان المجتمع العبودي والدولة في الشرق ذا سمات نوعية يمكن معارضتها بالسمات القديمة اليونانية-الرومانية.

هذه السمات هي:

١ ـ تطور ضعيف للنهج العبودي، استمرار طويل للعبودية الأبوية وأشكال استثمار شبه ـ أبوية. ٢ ـ تطور ضعيف في ملكية الأرض الخاصة واستقرار مشاعة الجوار. ٣ ـ بناء فوقي سياسي مبني أساساً على سلطة ملكية عاتية(الـ"استبداد الشرقي").

لكنّا ونحن نشير إلى هذه الخواص الاقتصادية والسياسية، يجب أن نتذكر أنها لم تكن دوماً ملازمة لكل الدول؛ وبالتالي، كانت تظهر هنا خصائص واضحة للمجتمع العبودي الكلاسيكي. ومن جهة أخرى، حفظت دول اليونان والرومان القديمة ـ بخاصة في بداية تاريخها ـ كثيراً من العناصر النموذجية للأنظمة الاجتماعية في الشرق.

ليس ثمة أي فرق مبدئي بين دول الشرق والقديم الكلاسيكي: الخصائص الثانوية التي تميزها لا تمنعنا من تصنيفها في نفس الشكل الاجتماعي والاقتصادي.

يقدم تاريخ الشرق فائدة كبيرة: منها ولدت أول المجتمعات المقسومة إلى طبقات

ووضعت أسس الثقافة المادية والروحية التي تشبهت بها شعوب اليونان وروما وصارت أخيرا وقفا على الحضارة المعاصرة.

مصادر تاريخ الشرق القديم

يجب تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: نصوص يونانية ولاتينية، بقايا آثار ونصوص بلغات الشعوب الشرقية.

النصوص اليونانية واللاتينية، التي درست منذ زمن، والتوراة ،الذي سنتناوله فيما بعد، تقدمتها حتى بداية القرن التاسع عشر إعادة كتابة تاريخ الشرق القديم. إنها أعمال مؤرخي وجغرافيي العصور القديمة، الذين زار بعضهم مصر، سوريا وما بين النهرين، بينما بني البعض الآخر على معلومات متداولة أو فسروا كتبا اختفت الآن. بين هؤلاء الباحثين، يعين مكان خاص لهيرودوت، الكاتب اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، الذي ارتحل كثيرا، لا حظ وتحدث عن أعراف وعادات البلدان التي زارها؛ ويذكر أيضا خرافات كثيرة حول ماضي مصر ودول أخرى.

لكن كتابات هيرودوت أتت بأخطاء جسيمة انعكست على أعمال بداية القرن التاسع عشر. لقد عاش هيرودوت في نهاية التاريخ القديم للشرق: كان معاصرا لملوك فارس، لكن ٢٥٠٠ عام تفصله عن المراحل الأولى لتاريخ مصر وما بين النهرين؛ فضلا عن أنه لم يكن يعرف اللغات الشرقية. وإن كانت هذه الأخبار عن فارس ذات قيمة فعلية، فما يقصه عن مصر سطحي. متناقض وخرافي. فعمل هيرودوت لا يمكن أن يكون مصدرا إلا لدراسة الحقبة الأخيرة من التاريخ القديم للشرق. وينطبق هذا أكثر على باحثين أحدث(سترابون، ديودور، بلوتارك)الذين لا يقدمون سوى معلومات متفرقة غير مترابطة حول هذه المسألة أو تلك.

بين المؤرخين الذين كتبوا باليونانية، يجب تمييز الكاهن المصري مانيتون(القرن الثالث قبل الميلاد): لقد دخل دور محفوظات المعابد وأمل أن يطلع قراء اليونان على تاريخ بلدهم. للأسف، لم يحفظ كتابه ونحن لا نعرف منه إلا استشهادات واردة في أعمال لاحقة. وهذا ما وقع لأعمال الكاهن البابلوني بيروز، معاصر مانيتون، الذي حاول أن يكتب تاريخ ما بين النهرين.

إن نصوص الباحثين القدماء لا تتضمن إلا معطيات عجفاء حول التاريخ القديم

للشرق الأدنى؛ وقليلا ما تناولوا الهند(ثمة بعض الأخبار حول النظام الاجتماعي والسياسي لهذا البلد في حدود القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد في كتاب ميغاستيم، سفير اليونان لدى الهند، لكنه لم يصلنا إلا ناقصا)؛ أما الصين، يكاد مؤرخو القديم لا يعرفون عنها شيئا. لذا بقي العلماء حتى بداية الحفريات الأثرية في الشرق بدون وثائق حول تاريخه فلا يقدرون إنجاز دراسة معمقة عنه.

بدأت التنقيبات المنهجية في الشرق الأدنى في منتصف القرن التاسع عشر. كشف بوتا ولايار آثارا في القصور الملكية الآشورية. ثم سبروا خرائب مدن ما بين النهرين الأدنى، منها بابل ولاغاش. وشرع بأعمال ضخمة في مصر، حيث تدرس بقايا المعابد والقبور.

زودتنا حفريات نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ببعض المعارف الشرقية. فقد عثر ج. مورغن في مصر وغرب إيران على آثار سبقت ولادة المجتمع الطبقي؛ ودرس الإنجليزي فلاندر بتري بخاصة مدينة كاهون، ليس عنواحة الفيوم وفي آسيا الصغرى،قرب بوغاز_ كووي، سبر واكلر وماكريدي بي هاتوزا، عاصمة الحثيين.

كان نشاط علماء الآثار كبير الفائدة بخاصة فيما بين الحربين ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠. ففي هذه الفترة اكتشفت حضارة الهند القديمة (تنقيبات موهاندجو ـ دارو وهارابا في حوض الهندوس)، وتنقيبات عن مدينة صينية قرب آنيان، مقابر ومدن سومرية تخص المجتمع البدائي وأول مجتمع طبقي، دراسة المدن الأكادية (كيش، آشنوناك، الخ)، واكتشاف مملكة ماري في المجرى الأوسط للفرات ومدينة أوغاريت الفينيقية، وتنقيبات في شمال سوريا(مدينتا ألالا وسامال)وكثير من اللقى الأخرى التي غيرت بعمق أفكارنا حول تاريخ الشرق. وأعمال العشرينات والثلاثينات، المنفذة بمهارة رائعة كالتي وردت الآن، كشفت عن تجليات حضارة منسية حتى آنئذ أو يشار إليها لماما.

وتمت مكتشفات هامة في تلك الحقبة في مصر: نجحوا منذ ١٩٢٢ في العثور على رمس سليم لأحد الفراعنة، وقبيل الحرب العالمية الثانية اكتشف رمس آخر في تانيس. ورغم أن الرمس الأول (توتأنخامون) لم تعش سوى عدة سنوات وماتت شابة. ،والثاني(شيشانك الأول) الذي حكم في نهاية تاريخ مصر القديمة، يوم لم تعد البلاد تستطيع ادعاء السيادة في الشرق–الأدنى، فللرمسين أهمية استثنائية لدراسة تاريخ وثقافة مصر. وفي شامكارا

سبرت رموس أقدم ملوك وكبار موظفي مصر، أهمها رمس هيماكي الذي يعد أكثر من خمسين حجرة.

ليس لمكتشفات العقد الأخير أن تنافس لقى ماري وأوغاريت، هارابا وآلالاه، لكنها أضاءت بعض قضايا التاريخ القديم: لقد حددت تنقيبات تل-حسون (الآشوري) وأمكنة أخرى آراءنا حول بدء الزراعة والتدجين وحول ظهور مدن في الشرق-الأدنى، وتشهد حفريات جيزير، هاتسور، بيت-تسور مراكز أخرى في فلسطين على الثقافة الرفيعة لهذا البلد في العصر الكنعاني وتسهل بعمق إلقاء نظرة جديدة على تاريخه. وفي حلوان (مصر) بدأوا حفريات لمدينة أموات واسعة تعود إلى أيام تشكل الدولة المصرية، وفي الصين، قرب دانيان، اكتشف قبر ضخم من النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

تزودنا أعمال علماء الآثار السوفيات في شرق القفقاس وآسيا الوسطىأيضا بمواد رفيعة الأهمية: حرر ب.بيوتروفسكي خرائب حصن أورارتي في كارمير -بلور قرب ايريفان، ثم اكتشفت في نفس المنطقة بقايا قلعة أورارتي آخر على هضبة آريسن-بيرد. وعثر س.تولستوف وزملاؤه على عدد كبير من الآثار التي تتحدث عن تاريخ القبائل الرعوية وولادة دول عبودية في آسيا الوسطى.

فقد أغنى علم الآثار بعمق معارفنا حول معرفة الشرق، وأزال النسيان عن حضارات مهولة أو تكاد تكون غير معروفة. فحفريات مراكز قديمة ثقافية شرقية تأتي دوما بأنباء جديدة تدرس وتعمق معرفتنا. تضيء الحفريات قبل كل شيء الآثار المادية التي توضح بذاتها تاريخ الشرق الاجتماعي والاقتصادي: الأدوات، الفخاريات، عظام الحيوانات، وبقايا أخرى تكشف ارتقاء الاقتصاد؛ وترسم خرائب القصور والمساكن البسيطة صورة عن المدينة القديمة. فقد أعطت حفريات عالم الآثار م.زغونيم، الذي كشف سنة ١٩٥٤ قبر سخماحيت، أحد فراعنة الأسرة الثالثة غير المعروف حتى آنئذ، أعطت موادا هامة حول مصر. وأتاحت أعمال باروت في ماري إعادة تركيب قصر ملكي، ومعبد للإلهة عشتار، ومدرسة ملحقة بالقصر.وكانت البيوت الشعبية مبنية بطمي الأنهار.

وتشهد مقبرة ماري على فارق كبير في الثروة: فإلى جانب قبور بسيطة ترابية، وجدت قبور فخمة من البلاط الحجري. ولوحة مشابهة قدمتها مدن قديمة أخرى في الشرق، منذ كاحون في واحة الفيوم حتى آنيان على ضفة هوانغ-هو.

لكن البقايا المادية لم تميز العلاقات الاجتماعية إلا باختصار: فللحصول على صورة صحيحة لمجتمع العبودية، ولأشكال الملكية أو البنية الفوقية السياسة، لابد من الكلام عن التاريخ المدني. ونحن نولي أهمية خاصة لمعرفة الرسوم الموجودة على المواد الأكثر تنوعا: معدن، حجر، عظم، ألواح آجرية، البردي والرق. فلم تحظ أغلب نصوص لغات شعوب الشرق القديم بالدراسة إلا بعد حفريات القرن التاسع عشر والعشرين. بل إن بعضها فقط عرف (بخاصة باللغتين الصينية والهندية) استنادا إلى مخطوطات محفوظة في بعض المكتبات، وهكذا كان وضع التوراة.

إن التوراة، أحد أعقد مصادر تاريخ الشرق-الأدنى، فهو جمع لتقاليد من كل نوع ،خرافات سامية وبخاصة عبرانية، وجدت في حقب متباينة بدءا بالألف الثاني وجمعت حوالي القرن الثاني قبل الميلاد. تعرض قسم أساسي منه ولاشك لتحريفات وتعديلات مقصودة، خدمة لمصالح الكهنوت. التوراة هو كتاب العبرانيين المقدس، وبعدهم لبعض المسيحيين: وبعد زمن طويل اعتبر من وحي الله نفسه. فمن الطبيعي أن تقبل المعلومات الواردة فيه حول تاريخ العبرانيين وجيرانهم، في العصر الوسيط دون شكوك أو انتقادات. فقط، نقد التوراة، الذي تطور في النضال ضد الصورة للعصر الوسيط، الاقطاعي، عن العالم، هو الذي رفع الأقوال المكررة، والتناقضات والأخطاء الواردة في هذا الكتاب "المقدس". كان المبادر الأول لهذا النقد هو الفيلسوف المادي للقرن السابع عشر ب.سبينوزا، وقبله، آبن ايزرا، أحد علماء القرن الثاني عشر، الذي أشار إلى تناقضات في النص التوراتي. وتابع باحثون بورجوازيون آراء سبينوزا، (ج.ويلهوزن، س.مونكل وآخرون)، وخطا مؤرخون سوفيات (ن.نيكولسكي، آ.رانوفيتش) خطوة أخرى على هذا الطريق: عوضا من الاكتفاء بالنقد الأدبي البحث للنص، جهدوا في تحرير الآراء الاجتماعية في كل كتاب والأصول الاجتماعية للتعديلات والتحريفات التي أدخلها المنقحون لأغراض معينة ،أولها خدمة الأكليروس قديما وخدمة للسياسة حاليا. ولقد دعمت نقد التوراة النصوص العبرية القديمة المكتشفة في العام ١٩٥٠ في الأردن؛ تعود هذه النصوص إلى الحقبة الممتدة من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثاني بعد الميلاد ،وتتضمن فيما تتضمن أجزاء من التوراة تختلف بشكل ملموس عن النص التقليدي، المعروف في نسخات القرن الوسيط.

يدل هذا أن معطيات التوراة لاتساهم في دراسة تاريخ الشرق الأدنى (مبدئيا في الألف الأول قبل الميلاد) إلا بشرط تمحيصها بحذر وأستذة.

أهم بما لايقاس، من وجهة النظر التوثيقية، الكتابات المصرية، السومرية، الأكادية، الحثية، الأورارتية ،وغيرها التي عثر على أغلبها في أثناء التنقيبات. كان علماء من القرن الثامن عشر قد اطلع على هذه الآثار (نقوش على الصخر والجدران، والبردي)، لكن أحدا لم يستطع أن يتقصاها، لأن فن قراءة الهيروغليفية (وهي كتابة أغلب شعوب الشرق الأدنى) كان قد أهمل تماما وقبل دراسة هذه النصوص، كان يجب تعلم إزالة رموزها.

كان شامبوليون قد حل إشكالية الكتابة المصرية المعروفة بثلاثة أشكال، منذ العام ١٨٢٢. اعتمد على نقش مسمى "حجر الرشيد، أو صخرة روزيت"، الموجود في مرفأ مصري بهذا الاسم. تكرر النقش ثلاث مرات: باليوناني، بالهيروغليفي القديم وبحروف ديموطية (سريعة مصرية من أصل أحدث).

كشفت قراءة النص اليوناني أن هذا قرار الفرعون بتوليمية الخامس، بنقوش على الصخرة باللغة المصرية (مرتين) وباليونانية. فحصلنا على ترجمة النص المصري. كان معروفا قبل شامبليون، أن الأسماء الملكية محاطة بإطار بيضوي، اسمه "كرتوش" بفضل كرتوش، حدد شامبليون الحروف الهيروغليفية التي تشكل اسم الفرعون ووجد مفتاح الكتابة المصرية.

وبالطريقة ذاتها، قرأ في نقوش أخرى أسماء كليوباترا، بيرينيه، الكسندر، ثم حلل رموز الأسماء المصرية تحوتمس ورمسيس. وبامتلاكه عددا كبيرا من الشارات قرأ الأسماء ونصوصا كاملة. ومعرفة اللغة القبطية (لغة مصرية مسيحية)، والعربية والعبرية أعانته على تذليل هذه المهمة. وضع معنى لكثير من التراكيب الهيروغليفية وأنشأ كتاب صرف ونحو (قواعد) مصرية. ومنذئذ، صار للغة المصرية أساس متين.

ولقد تم حل رموز الكتابة المسمارية على يد غروتغاند واولنسون.

في العام ١٨٠٢، نجح غروتغاند، بقوة المثابرة والطروح المبتكرة، بترجمة القسم الأعظم للنقش الفارسي لأيام كيركسس، المرسوم بثلاثة أنماط من الحروف المسمارية. لكنه لم يجد معنى لكل الإشارات، المسألة التي أقلقت علماء العالم قاطبة طيلة نصف قرن

تقريبا. كان نص بابل هو النص الأصعب، الذي تمثل شاراته مقاطع وكلمات كاملـــة، دون الاهتمام أن كل شارة لها عدة معاني. وكانت الكتابة المسمارية البابلية قد حلــت رموزهــا نهائيا حوالي العا م١٨٥٠م، حصيلة لاكتشاف راولنسن نقشا ضخما للملك داريوس بثــلاث لغات -*susienne*، الفارسية القديمة والبابلية- على صخرة بأستون ***be'histoun***. كـــان النص الفارسي، وقد قرئ بدون صعوبة، يتضمن حوالي ٢٠٠ اسم ملك، وبلـــد وشـــعب. الأمر الذي مكن راولنسون ، هانكس وأوبيرت من حل لغز الجـــزء الفارســـي أولا، ثـــم الجزء البابلي من النقش؛ باستخدام لويحات مدرسية، وجدت آنئذ في بقايـــا قصـــر آشـــور بانيبال. كانت تحمل، إلى اليسار، شارات تمثل كلمات تامة (رموز فكرة)، وإلـــى اليميـــن، ذات الكلمات مرسومة بمقاطع وشارات صوتية. فالكتابة المسمارية المستخدمة فيمـــا بيـــن النهرين كانت إذن بالغة التعقيد وتبدو بثلاثة أنواع من الحروف: رمـــوز فكـــرة، مقطعـــي وصوتي-رمزي ***phonogramme***.

كانت قراءة النصوص الحثية والأوراتية سهلة، لأنها كانت بالحروف الأكادية؛ لكنـــها كانت صعبة على الفهم، لأن العلماء كانوا يجهلون هاتين اللغتين. ومنذ منتصـــف القـــرن التاسع عشر حاول العالم الانجليزي سايس قراءة وترجمة عدة نقوش أوراتية؛ فقـــد أقـــام عالم الأسلحة ك.كاتكوف لدراسة هـــذه اللغـــة وســـاعده عـــالم الآشـــوريات المعـــروف م.نكولوسكي والعالم السوفياتي ج.فلكشفيلي. وبدأ ب.هروزني بدراسة اللغـــة الحثيـــة فـــي أثناء الحرب العالمية الأولى؛ وفي العام ١٩٥٢، نشر ج.فريدرك اول قاموس حثـــي. والآن تحقق تقدم واسع في قراءة النصوص المسمارية. وبالتتابع حل أربعة علماء رموز الرُّقـــم الفينيقية لكتابة الأبجدية.

كانت الهيروغليفية الحثية صعبة على الفهم؛ لكن تنقيبات كارا-تيبي (فـــي سيليســـيا) التي جرت في العام ١٩٥٠ زودت العلماء بنقوش مزدوجة اللغة من القرن الســـابع قبـــل الميلاد، بحروف فينيقية وهيروغليفية حثية. وهكذا وضعت القاعدة اللغوية الضرورية لـــهذه الدراسة.

لم تحل رموز الكتابة الهيروغليفية للغة الهندية القديمة، التي اكتشفت آثارها في أثنـــاء التنقيب في موهاندجر-دارو وهارابا. فضلا عن ضرورة بذل جهود كـــبرى أخـــرى مـــن اجل لغات الشرق الباقية: تحديد القواعد، تأليف المعاجم، تحقيق صحة القراءة. فليس بـــدون

سبب يرى العلماء أنفسهم مضطرين باستمرار على تغيير تدوين أسماء العلم، التعابير، وتصحيح الترجمات الموجودة.

إن النصوص بلغات الشرق القديمة بالغة التنوع. يمكن تصنيفها في عينتين رئيسيتين: وثائق وأخبار. ينتسب للعينة الأولى قبل كل شيء القوانين. عدا التشريع العبراني، الملحق بالتوراة، يجهل علماء القرن التاسع عشر قوانين دول الشرق القديمة: ففي عامي ١٩٠١-١٩٠٢ اكتشفت شريعة حمورابي، ملك بابل. ثم، اغتنى العلم بشرائع أخرى (مقاطع متناثرة غير كاملة ولا مترابطة) من ملوك مابين النهرين، الحثيين، الآشوريين؛ وقد اكتشف حديثا في توما الجبل (هرموبولس القديمة) أجزاء من الشريعة المصرية تخص الملكية، الإيجار والميراث.

تتألف أغلب المصادر الوثائقية من نصوص رسمية: علاقات الموظفين، عناوين الشراء، كتب العبادة، أعمال التبادل، عقود الإيجار، قرض وإيداع، إلخ. في أثناء التنقيب في مدن ما بين النهرين المنخفضة (شورباك، لاغاش، لارسا وغيرها)، جمعت مئات آلاف الرقم الآجرية تحمل وثائق من هذا الشكل، التي تتيح -بسبب عددها ذاته- التغلغل في حياة البلاد الاقتصادية في الألفين الثالث ةوالثاني قبل الميلاد. واكتشف أرشيفات مشابهة في مدينة كحوريت دي نوزي، في ماري، في مركز مقاطعة غانيز وغيره. وظهرت بعض الرقم في حفريات كارمير-بلور. وقد نشرت الرقم المسماة "الكنز"، أصول بيرسبولس، مصادر ثمينة لدراسة موضوع ما يزال مجهولا: وضع المنتجين المباشرين في فارس القديمة. أما الوثائق المصرية، البردي أو الحجارة والصخور المنحوتة، فقد وصلتنا بعدد أقل بكثير من عدد الرقم الآجرية؛ فضلا عن أنها تعود إلى أيام السيطرة الفارسية.

المكان الهام تحتله الوثيقة المسماة "اكتشاف حران"، لائحة بمواطن المعمرين الآشوريين في هذه المنطقة، بما فيها المواشي، الأعمال الهيدروليكية، والعبيد، إلخ.

تتضمن المصادر الوثائقية أخيرا رسائل الأشخاص المتميزين، الموظفين والملوك، الواصلة إلينا بعدد كبير؛ أهم هذه المراسلات هي رسائل حمورابي، التي تعالج مختلف القضايا الاقتصادية، الإدارية والمالية. وثمة مجموعتان من الرسائل لها أهمية كبرى لفهم تاريخ السياسة الخارجية في الشرق الأدنى: أرشيفات ملوك ماري التي تجلو العلاقات بين

بابل، بلد ماري، وآشور في النصف الأول من القرن الثامن عشر قبل الميلاد، والرسائل المسماة تل الحمارنة، المرسلة إلى الفراعنة آمنوفس الثالث وأخناتون (نهاية القرن الخامس عشر-بداية الرابع عشر قبل الميلاد) من المتنفذين السوريين وملوك آشور،بابل، ميتاني ودول أخرى. وجدت في مكان عاصمة أخناتون، التي تقع خرائبها قرب تل الحمارنة.

تشكل بعض النصوص التاريخية أهم المصادر الإخبارية. هي النقوش الموقوفة للحملات العسكرية، التي نحتها الفراعنة على جدران المعابد الخارجية؛ سير أو تراجم شخصية كاملة للملوك، مثل سيرة إيدريمي، ملك آلاش (القرن الخامس عشر قبل الميلاد)، منقوشة على نصب؛ وقائع تاريخية تشبه واقعات الحثيين، تتحدث بالتفصيل عن النزاعات في السياسة الخارجية بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

ونموذج آخر من المصادر، النصوص الادبية، الأخبار، الحكايات والخرافات التي تطلعنا ليس فقط على تاريخ الثقافة الروحية، إنما على العلاقات الاجتماعية أيضا.

هكذا، يمتلك العلماء الآن نصوصا متنوعة مكتوبة بعدة لغات شرقية. يزداد عدد هذه النصوص من عام إلى آخر. وهي المصادر الرئيسية لدراسة تاريخ الشرق.

دراسة تاريخ الشرق القديم

رغم الأعمال الحثيثة، منذ القرن الثامن وبداية التاسع عشر، لمباشرة دراسة تاريخ الشرق القديم، لم تتمكن هذه المحاولات أن تنجح؛ فنقص المصادر جعل الكتابات خيالية وسطحية. فقط تكديس المعطيات الأثرية وحل رموز الكتابة خولت العلماء في النصف الثاني من القرن الماضي الانتقال من المخططات النظرية إلى محاولة إعادة كتابة تاريخ مصر ومابين النهرين استنادا إلى معطيات ملموسة ومحددة. اكتفى بعض دارسي مصر وآشور بعامة بنشر النصوص والتعليق عليها، لكن في نهاية القرن التاسع عشر ظهرت مؤلفات توليف جمعي لـ آد.إيرمن، ج.ماسبيرو وغيرهما.

في هذه الحقبة إذن انبعثت قضية العلاقات بين الحضارة المكتشفة وحضارات الشعوب القديمة الأخرى؛ أرادوا حلها بنظرية الوحدة البابلية، لواضعيها العالمين ف.ديليتزش وهـ.وينكلر. تتضمن هذه النظرية ولاشك فكرة صحيحة: بمقارنة الخرافات البابلية بالأساطير التوراتية (وفيما بعد، بعد اكتشاف شريعة حمورابي، الحق البابلي إلى

الحق العبري، استخلص ديليتزش ووينكلر أن التشريع والخرافات الـواردة فـي التـوراة ولدت بتأثير الثقافة البابلية، الأقدم جدا من العبرية. إنه استنتاج هام يساعد بخاصة في نقـد التوراة. لكن أنصار هذه النظرية (الوحدة البابلية) لم يقفوا عند هذه الملاحظـة الصحيحـة (بل الفريدة): إنما عمموها مدعين أن الحضارة الإنسانية كلها تأخذ جذرها من بابل، التـي كانت مهد الثقافة المصرية، اليونانية، الصينية وحتى البيروويـة (نسبة إلى البيرو).

هكذا وصلوا إلى خلاصة خاطئة كليا ،وهي أن القيم الرئيسية للحضارة خلقت حتـى نقطة معينة (في بابل)، لتشع بالتالي في أنحاء العالم قاطبة.

ليس هذا كل شيء. بل على تخوم القرنين التاسع عشر والعشـرين، حينمـا كتـب وينكلر أعماله، لم تكن الثقافة القديمة السومرية قد كشفت بعد وكان العلماء يجـهلون ولادة الحضارة السومرية البابلية. لذا اتسمت الثقافة البابلية، كما يتصورهـا وينكلـر، بصبغـة أسطورية: وكأنها سابقة الوجود، انبعثت جاهزة في لحظة معينة، كما أثينا التـي خرجـت من رأس زيوس مسلحة.

وبعبارة أخرى، العيب الأساسي في نظرية الوحدة البابلية، هو جحودهـا الارتقـاء؛ الأمر هام جدا بالنسبة لنظرية ظهرت في ظل الامبريالية.

لقد انتقدها بعض العلماء البورجوازيين، في مقدمتهم إد.ماير، مؤلف تاريخ العصـور القديمة (١٨٨٤-١٩٠٢) في عدة مجلدات، الذي يتضمن فضلا عن الشرق الأدنى اليونـان وروما. استنادا إلى دراسة مصادر عديدة، يتضمن كتاب ماير الكثـير مـن الملاحظـات والخلاصات الهامة. كان المؤلف محقا في استقائه وجهة نظر التاريخ العام ليدلـل علـى طريق التطور الوحيد لشعوب العصور القديمة. لكنه أخطأ الدرب، لأنه عصـرن التـاريخ القديم، غير مبال بطبيعة مجتمعاته العبودية وقدمها كإقطاعية في الحقبة الأولى من عـهدها وكرأسمالية في الحقبة التالية. إن هذا التعليل اللا-تاريخي للنظام الاجتماعي لبلدان الشـرق القديمة اتبعه كثير من الباحثين، مثل ج.هـ.بريستد الذي يجد في تـاريخ مصـر، حقبـة التفكك الإقطاعي والاستبداد المستنير. ولقد عاشت نظرية الإقطاع الشرقي فـي العصـور القديمة حتى يومنا هذا وهي بادية في مؤلفات ل.ديلابورت "شعوب شرق البحر الأبيـض المتوسط" (١٩٤٨) وكتاب ي.درتون وج.فياندير "مصر" (١٩٥٢).

ثمة علماء في الغرب يتبنون التأريخ الفاشي، ويدرسون تاريخ الشرق القديم بـالروح

العرقية، ويقيمون من القبائل الهند-أوربية (الآرية) عرقا متفوقا، حامل التقدم، ومن جهة أخرى، ينادون بالملكية المستبدة باعتبارها خير الأنظمة.

يحاول آخرون بعفوية إعطاء دورة التاريخ تعليلا ماديا فتوصلوا، بدراسة ذات المصادر، إلى وعي خصائص ارتقاء مجتمع الشرق القديم أو نظامه السياسي. نذكر هنا ت.هـ.جاكوبسون الذي شكك، في كتابه المخصص للنظام السياسي لأولى الدول السومرية، بالنظرية الرجعية حول خلود الاستبداد الشرقي. ويهتم المؤرخون الأجانب الحاليون بحيوية بولادة الحضارة في الشرق؛ وأعمال المؤرخ الانكليزي ج.شيلد تعالج هذه المسألة. ويهتمون أكثر فأكثر بالبلدان الواقعة وراء "الشرق الكلاسيكي": الهند والصين.

لكن رغم النتائج القيمة، ورغم وفرة الوثائق، لم يستطع العلم البورجوازي المعاصر أن يؤلف التاريخ القديم للشرق؛ يشهد على ذلك المجلد الأول من "تاريخ الحضارات القديمة" المنشور في باريس ١٩٥٣، ومؤلفات مثل "تاريخ العالم" (بيرن، ١٩٥٢-١٩٥٦)، "شعوب وحضارات" (باريس، ١٩٣٦-١٩٥٣). والنظرة المثالية للعالم، المبالغة بدور الدين، إهمال قضايا العبودية، الملكية، المجتمع المجاور، النضالات الاجتماعية، الحفاظ على نظرية الركود، وغيرها من السمات النوعية لأغلب المؤلفات المعاصرة حول تاريخ الشرق.

تسلسل الأحداث (تاريخيا)

إن تسلسل الأحداث واحدة من أعقد قضايا تاريخ الشرق. فالشعوب الشرقية تؤرخ الأحداث استنادا إلى سني الملك أو غيرها من الظاهرات الطارئة (" السنة التي تلت تأسيس دورماتي")؛ فليس ثمة نقطة انطلاق عامة. ولتثبيت تسلسل الأحداث في الشرق تستخدم لوائح الملوك والأسر المالكة مع إشارة لمدة الملك؛ لوائح الملوك الآشوريين، مثلا كاملة وتتيح تدوين واقعات التاريخ الآشوري انطلاقا من العام ٩١١ قبل الميلاد. تستخدم وثائق مشابهة لتسلسل الأحداث في أزمنة غابرة. هكذا وضع مانيتون لائحة الأسر المالكة المصرية، ويردي تورين تعطي لائحة الفراعنة (مع ثغرات ضخمة، لغير هذا، وليس لتاريخ مصر كله). والعلماء أيضا لم ينجحوا بإعادة كتابة إلا تسلسل الأحداث النسبي (تتابع) أحداث الألف الثالث والثاني قبل الميلاد؛ وذكر الظاهرات الفلكية في النصوص

القديمة كانت تخول الباحث من تحديد تسلسل الأحداث المطلق لبعض الفترات التاريخية؛ لكن بخصوص الألفين الثالث والثاني لاتذكر منها سوى القليل. والتزامن الوارد في بعض الوثائق (منها رسائل تل الحمارنة) يذكر رجال السياسة المعاصرون وسبل تحقيق التواريخ.

ساهمت كل هذه العوامل لوضع التسلسل الحدثي العام الذي حدد، مثلا، ملك حمورابي في القرن الواحد والعشرين ،أو العشرين قبل الميلاد. لكن المراسلة الدبلوماسية التي وجدت في ماري و"اللائحة الملكية كورساباد" التي نشرت في١٩٤٢-١٩٤٣ مكنت من مراجعة كل التسلسل الحدثي في الشرق. وكما دل وا.ف.البرايت، يجب "تقليصها" و،بخاصة، حكم حمورابي يعود إلى القرن الثامن عشر. أيدت هذه النتيجة الطبقية لما اكتشف في ألالاه وأوغاريت، التي تشهد على تشابه كبير بين فخاريات أيام حمورابي والقرن الخامس عشر قبل الميلاد. لايمكن قبل فارق ٥٠٠ عام، فضلا عن العثور على آثار من عهد حمورابي في طبقة أرضية أحدث من تلك التي حوت الأشياء المصرية من عهد أمينمحيت الثالث؛ وإن دراسة التقويم المصري حددت منذ زمن بعيد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قبل الميلاد.

حتى اليوم لم تحل كل قضايا الخلاف حول تسلسل الأحداث في الشرق، وكثير من العلماء يفضلون على التسلسل "القصير" لأولبرايت التسلسل "الوسطي" الذي يطرحه س.سميث وأ.أنياد. لكن القول بثقة أن التسلسل "الطويل"، المعمول به قبل الحرب العالمية الثانية، فات زمانه. وستفضي مكتشفات جديدة إلى تحديد أكيد لتسلسل الأحداث في مابين النهرين ومصر.

لم يعد تسلسل أحداث البلدان الأخرى للألف الثاني (مملكة الحثيين، ميتاني، سوريا، إلخ) إعدادا مرضيا، وسيوضح في الأغلب بفضل التزامن مع تاريخ بابل ومصر.

الفصل السادس

ســومر وأكاد

جغرافيا مابين النهرين

إن وادي دجلة والفرات، الذي حمل الاسم الإغريقي ميزبوتامي ("بلدان مابين النهرين")، هو مهد الدول التي تعد بين الأقدم في العالم.

ينبع دجلة والفرات من جبال أرمينيا. في البداية، يكونان قريبين جداً من بعضهما، ثم يتباعدان جداً ولايقتربان مرة اخرى إلا عند دخولهما أرض العراق الحالي. هنا يبدأ الوادي المسمى ميزوبوتامي. يقسم الوادي قسمين، الأعلى والأدنى، يختلفان في شروطهما الطبيعية.

في الغرب، يتاخم ما بين النهرين أرض العرب على طول الوادي تقريباً؛ في الطرف الشمالي الغربي فقط، في القطع الأقرب إلى البحر الأبيض المتوسط، ينضاف إلى وادي أورانت الخصب. في الشرق، على طول ميزوبوتامي، تنتصب جبال زاغروس التي تفصلها عن إيران. يصب ميزوبوتامي في الخليج العربي. لعب هذا الوضع الجغرافي دوراً هاماً في تاريخ البلاد القديم. كانت الشعوب التي تقطنه في صراع مستمر مع القبائل الجبلية والسهبية الراغبة في ولوج الوادي الخصب واحتلاله. أما العلاقات التجارية والثقافية، كانت شعوب الميزوبوتامي تباشرها مبدئياً مع بلدان البحر الأبيض المتوسط (عن طريق وادي الأورانت).

تتألف تربة الميزوبوتامي- الأسفل بخاصة من الطمي. من الألف الرابع حتى الألف الأول قبل الميلاد، كان الشط الذي يحده الخليج العربي إلى الشمال مما هو عليه الآن ب ٢٥٠ كم تقريباً، وكان لدجلة والفرات مصباتها الخاصة. في الأزمنة الغابرة، كانا يصبان ولاشك في البحر في النقطة الأكثر تقارباً بينهما الآن. وتربة الطمي للميزوبوتامي الأسفل خصبة جداً. لكن حراثتها تكلف الناس بذل جهود مضنية.

تتأتى الصعوبة أساساً من جفاف الصيف ، والاجتياحات التي يسببها الفيضان. فتفيض الأنهار على مساحة أرضية واسعة تبقى غارقة حتى شهر تموز. وأثناء الفيضان وبعده، حتى تشرين الثاني، يكون الطقس جميلاً، وتجف التربة بالتدريج، لكن بصورة غير منتظمة أبداً. في المناطق العالية، يتم الجفاف عاجلاً، وتقسو التربة كالحجر، وتتشقق؛ وفي المنخفضات، بالعكس، يتجمع الماء ويشكل أهواراً، مواطن للحميات. إن لم تحارب هذه الشروط السلبية يعاني الشعب الجوع والأمراض التي تهلكه. هذا مايكشفه لنا التاريخ الحديث والمعاصر للميزوبوتامي. لكن الجزء المنخفض من هذه المنطقة كان في العصور القديمة مناطق خصبة تغذي جماهير غفيرة؛ وفي ذلك العصر، كان عمل الأجيال العديدة قد خلق شبكة معقدة من المنشآت التي تنظم الفيضانات وتؤمن احتياطات من الماء من أجل الفصل الجاف.

كان فقدان المواد الأولية (الحجارة والمعادن)، بشكل تام تقريباً، وهو مالا غنى عنه لتطوير الاقتصاد، إحدى سمات هذه المنطقة. ومن حيث الشجر، لاينبت هنا سوى النخيل، ثماره غذاء، لكن خشبه ليس مادة بنائية. كان الغضار هو الثروة الوحيدة: يصنع منه الآجر، والأواني وحتى الرُقم للكتابة.

أما في الميزوبوتامي الأعلى، التربة والمناخ شيء آخر، فيضاناته أقل إيذاء. وحياته الاقتصادية أيضاً وأخلاقه مختلفة.

تشكل الطبقات والدول في الميزوبوتامي-الأسفل

أقدم قرية اكتشفت في الميزوبوتامي هي تل-حسون، في شمال البلاد: من العصر الحجري القديم والألف الخامس تحديداً. في هذه المنطقة سارع الناس نحو الزراعةالبدائية. وهنا أقام أوائل المزارعين والمدجنين. ويرى كثير من العلماء أن الناس انتقلوا من هنا في بداية الألف الرابع إلى ميزوبوتامي-الأسفل (سومر) وشرعوا يصلحون الأراضي السبخية في مجرى الفرات الأدنى.

لقد استقر الشعب السومري قديما على المرتفعات التي لاتصلها الفيضانات. كانوا يعيشون من الصيد، من الزراعة بالمنكاش، ومن تربية المواشي، و يصنعون الخزف الملون وأدوات نحاسية (الخطاطيف، السكاكين، إلخ). كان الناس يقطنون أكواخا من آجر وخيزران وكانوا أيضا يجهلون الفارق الاجتماعي والرزقي، كما تشهد وحدة شكل القبور

والمآتم. ونصب المرأة الآجرية المكتشفة، تجعلنا نقول أن عهد الأم في سومر دام حتى النصف الأول من الألف الرابع.

لقد وسعت منشآت الري كثيراً القوى المنتجة، لأنها أمنت سقاية الحقول بشكل منتظم، لمنع التربة من الانهيار والسبخية. وكانت المياه الزائدة تساق من الأمكنة المغمورة نحو مجمعات وغدران، وفي وقت الجفاف، يصل ماء التجمعات والأنهار نفسها إلى الحقول بالأقنية. ولاتقاء اجتياح الأراضي المنخفضة، تحاط بالسدود. بداية، كانت أعمال الري تتم بمآزرة هذه المشاعة العشيرية أو تلك، لكن إنجازها على مدى واسع كان يتطلب توحيد جهود عدة تعاونيات.

لقد أفضى التطور اللاحق للقوى المنتجة إلى تفكك النظام المشاعي البدائي وإلى تشكل طبقات اجتماعية. فالأعمال الفنية في النصف الثاني من الألف الرابع تمثل معارك، مقاتلين على العربات، واتخاذ أسرى. ثم ينحدر الأسرى إلى عبيد ويستخدم عملهم في اقتصاد النبلاء أو في بناء منشآت للري.

ترافق هذا التقدم الاجتماعي الهام مع تبدلات ثقافية عميقة: ظهور الكتابة (بداية نقشية)، بناء صروح دينية (معابد) من الطمي الغضار. ولقد وصلتنا من ذلك الزمن نقوش عديدة تمثل مشاهد الصيد أو العبادة وأختام دائرية، الأولى في ميزوبوتامي: يدحرجونها على الآجر الطري حيث تترك بصمة تخدم مثلا كإشارة على الملكية الخاصة.

يربط مؤرخون بورجوازيون مثل سبيسر وباروت هذه التطورات الاقتصادية والثقافية بغزو عروق جديدة: وإلى هذا الزمن يرجعون غزو السومريين، الآتين من الخارج، حاملين الكتابة، النقش أو الحفر والأختام وفق البناء الدقيق والجميل. إن هذه النظرية التي تنكر ،إجمالا، فكرة الارتقاء التقدمي وتقيم مقامه تقدم هجرة شعب ما هجرها بعض الأخصائيين الغربيين بخاصة فرانكورت وشيلد اللذين أثبتا وجود استمرارية بين السكان الزراعيين البدائيين لميزوبوتامي الأسفل وسومري النصف الثاني من الألف الرابع. لذا يدعو شيلد سكان هذه المنطقة الأقدمين قبائل جدود السومريين.

تظهر طبقية المجتمع ثابتة في الخفريات التي كشفت مدينة الأموات الملكية في أور، في جنوب سومر (بداية الألف الثالث). بخلاف قبور العشير. كانت مدينة الأموات هذه مبنية بالآجر، مؤلفة من عدة غرف؛ والميت المزدان بالحلي كان مدفونا مع عربات مقرونة

إلى ثيران، ومحاربين مسلحين، وفصيل من العبيد من الجنسين. وقبور الملـــوك فـــي أور (ومراكز أخرى من ميزوبوتامي، مثل كيش وماري) تشهد على تشكل الدولة في هذه البلاد في بداية الألف الثالث.

في الأصل، تشكلت هنا دول مستقلة (أريدو، أور، شوروباك، أوما، لاغاش، ليـــش، ماري، إلخ)، كان سكانها غير متجانسين: أكاد، الواقعة في شمال سومر، والمجرى الأوسط للفرات تسكنهما قبائل تختلف عن السومريين، من حيث الشكل واللغة. تتكلمان لغة ســامية (الأكادية) وتقرب قبائل السهوب التي تعيش في غرب ميزوبوتامي؛ لاشك في أن ســـاميي أكاد أتوا من الغرب.

مع ذلك، لم يكن السومريون والاكاديون في بداية الألف الثالثـــةيختلفون مـــن حيـــث مستوى التطور الاقتصادي: كان الشعبان يشكلان دولا عبودية في محطتها الأولى.

اقتصاد ومجتمع سومر وأكاد

إن نصوصا عديدة رسمية (آتية بخاصة من أرشيفات شـــوروباك ولاغـــاش تطلعنـــا بالتفصيل على اقتصاد ميزوبوتامي في منتصف الألف الثالث. أساس الزراعة يقوم علـــى الري، شبكة واسعة من الأقنية، السدود والحراجز التي تتيح سقاية منتظمة للحقول. ويتـــم العمل بالأرض بواسطة محراث بسيط من الخشب، تجره الحمير أو الثيران؛ وكان المنكاش مستخدما بتوسع. والمنجل منشار من صوان بغمد آجري. يقطع ساق القمح بعامـــة تحـــت السنبلة تماما، وبعد الحصاد تجلب الماشية إلى الحقول. لدرس السنابل، تدوسها على البيـــدر الثيران والحمير. يجمع الحب في أكوام، يذرى بالمذراة وينقل إلى الاهراء. ثم يـــهرس أو يسحق بالحجر.

كانت الحبوب الأكثر انتشارا هي الشعير والحنطة الرومية التي تستخدم لصنع الخـــبز والجعة. وكان السومريون يزرعون الكتان، العدس والسمسم لاستخراج الزيت. والشـــجرة المثمرة الأهم هي النخيل؛ من خشبها تصنع الأوعية المنزلية، وبأليافها –الحبال والحصـــر؛ تشكل ثمارها أغذية منوعة. وبذورها المنقوعة بالماء تستخدم علفا. وتـــأتي الكرمـــة مـــن سومر، وكان خمر الشمال هاما بشكل عام.

كانت تربة المواشي أيضا متطورة في ميزوبوتامي السفلى: فالنصوص الأقدم تذكـــر وفرة الغنم. ترعى المواشي في المراعي المستنقعية والجبليـــة؛ وفـــي الزرائـــب، تغـــذى

بالحبوب. وتعطي الأبقار اللحم والحليب الذي يصنعون منه الزبدة والجبن؛ وتربى الخراف للحمها وصوفها؛ وكما قلنا آنفا، تستخدم الحمير والثيران دابة ركوب. لم يعرف السومريون الحصان. أخيرا، لعبت تربية البط والحبش دورا واسعا.

ينتج من هذا أن الأشكال القديمة بحثا عن الغذاء -الصيد والقنص- تراجعت إلى المقام الثاني، رغم أن جمهرة من الميزوبوتاميين استمرت في العيش على الصيد.

بقيت الأدوات حتى الألف الثالث بدائية جدا: أغلبها من الحجر والآجر، كان النحاس قد ظهر منذ الألف الرابع، لكنهم لم يتعلموا صنع البرونز إلا في النصف الثاني من الألف الثالث. بالمقابل، كان الفخار السومري، الحرفي حتما، يستخدم في صنع الأواني والأوعية المشوية. وكان النجارون يعرفون صناعة العربات والقوارب، ويطرق صناع السلاح الخناجر والسهام. والثياب منسوجة من الصوف والكتان، وأسلحة الوقاية هي من جلد. ويتقن الجواهريون صناعة الحلي من الذهب والفضة والحجارة الثمينة.

تقنية بناء المسكن بدائية تماما: البيوت البسيطة من الغضار والخيزران، وتشاد المعابد والقصور فقط من الآجر الغريني. تزدان هذه الصروح بنقوش قليلة البروز استمدت عناصرها من الأسطورة والتاريخ.

طبعا، لم يكن الحرفي منعزلا أبدا عن الزراعة وتجهيز الإنتاج البضاعي. على ذلك، ومنذ الألف الثالث، يستورد السومريون من بعيد المعدن والصخور أو الحجارة، وخشب الأرز والخمر. كانت طرق المواصلات الرئيسية هي الفرات ودجلة وكذلك الأقنية الواسعة الفاصلة بينها. وتنقل كل الأحمال على ظهور الحمير.

والشكل الاستثماري الأقدم، الناجم عن التطور الكبير بقوى الإنتاج، هو استغلال عمل العبيد. وحسب إحصائيات (تقريبية جدا طبعا) لـ أ.دياكونوف، كان عبيد لاغاش يشكلون نصف السكان، في أواسط الألف الثالث، وعدد النساء يتجاوز عدد الرجال. كانت المصادر الرئيسية للعبودية الحروب وشراء العبيد من البلدان المجاورة (بعامة قليلة العدد)؛ واستثناء، كانوا يشترون الفتيان. وتحول الناس المدنيين الأحرار إلى عبيد، لم يكن في البدء موجودا: أشير إلى هذا الأمر لأول مرة في وثائق القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

كانت العبودية في سومر وأكاد ذات طبيعة أبوية: لايحتل العبيد حيزا خاصا بهم في الإنتاج ويعملون بالتساوي مع الناس الأحرار، وغالبا في عمل واحد. كان كدحهم مستغلا

في المنزل؛ ويرسلون أيضا لبناء منشآت الري، وإلى حراثة أرض البقول وبساتين الثمار؛ كان ثمة عبيد رعاة وعبيد حصادين.ويخصص عدد كبير منهم للمعابد وحكام المدن، وكان الأعيان يمتلكون عبيدا أيضا.

تتألف جمهرة السكان من مالكين عقاريين، وأعضاء المشاعة. ولقد ولدت مشاعة الجوار السومرية الأكادية عند تطور الزراعة المروية: كان التنظيم الاقتصادي العادي في ميزوبوتامي السفلى يرتبط بالتوزيع المنتظم للماء. كانت مشاعة الجوار إذن شديدة الاهتمام بان تبقي بين يديها الملكية العليا لمصادر الماء -قطاعات الأنهار والأقنية، أكثر من اهتمامها بالإدارة العليا للأرض. وفي الوقت ذاته، كان إنشاء منشآت الري، فتح وإغلاق السدود، تنظيف الأقنية -كان كل هذا يعضد المشاعة، لأنه يفرض التعاون البسيط، العمل المتكاتف بين أعضائها: وكانت هذه الاهتمامات تتطلب الإنجاز بوقت قصير وتحتم توافر جهود مئات الأيدي. والدور المهيمن لملكية الماء في ميزوبوتامي السفلى سمح بتسمية مشاعة السومريين-الأكاديين مشاعة المياه والأراضي.

كانت مشاعة المياه والأراضي تضم عائلات كبيرة وصغيرة؛ وكانت هذه العائلات دوما ذات طبيعة أبوية، تحددها هيمنة الزراعة بسكة حديدية للمحراث وتربية الدواجن، رغم نفوذ الكثير من بقايا عهد الأمومة، بخاصة في جنوب البلاد. كانت المواشي والأراضي ملكية خاصة للأسر الصغيرة، لكن الأسرة الكبيرة كالمشاعة لها حقوق واسعة تحدد حقوق المالكين. يتضح هذا في عقود الشراء في شوروباك (القرن السادس عشر والرابع قبل الميلاد). فحسب هذه العقود يبيع الأرض عدد من الشركاء المشايعين، بينما يتلقى ذووهم (أ, جوارهم) هدايا لقاء خسارتهم حقوق تملكهم الأرض المباعة. تطلق عليهم الوثائق التعبير المعبر "آكل-مساهم بالسعر". وعرفت أيضا انتقالات حيث تبيع الأسرة الكبيرة مشاعة الجوار الأرض: بدون شك، كان جزء من الأرض يخص مشاعة الجوار والأسر الكبيرة.

لم تكن إعادة توزيع الأرض، المواشي والأرزاق الأخرى بين أعضاء المشاعة عادلة: كان نبلاء الدم يمتلكون أراضي واسعة تبلغ ١٠٠-٣٠٠ هكتا را. وكانت ملكية الأشراف تبقى في يد العائلات الكبرى. وكان النبلاء بالولادة يعملون على دعم تقاليد نظام العشير في المرحلة الأخيرة، ويستند نفوذهم غالبا إلى الحفاظ على علاقات الأسر الكبيرة والعشير.

وكان النبلاء يشغلون في أراضيهم ليس العبيد فقط، بل أيضا ذويهم الذين كانوا أحرارا وافتقروا.

كانت ملكية المعابد تحتل مكانا هاما في اقتصاد البلاد: حوالي منتصف الألف الثالث، كانت المعابد في لاغاش تمتلك نصف أراضي المملكة المحروثة. تتكون سيادة الاكليروس من النبلاء، وتفيد ملكية المعابد إذن في دعم سلطة النبلاء بالولادة.

كانت أملاك المعابد تستغل بطريقتين: يؤجر قسم إلى مزارعين أحرار، يتلقون غالبا أيضا المواشي وحبوب البذار ويؤدون لقاء التمتع بهذه الأرض جزءا من محصولها؛ وكان القسم الثاني، الموضوع تحت رقابة المعبد المباشرة، يحرثه العبيد ومزارعون أحرار، يتوجب عليهم تسليم كل الموسم إلى أهراء المعبد ويستلمون حبوبا لقاء تعبهم وأحيانا منتوجات أخرى.

يضم جهاز المعبد، عدا الكادحين، حرفيين، كتابا، مرتلين، وسواهم. ويوظف رهطا يشكل جزءا هاما من مرتزقة الدولة. لاتنفصل الأراضي المؤجرة للخدم، كونها أملاك معبد، لكن العلاقات الأبوية، وهي دوما في خدمة مشاعات الجوار، قد فقدت دورها الرئيسي هنا.

يتمتع كبار القسس أيضا بأراض واسعة إلى هذا الحد أو ذاك، يحرثها عبيد، رجال أحرار ومأجورون ومزارعون. ويسلب النبلاء حصة الذئب من مردود تربية المواشي ويتلقون حصصا ضخمة مما يعتبر احتياط المعبد.

النظام السياسي لسومر وأكاد

في منتصف الألف الثالث كان في ميزوبوتامي كثير من الدول الصغرى المستقلة. لاتتجاوز مساحة إحداها، المسماة لاغاش، (بما فيها الأراضي غير المروية)، ٣٠٠٠كم² وتضم دستة محلات هامة إلى هذا الحد أو ذاك، محاطة بأسوار، وعدد الناس الإجمالي ليس أكثر من ١٥٠٠٠٠ إنسان. وفيها ٢٠ معبدا ومحرما، وقفا على عدة مقدسات.

على رأس الدولة عاهل يسمى باتيزي (يقرأ بعض العلماء هذه الكلمة السومرية "أنزي"، وأحيانا لوغال (السيد:بالمعنى الأدبي). بشكل عام، يجب اختيار هذا الباتيزي من أسرة شهيرة، بحيث يكون خلفه أحد أبنائه. كان يمارس مهام الكاهن الأكبر ويمثل الآلهة؛ يقود مرتزقة المعبد، يحكم اقتصاد المعبد، أهمها أعمال البناء والري. بداية، كان يعتبر

الملك-الكاهن، وأيضا عادة القتيل أو المصير الشعائري للملك، المرتبط بهذه الفكرة، التي عاشت طويلا في ما بين النهرين، لاتتبدى إلا بشكل"طهارة" دورية للشخص الملكي.

في منتصف الألف الثالث لم يكن الباتيزي بعد هو المالك الأعلى لكل أراضي الدولة. وأحيانا كان ملوك سومر وأكاد يشترون أراض من الأسر الكبرى أو المشاعات المجاورة. ولايسمح للباتيزي أن يتصرف بأملاك المعابد.

في المدن، كان يوجد جمعيات شعبية ومجالس شيوخ، تتولى الحقوق الفعلية: تنتخب (وتقيل ربما) العاهل، تحقق العدالة، تتخذ التدابير الإدارية، تناقش مع الباتيزي المسائل السياسية الأساسية (إعلان الحرب، مثلا)، يقبلون مواطنين جددا في المشاعة، تدير الأملاك العامة، إلخ. ومن مجلس الشيوخ يسمى ممثلو الإدارة، مثل مرعى المشاعة.

كان الجيش ما يزال منظمة شعبية: كان جنوده بنفس الوقت حراثا، رعاة، مزارعين في أرض المعابد. كل هذا يخولنا أن نؤكد استمرار مظاهر هامة من الديموقراطية العسكرية في الميزوبوتامي السفلى-على الأقل حتى منتصف الألف الثالث.

من جهة أخرى، بزغت خصائص سياسية جديدة: ظهرت وظيفة إدارة المعابد، التي يديرها الموظف، الذي يصدر توجيهاته لفصيل من الكتاب؛ وتشكل حرس خاص للباتيزي. كل هذا النهج، المرتبط مباشرة بالباتيزي، يختلف جذريا عن تقاليد الديموقراطية العسكرية.

لقد أثارت الحاجة للاستفادة الحكيمة من شبكة الري، وحصر العلاقات الاقتصادية بين المناطق التوجه إلى توحيد سومر سياسيا. وشددت ضرورة تعميق السلطة على العبيد هذه الحركة المركزية. ادعت بعض الدول المسيطرة ونجحت بضم أراض واسعة. وبدأ ملك كيش أور هذا الدور، لكن ايناتوم، عاهل لاغاش (القرن الخامس عشر)، نجح في دحر هذين الخصمين وبسط سيطرته حتى حدود ماري. غير أن هذه الإلحاقات لم تكن مستقرة.

الصراع الاجتماعي في سومر وأكاد

لقد تراقق تشكل الطبقات والدول فيما بين النهرين الأسفل طبعا بنضال ضار بين العبيد والسادة، بين الناس الفقراء ونبلاء الدم. وبالعنف والاضطهاد مورست السيطرة على العبيد المزارعين، الهيمنة التي تثير غضب ومقاومة المنتجين المباشرين. أخيرا، كانت نبالة الدم القديمة، المستقوية بأرزاقها الشاسعة وبموقعها المتميز في المعابد، تناقض وتعارض الارستقراطية الحديثة، الناشئة من غزوات القتال والإدارة. للأسف، المصادر التاريخية

لاتقول شيئا هاما في هذا المجال.

إن أحد النصوص التي تعكس بحيوية النضال بين الشرائح الاجتماعية في لاغاش هو نقش الملك أوروكاجينا. نقرأ في هذا النص أن سلفه، الباتيزي لوغالندا، آذى حقوق المشاعات لصالح "المتنفذين"، مزق "قرارات الماضي"، أقام رقباء في كل مشاعات لاغاش، الذين فرض عليهم ضرائب تعسفية لمصلحته ومصلحة كهنته. وهؤلاء الرقباء، غير المكتفين بالضرائب، راحوا ببساطة ينهبون الناس. انتزعوا من الفلاحين مواشيهم، طيورهم، الأواني النحاسية، الألبسة، خيرة الأشجار وأطيب الثمار، ويطلبون أسعارا باهظة لدفن موتاهم أو إقامة المآتم أو الولائم. ويصادر الباتيزي ورجاله صوف أجمل الخراف البيضاء ، ويفرضون على الخراف الأخرى فريضة خمسة شيكلات من الفضة لكل رأس؛ويدخلون أيضا حقوق الجمارك على الوثائق والأعمال القضائية. ولدى مجيئه (حوالي ٢٣٧٠ قبل الميلاد) أعاد اوركاجينا ضوابط الضرائب القديمة، منع الابتزاز ودفع المال، وعزل المراقبين من المشاعات. وكان يزدهي، في نصه المنقوش، بأنه "أرسى الحرية". لكن النبلاء حافظوا، حتى بعد هذه الإصلاحات، على سلطة واسعة اقتصادية لم يستطع الباتيزي أن يلغيها. واستمر تفكك مشاعية الجوار. وبعيدئذ، فقدت لاغاش استقلالها. وجدد باتيزي أوما ولوغالجيزي الصراع ضد أوركاجينا، مستفيدا من الاضطرابات التي نشبت في هذه الدولة، هزم جيشها وألحق لاغاش. جعله هذا النصر قويا ليخضع مؤقتا كل سومر. وجعل مدينة أوروك القديمة عاصمة لدولته.

ميزوبوتامي تحت حكم ملوك أكاد

في غضون ذلك، صار عواهل أكاد عتاة أقوياء في شمال البلاد. كانت مدينة أكاد واقعة بين الفرات ودجلة، في نقطة اقتراب النهرين من بعضهما كثيراً. وليس بعيداً منها، على الفرات، كانت مدينة سيبار، مع معبد إله-الشمس شاماش، الذي شيده السومريون لكن الساميين احتلوها ووسعوها؛ وعلى دجلة بنوا مركزاً هاماً، أوبيس. وفي جنوب سيبار، أيضاً على الفرات، أنشئت كيش، أقدم مدينة في ميزوبوتامي. وبين دجلة والفرات، وجد معبر قوافل في غربه طرق أرابيا وفي الشرق الطرق الواصلة إلى جبال زاغروس. ويقدم موقع أكاد المركزي مكسباً كبيراً لملكها، مكنه من احتلال أراضٍ تقع بين سيبار وأبيس. وكان سارغون، ملك أكاد أول من نجح هنا حوالي ٢٣٦٩ قبل الميلاد.

لم يكن سارغون من سلالة باتيزي أكاد؛ فأسس أسرة جديدة. غير معروف بالضبط

ظروف وصوله إلى السلطة. بل كباقي قادة العصور القديمة، استوحى خرافات يصعب إرجاع بذورها إلى التاريخ.

اعتمد سارغون بعد وصوله إلى حكم أكاد على الجيش: خلق جحفلا من ٥٤٠٠ مقاتل محترف. وبينما كانت ميليشيا المعابد السومرية المؤلفة من جنود ثقيلي السلاح، يقاتلون بأرتال متراصة ويرمون الأعداء بحراب طويلة، كان الدور الأول في جيش سارغون يعود إلى السهام ورماتها. كان أكثرها محروما من ملكية الأرض، قطعوا صلاتهم بمشاعاتهم وصاروا رصيدا للملك.

في هذه الحقبة، نضجت ميزوبوتامي السفلى لتبني المركزة. فبدونها، لن يتيسر التطور للاقتصاد المبني على لاري؛ فالاقتصاد معوق بحدود الدولة الصغرى التي تملك كل منها قطعا مختلفة القياس والمساحة. أخيرا، كان توسع العبودية يفرض منظمة سياسية قادرة لتأخذ في قبضتها الصارمة شرائح العبيد.

بدأ سارغون توحيد أكاد. فبعد أن صار ملك كيش ورئيسا لكل الدول الأكادية، شهد هجمات موفقة على الجنوب. انتصر على لوغالزاجيزي، استولى على أور ولاغاش، بلغ الشط وأخضع جنوب البحر كله. فتحت سلطة سارغون وأتباعه خلقت أول مملكة موحدة في ميزوبوتامي.

اشتد ساعد أكاد بشكل فريد في أيام حفيد سارغون، نارامسين (القرن الثالث والعشرون قبل الميلاد)، الذي لقب بـ"ملك أقطار العالم الأربعة". أخضع منطقة ماري وقبائل جبال زاغروس ومدن عيلام. وفي الشمال، بلغت قواته جبال أرمينيا.

بدأ ملوك أكاد أعمالا إنشائية ضخمة؛ أعاد سارغون بناء كيش، احتل قصر أكاد، وبنى عدة معابد. وأخذت أعمال الري بعدها الأوسع: بخاصة، حفرت قناة وصلت دجلة بالفرات. فتأزم وضع المشاعات التي أكره أفرادها على المشاركة بأعمال القصر؛ بنفس الوقت، وسع ملوك أكاد حقولهم، بإلزام المشاعات ببيع أراضيها. فقد عثر على نقش أكادي يتحدث عن شراء أراضي الناس من قبل الملوك؛ كانت الأراضي مقسمة إلى أسهم واسعة تقيس حتى ٢٠٠٠ هكتار. ورغم أن البيع قرر في الجمعية الشعبية (ذكر هذا في النقش الملكي)، كان سعر الشراء (من الحبوب، النقود، الثياب، العبيد، إلخ)، يدفع إلى عميد العشائر وقرابته.

لقد أثار توسع الأعباء، احتكار أراضي المشاعات، وأخيرا، حروب الغزو الضارية،

نقمة الشعب. ثمة مصادر، أحدث، تتحدث عن عصيانين نشبا في نهاية مُلك سارغون. وكانت انتفاضة هامة في أيام نارامسين. قاد الانتفاضة النبلاء الذين خشوا استيلاء الأرستقراطية الجديدة العسكرية والإدارية، مدعومة من السلطة الملكية في أكاد، وأبدوا غضبهم من اتساع الأملاك الملكية على حساب المدن والمعابد. واصطدم الملك أيضا بمقاومة الحكام السومريين، المعادين لمركزة دولة كهذه.

كبح نارامسين كل التمردات، لكن أتباعه لن ينجحوا بالحفاظ على وحدة مملكة "الأقطار الأربعة"؛ وإلى الاضطرابات السياسية الداخلية، أضيف التهديد الأجنبي. وحوالي العام ٢٢٠٠، هوجمت أكاد وسومر من قبل *LesGouti*، الذي سماهم الميزوبوتاميون "أبالسة الجبال". سحق الغوتي مملكة أكاد، استباحوا مدنها (بخاصة مدن الشمال)، وفرضوا على الناس ضريبة باهظة. كانت معاناة مدن الجنوب السومرية أخف لأنهم عرفوا كيف يحافظون على استقلالهم. قادوا النضال ضد الغوتي، هزموهم ودحروهم من البلاد. وبعد زمن، توحدت سومر وأكاد من جديد، بزعامة أور هذه المرة.

زعامة أور (٢١١٨-٢٠٠٧ق.م)

سمي ملوك أور الذين وحدوا تحت سلطتهم ميزوبوتامي-السفلى "ملوك سومر وأكاد"؛ ثم سموا أسرة أور الثالثة. كان أشهرهم شولجي، الذي حكم قرابة خمسين عاما. ونجح باخضاع آشور (على دجلة) وحقق عدة انتصارات على محاربي عيلام.

في أيام أسرة أور الثالثة، استمرت الزراعة المروية والمهن بالتطور؛ أصلح السومريون والأكاديون مساحات واسعة من الأرض على طول مجرى دجلة، لم تكن تغمرها الفيضانات: أقاموا تقنيات نوعية لرفع الماء إلى مستوى "الحقول العالية".

مارسوا الزراعة بالسكة الحديد في كل مكان؛ فعوض المحراث البسيط الذي لايتجاوز "هرش" التربة، استخدمت سكة الحديد التي تقلب التربة؛ وعوض الحمير، قرنوا الثيران. وأصلحت سومر الكثير من الحقول لزراعة النخيل وفي أكاد غرسوا الكروم.

تشير نصوص عديدة من الألف الثالث إلى ورشات البرونز، الفخار، النجارة الدقيقة، النسيج ومستودعات المعادن، الصوف، الخشب، إلخ. ووسع ارتقاء الزراعة والمهن والإنتاج البضاعي ومتن العلاقات بين مختلف مناطق البلاد.

خلق التطور الاقتصادي في نهاية الألف الثالث تيارين للتقدم الاقتصادي والاجتماعي. قبل كل شيء ـ تدعمت الملكية الخاصة للأرض، في الحقول العالية والتي تسقى طبيعيا.

وراحت الملكيات العامة تنتقل شيئا فشيئا إلى أيدي الأسر الصغيرة والكبيرة، الأمر الذي أفضى إلى فوارق الثروة. وفقد كثير من الناس أرضهم وصاروا أجراء أو مزارعين صغارا يعملون في حقول المالكين الكبار ويباعون أحيانا كعبيد يؤمن لهم الحد الأدنى من الغذاء واللباس ، ويحدد حجم الأعمال.

تفاقم تطور الربا الناجم عن اتساع الإنتاج السلعي، وضع الناس الأحرار؛ فراح المقرضون(بخاصة الرهبان والراهبات) يضاربون على المراعي، الحقول، والبيوت، يقرضون الفقراء الحبوب، المال، الآجر، بربا فاحش؛ فيتحول المدين العاجز إلى الخدمة: يعمل عندهم هو أو ذووه.

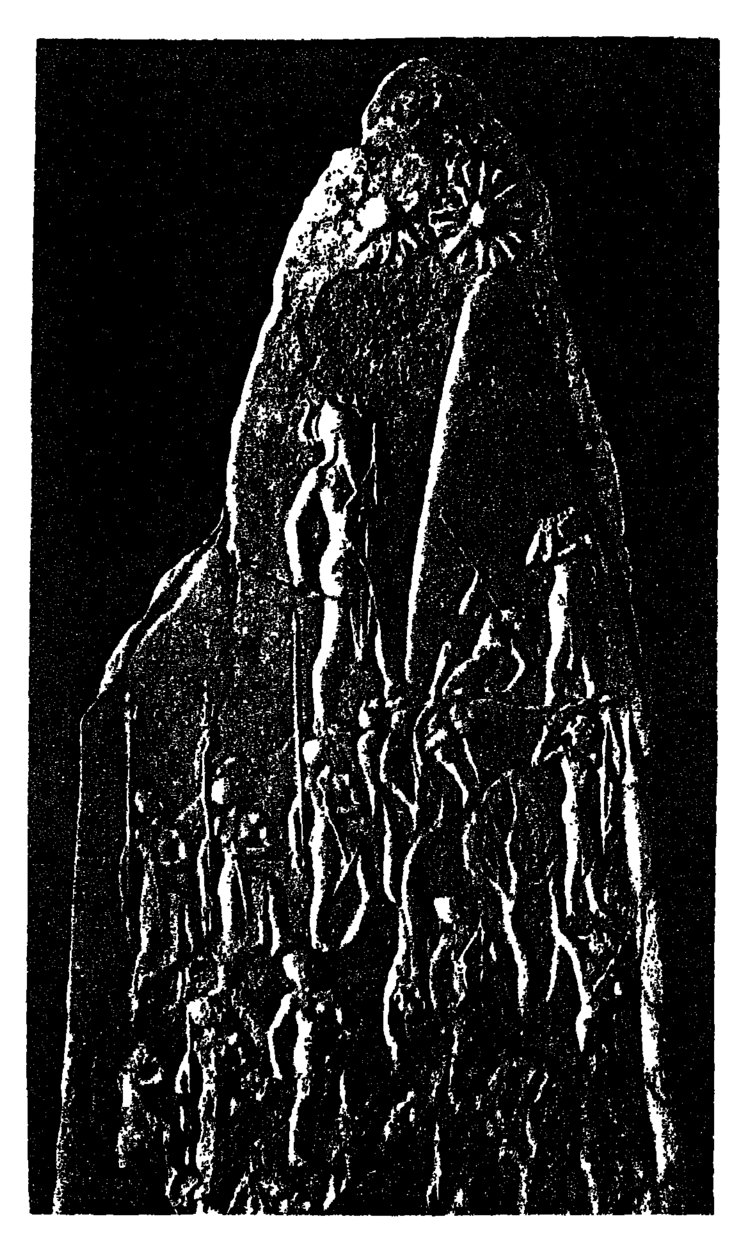
كرس تشريع أسرة أور الثالثة تطور الملكية الفردية. والتيار الآخر هو ترسيخ اقتصاد القصر. واستمراراً لسياسة أسلافهم احتل ملوك الأسرة الثالثة أراضي المعابد وأخضعوها كلياً لإرادتهم. وألحق العاهل عدداً كبيراً من أرزاق المشاعة. وجعلها ملكيات كبرى تعمل فيها جمهرة من النساء العبيد والـ"غوروشي". كان الغروشي (الأسرى وأبناء البلد) يعملون في المجال الملكي طيلة العام، فتعزلهم وسائل إنتاجهم.

عدا الغروشي، كان القصر يستخدم، بخاصة أثناء الحصاد، جمهرة مياومين أحراراً.

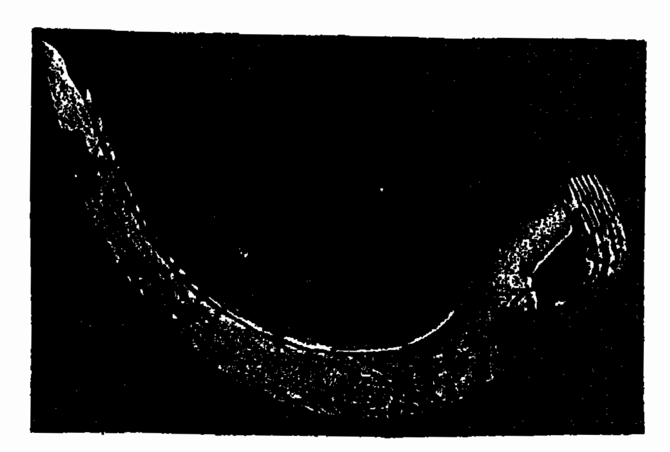
وكان الغروشي، والنساء العبيد يخدمون في ورشات الملك.

إن توطيد الاقتصاد الملكي ، وملكية الملك العقارية ساهمت بمركزة البلد سياسياً. كانت سلطة الحكام في مدن سومر وأكاد عملياً باطلة: إذ لم يكونوا إلا موظفين يعينهم ويسرحهم عاهلم؛ وهكذا أطلقت طلقة الرحمة على سلالات النبالة القديمة. ولإرساء سلطتهم، أله ملوك أسرة أور الثالثة أنفسهم: وشلغي وابنه أعلنا إلهين. والأعمال الفنية لتلك الحقبة تقدم غالباً الآلهة يسلمون إمارات السلطة الملكية وشعاراتها إلى عاهل سومر وأكاد.

لكن الاتساع غير المحدود للاقتصاد الملكي، حوّل العمال الأحرار إلى غروشي محرومين من كل الحقوق، وطور الربا والخدمة لقاء الدين، كل هذا كان يضعف المملكة. كان خلفاء شولغي يصدون بصعوبة قصوى ضغط الجوار: كانت عيلام التي ماتزال تعترف بسلطة ملوك أور، قد استعادت استقلالها وانتقلت إلى الهجوم؛ وفي الغرب، تغلغلت في البلاد قبائل رحّل من الصحراء السورية، كانوا يتكلمون إحدى اللهجات السامية، العمورية. وفي العام ٢٠٠٧ هدم العيلاميون المدن السومرية وسجنوا آخر ملوك الأسرة. ثم أسس العموريون في مدن أكاد وسومر عدة أسر مستقلة.



مسلة لانتصار نارامسين من القرن ٢٣ ق.م



منجل يده من خشب ونصله من الصوان



إنينا إلهة الخصب

الفصل السابع

بـــابــــل

تأسيس الامبراطورية البابلية

بعد سقوط أسرة أور الثالثة، أقام العموريون في ميزوبوتامي-السفلى. وأسسوا فيـــها مملكتين، بعاصمتين هما :إيزن ولارسا. ثمة وثيقة تلفت الانتباه من السلطة الملكية في إيزن هي القانون الذي كتبه ليبيتشتار، باللغة السومرية. وإلى الشمال قليلا، وجدت دولة مـــاري وآشنوناك. كانت هذه الدول تتحارب من أجل السيطرة فيميزوبوتامي السفلى والوســـطى. ولم يحقق أحد مشاريعه: وحد جزء واسع من البلاد على يد عاهل بابل، المملكة الصغـــيرة العمورية، التي أسست في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. أفاد ملوك بابل من موقـــع هـــذه المدينة المناسب، المبنية عند نقطة اقتراب دجلة والفرات من بعضهما، عند تقاطع الطـــرق التجارية للشرق الأوسط؛ فضلا عن دعم الوضع السياسي لملـــوك بـــابل: كـــانت مـــاري وآشنوناك قد ضعفتا جراء الصراع ضد آشور التي كانت سطوتها تتسع، بينما كانت لارسا تواجه ضغط العيلاميين حتى احتلتها إحدى أسرهم بدورها (نهاية القرن التاسع عشر قبـــل الميلاد).

إن حقبة وجود امبراطورية بابل القديمة (١٨٩٤-١٥٩٥ق.م) هي فصل هـــام مـــن تاريخ ميزوبوتامي. تشكلت هذه الجنسية البابلية وكذلك حضارة بابل، التي امتصـــت كـــل ماكان أنجز سابقا في ميزوبوتامي. ومدينة صغيرة لاشأن لها فـــي عـــهد أوائـــل الملـــوك العموريين، صارت بابل مركزا هاما تجاريا، سياسيا وثقافيا، وحافظت على دورها حتـــى العهد الهليني، رغم النائبات والعداوات.

لم تتم وحدة ميزوبوتامي تحت سلطة بابل إلا بعد صراع دام مائة عام وفي أيام الملك السادس للأسرة، الشهير حمورابي. كان الهم الأول لملوك بابل هو دحر الإمارات العمورية الأخرى المحتلة من مراكز أكادية ضخمة.

أنجز حمورابي الوحدة في منتصف القرن الثامن عشر. بدأ بضم المدن السومرية أوروك وإيزن. لكن جنوب سومر بقيت تحت سيطرة العيلامي ريمسين. وفي الشمال كانت السلطة البابلية غير مستقرة، رغم اتحاد حمورابي وملك ماري زيمريلين. لم تكن الظروف لصالح بابل. أخيرا، وبعد أن دحر مملكة أنوناك وصان الحدود الشمالية في ثلاثينات حكمه الأولى، تصدى حمورابي لريمسين في العام التالي ووحد كل الجنوب. وخوفا من سطوة بابل القادمة، تخلى زيمريلين عن مواجهته. وبينما كان حمورابي يشن حملة ضده، احتل ونهب مدينة ماري.

ثم تابع تقدمه نحو الشمال وأخضع مملكة آشور الصغيرة.

خلقت هذه الظروف امبراطورية بابلية مستبدة مركزية. لأنها وحدتها. وقد نجم تلازمها عن عوامل عديدة.

أضعف ملوك أور نبلاء سومر وأكاد، لكن العموريين والعيلامين قضوا عليهم نهائياً. لم يعد أمام ملوك بابل إلا القبائل العمورية والمشاعات الحضرية والزراعية لسومر وأكاد، التي يسهل حكمها ضمن المناطق، أو الأقاليم التي يديرها موظفون ملكيون.

لم تعانِ أكاد، وهي القطر الزراعي الرئيسي في ظل سارغون، ماعاناه الجنوب السومري من الاحتلال. كان الاحتلال العموري تسرباً تدريجياً, وكان شعب أكاد قريب المحتلين، يتكلم لغة يفهمونها، يبجل نفس المقدسات، وذا عادات مشابهة. فكانت سومر، المدمرة، رزقاً وشعباً، تابعة تماماً لاقتصاد أكاد.

أفاد ملوك بابل من الخبرة الإدارية والسياسية التي كونها ملوك أسرة أور الثالثة وملوك إيزن ولارسا. تحقق هذا بوضوح فريد فيما يخص الحق. فقانون حمورابي عكس كثيراً من شريعة ليبيتشتار؛ نصوص البيع والشراء والدين حافظت على الصيغ والعبارات السومرية. على ذلك، أوجدت شريعة حمورابي مؤسسات جديدة.

خلقت ايديولوجيا جديدة لتبرير التصرف المطلق، وعبادة جديدة أرسيت في كل أنحاء الامبراطورية: عبادة مردوخ، الإله الأعظم. كان مردوخ سابقاً إله بابل. وبعون كهنته ومساعيهم، خلقوا له أساطير جديدة، أضيفت إلى الخرافات السومرة القديمة وأحيتها. وهكذا صار مردوخ الإله المعظم.

حكومة وشريعة حمورابي

قدر الملك السادس من الأسرة البابلية الأولى، حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ قبل الميلاد)، إن يوحد ميزوبوتاميا ويكون الامبراطورية البابلية.

كانت الامبراطورية مقسومة إلى إقليمين إداريين حسب مبادئ مختلفة. حكم أكاد وشمال سومر حكام يحملون ألقابا متنوعة، حسب منطقة عملهم ومهامهم. عينوا للأقاليم والمدن؛ ولقبهم "شوكالو"، رجال مكلفون بجمع الضرائب، بإرسال الناس إلى الورشات الملكية، وعند هؤلاء جهاز ضخم من المفوضين ومجندي اليد العاملة. يهتم الشوكامو أولا بالضرائب، بـ"أعمال للقصر" وتنظيم الجيش. في أيام حمورابي (وقبله أيضا) كان ثمة جيش دائم، مكون من محاربين من مختلف الرتب. من أجل عملهم، يملكون قطعا من الأرض. تذكر الوثائق أربع مراتب عسكرية: ديكوم ولوبتوم للضباط، ريدوم وبيروم للجنود (حتى هنا لايعرف بالضبط مايميزهم).

نصف الامبراطورية الآخر، سومر الجنوبية، يحكمه الوزير سينيدينام. يضم الاقتصاد الشخصي للملك، أرزاق عقارية وقطعان ضخمة كانت تخص ريمسين. يراقب الوزير المدراء والموظفين الآخرين، ويصرف كل المكاتب الإدارية والمالية التابعة.

هكذا ظهرت بكل وضوح مهمة الاستبداد الشرقي الذي وصفه ماركس سرقة الشعب. والمهمة الثانية، سرقة الشعوب الأخرى، كانت أقل أهمية في حكم حمورابي مما كان في مملكة سومر وأكاد في ظل أسرة أور الثالثة، أو، بعدئذ، في آشوريا. والمهمة الثالثة، الري، يكمن بخاصة بمراقبة وصيانة الأقنية والقناطر. أعمال هذا النوع مذكورة في قرارات حمورابي. وكان تنظيمها مسندا إلى رجال مختصين، اسمهم "رجال الأقنية". فتحت إدارتهم ثم خفر القناة العظمى المسماة إكراما للملك "خير-حمورابي".

لم يكن النهج الإداري الموصوف آنفا، إجمالا، جديدا، لأن قواعده كانت قد وضعت في أيام أسرة أور الثالثة. واقتصر عمل ملوك بابل على التنفيذ والتلاؤم مع شروط الشمال والجنوب النوعية.

كان الحدث الرئيس هو إعلان وتنفيذ شريعة جديدة. ولقد فرض هذا التدبير ضرورة تبديل الشريعة السومرية، التي وضعتها أسرة أور الثالثة، وملوك ليبيتشتار، التي لم تعد تتجاوب مع الشروط الاقتصادية والاجتماعية في الامبراطورية البابلية. فضلا عن أن هذه

الشريعة كانت قد كتبت بالسومرية التي لايفهمها الشعب. فشريعة حمورابي أثــر تــاريخي هام لميزبوتامي ، ووثيقة ثمينة تكشف بنية المجتمع في ذلـــك الزمـــن، تظــهر الشــرائح الاجتماعية التي كان يعتمد عليها ملوك بابل ، وعن أي مصالح يدافعون في المقام الأول.

كما أطلعتنا شريعة حمورابي على الطبقات والفئات الاجتماعية فـــي مجتمـــع بـــابل وعلاقاتهم الحقوقية. تتألف الشريعة من ثلاثة أبواب: مقدمة، متـــن وخلاصـــة. تتضمـــن المقدمة عبارات تفخيم لمؤسسة "العدالة والسعادة" لكل رعايا الملك. ضم التشريع ٢٨٢مادة، ضاع منها ٣٣ مادة بسبب التلف الذي لحق المسلة البازلتية التي نقشـــت عليـــها: وحفـــظ بعضها نتيجة العثور على أجزاء من النقش وجدت في أمكنة أخرى. نص التشـــريع علـــى الجرائم، الأسرة، الملكية، الميراث والالتزامات، عدة مواد للحق العام وغيرهـــا للعبوديـــة. نرى فيها، من أولها إلى آخرها، ضرورة صيانة حقوق الملكية العقارية، والكهنة، والتجـــار والمرابين، بخاصة حقهم في تملك العبيد. سرقة العبد وإخفاء العبد الهارب عقوبتها الموت. وفي الخلاصة، يزدهي الملك مرة أخرى بالحماية التي يحيط رعاياه بها؛ يســـمى "ملـــك الحق" ويلعن أولئك الذين يتجرؤون على تخريب المسلة حيث نقشت القوانين. تدافـــع هـــذه القوانين عن حقوق ومصالح أعيان المجتمع البابلي.

عدا الشريعة، بقي لنا من امبراطورية بابل القديمة مئات الوثائق ورســـائل الشـــؤون الخاصة، التي تخولنا تمييز أخلاقهم واقتصادهم، رغم بقاء العديـــد مـــن قضايـــا التـــاريخ الاجتماعي والاقتصادي لبابل محل نقاش.

الزراعة، الملكية العقارية، والتمتع بالأرض

كان شعب امبراطورية بابل يعيش أساسا من الزراعة. ولم تكـــن تربيـــة المواشـــي الواسعة قد انتشرت إلا في الجنوب، كما في السابق، على الشط الذي يقدم مـــراع واســـعة للأمكنة السبخية.

بين المزروعات، يخصص المقام الأول للقمح، للشعير والحنطة الرومية. وأهم شجرة مثمرة هي النخلة. كانت الحقول تعطي، في الشروط العادية محاصيل وفيرة تكفي حاجـــات السكان وتخلق فضلة أيضا، يذهب جزء منها لتعريم مخازن الملك والمعابد، بصفة فريضـــة عينية، وكان الباقي يباع في السوق. كان احتياطي قمح القصر والمعبد يوضع جزئيا فـــي التداول (عند عبور القبائل الرعوية في الصحراء السورية). وكانت الحبوب تشكل أيضـــا

القيمة الأولى في التداول الزراعي.

كان الملك اسميا المالك الأعلى لكل أرض الامبراطورية. لكن امتداد المجالات الموضوعة تحت مراقبة القصر المباشرة أقل فعليا بالنسبة لأيام أسرة أور الثالثة. وكانت المجالات الملكية الواسعة (في الجنوب، مثلا) في الغالب مقسمة إلى أسهم صغيرة بالأجرة للموظفي الكبار، للمحاربين أو المزارعين، الذين يدفعون عينا (قمحا). وكانت هذه الأسهم لاتنفصل عن الأرض العامة.

قسم من الأرض يخص المعابد، لكن أبعاده أقل مما كانت في الألف الثالث.و ينطبق هذا أيضا على مشاعات الجوار: وتشير المصادر أيضا إلى الأراضي العامة التي يديرها الشيوخ، لكن لم يبق منها شيء يذكر. للمشاعات حقوق حصرية على قطاعات الأقنية (حتى منع الصيد فيها على الأجانب)، لكن الأرض كانت تنتقل إلى أيدي الأسر.

من المستحيل أن نحصي الآن المساحة الكلية للأرض التي تخص العائلات الأبوية والعائلات الصغيرة. والأمر البيّن، هو أن تطور الإنتاج البضاعي والنهج العبودي كان يساهم بتوطيد الملكية الخاصة. ولقد عثر على أرشيفات المرابين الذين كانوا يعتمدون على الحقول والبساتين. لكن بعكس الأسر النبيلة للدول السومرية الأولى، التي كانت تملك الأملاك الشاسعة، كان الملاّك البابليون مغبونين. واستناداً إلى إحصاءات تقريبية، لم يكن ٩٠% من المالكين الفرديين يملكون سوى ٨,٥ هكتاراً مربعاً، والحقول التي تمسح عشرات الهكتارات تعد بالوحدات، وأوسع ملكية عرفت يومئذ كانت تمسح ٣١,٥ هكتار.

كان الملاك الخاصون يؤجرون قسماً كبيراً من أراضيهم، بالأسهم، إلى منتجين صغار. وعلى المزارعين أن يدفعوا حتى ثلثي المحصول. لم تكن زراعة الحبوب في الحقول الخاصة تكفي بشكل عام وسوى تغذية المالك نفسه، وعبيده وأجرائه. وكل المالكين كانوا موظفين ممتازين ملكيين، وكهنة أو تجارياً كباراً ومرابين. لايأتي دخلهم الرئيسي من الأراضي بل من وظيفتهم (لدى القصر أو المعبد) أو العمليات التجارية والربوية. كانت الشريحة العليا من الموظفين الإدارة أو القصر يعيشون على حساب البلاط ويحظون من حين إلى آخر على هدايا قيمة من الملك. وكانوا يغتنون بابتزاز مرؤوسهم. ويقتسم الاكليروس عائدات المعابد المأخوذة بداية من الخزينة الملكية من أجل الصيانة. ثم من تربية المواشي والربا، أخيراً من احتفالات الأضاحي، التي يدفعها الخواص والعوام.

هكذا إذا، كما في الألف الثالث، كانت هذه الشريحة من مستغلي المجتمع البابلي تعيش على حساب المشاعات الريفية والعبيد. فالمجتمع العبودي في الشرق القديم يتسم بالاستثمار المزدوج.

حرف وتجارة

تتخطى الحرف في دولة بابل إطار المشاعات. فقد ظهر، في المدن، حرفيون يعيشون من حرفهم. كان لهم في باحة السوق حانوت أومنقش حيث يأخذون الطلبات وينفذونها. لكن. إلى جانب الحرفين المقيمين على نفقتهم، كان ثمة منهم من يعمل في ورشات تخصص أفرادا. تنص شريعة حمورابي، في عداد هؤلاء الحرفيين، الفخاريين، قصاصي الصخور، الخياطين، الحدادين والدباغين. لم تكن شروطهم جيدة دوما، لأن الملك التزم بتعيين لهم الحد الأدنى من الأجرة اليومية.

كانت التجارة تتطور بشكل محسوس. الملك والكهنة يستسلمون لتجارة الجملة بواسطة الموظفين المحظوظين والمرابين، الذين يستغلون هذا الأمر لإتمام مضارباتهم. لهم زلمهم ومندوبوهم الذين ينتهي أمرهم إلى تاجر. يبيع المندوبون والمرابون القمح، الصوف، زيت السمسم، البلح المواشي، الفضة والنحاس. يزاول كثير منهم الربا، يقرضون بفوائد باهظة الحبوب والنقود: ٢٠% للدراهم، ٣٣.٣% (قرابة الثلث) للحبوب. لم يكن الكهنة رجال المعابد يخجلون بهذا العمل. تتم التجارة بالمفرق في السوق، في مجال النقش أو يدا بيد.

التصنيف الاجتماعي للناس الأحرار

تميز شريعة حمورابي عينتين من الناس الأحرار: ١- إنسان بلا أهمية (موشكنو)؛ ٢- "إنسان" أو "ابن إنسان". عبيد ومالكون. لكن غير متساوين بالحقوق. ينجم الفرق في بعض القرارت من التعويضات. هكذا، في حال سرقة الماشية، التعويض على الأميلو أعلى بثلاثين مرة من سعر المادة المسروقة، بينما لاتساوي أكثر من عشر مرات في حال التعويض على الموشكنو؛ ومن يعور أميلو أو يكسر له عظما، يخضع للأذى ذاته، وإذا وقع هذا الأذى على موشكنو، يحتاج تنفيذ العقوبة إلى وكالة.

كيف يعلل هذا الفرق؟ وضع المؤرخون الروس عدة فرضيات. يرى الاكاديمي ستروفي أن "الأميلو"، المواطن البابلي المتمتع بكل الحقوق، هو المنتصر أو الفاتح العموري ،وأن مصطلح "موشكنو" يعني شعب سومر وأكاد الحر الخاضع؛ وحسب

دياكونوف، الأميلو هو عضو المشاعة، بينما الموشكنو، مزارع الملك، هو من استعبده العجز عن تأدية ضرائب الدولة. وفي هذه العينة، يصنف الحراثون الذين يتوجب عليهم أن يؤدوا أتاوات قمحا مايدفعه الموظفون المحظيون والمرابون والكهنة الذين تلقوا أراضيهم من الملك. فقط المحاربون، رغم أن أرضهم من الملك، كانوا يبقون أعضاء المشاعات ولم يكونوا موشكنو.

أيا كان تفسير هذه المصطلحات، يمكن أن نعرف، استنادا إلى شريعة حمورابي ووثائق الشؤون العامة، العديد من أنواع المواطنين الأحرار. فهم أعضاء المشاعات، المزارعون الملكيون الذين يؤدون ضريبة عينية، المحاربون الذين يتلقون أراض غير قابلة للتصرف، الحرفيون، الموظفون المحظيون والمرابون الذين كانوا في وقت معا تجارا، مرابين ووكلاء، أخيرا الكهنة والأرستقراطية العليا.

وضع المشاعات

كانت المشاعات الريفية، المؤلفة من الحراثين الأحرار، مرتبطة قبل كل شيء بالحقوق والواجبات المشتركة الخاصة بالري. وكان الري المنتظم، وبالتالي، الموسم يرتبطان بصيانة المنشآت: الأقنية، تجمعات المياه والسدود. كان يتوجب على كل عناصر المشاعة أن يساهموا بالأعمال، وهذا يعطي الحق لكل منهم أن يروي حقله بقنوات وخزانات مياه المشاعة. وتصلح المشاعة أيضا التلف والضرر الذي تسببه مشاعة الجوار أو أي نفقة أخرى، إن بخطئها خربت المياه السدود وغمرت الحقول والمراعي. وكان رفع الضرر يوزع بين كل الأعضاء.. وتتعهد المشاعة ماديا دم القتيل أو السرقة التي تقع على أرضها ولم يكتشف الجاني.

كل عضو في المشاعة، أو بالضبط، كل مشاعة عائلية تدير حقلها الخاص. وليس ثمن معلومات محدودة حول الحق الذي تأخذه لقاء هذا. ولقد وصلتنا عقود بيع حقول عقدها الحراثون، لكن الصعوبة في عدم معرفة نوع القطعة التي بيعت: موروثة أم مملوكة حديثا. وكان تفكك المشاعات يتم بخاصة جراء دمار الناس، الذين يفقدون أرضهم أو لم يحصلوا على أرض عند التوزيع على أعضاء الأسرة الكبيرة. هؤلاء الصعاليك يصيرون مزارعين أو يضافون إلي فئة الأجراء التي يشير إليها تشريع حمورابي. ويعملون رعاة، حراثين، وبستانيين؛ "تعرفة الملك" تقدم لهم أدنى الأجور؟ لكن عددهم لم يكن يكفي طلب المالكين

أثناء الأعمال العاجلة الموسمية أو غيرها،كالحصاد، جني البلح أو غرس حقـــول جديـــدة بالنخيل. ليضطر المالكون آنئذ أن يتوجهوا إلى المشاعات، ليعقدوا معها عقودا للحصـــول على اليد العاملة المطلوبة. كثيرا ماعقدت هذه العقود مسبقا. يصرف المستخدم مبلغـــا مـــا ليلزم عددا من الشغيلة ليأتوا بالوقت المحدد. في حال عدم التنفيـــذ، تقـــام دعـــوى علـــى المشاعة. وهكذا كثيرا مايخضع المالكون للمشاعات في الأوقات الحرجة.

في الوقت نفسه، كان أعضاء المشاعة يحرمون من الحقوق في بعـــض المناســـبات، فعندما يكون العمل في بيت الملك، مثلا، لايهتم القانون بمدة السخرة ولابطبيعتها. يطلـــب منهم حفر الأقنية الملكية وترميمها أوتنظيفها، بناء وإصلاح القصور والمعابد، جز الماشية، ونقل الأحمال، إلخ. ويسهر زلم الملك على ماتقدم التعاونيات من رجال راشدين وأشـــداء. كانت شروط العمل متساوية لدى الاحرار والعبيد. فالسوط يداعب ظهور هؤلاء وأولئـــك. لاتستحق السخرات الملكية أي أجر أو ثواب؛ فقط العمال الأحرار يحظون بجعالة غذائيـــة، كالعبيد.

الأسرة الأبوية

في الامبراطورية البابلية، كان يوجد، عدا مشاعات الجوار، مشاعات أسرية. ولم تكن التبدلات الجارية عندهم، منذ أسرة أور الثالثة، ذات أهمية.

فالمشاعة الأسرية البابلية ذات طبيعة أبوية. الرئيس هو الأب؛ نادرا، عنـــد وفاتـــه، ينتقل دوره إلى الأم. والأسرة الأبوية مؤلفة من الأب، ونسائه، وأبنائه وأحيانا أحفاده. كـــان اسمه الموقوف عليه "بيت الأب"، "البيت الأبوي"؛ ورزقه يســـمى "رزق البيـــت الأبـــوي". لايستخدم تشريع حمورابي إلا هذا التعبير، لايوجد في القانون أي عبارة تشير إلى الملكيـــة الشخصية. يتضمن "رزق بيت الأب" الأرض، البيت ومنشآت الاستثمار، الماشية، العبيـــد، الأوعية، منتوج الحقل، النحاس، الفضة والذهب.

لقد ترجمت التبدلات في وضع المشاعة العائلية بإرساء دعائم الملكية الفردية واتجـــاه الجيل الجديد نحو إضعاف القيود التقليدية التي كانت تقف حائلا في وجه الغنى الشـــخصي لأعضاء المشاعة. كان هذا واضحا في الأوساط العبودية الغنية. كانت شريعة حمورابـــي تشجع هذه الاتجاهات وتنص على تغييرات في الأوضاع الأسرية.

يقدر كل عضو في الأسرة أن يمتلك رزقا يخصه، يسمى سيبتو، الغنيمة (أي الـــرزق

الذي كسبه أو حازه الإنسان بنفسه، بجهده الشخصي أو وسائله الخاصة). فقد خضع قانون التملك في الأسرة إلى تبدل أساسي: من الآن، يحق للأب ترك جزء من ثروته لولده، "الأول في نظره". تصير هذه الحصة سيبتو من جناها. ثم، توطد شرعة حمورابي القسمة وتعدلها بالتفصيل. تعين حصة الأم، البنات العازبات، الأبناء الذين لهم خليلات، مع الاحتفاظ دوما على تساوي حصص الأبناء. لكن هذه القاعدة الأخيرة غير مرعية الإجراء دوما. فاتفاقات بين الورثة تخلق قسمة غير متساوية، فيحظى الابن البكر بأكبر نصيب أو أجود حصة. يفضل الأبناء الآخرون أن يبيعوه نصيبهم أثناء القسمة. ويحدث أحيانا أن تحرم البنات وكذلك الأمهات. وهكذا أرست الملكية الفردية تفكك المشاعة العائلية؛ لكن هذه الأخيرة استمرت بالوجود، لأن الأخوة الأبكار، بعد أن يسلبوا أخوتهم الأصغر وأخواتهم ويتزوجون، يصيرون قادة مشاعات جديدة. وينجم عن هذا، كما الأمر في المشاعات الريفية، استبعاد من الإرث له، ومنهم يؤخذ موظفو الملك العزبان، الأتباع ،ومنهم يخرج مرتكبو الجرائم، إلخ.

في الأسرة الأبوية، المرأة أقل امتيازا من الرجل. وعقوبة المرأة الزانية أشد كثيرا من الرجل غير المخلص. طلب الزوجة بالتفريق صعب. وينص القانون على حالات تخضع المرأة فيها لمساكنة المرأة الثانية، أو الخليلة المختارة من العبيد. على ذلك، المرأة البابلية غير محرومة من كل الحقوق. فالمرأة الشرعية، المتزوجة بعقد، ترث، غند وفاة الزوج، مهرها، وحصة تساوي حصة الابن، إلا إذا كان الميت قد أعطاها هبة ما. ويقدر الزوج أن يطلق متى يشاء المرأة العاقر، لكنها عندئذ تأخذ مهرها. وتحصل البنات، غير المتزوجات حتى وفاة الأب، نصيب الذكر. وبعض شرائح النساء، بعامة، الراهبة والأرملة، مسموح لهن مزاولة مختلف الأعمال المشروعة باسمهن، وحيازة أملاك، وامتلاكها، ويصرفن شؤونهن، يشترين أرزاقا منقولة وغير منقولة ويمارسن الربا.

العبودية

في الامبراطوزية البابلية، حافظت العبودية إجمالا على ماكانت عليه في الألف الثالث. وحفظت العبودية الأليفة أهميتها. العبد ملكية مطلقة للمالك، يستطيع بيعه و"مبادلته بالنقود"، وأن يوصي به، وأخيرا، أن يرهنه كأي سلعة. وفي حال رفض الطاعة، يسمح القانون للمالك أن يشوه عبده كأن يبتر أحد أعضائه (المادة ٢٨٢). بعض العبيد يوشمون

واللحية التي تخفي الوشم بدون إذن عقوبتها قطع الأصابع (المادة ٢٢٦). وعند قتل عبد الغير بدون قصد، يفدي الجاني جنايته ببساطة بعبد ما (المادة ٢٣١). يمكن عتق العبد بالتخالص أي الوفاء وبالتبني.

تتمتع المرأة العبدة بمكان خاص في المشاعة العائلية. إن كانت المراة المشروعة عاقرا حق للزوج أن يتخذ له خليلة، وهي غالبا عبدة؛ أحيانا، تختارها المرأة المشروعة من عبيدها. في هذه الحالة لاتعتق العبدة، لكن هذا لايمنعها، إن توفرت الفرصة السانحة، من أن تحكم الأسرة، وتستبعد المرأة المشروعة إلى المقام الثاني. أبناؤها أحرار، لكنهم لايرثون إلا إذا وافق الأب على صيغة "أنتم أبنائي".

ثمة الكثير من الوثائق الخاصة بالمعاملات التجارية أو سواها: كان العبيد يباعون ويشترون، يقدمون هدايا، يتركون إرثا، ومطرح تأجير. في بعض الحقول كان عددهم كبيرا،ولايتجاوز مع ذلك العشرات. بعامة، يحتفظ البيت بخمسة منهم كحد أقصى. كانوا في الأغلب، أسرى حرب،أو عبيدا مشترين، وأحيانا مدانين.

في أيام حمورابي، ازداد عدد العبيد لعدم وفاء الدين، على أثر استبعاد المحرومين من الإرث ومن ازدياد المشاعات التي لاتملك أرضا. يحدد القانون الاستبعاد لدين بثلاث سنين. ولقد حرضت على هذا التدبير الاضطرابات الناجمة عن اتساع هذا النوع من العبيد وازدياد عدد المفتقرين والعاطلين عن العمل، علما أن المصادر التاريخية لاتذكرهم.

الخصائص العامة للامبراطورية البابلية

في القرن السابع عشر قبل الميلاد، كانت ميزوبوتاميا في قمة الازدهار الاقتصادي والسياسي. حسنت طرق إدارة شبكة الري واستخدمت آلات الرفع على نطاق واسع، وطورت سكة الحراثة؛ واستخدم الحصان كحيوان أليف. تقدمت الحرف، بخاصة البرونزية: استخدمت المناجل والأدوات البرونزية الأخرى، التي تسهل العمل في الحجر والخشب. اتسع الإنتاج البضاعي، تطورت التجارة في داخل بابل وامتدت إلى البلدان المجاورة: عيلام، سوريا، آشور وسواها.

وطد نمو الإنتاج البضاعي الملكية الخاصة للأرض والعبد. لكن الملكية الفردية بقيت محدودة (بخاصة فيما يخص الوصية) وحافظت العبودية على الخاصة الأبوية (بوسع العبد أن يتزوج من حرة).

الحقول الشاسعة التي بتصرف الملك، المعابد ونبلاء الدم، التي كانت تميز تاريخ ميزوبوتاميا، تقلصت جدا أو اختفت تماما.والشكل النموذج للاقتصاد هو الملكية الصغيرة أو المتوسطة المؤسسة على استغلال عدد بسيط من العبيد. وتوارت الأشكال الأبوية لارتباط الناس الأحرار، عدا عبودية الدين؛ وعاش الغورشي أيضا أيامهم.

تزعزت القسمة في مشاعات الجوار،إذ حافظت إجمالا على حقوقها في أعمال الري، لكن المشاعة العائلية بقيت هي خلية الاقتصاد الرئيسية. والفرق بالثورة الذي فاقمه الربا والضرائب الباهظة، فكك مساحات شرائح واسعة من محرومي الإرث الذين آل بعضهم إلى خدمة الملك كمزارعين أو محاربين، وانحدر الآخرون إلى عبودية الدين.

حاول حمورابي كبح تحكم التانكاروم:حددت عبودية الدين بثلاث سنوات، ألغي حق المرابي بالدخول إلى بيت المدين، واضطره التانكاروم على أخذ وكالة في عدم مساعدته. كانت هذه التدابير تهدف إلى تمتين وحدة الفئة الحرة وتوحيد مختلف شرائحها ضد العبيد. لكنها لم تنجح: تطلعنا رسائل العصر عل حالات خرق قوانين حمورابي من قبل التانكاروم، بخاصة وضع اليد أو حجز أراضي مزارعي ومقاتلي الملك التي لايجوز التصرف بها.

فالمجتمع البابلي لم يعرف التناحر بين الأحرار والعبيد فقط، بل أيضا التناقضات بين مختلف الشرائح الحرة.

كانت دولة العبودية، المدافع عن مصالح الطبقة المهيمنة، استبدادية، ملكية مطلقة حيث يحكم الملك بواسطة العديد من الموظفين والقضاة.

سقوط امبراطورية بابل، عصر الكاسيت

انهارت امبراطورية بابل على عهد آخر ملكين من الأسرة البابليةالأولى، هاجمها أربعة أعداء،الواحد بعد الآخر: ساميو المناطق البحرية من سومر، عيلاميو زاغروس، الحثيون الآتون من الشمال، أخيرا مربو الخيول الكاسيت الذين كانوا يعيشون في شمال عيلام. تحقق النصر على يد القبائل البحرية التي احتلت جنوب الامبراطورية، والكاسيت الذين أقاموا في وسط وشمال بابل.

أسس الملك الكاسيت غانداش فيها أسرة. وأخضع خلفاؤه القسم الجنوبي من البلاد. دامت السيطرة الكاسيت حتى ١١٦٥ قبل الميلاد.

انحدر الكاسيت من الجبال وصاروا سادة بابل، واحتلوها بالمشاعات العشيرية. وبعد أن احتلوا مساحات واسعة منهوبة وخالية من السكان جراء الغزوات والحروب، سارعوا إلى الزراعة المقيمة، التي أخذوا أساليبها من البابليين. اعتمد الملوك الكاسيت على جنودهم ومجنديهم، لكنهم أوجدوا أيضا حلفاء بين كهنة بابل، بخاصة كهنة المدينة المقدسة نيبور.

انقسم العهد الكاسيت إلى مرحلتين، خلال المرحلة الأولى، حتى الربع الأخير من القرن الخامس عشر، عاشت البلاد دمارا رهيبا وكسادا اقتصاديا. إذ شرعوا بأعمال ضخمة لترميم شبكة الري، وأعادوا بناء السدود وأداروا خزانات جديدة.

في نهاية القرن الخامس تبدأ المرحلة الثانية. خلالها تتطور الحياة الاقتصادية بسرعة قصوى. أقيمت تجارة منتظمة مع مصر وغيرها، الأمر الذي دفع ملوك الكاسيت إلى إصلاح دروب القوافل. وبذلوا جهودا جبارة لحماية هذه المسالك من اللصوص. وفي الوقت ذاته، أعيد تشييد المعابد. تفككت مشاعات الكاسيت، لذا أرسيت دعائم الملكية الخاصة. كافأ الملوك "إلى الأبد" النبلاء بالأراضي التي انتزعوها من المشاعات. القرارات الملكية في التمليك والمكافأة منقوشة بشكل عام على الحجارة والصخور المسماة كودورو، الموضوعة على حدود الأراضي المقصودة. كانت أبعاد هذه الحقول الجديدة أكبر بكثير مما كانت في أيام امبراطورية بابل القديمة (من ٢٠-٢٠٠ هكتار)؛ لكن عددها كان حتما أقل بكثير من زمن حمورابي.

لقد نجمت انطلاقة الاقتصاد الملكي والفردي من نهب المشاعات وأعضائها، الذين ما ارتاحوا بعد من الحروب والدمار. وافترض ازدهار الحضارة الملكية تجدد الاضطهاد، وأفضى فتح ورشات لبناء معابد جديدة إلى تفاقم السخرات خدمة للقصر. وانتزاع أملاك الناس العاديين سلب أسر للفلاحين، الذين لايتلقون شيئا لقاء هذا، لأن الأداء، إن حدث، يأخذه الشيوخ. أفادت هذه المظالم المرابين. وصارت عملياتهم اللصوصية أكثر توحشا حتى أن بعضهم راحوا يجنون الضرائب الملكية ويسرقون الناس بدون رحمة.

الفصل الثامن

الحضارة البابلية

أهمية الحضارة البابلية

يعني هذا التعبير حضارة ميزوبوتاميا-السفلى. تشكلت في أثناء ارتقاء هـذه البلاد تاريخيا، في القرن الرابع قبل الميلاد عند أفول امبراطورية بابل القديمة. عواملها الرئيسة هي أنجازات سومر الثقافية، التي قبلها الأكاديون وطوروها، وتبعهم في هـذا البابليون. فالأصح إذن أن نسميها: الحضارة السومرية- البابلية. أسست الحضارتان الآشورية والكلدانية، اللتان تلتاها ولم تتخطياها. مارست الحضارة البابلية منذ الألف الثانية قبل الميلاد تأثيرا واسعا وعميقا على البلدان المجاورة: سوريا، فينيقيا وفلسطين، وعلى الحثيين وغيرهم. في الحقبة الآشورية والكلدانية، امتد نفوذها إلى الشمال الغربي، في البلدان التي يغمرها بحر إيجة، وإلى الشمال (أورارتو) وإلى الشرق (إيران). ولقد نقل العبريون، اليونان والرومان بصمات عميقة من الحضارة البابلية إلى شعوب أوربا، مانزال نرى تجلياتها في الحضارة الأوربية المعاصرة.

الكتابة

كل النصوص المكتشفة في ميزوبوتاميا هي الكتابة المسماة مسمارية، المؤلفة حروفها أساسا من زوايا مرسومة أفقيا أو عموديا. ولدت هذه الكتابة في النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد، مشتقة من الصور المنقوشة في الشارات المسمارية. تخمن بسهولة الرسوم المقصودة: إنسان، حيوان، أغراس، جبال، غابات، مياه، أوعية منزلية وأدوات. تختلف رسمة هذه الحروف حسب المواد المفيدة، ومعنى الشارات وبهدف توسيع الكتابة. وأهم وأقدم المكتشفات هي رموز فكرة منقوشة على صفائح صخرية أو حجرية، أي شارات يمثل كل منها كلمة أو فكرة. ثم صارت المادة الأكثر تداولا لكتابة من شرائح الفخار؛ النص المنقوش على الشريحة الرطبة بحيث تترك شارة بشكل زاوية.

هكذا استعيض عن الرسوم القلمية بشارات مسمارية، لكن بعضها استمر حتى منتصف الألف الثالث.

في الوقت ذاته تبدل معنى الحروف، والرموز تتغير شيئا فشيئا إلى الشارات المقطعية التي تشكل من الآن أغلب شارات الكتابة المسمارية. لكن عددا من الشارات المصورة بقيت وظهر غيرها يمثل أصواتا أبجدية. فالنهج المسماري إذن شديد التعقيد وصعب الدراسة. يعد قرابة ٦٠٠ حرف لكثير منها عدة معاني.

إن مؤسسي الكتابة المسمارية هم السومريون. تعلمها الأكلديون، ثم انتقلت إلى العيلاميين، والبابليين، والآشوريين والحثين. وأفاد منها الفينيقيون ليصنعوا أبجديتهم الأولى. واقتبسها الأورارتيون، الذين كانوا يقطنون أرض أرمينيا الحالية؛ واستوعبها وعدلها الفرس الذين غزوا ميزوبوتاميا حوالي العام ٣٥٠ قبل الميلاد.

الـديـن

الدين البابلي، كما وصلنا في نصوص الألف الثالث، هو توليفة من العوامل السومرية والسامية. وثمة عبادات أخرى ذات اسم مزدوج؛ ولغيرها اسم سامي أو سومري.

البانتيون[1] البابلي، كبير العدد، لاأقل من ١٠٠ إله. في رأسهم "الآلهة الكبار" الذين كانوا المعبود المحلي في مدن سومر وأكاد. وهم: أنليل، الإله الأكبر عند السومريين وهو أيضا إله أرضي: آنوم، إله أوروك؛ إيا، إله إيرودو. في الالف الثالث جمعهم الكهنة في ثلاثي أسمى، وأعطي آنوم مملكة السموات، وإيا مملكة البحار والمياه الجوفية.

عدا هذا الثالوث، ثمة حلقة أخرى من العبادات معروفة ومعترف بها في أرجاء البلاد قاطبة: إله الشمس شاماش (إله مدينة سيبار)، إله القمر سن (إله مدينة أور) وإلهان زراعيان: تموز وزوجته عشتار.

كان تموز وعشتار إلهي النبات والخصب. تقام كل عام أعياد موت وبعث تموز، المترافقة بالأسرار التي تقدم عشتار تبكي زوجها، نزولها "نحو الأرض دونما عودة"للبحث عن المتوفى، ونضالها ضد إلهة مملكة الظلمات أرشكيغال، وبعث تموز وظهوره ثانية على الأرض. وفي مشاعات الجوار، تسجل هذه الأعياد بداية ونهاية أعمال الحقول؛ وكانت

---

[1] - مجمع الأرباب عند القدماء.

الطقوس والشعائر الدرامية، المدن الكبرى، تجرى الاحتفالات الشعبية بأبهة وإجلال، مع أضاحي لاتحصى.

ترتبط عبادات شاموش وسن سوية أيضا بالإنتاج: عبادة شاموش ترتبط بالزراعة، وعبادة سن ترتبط بتربية الدواجن. لكن شاموش يمارس في البانتيون الرسمي وظائف إله العدالة. كان معبده الرئيس، في سيبار، مقر محكمة اعلى الدعاوى ويوجد إلىجانبها مركز للعقود والإجراءات القضائية.

تمثل الآلهة عشتار في المثيولوجيا الرسمية الكوكب عطارد؛ بهذا الشكل، يشكل الكهنة الكوكبة الأولى من الآلهة النجوم: شاماش، سن، عشتار.

بعد تأسيس امبراطورية بابل القديمة، صار ملك الآلهة مردوخ، الذي هو أصلا إله بابل. وأعطى لقب بل (سيد)، لقب أنليل حتى آنئذ؛ ومنحه الكهنة مهمات أنليل وتموز.

باسمه، تحتفل بابل في الربيع بعيد رأس السنة، المسمى زاغ-موك. ذكرى نصر مردوك على تيامات، ومجيئه إلى العرش الإلهي، خلق العالم والناس وإرساء سماء بابل.

تنفذ طقوس درامية لدى قراءة قصيدة الخلق، التي تعرض الحلقات الرئيسة. في معبد منعزل، اسمه "قاعة الأقدار"، يرأس الكهنة المستقبل أمام أنصاب الآلهة، أي بحضورهم. ولقد لعبت هذه التكهنات دورا هاما، لأن الملك مضطر لاستيحائها في ممارسة سياسته. ينهي العيد بشعائر مستقاة من طقوس تموز وعشتار. يمثل أحدهما الموت وبعث بل-مردوخ. ويقرأ نص يذكر بشكل فريد بقصة موت وقيامة يسوع. وطقس آخر، يرمز إلى زواج مردوخ من زوجته ساربانيتو، وذلك لتأمين خصب الأرض.

لايقتصر الدين البابلي عند عبادة "الآلهة العظام" وآلهة الزراعة. ليس الشعب فقط، بل أصحاب العبيد أيضا كانوا يؤمنون بالإحيائية وماقبلها، التي ترجع إلى عهد المجتمع البدائي. كانوا يقبلون تعدد الأرواح، طيبة كانت أم سيئة، التي تحكم ظاهرات الطبيعة، ترسل الأمراض والموت، تؤازر الناس في عملهم وحياتهم. من هذه الأرواح، نذكر أرواح الأنهار والقنوات التي تمارس عبادتها في الدين الرسمي والأرواح الأليفة، وأرواح الأموات التي تقدم لها الأضاحي بانتظام. أخيرا يولي المجتمع البابلي كله أهمية بالغة لطقوس السحر، المستقاة من فكرة أرواح الخير والشر. ولقد تمثل علم الأبالسة والسحر الشعبي في الدين الرسمي وطورها. وإلى جانب المعابد، أنشئت المعاهد الخاصة للتعزيم التي تؤلف

علم الأبلسة وتنشر أسطورة خضوع الأرواح إلى الآلهة "الكبار" أنوم، أنليل وإيا.

وتقيم هذه المعابد الاحتفالات الرسمية لإقناع النـاس بـالصيغ والشـعائر السـحرية وهدايتهم إليها، حيث تقدم الأضحيات. وعلى أثر هذا التبدل، تتشكل طوائف خاصة، تكتمل فيما بعد على يد العبادة الآشوية.

كان إكليروس المعابد الرسمي لبابل والمدن الأخرى غفير العدد، ويقسم إلـى عـدة مراتب، حسب التصنيف والوظيفة. وكان ثمة راهبات من مستويات عديدة، يخدمـن فـي معهد شاماش في سيبار، حيث بنى لهن ملك أكاد مسكنا ضخما مـع اسـتثمارة مسـاعدة وحديقة أشجار مثمرة واسعة. في أثناء الاحتفال يساعدهن مرتلون ومرتلات، وموسـيقيون وكل أنواع الخدم. ومهنة الكاهن، الجزيلة العطاء تنتقل بالوراثة في المشاعة الأسرية؛ عنـد اقتسام أرزاق البيت الأبوي، كانت مهنة الكهنة توزع بين الأبناء، بحيث يمارسها كل منـهم لمدة سنة، ومن كان دوره يجتني أرباح تلك السنة. وإن انتقلت المهام الكهنوتية للابن البكر، ينال أخوته حصة تحسم من باقي الإرث. كان الاكليروس يتمتع بنفوذ واسع، لأنهم يتولـون شؤون السلاح الأهم وهو التأليه في الحياة الدينية في تلك العهود، وكذلك منـاهل خـيرات المعابد الوفيرة المتسعة باستمرار عن طريق أعمال الربا.

الأدب السومري-البابلي

لقد وصلنا عدد لابأس به من الأعمال الأدبية السومرية والبابلية من الألـف الثـالث والثاني. ينسب مضمونها بطريقة أو بأخرى إلى الدين. أغلبها نصوص طقسية أو سـحرية، والأعمال الأخرى التي لاتخص العبادة، تعالج مع ذلك مواضيع دينية، بخاصة ميثيولوجية. والكتابات التي تخص موضوعات أخرى نادرة.

ميثولوجيا الدين الرسمي هي خلاصة الميثولوجيا الشعبية، أحد أهم عنـاصر التقليـد الشفهي أو الفولكلوري. لا نجد في الاعمال السومرية البابلية مقاطع فولكلوريـة عديـدة. تستخلص بكل وضوح من الأساطير المتحدة عن أصل العالم، النـاس، الزراعـة، الحيـاة الأبدية، بشكل خرافات ساذجة تشبه قصصا شعبية من المضمون ذاته.استخدم شعراء بـابل هذه الخرافات السومرية لخلق أعمال رائعة. أهم هذه الأعمال هو القصيدة المعنونة، حسـب كلماتها الأولى، الخلق. مستلهمة من القصيدة السومرية خلق العالم، وبطلـها أنليـل؛ لكـن الكهنة البابليين استبدلوه بمردوخ. وأجمل إنجاز من الأدب البابلي هو القصيـدة الملحميـة

جلجامش. كانت النصوص الأولى التي تتحدث عن مآثر هذا المقدام الشهم بالسومرية؛ أخذها كتاب بابليون، من طبقة الكهنة على الأرجح وحوروها. وهكذا ظهرت ملحمة جلجامش البابلية، مكتوبة على إثني عشر رُقما كبيرة، تتضمن كل منها نوعا من الغناء المنفرد. تخولنا فكرته ومواصفاته الشعرية بتصنيفه بين ألمع أعمال الأدب العالمي.

ليس القصيد أبدا من الأعمال الطقسية. ولايرتبط بأسطورة معينة، ولابشعيرة ما. استخدم المؤلف الخرافات والحكايات الشعبية لإبداع عمل مستقل عن الحياة والموت.

كان هذا الموضوع يشغل منذ زمن بعيد المجتمع السومري-البابلي. وكان ثمة أساطير تعمل لإيضاح سبب خلود الآلهة وموت البشر. تقول إحداها: إن علة الموت البشري هي جنون الإنسان الأول، أدابا، الابن الأعز عند الإله إيا الذي أعطاه الحكمة العظمى، وليس الحياة الخالدة. قدمت مناسبة حيازة الخلود يوما لأدابا، لكنه رفضها. أنذر بالمثول أمام الإله آنوم لأنه كسر جناحي ريح الجنوب. فأخطره إيا أن غذاء وماء الموت سيقدمان له وليس له أن يذوقهما.وأثناء المحاكمة، أخذ الآلهة الآخرون الدفاع عنه وآنوم، رقيق القلب، حمل له غذاء وماء الحياة؛ لكن ادابا رفض تناولها. دهش آنوم وسأله السبب. فأجاب: "الآخر قال: لن تأكل ولن تشرب." آنئذ أمر آنوم بعودته إلى الأرض. تسعى هذه الخرافة، التي ابتكرها الكهنة إلى الوفاق بين الناس وقدرهم ولإقناعهم بعجزهم أمام الآلهة. لكن هذا التعليل لم يرض مفكري المجتمع البابلي. فطرحت ملحمة جلجامش القضية مجددا. ولم تعط جوابا شافيا.

جلجامش هو الملك الخرافي لأوروك، المدينة السومرية الأقدم. أله بعد موته وأقيمت في يأوروك عبادة لمجده. تقدمه الملحمة كمقدام جبار، جميل وعاقل، إله العوام: أنجز أنكيدو، صديقه ورفيق السلاح، مآثر لامثيل لها جعلته يحظى بحب الإلهة عشتار. لكن جلجامش رفض هذه الهبات. غضبت عشتار وأرسلت ضده الثور السماوي الذي يخرب حقول القمح، لكن جلجامش وأنكيدو قتلاه. آنئذ، بناء على طلب عشتار، أنزلت الآلهة بأنكيدو مرضا مميتا. ارتعب جلجلمش لموت صديقه، وأخذه خوف فيما يَخصه هو:

جـجامش على قبر أنكيدو، صديقه،

يبكي بمرارة ويهرب من المعمعة:

"وأنا أيضا سأموت مثل إيباني[1]؟
تغلغل الألم إلى أحشائي،
إني أخشى الموت وأهرب من المعركة."

يقرر جلجامش كشف سر الحياة والموت. فقد علمته الخرافات القديمة أن ثمة أناسا منحتهم الآلهة الخلود: أوتنابشيم وزوجته. فيشرع برحلة خطرة عبر البلدان المقدسة بحثا عن أوتنابشيم ليسأله كيف حصل على الخلود. وبعد تجول طويل، يجتاز عقبات رهيبة تعترض دربه ، ويبلغ شاطيء البحر السماوي. وهنا صابئية تعترضه (عابدة الشمس) وتنبئه أنه يتابع هدفا خياليا، فالخلود وقف على الآلهة فقط. وتنصحه العودة على أعقابه والتمتع بالحياة. لكن هذه القناعة، المنتشرة جدا بين علية القوم البابلي لم ترض جلجامش مطلقا. فيتابع سبيله ويلقى أوتنابشيم الذي لايملك شيئا يعزيه يقوله له. بل يقص عليه أن الآلهة، الغاضبة على البشر، أرسلت إلى الأرض طوفانا. الكل هلك، سوى أوتنابشيم وأسرته، وأن الإله إيا، الذي كان يحدب عليه اتقى النازلة وحرص على بناء مركب. وينتهي الطوفان، وتستقبل الآلهة في كنفها الزوجين الملكيين وتمنحهما الخلود. استخلاصا، يطلب أوتنابشيم من جلجامش: "أي إله ضمك إلى المجموعة، لتلقى الحياة التي عنها تبحث؟" ولما لم يكن أحد الآلهة كلف بهذه المهمة، يحاول جلجامش، بناء على نصيحة أوتنابشيم، قهر الموت بمختلف الطرق السحرية لكنه يفشل في هذا أيضا، منهكا، محطما، يعود إلى مسقط رأسه ويستدعي من مملكة الموتى أنكيدو ليعترف "بقانون الحياة" وبالحظ التعس لعناصر نرغال وأرشكيغال. نهاية الملحمة مفقودة. يجب الإقرار أن جلجامش مات. دون أن يحل لغز الموت والحياة، لكن عمله هام، لأنه أول محاولة لنقد الدين. يجرؤ جلجامش على تحدي الآلهة ويتفوق عليها أحيانا، وتضطر الآلهة للصفح عن هذا التمرد.

لقد أثرت هذه الملحمة تأثيرا عميقا في أدب الشعوب الأخرى في العصور الغابرة. وبين الكتابات الإرشادية، أهمها "حوار السيد والعبد" الذي يعكس لاأخلاقية سادة المجتمع العبودي.

عاش السيد حسب مبدأ: "استغل الحياة مادمت على الأرض". وينتهي بالقرف: الحرب، الطرد أو الصيد، الحب، بناء البيوت، المكائد كل هذا يقززه. خائب الظن بالآلهة،

---

[1] - تسمية أخرى لأنكيدو.

يستخلص أن لا الأضاحي ولا السحر تمكن الآلهة من "جعل الإنسان يتبعها كالكلب". فلم يبق له سوى: "أن يكسر عنقه ويرمي نفسه في الماء".

كان لدى البابليين أيضا ثروة وفيرة من الحكم والأمثال والقواعد الأخلاقية، التي يرجع أحدها بالتأكيد في مجمله، إلى أيام الامبراطورية القديمة. يزخر بالخوف من المؤامرات والاضطرابات الداخلية. يعظ بأخلاق عالم التناحر والخضوع للمستغلين. تنتهي هذه التوصيات، الموجهة في الأرجح إلى أعضاء المشاعة، بنصيحة بليغة المغزى، التضرع إلى الآلهة: "التضحية تطيل الحياة، والصلاة تكفر عن الخطيئة".

في الادب الدنيوي، يجب تصنيف بعض النقوش الملكية للألف الثالث والربع الأول من الألف الثاني. تقص هذه النصوص القريبة من الخرافات بمضمونها، أحداثاً تاريخية. مثل نقش أوركاجينا العظيم الذي يتحدث عن بؤس سكان لاغاش عند توليه العرش ويحكي عن ثروته. ونقش حاكم لاغاش، إيناتون، حول غزوته المظفرة ضد عاهل أوما.

بذور المعارف العلمية

في عهد امبراطورية بابل القديمة، كان في ميزوبوتاميا-السفلى بذور علمية، تمارس في الحياة اليومية والاقتصاد. تفيد بخاصة في الفلك والرياضيات وتنفع في حساب الزمن، مسح الأراض، تسوية شبكة الري، وكذلك في أعمال التبادل والربا.

كانت عوامل الفلك، المعدة والمعدلة في ميزوبوتاميا في الألف الثالث وفي بداية الألف الثاني، والتي تطورت في أثناء العصور التالية، أساس الفلك اليوناني، ثم العربي، الذي أخذ منه الفلك الأوري جذوره.

الأفكار الفلكية لدى كهنة بابل مشتقة من علم الفلك البدائي. كانت الأرض، السماء والمحيط، في نظرهم، هي عناصر العالم الأساسية. الأرض نوع من الجبل الدائري، منتصب في وسط المحيط الأولي. وفوق الأرض يقوم، ككوب مقلوب، الفضاء السماوي أو الهوائي، الذي يهيمن عليه سد سماوي، تسكنه الآلهة، محاط بمحيط سماوي تصل أطرافه السفلى المحيط الأرضي. بداية، شبهت النجوم بخراف ترعى في السد السماوي، والشمس والقمر فلكان خلقهما الآلهة. وتحدث الكسوفات لأن أرواحاً شريرة خبأت القمر أو الشمس. وفي بداية الألف الثاني، ميز علماء الفلك من النجوم الثابتة خمسة كواكب معروفة اليوم بأسمائها اللاتينية: فينوس، مارس، جوبتير، مركوري وساتورن. في نفس الحقبة تكونت

مجموعات نجومية؛ ثم، ميز اثنا عشر مجموعة نجومية "على درب الشمس" (الكسـوفي)، المسماة زودياك، وأقر أنه قرب "دب الشمس" هذا تقع الكواكب المسماة أعـلاه. لايعـرف الكهنة تفسير الكسوف أو الخسوف يومئذ ويخلطون الظاهرات الفلكية والتغيرات المناخيـة. وعلى قاعدة الملاحظات الفلكية البدائية، أعد تقويم يشبه التقويم الذي وضعـه الصينيـون؛ والمناهج الأمريكية القديمة تمت لهم أيضاً. وقد لعب التقويم البابلي دوراً فريداً في تـاريخ الحضارة، وخدم جزئياً نموذجاً متطوراً لدى الشعوب الأوروبية.

كان كهنة بابل يجهدون في تفسير المستقبل استنادا إلى الظاهرات السماوية والفلكيـة. لايمكن وصف هذا النهج بترو بعلم فلك، لأن التفاسـير تسـتند إلـى تطـابق النبـوءات الأرصادية-المناخية والفلكية. مثلا: "إن غضب أداد (إله العاصفة) يـوم اختفـاء القمـر، سيكون الموسم وفيرا وتستقر الأسعار". وكان التقديس بعامة ذا أهمية سياسية عميقة.

لقد أفضت متطلبات الحياة، في بداية الألف الثانية، إلـى تطويـر ملحـوظ بعلـوم الرياضيات. وكان الانجاز الهام الذي اضطلع به الرياضيون البابليون هو ماعرف بـ "نهج الوضع القائم": الاعتراف أن رقما واحدا يمكن ان يكون ذا قيم مختلفة، حسب وضعه فـي العدد. بهذا الصدد، سبقت بابل اليونان والرومان. لكن العد الستيني عرقل التطور جـدا. إن المصدر الفعلي لهذه الموضوعة مجهول:ربما كانت مرتبطة بالعينات العدديـة "المقدسـة"، المستخلصة من حساب الزمن:٧، استنادا إلى عدد أيام المرحلة القمرية، و١٢، استنادا إلـى أشهر السنة. فوجود العدد ستون=١٢×٥ في هذا النهج يكشف أنه مأخوذ أيضا من الحساب أو العد على أصابع اليد، الممارس بسعة في العصر البدائي. أما المعارف الرياضية، فقـد عرف البابليون في بداية الألف الثاني العمليات الحسابية الأربعـة، والـتربيع والتجذيـر المربع، وكذلك مبادئ الهندسة الضرورية لقياس السـطوح. وكـانت الصيـغ الهندسـية مستخدمة في قياس الأراضي، الحقول، المراعي والأملاك. ولقد عثر المنقبون على خرائط ومخططات مترافقة بالحسابات المناسبة.

وأخيرا، استقر العد الستون على يد البابليين، في علاقته المرجحة بقياس الدائرة التـي ترسمها الشمس في السماء. كانوا يحسبون أننا إذا رتبنا جنبا إلى جنب، على خـط السـير النهاري للشمس، أقراصا مساوية للقرص الشمسي، نحصل علـى ١٨٠، إذن٣٦٠ لليـوم الكامل. يتضح الأمر بالصيغة التالية: تخطو الشمس في اليوم ٣٦٠ خطوة. هـذه القسـمة،

المطبقة على كل الدوائر، اقتبسها الرومان وتبنتها فيما بعد الهندسة الأوروبية: هي ذي قسمة الدائرة إلى ٣٦٠ درجة و(في اللاتيني *gradus*، الخطوة).

كان البابليون قد حددوا ١٢ ساعة للنهار ومثلها لليل؛ وفيما بعد قسمت الساعة إلى ٦٠ دقيقة والدقيقة إلى ٦٠ ثانية. ينسب هذا التفريغ إلى تاريخ العلم الأوربي.

قسم البابليون الشهر إلى أربعة أجزاء، حسب مراحل القمر؛ لكن إعطاء الأسبوع سبعة أيام، لم يأت قبل منتصف الألف الأول قبل الميلاد، تأسيس الآلهة السبعة "الكبار" الأفلاك: الشمس، القمر، والكواكب الخمسة المرئية بالعين المجردة، التي منها أخذت الأيام اسمها. وعن طريق الرومان، انتقل الأسبوع بأيامه السبعة إلى شعوب أوروبا وعم العالم قاطبة.

الفنون التشكيلية

السومريون هم أصحاب أولى نماذج الفن التشكيلي والمعماري في ميزوبوتاميا؛ قلدت أكاد وبابل وطورت الطرق والأسلوب التي أبدعت في سومر. وتؤرخ أغلب الأعمال الفنية التي وصلتنا بالنصف الأول من الألف الثالثة. لكن هذ لايثبت أن الفن في ظل أسرة أور الثالثة وفي أيام امبراطورية بابل القديمة قد انهار بالنسبة إلى العصور السابقة. المقصود هو الظروف الخارجية، بخاصة الهزائم الحربية التي أتت على يد مملكة أور والامبراطورية البابلية. خلال هذه الحقب المضطربة، أتلف الكثير من الأعمال الفنية، وأغلب الأعمال الفنية التي حفظت حتى هذه الأيام نقلها المحاربون العيلاميون والحثيون إلى العواصم.

مثلت الفنون التشكيلية أساسا بالمنمنمات والنحت. أسلوب المنمنمات بدائي: جذع بشري مواجه، وجه مجانب، أفخاذ مجانبة والواحد وراء الآخر. كل الشخوص بنموذج واحد، لكن الألبسة السومرية تختلف بوضوح عن الأكادية. تماثيل الحكام والملوك تتميز بكثافة الجذع؛ ورؤوسها متقنة وتوحي بالحياة.

صور الحيوانات طبيعية تماما، أنيقة وجيدة التناسب الجسدي. يتأتى هذا من أن الفن المحيون[1] ذو تقاليد قديمة جدا، تعود إلى العصر الحجري الأعلى.

---

[1] - الذي يشبه الحيوانات.

إن أجمل المنحوتات السومرية هي لوحات الثيران، البقر والعجول مع رعاتها، التي تزين معبدا من محيط أور (بداية الألف الثالث). نذكر أيضا منحوتات "مسلة النسور"، مع نصب لايناتوم وغزوته المظفرة ضد أوما: للأسف لم يصلنا سوى جزء منها. ونرى فيها أرهب كتيبة من محاربي لاغاش، برئاسة إيناتوم. بحماية الدروع، والرماح المروسة، يدوسون بالأقدام الأعداء الصرعى. وفصيلان آخران يمثلان هرما من محاربي لاغاش سقطوا في ساحة الشرف وكلفوا بحرق الأموات، وسرب من النسور ينهش جثث محاربي أوما. وعثر المنقبون أيضا على آنية رائعة فضية لأنتمينا، حاكم لاغاش، منحوتة بدقة على نقد إله الصيد إيمجيج، الطير المقدس ينشب مخالبه بأسدين. وبين أنصاب الحكام الأهم، ثمة ثلاثة لغوديا الذي حكم لاغاش في أيام سسيطرة أسرة غوتي؛ اثنان جالسان، الثالث واقف. الثلاثة للأسف مشوهة ومقطوعة الرأس؛ وقد عثر المنقبون على رأسين منفصلين.

بين أعمال أكاد الفنية، نذكر "مسلة انتصار نارامسين" وتمثال لحمورابي. الأولى ذكرى لإرسالية في بلاد جبلية: العاهل، محاط بمحاربيه، يجلس قرب قمة. وحمورابي على المسلة التي حملت شريعته، يمثل بين يدي الإله شاماش ليسلمه القانون.

الرسم الجداري معروف منذ نهاية الألف الثالث. لدينا منه نموذج رائع، وجد في قصر ملكي في ماري. يعرض هذا الرسم احتفالا حيث يراق الخمر تكريما لاستجابة الآلهة لابتهال الناس بأن يكون الموسم وفيرا.

هكذا إذن، منذ الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد، عرفت حضارة ماجدة في بلاد ميزوبوتاميا-السفلى: السومريون والأكاديون يمتلكون بذور المعارف العلمية، كتابة متطورة، وأدبا رائعا. لكن الانعكاس المخلص للواقع غير ممكن في زمن يهيمن فيه مفهوم للعالم يتبناه الكهنوت، حيث يمجد الدين السلطة الملكية وينذر الإنسان لإحساس الإحباط الناجم عن ضآلته.

الفصل التاسع

مصر القديمة

الشروط الطبيعية

تشغل مصر الوادي الضيق للنيل المحاط بالجبال من الغرب والشرق؛ يتراوح عرض الوادي بين ١٥-٢٥كم. تفصله الجبال الغربية عن الصحراء، المسماة في العصر القديم الصحراء الليبية. خلف الجبال الشرقية، يمتد شاطئ البحر الأحمر. في الجنوب تقطع مجرى النيل سيول تجعل الإبحار صعب وتعزل مصر عن بلدان الجنوب. وفي الشمال، يعرض الوادي وينتهي بدلتا النيل. في الماضي، كانت المنطقة غير مزروعة، مستنقعية ومحرومة من الموارد الملائمة.

الوضع الجغرافي لوادي النيل يوفر له مكاسب ضخمة نسبة إلى وادي مابين النهرين -ميزوبوتاميا- الجبال المحيطة به غنية بحجارة البناء: غرانيت، بازلت، كلكير. الجبال الشرقة وبخاصة جبال النوبة تحوي مدخرات ثرة من الذهب. تنمو في الوادي جواهر ثمينة، كالنخيل، والأثل، والجميز -تين فرعون- تستخدم جذوعها في بناء المراكب النهرية وكل أنواع الهياكل. يصب النيل في البحر الأبيض المتوسط، الشريان الرئيس في تجارة العصور القديمة. أخيراً، الزراعة هنا أكثر منها في ميزوبوتاميا.

مصر نوع من الواحة في طرف الصحراء؛ المطر نادر جداً هنا، وينظر إلى هذا المطر النادر نذير شؤم. لكن فيضان النيل يؤمن للبلاد رطوبة كافية وأجود أنواع السماد، أي الطمي. والنهر الذي يبدأ يطفح في شهر تموز، يغمر كل الوادي. يبقى الماء حتى تشرين الثاني، ثم ينخفض بالتدريج. وبعد الشح، يبقى على التربة طمي خصب، مركب من بقايا النباتات المائية العفنة والجزئيات المعدنية. وفي كانون الثاني، تفلح الأرض وتبذر. وبفعل الغرين الذي يغطيها، تعطي محاصيل وفيرة. فمن الطبيعي أن يقدس المصريون النيل منذ أقدم العصور.

تقي الرمال والبحر مصر من الهجمات المفاجئة. ومن هذا الطـرف، كـان موقعـها أفضل من موقع ميزوبوتاميا سهلة البلوغ. على هذا، لم تكن مصر بمنجى من الغـزوات، لكنها كانت أقل بكثير مما تعرضت له ميزوبوتاميا. ومصر لم تصب بالدمار الرهيب الـذي تحملته بابل، مثلا.

سكان مصر الأولون

في العصر الحجري القديم، يوم كانت الأمطار الغزيرة تحمي النمو السريع للأشـجار والنباتات حيث تنبسط اليوم رمال الصحراء الرتيبة، لم يلج الناس أبدا وادي النيل، الذيـن إذ كانوا يعتبرون فيضانه الصاخب داهية دهياء. وأدوات العصر الحجري القديم لم تكتشف إلا في الجبال الواقعة على ضفاف الوادي. فقط، تطور الجني جيد التنظيم وزراعة الأرض المروية طبيعيا، شدت الناس إلى أرض ضفاف النيل، لكن هذا كان في العصر الحجـري الحديث والوسيط.

كانت قبائل العصر الحجري الحديث تعمر مصر في الألف الخامسة قبـل الميـلاد، تعيش من الصيد والقنص، لكنها تهتم أيضا بالزراعة وتربية المواشـي والطيـور: كـانت تزرع القمح، الشعير والكتان، تربي الخنازير، الأبقار والأغنام. بداية، أقـام النـاس فـي أرباض الوادي حيث كانت الواحات (الفيوم)، حيث تسيل السيول الجبلية التي توفر المـاء الضروري للحقول.

تنتسب قبائل وادي النيل إلى مجموعات أثنية مختلفة، كما تثبت أبحاث تكون الإنسـان التي تكشف أن سكان مصر الأولين يضمون جماعات تمت إلى الليبيين، والزنوج وربمـا إلى قبائل سامية من جنوب فلسطين.

لقد توثقت معطيات الانتروبولوجيا[1] - بالمواد الأثرية التي تشهد على وجود مختلـف نماذج القبور: على المجرى الأوسط للنيل، كانت قبائل الحضارة "التازية *taiènne*" تدفـن موتاها في مقابر خاصة، تاركة أباريق مترعة بالغذاء، بينما يدفن سـكان شـمال مصـر (مناطق حلوان، مريمدي) وفياتهم تحت تراب أكواخهم، على الخـاصرة، باتجـاه النيـل، ولايمونونهم، مفترضين على الأرجح أن أرواح الموتى تقاسم كل يوم الأحيـاء وجبتـهم.

---

[1] - تكون الإنسان.

أخيراً، تثبت دراسة اللغة المصرية القديمة -استناداً إلى الآثار التي تعود إلى حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد- أنها تتضمن، عدا العناصر *chamitiques*[1]، عناصر سامية.

يمنحنا كل هذا الافتراض أن الأمة المصرية تكونت في وادي النيل بعد اتصال جماعات أثنية أتت من الغرب، والجنوب والشرق.

في الالف الرابعة قبل الميلاد، حققت القبائل المصرية تقدماً عميقاً في مختلف فروع الاقتصاد: فنضوب الواحات وجفاف السيول أكرههم على حراثة الأراضي التي يرويها النيل؛ ولصنع الادوات والحلي استخدموا المعادن (الذهب، النحاس)، الأمر الذي دفع المصريين علي إقامة وشائج متينة مع البلدان المجاورة؛ وإتقان صناعة الصوان والخزف. أفضى كل هذا إلى زيادة السكان، وتعزيز وضع القبائل من جهة، ومن جهة أخرى، إلى ظهور عدم المساواة بالثروة والشروط، وقسمة المجتمع إلى عبيد، أحرار وأرستقراط. وتفكك نظام العشير.

مشاعية الجوار والقبائل (مشاعية الجوار *les nomes*)

في المرحلة التي تلت الارتقاء الاقتصادي، اتجه الناس لتشييد منشآت بدائية للري لتنظيم وصول مياه النيل -مصدر الماء الوحيد- إلى الحقول. ومع الزمن، كون الطمي، على طول النهر، هضاباً عالية كونت في سنة الفيض الضعيف، عقبات في وجه الغمر، وحالت دون تصريف المياه من الأراضي: وفقدان المصرف سبب المستنقعات.

كانت أولى أعمال الري كانت حفراً بسيطة في جروف النيل، حيث السدود الخاصة تنظم الصبيب. وفيما بعد، تعلم المصريون إدارة الأقنية التي تحول المياه وتسقي بالدور الحقول المحيطة بالسدود.

رفع استخدام المحراث مردود العمل الزراعي، وابتكار الدوران حوالي ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد يثبت أن صنع الفخار كان قد صار حرفة مميزة. وظهر صناع مهنيون -باعة الخردوات، قصاصو الحجارة- في الأرجح في الفترة ذاتها. وأقيمت علاقات غير منتظمة مع البلدان المجاورة، وربما حتى مع سومر.

وأخيراً كان ابتكار الكتابة الرسمية إنجاز العصر الأهم.

---

[1] - مجموعة لغات: مصرية، بربر، وفي أفريقيا، كوشتيك *couchitique*.

المعطيات الأثرية التي تميز تطور العلاقات الاجتماعية شديدة الإيجـــاز. يمكــن أن نقول: إن العبودية بدأت في الألف الرابعة: فالتماثيل الصغيرة للأسرى وقد قيدت أيديهم إلى ظهورهم هي البرهان على هذا، كما يبدو. وإلى جانب الملكية على الشيوع، ولدت الملكيــة الخاصة: شاراتها، المسماة تامغا، نقشت بعامة على الدوارق؛ في الغالب، دوارق نفس القبر تحمل ذات التامغا. وتطور تربية الأنعام والطيور، والزراعة بالسكة الحديد، والمهن، قلـص الدور الاقتصادي للمرأة في الإنتاج وأفضى إلى إرساء عهد الأبــوة. وقــد انتـــهت هــذه التطورات إلى هدم نظام العشير وولادة مشاعية الجوار، المؤلفة مـــن الأســر الصغــيرة والكبيرة. وكما هو الامر في ميزوبوتاميا، مشاعية الجوار هي مشاعية المياه والأرض، أي الملكية المشتركة بالأرض والماء خاصة.

شكلت بعض المشاعيات جزءا من اتحادات أرضيـــة أوســع، طبعــا مــن القبــائل السابقة؛كان اسمها في مصر (سبات)، لكن المؤرخين اعتادوا إعطاءها الاسم اليوناني قبيلـة ***nome***. ومن الملفت أن الكتابة النقشـية-التصويريـــة ***pictagraphique*** المصريـــة تمثــل الــ(السبات) بصورة حقل مقطوع من القنوات، وكان تنظيم شبكة الري واحدا مـــن أهــم اهتمامات القبائل.

بالأصل، كانت القبائل منفصلة عن بعضها، بخاصة في الدلتا، حيث تشكل أفرع النيل والمستنقعات حدودا طبيعية.

ربما كان لكل قبيلة لهجتها؛على كل حال كان لها أساطيرها وخرافاتها، كانت أكــــبر القبائل هي القبيلة الفيلية[1] ***raconpolis, Abidos,'hie*** في أقصى الجنـــوب، و ***Memphis et Bouto*** كانت القبائل تتحارب، من أجل توزيع الأسلاب أو العبيد، أو بســـبب النزاعات التي يثيرها شح المياه. ثمة نقوشات على صفائح من العاج أو الحجر تمثل مشاهد المعركة؛ وتكشف أنهم كانوا يتخاصمون بشأن الماء والأرض.

يرأس كل قبيلة رئيس، أحدهم هو الملك العقرب، الذي وضع تحت سلطته مســـاحات من الارض تبدأ من هياراكونبوليس حتى مامفيس. قبضة أسلحته الحجرية المكتشـــفة فـــي هيارا كونبوليس، مزينة بصوز أبو منجل[2] مربوط، يرمز إلى أعداء الــ"الملك". ورايـــات

---

[1] – نسبة إلى الفيل.

[2] – طائر مائي طويل القائمتين والمنقار.

مزينة بحروف هيروغليفية تخفق فوقه: يذكر هذا المشهد على الأرجح بانتصار العقرب على العواهل الخصوم.

تحمل هذه القبضة رسم العقرب يمارس مهام الملك-الكاهن: المنكاش باليد، يحرسه اثنان من ذويه يهشان بالمروحة، يرسم الثلم الأول لتأمين موسم وفير، ورجل آخر يرمي الحب في الثلم، يأخذه من سلة.

المعطيات التي بين يدينا عاجزة عن تمييز سلطة الملك العقرب. وبما أن الدولة لم تكن قد وجدت بعد، كان لابد من اعتبار العقرب رئيس قبيلة وليس ملكاً باتساع الكلمة. ينتج من هذا أن محاولات توحيد وادي النيل سبقت تشكل الدولة. وفي هذه الحقبة الزمنية، على الأرجح، تشكل اتحادان كبيران من القبائل، يحكم الأول الدلتا الإقليم المتاخم لممفيس (سمي مصر-السفلى)، والآخر (مصر-العليا) يمتد نحو الجنوب حتى الفانتين *Ele'phontine*. بداية، كان مركز مصر-السفلى بوتو *Bouto*. ومركز مصر-العليا هيراكومبوليس.

الإمبراطورية الثينية

تتشكل الدولة بعيد ملك العقرب، في أيام الأسرتين المالكتين الأولى والثانية (نهاية الألف الرابعة). قبور هذا العهد تشهد على مساواة واضحة في الثروة والشروط: الناس البسطاء مدفونون في حفر بسيطة تضم سحلية بسيطة، بينما قبور الملوك والسادة صروح معمارية فعلاً. فقبر حيماكي، مثلاً، يضم ٥٠ غرفة وجد فيها حوالي ٢٠٠٠ مادة (رغم سرقتها فيما مضى من الزمن). ومنحوتات وأنصاب العصر تقدم عامة الشعب عارياً تقريباً، الشعور حليقة، مع أن النبلاء يرتدون أفخم الثياب والشعور المستعارة للرأس واللحى. وكان عبيد الملوك والنبلاء مدفونين قرب سادتهم.

المحطة الأولى من وجود الدولة المصرية سميت الإمبراطورية الثينية. تدوم تقريبا من القرن الثلاثين حتى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد. وربما ولدت الدولة في نهاية الألف الرابعة؛ لكن الثابت أنها وجدت في العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد. تثبت الآثار النادرة لاتحاد الشمال والجنوب أن النضال الذي سبقها كان طويلا وضاريا. ونحن نجهل اسم الملك الذي وحد البلاد. وحسب موروث جمعة هيرودوت، كان مؤسس الأسرة الأولى هو مينيس. لكنه كان اتحادا غير مستقر. شريحة حجرية تقص حكاية انتصار نارمير، ملك مصر-العليا، على مصر-السفلى؛ وبعد هزيمة العدو، أسر نارمير ٦٠٠٠ مقاتل. ربما كان

الحديث يدور حول إبادة تمرد نشب في الشمال.

في نهاية حكم الأسرة الثانية أعلن عصيان آخر في مصر-السفلى، كلفت إبادته خمسين ألف قتيل.

الفصل العاشر

إمبراطورية مصر القديمة

الاقتصاد والنظام الاجتماعي

عاشت دولة العبودية المصرية قرابة ألفين وخمسمائة سنة: من نهاية الالف الرابعة حتى العام ٥٢٥ قبل الميلاد يوم قهرها الفرس. وينقسم تاريخ الدولة المصرية إلى خمس محطات: الإمبراطورية الثينية، الإمبراطورية القديمة، الإمبراطورية الوسطى، الإمبراطورية الجديدة والعهد الأخير. وتميزت أيضا حقب انتقالية. تقسم العهود إلى أسر مالكة. الإمبراطورية القديمة التي تمتد تقريبا من القرن ٢٨ حتى ٢٤ قبل الميلاد، تبدأ مع الأسرة الثالثة وتنتهي مع الأسرة الثامنة (لانعرف شيئا تقريبا عن الأسرتين الأولى والثانية).

في مصر كما في ميزوبوتاميا، يؤسس الاقتصاد على حراثة الحقول وتربية المواشي والطيور، وري معقد، زراعة الكرمة، والأشجار المثمرة، مواد زراعية بدائية، من نموذج العصر الحجري الجديد. كان المنكاش والقفف لنقل التراب الأداتين الوحيدتين المستخدمتين في حفر الترع وتشييد السدود؛ كانوا يحرثون بالمنكاش أو المحراث الخشبي، تجره البقر؛ وفي الحصاد استخدم نصل الصوان ذو المقبض الخشبي؛ يداس العنب بالأقدام ويدرس القمح بوطء البهائم الصغيرة على السنابل المنتشرة على البيدر.

كانت أدوات الحرفيين من الحجارة من الخشب ومن النحاس؛ كان أغلب الأدوات النحاسية مطروقا وليس مصبوبا أو مسكوبا. وكانت الأدوات النحاسية تستخدم بسعة لتسوية الخشب وبخاصة الحجارة الطرية.

بواسطة السكاكين والبلطات النحاسية، صنعوا المراكب (التي وجد بعضها قرب القبور الملكية، وسكةالمحراث الحديدية، ومواد أخرى؛ كان قاطعو الحجارة المصريون، المسلحون بهذه الأدوات البدائية نفسها، يصنعون صفائح كلسية قابلة للإتقان.

لقد وصلتنا أعمال هامة، نحوت وجداريات قبور تخص الارستقراطية المصرية، تمثل أنواعا من الأعمال الزراعية ونشاطات الورشات الحرفية. بعض هذه الورشات متخصص: النجارة الضخمة والدقيقة، مدابغ، نسيج منفذ أعمال دقيقة لكنها من نوع محدد؛ هكذا صنعت ورشات النجارة حاجات دقيقة من الخشب وكذلك المراكب الضخمة.

وحلقات أخرى من مهن مختلفة: باعة الخـــردوات والصاغـــة، الدبـــاغون، قـــاطعو الحجارة، إلخ. أغلب الحرفيين ذكور؛ فقط النساجون، في زمـــن الإمبراطوريـــة القديمـــة، نسوة. ومكان خاص يعود للمهن التي تعالج المنتوجات الغذائية، علـــى رأســـها الأفـــران ومعامل الجعة.

رغم تطور المهن يستمر الوفر في الاجمالي الطبيعي؛ إن نزل جزء من المنتوجـــات إلى السوق، يظل التبادل بدائيا: يبادل منتوج بآخر؛ السمك، مثلا، يبادل بالحذاء أو الخضار لقاء النسيج. ولما كانت النقود لم تعرف بعد، يبادل النحاس بالوزن. على هـــذا، ترســـخت العلاقات الاقتصادية مع البلدان المجاورة، بخاصة مع سوريا، فمنها يـــأتي خشـــب الأرز. والسلع الآتية من سوريا وأثيوبيا هي بعامة المواد الكمالية التي لاتهم طبقة الكادحين.

العلاقات الاجتماعية في الإمبراطورية القديمة غير معروفة: فلم يعثر تقريبـــا علـــى وثائق الشؤون المصريةن المماثلة لرقم الفخار السومرية للألف الثالثة؛ أما المشـــاهد التـــي تزين جدران القبور تشير جيدا إلى تقنيات الإنتاج، لكنها لاتخولنا معرفة وبـــالضبط لمـــن تخص الأرض، ولم تكن الشرط الاجتماعي للرعاة، الحصادين أو قاطعي الطرق.

في المجتمع المصري، انتشرت العبودية. شكلت الحرب مصدراً للأســـرى وبالتـــالي للعبودية (من الاثيوبيين والليبيين) الذين يأتي بهم الملوك من غزواتهم. يختال عـــاهل مـــن الأسرة الرابعة، في نقوشه، انه أسر مرة مائة ألف أسير ومرة أخرى ســـبعة آلاف. لكـــن ماعدا هؤلاء الأسرى، كان بين العبيد مصريون استعبدوا: فانحدار الناس الأحرار إلى عبيد مذكور في النقوش العائدة إلى نهاية الإمبراطورية القديمة. ومعروف أيضاً أن العبيد كـــانوا يشرون ويباعون.

ليست حياتهم أكثر من مكان للفرضيات. وفي كل حال، تبقى العبودية أبوية: فـــالعبيد لايشغلون مكاناً خاصاً في عملية الإنتاج؛ الناس الأحرار وحتى الارســـتقراطيون –ســـادة وكهنة– يشاركون بالأعمال الزراعية وغيرها.

أنباء الملكية ضئيلة جداً. في الأرجح، كانت النواة الاقتصادية للمجتمع دوماً هي مشاعية الجوار التي تنظم توزيع المياه على الأراضي. وربما حفظت المشاعية المصرية أنواعاً من العمل التعاوني في تقسيم أعمال الري ومنشآته أو درس القمح: وتدرس القرى حبوبها على بيدر مشترك. وليس واضحاً أمر التنظيم الداخلي للمشاعية المصرية، لكن الثابت ان الأرض والأنعام كانت، في زمن الإمبراطورية القديمة، تباع أو تترك إرثاً. وحسب ف.أفدييف، كانت جمعية خاصة تضطلع بشؤون المشاعية (توزيع المياه، والدعاوى وسواها).

كانت المشاعية تتضمن أسرا أبوية صغيرة وكبيرة. وكان المالك الرئيس هو الابن البكر، الذي يحصل على الثروة كلها أو الجزء الأهم؛ على ذلك، لرئيس الأسرة الحق في أن يوصي بأرزاقه لشخص غريب. تتمتع سيدة البيت بنفوذ واسع: المصري هو ابن هذه وليس ابن ذاك؛ وبقايا الأمومة كانت تبين أيضا في قدرة المرأة على حكم البلاد و(نظريا) ينتقل عرش مصر من الأم إلى البنت. وفي حقول وورشات الملك، والمعابد والسادة، لايعمل العبيد فقط، بل أيضا الناس الأحرار، المشار إليهم في بعض النصوص باسم ميرتو *mertou*. ويشكلون عادة طواقم يديرها رؤوساء. ورسوم ونقوش القبور، تقدم هؤلاء الرؤساء مسلحين بسوط او هراوة. لانعرف إن كان الـ(ميرتو) أعضاء في المشاعية أم أنهم تركوها لسبب ما. يفترض بعض العلماء أنهم كانوا عبيدا، لكن غير معروف كيف يحدث هذا.

كان الحسبة يراقبون بدقة عمل العمال. وفي أثناء تنفيذ المهمة، كان هؤلاء يتلقون أغذية: خبز، بيرة وخضار. ولانعرف كيف كانت تنظم السخرة؛ أما المؤكد، أنها لاتستغرق كل وقت الشغيلة: لهم أن يعملوا لحسابهم ويبيعون في السوقماينتجون.

تشمل الطبقة السيدة نبلاء القصر وارستقراطية القبائل (النوم)، الذين انحدر أغلبهم من حكام النوم). كان السادة يملكون أراض شاسعة تشمل قرى منفصلة. وكان يدير الاقتصاد العديد من الموظفين والحسبة. كان قسم من هذه الأملاك ميراثا، لكن النبلاء يتلقون أيضا أراضي من الملك، مكافأة لخدمتهم. كان علية الكهنة ينتسبون أيضا إلى الطبقة المهيمنة.

عدا أعيان الارستقراطية، كان ثمة موظفون صغار وكهنة يملكون عبدين أوثلاثة عبيد (بعامة من النساء). ليس لهم ان يبنوا قبورا فخمة، بل يسكنون أقبية مزدانة بالنقوش والنحت.

النظام السياسي للامبراطورية القديمة

في أوج الإمبراطورية القديمة، كانت الدولة المصرية هيئة استبدادية تدافع عن مصالح النبالة المستعبدة. وكانت أعتى وأشد مركزية من دولة سارغون في ميزوبوتاميا؛ يعلل هذا بخاصة في الشروط الطبيعية لوادي النيل، حيث تقيم القبائل في بقعة ضيقة على حوافي نهر فريد. والتوزيع المعقلن للمياه والاستثمار الطبيعي لوسائل النقل غير ممكنة إلا في مصر موحدة.

كانت ممفيس عاصمة الإمبراطورية القديمة، في مصر-السفلى. وكما تدل المعطيات الأثرية، كانت أملاك وقصور الأرستقراطية في هذه المنطقة. فحول ممفيس (في الجيزة، أبوصير، ساكاراه، إلخ.) عثر على الشهود الرئيسيين لازدهار الإمبراطورية القديمة، بينما لم يعثروا في باقي بقاع البلاد سوى على آثار منعزلة.ومصر-السفلى (بخاصة الدلتا)، المنطقة التي احتلها نارمير وملوك آخرون من الأسر الأولى، كانت تشمل غالبية المراعي والكروم الملكية، بينما كانت مروج الدلتا تغذي قطعانا ضخمة من البقر والأغنام. وكانت الأملاك الملكية القاعدة المادية للسلطة الحاكمة.

كان الملك، الذي دعي فيما بعد فرعون (*depeaa* التي تعني بالمصرية "البيت الكبير") يحكم حكما مطلقا يعين الموظفين الكبار، يعزل الحكام، يفرض الأتاوات، يرسل الجيوش إلى البلدان المجاورة، إلخ. يقدر أن يصادر أرزاق رعاياه ويحكمهم بالموت بدون محاكمة. ليدعم نفوذه، قدس وأعلن "الإله الأكبر" :تعبد ابتهالي يقام حول شخصه. ويعتبر حتى تقبيل حذائه يعتبر شرفا عظيما. يقدمه فنانو مصر معادلا للآلهة.

كان الفرعون يرتكز إلى جهاز واسع من الموظفين يديرهم الوزير الأول، المسمى بالعربية الـ":فزير". كان الوزير قائد الجيوش ، والقاضي الأول؛ فرض الضرائب، أعمال الري ومنشآته، وبكلمة، كل المهام الرئيسة للحكومة المصرية تصدر عنه. تحت إشرافه "ست قاعات" تحقق العدالة، و"غرف" أخرى ترأس مختلف فروع الاقتصاد.

كان عدد خدمات الدولة المصرية الاستبدادية الرئيسة ثلاثا: العامة التي تتولى بخاصة أعمال الري؛ الجيش ("قاعة السلاح") التي تسرق الشعوب الأخرى. كان الجيش المصري ميليشيات مؤلفة من فئات تجهزها القبائل (النوم) ومتطوعين أثيوبيين. يمكن الظن أن هذه الوحدات تفتقر للانضباط؛ وفي كل حال، يذكر أحد القادة بفخر أن فصائله .لاتسرق

المصريين، لاتحطم الأبواب لتنهب الخبز والحبوب. كان المحاربون مسلحين بأقواس وأكوام من الحجارة،وفيما بعد استخدموا الخناجر والبلطات البرونزية كسلاح دفاعي، وتدرعوا بدروع مصنوعة من جلد الحيوانات. وكانت التكنات تشكل منشآت دفاعية حصينة: هكذا، كانت القلعة القريبة من أبيدوس ذات سورين من الآجر، تقيس من الداخل ١٢م ارتفاعا وسماكة القاعدة قرابة ٦م.

كانت المعابد تساهم بنشاط بتعزيز السلطة الملكية. وعند أفول الإمبراطورية القديمة، تلقى بعضها الوثائق التي توزع المرتبات الملكية على، ليس فقط الكهنة، بل على كل الجهاز، الأحرار والعبيد.

لقد أثارت قضية الوثائق جدلا عنيفا: اعتبرها اغلب العلماء امتيازات ورأوا فيها برهانا على وجود الإقطاع في مصر القديمة. إن وثائق الإمبراطورية القديمة لاتمت بصلة إلىامتيازات العصر الوسيط: فهي لاتعطي المعابد أي استقلال، أي حق مدني على جهازها، بل تهدف إلى حرمانها من سلطة الحكام الذين يفرضون السخرة على السكان المحليين، وبهذا تجعل المعابد دعاة لسياسة الفرعون.

انطلاق سياسي للإمبراطورية القديمة

إن التاريخ السياسي للامبراطورية القديمة غير معروف معرفة كافية؛ فالنقوش المحفورة على القبور لاتعطي سوى معلومات جزئية عن هذا الحدث أو ذاك (أحيانا رئيسي)؛ والنصوص الأحدث على البابيروس المصري والمانتون تتضمن بخاصة خرافات تصعب غربلتها وأخذ الوقائع التاريخية منها. هذا إذا لم نذكر أن التسلسل التاريخي للامبراطورية القديمة مستقر استقرارا تقريبيا.

كان فراعنة الأسرتين الثالثة والرابعة فاتحين غزاة. يتميز سينفرو، من الأسرة الرابعة يتميز بشكل فريد: حملة إلى إثيوبيا جلبت له الكثير من الأسرى و٢٠٠٠٠٠ رأس من الماشية؛ وانتصر على ليبيا، وضم إلى مصر سيناء الغنية بمعدن النحاس وأرسل حملة إلى فينيقيا لتأمين خشب الأرز. وعلى تخوم مصر أقام حصونا حصينة لحماية البلاد من الغزوات.واستمرت حروب الغزو في حكم ابنه شيوبس (خوفو باليونانية) الذي غزا هو الآخر سيناء.

ويشرع ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة بأعمال بناء ضخمة، على رأسها، الأهرامات،

التي رتبها اليونانيون مؤخرا بين عجائب العالم السبع. الأهرامات قبور رائعة للملوك، مبنية بالكتل الحجرية. أضخمها (قرب قرية الجيزة، في أنحاء ممفيس) بني من أجل خوفو؛ يبلغ طول ضلع القاعدة ٢٣٠م، وارتفاعه١٤٦,٥م ،ومكون من مليوني حجر زنة الواحد منها ٢,٥ طنا. في داخل هذا الصرح العملاق أروقة وقاعات.

كان الأهرام الذي ضم جثمان الفرعون، مخصصا للطقوس الإلهية التي، حسب المعتقدات المصرية، تؤمن بعث الملك ودخوله مقام الآلهة في السماء. إلى جانب الأهرام تقام المعابد حيث يحيي الكهنة احتفالات سحرية.

كانت الأهرامات محاطة بقبور الملوك التي تسمى بالعربي مصطبة *mastaba*. في زمن حكم الأسرتين، الأولى والثانية، ماكان يسمح أن تكون قبور السادة أوسع من قبور الملوك.ومصاطب الإمبراطورية القديمة، وهي صروح حجرية، تبدو ضئيلة قياسا مع الأهرامات الضخمة؛ يشير هذا الفرق بشكل ما إلى عتو ملوك مصر وسعة نفوذهم واستبدادهم.

لبناء الاهرامات كانوا يجندون فصائل من العمال الذين يتلقون من المخازن الملكية مواد الإعاشة والثياب. وجدت شارات على الأهرامات خولت الأثريين حساب عدد هذه الورديات. نعرف، مثلا، أن أهرام خوفو كان يشغل أربعة ورديات، مكونة من قاطعي الحجارة المهرة، يقودها مهندس معماري من لدن الملك ورئيس عمال. كان يساعد البنائين جماهير من اليد العاملة، كان يوجد بينهم بالتأكيد أعضاء من المشاعات، انتزعوا من العمل الحقلي وأرسلوا إلى الجيزة لقص الحجارة، وحملها حتى الورشة على ظهورهم ورفعها، بواسطة صقالات خشبية وحبال، إلى علو مذهل.

كان البناء يتطلب جهودا جبارة. سمع المؤرخون اليونان أحاديثاً عن غضب الشعب الناتج عن هذه الأعمال: حسب ديودور، رمى المتمردون رفات الفراعنة خارج قبورهم الفخمة.

أيا كان الأمر، فقد عزف فراعنة الأسرة الخامسة عن بناء أهرامات ضخمة: فقبورهم المبنية في سكاراه، متواضعة جدا قياسا إلى قبور الجيزة. مع ذلك، رفع هؤلاء الملوك على شرف را، إله هليوبوليس، معابد مزينة بالمسلات البيضاء بارتفاع سبعين مترا.

تابع فراعنة الأسرة الخامسة حروب الفتوح: تتحدث نقوشهم عن نزاعات مع قبائل

سيناء، الرازياس في ليبيا. تعززت مع سوريا العلاقات الاقتصادية والدبلوماسية: وجــدت منحوتة تمثل مراكب آتية من شواطيء فينيقيا ويفترض بعض الباحثين تمثيل وصول أميرة سورية تزوجت الفرعون ساهورا. وفي أيام بيبي الأول، من الأسـرة الخامسـة، نظمـت بعثات ضخمة: كانت الجيوش المصرية تتغلغل من حين إلى آخر في شمال أثيوبيا وجنوب فلسطين. والمنحوتة أووي تقص عن الدمار المرتكب في فلسطين: دمر الغــزاة المحـال، قطعوا أشجار التين والعنب ، ورجعوا بمساجين يسميهم المصريون اسما معــبرا "الموتــى الأحياء".

تنامي نفوذ أرستقراطية الــ(نوم) وتراجع سياسة مصر

في أيام حكم الأسرتين الثالثة والرابعة، كانت السلطة الملكيـــة تتوطـد: كـان هـذا ضروريا لتوحيد مصر وتأمين مسار طبيعي لنهج الري؛ وسحق مقاومة العبيد والمشـاعات والحصول على سرايا العبيد من أثيوبيا، ليبيا وفلسطبين؛ أخــيرا لتكنيـس بقايـا النظـام العشيري. كان الفراعنة سنيفرو، خوفو وأخلافهما قد نجحوا، إجمالا، بتحقيق هذه المهام.

بدءا بمنتصف الألف الثالث، لوحظ اتساع سلطة النبلاء، بخاصة حكام الــ(نوم). وفي أيام الأسرتين الخامسة والسادسة، صارت قبور السادة أفخم. لم تعد تقـاس فـي منطقـة ممفيس، بل في الــ(نومات). كان حكام الــ(نوم) يعززون مواقعهم في الأقاليم ويصـيرون سادة وارثين ومستقلين. وكوفور، حاكم البيانتين، الذي حكم في أيـام الاسـرة السادسـة، يخاطر ويرسل حملات إلى أثيوبيا للحصول على العاج، البخور وجلود الحيوانات. يعترف بالسلطة الاسمية للفرعون ويهديه قزما للتعبير عن الفرق، لكنه يحتفظ بأضخم الأسلاب.

كيف يعلل نمو سلطة الحكام؟ المصادر التي نملكها حاليا لاتعطينا سوى الافتراضات.

من الطبيعي أن يغضب استغلال البلاد في مصلحة شريحة ضعيفة من النبلاء تقيم في ممفيس، أن يغضب الشعب غضبا جديا، وخاصة في مصر العليا. ومن جهة أخــرى، أن يقلص التوزيع المستمر للأرض على السادة والمعابد (بخاصة في أيام الأسرتين الخامسـة والسادسة)، ان يقلص بوضوح الأملاك الملكية ويضعف السلطة الفعلية للفراعنـة. ولقـد أفضى تطور الملكية الخاصة وتفكك المشاعة المجاورة إلى اتساع أملاك الحكـام؛ وكـان هؤلاء يستغلون الغضب العام الذي تسببه الأعمال الضخمة الملكية، وسياسـة الموظفيـن الضريبية. وفي نقوشهم، كان الحكام يقفون مدافعين عن الشعب: يفخر أحدهـم ويتبـاهى

بتقديم الخبز، الجعة والثياب للبؤساء؛ ويعلن حاكم آخر أنه الأخير في المدينـــة، انـــه نيــل الـــ(نوم).وكان تعزيز وتوطيد نفوذ الحكام، يترجم إلى ضعف وتراجع لســـلطة الفراعنـــة. لابل فقد آخر ملوك الأسرة السادسة كل نفوذ، ويقول لنا مانيتون: إن سبعين فرعونـــا مـــن الأسرة السابعة حكموا إجمالا سبعين يوما. على احتمال أن الأسرة السابعة لم توجد أصـــلا، فالخرافة التي ينقلها لنا مانيتون تنبئنا عن جو تلك الحقبة المضطرب. ولم يدم ملك الأســـرة الثامنة طويلا. وفي نهاية المطاف، آلت مصر إلى نومات، أي إيالات.

لقد انعكس تصدع البلاد بعنف على الري: في كثير من الأمكنة أهملـــت المنشـــآت، وركدت المياه، مشكلة المستنقعات. ونشبت النزاعات بين النومات، ونجم أغلبها عن توزيع الماء. كان الحكام يهاجمون في الأغلب المناطق المجاورة التي يبحث سكانها عن ملجأ لـــهم في المستنقعات.

وترافق تخلخل امبراطورية مصر مع نضال طبقي حـــاد: كتابـــات بعـــض الحكـــام لاتتحدث إلا عن "الاضطرابات" التي تقلب المدن؛ ويفخر هؤلاء الحكام بكبح الاضطرابـات بمؤازرة سرايا المحاربين.

وفي هذه الحقبة، على الأرجح، أفادت قبائل سامية من الصحراء السورية من خـــور الدولة المصرية لتتغلغل في شرق الدلتا.

الفصل الحادي عشر

امبراطورية مصر الوسطى

إعادة توحيد مصر

أدى تفكك البلاد إلى مناطق منعزلة إلى انهيار الري، انـــدلاع الحـــروب الداخليـــة، وبالتالي، الجوع. تشير مدونات العصر إلى الفقر المدقع الذي دفع إلى أكل لحـــوم البشـــر. فكان توسيع حقول القمح، وإعادة الأرض إلىالإنتاج مسألة في غاية الإلحاح. وفي الأرجح، في حقبة الانتقال إلى الإمبراطورية الوسطى يبدأ المزارعون المصريون باستخدام الحقـــول الـــ"العالية" بسهولة، أي الحقول التي لايغمرها النيل في أثناء الفيضان. كانوا ملزمين علـــى سقايتها بواسطة الآلات الرافعة التي كان الشادوف أبسطها. وربما كانت حراثـــة الحقـــول العالية سببا في ظهور سكة حديد متقنة، مزودة بمقبض يسهل عمل الفلاح.

طيلة المرحلة الانتقالية، تختفي الحقول الواسعة من أرستقراطية العاصمة، فقد تعبـــت كثيرا فرق ***demertou*** العديدة. وصارت أملاك السادة أقل اتساعا وحرثها بشكل عام عبيـــد سموا "رؤوسا". في النصوص القديمة. يملك السيد ٢٠-٣٠ "رأسا أغلبهم نساء. كان قســـم من العبيد أجانب، سوريين، مثلا.

في الوقت ذاته، تأخذ العناصر الغنية في المشاعة نفـــوذا أوســـع فأوســـع: تســـميهم المصـــادر ***puissanta nezes*** ("***nezeses*** تعني 'صغير'): أي الأقوياء الصغار. امتلك هـــؤلاء الأقوياء الصغار أراض واسعة، ومواش وعبيدا؛ وأحيانا صاروا سادة ***seigneuss***، في هـــذه الحالة، كانوا يعلنون في مدوناتهم التوصل إلى النبل بطرقهم الخاصة وليس بالولادة.

وهكذا،في هذا العصر المضطرب، تتغير بنية الطبقة المهيمنة:في الإمبراطورية القديمـــة، كان المقام الأول وقفا على أصحاب الرتب العالية الذين يقطنون عادة العاصمة ويستغلون فـــي أطيانهم الشاسعة المصريين الأحرار،أما الآن تتألف الطبقة الحاكمة من أصحاب العبيد، الذيـــن يملكون أراض أضيق وكان بعضهم منذ مدة بسيطة أعضاء بسطاء في المشاعات.

كانت هذه الأرستقراطية الجديدة -بخاصة الأقوياء الصغار- مشغولين بتوحيد مصر، الأمر الذي يعدهم ليس فقط بإصلاح شبكة الري ونهاية الحروب الأهلية، بل أيضا بتوطيد جهاز الدولة ؛ فكانوا بحاجة لحكومة قوية لتثبيت وضعهم في البلاد وزيادة عدد عبيدهم في أثناء الامتداد.

بداية، تحقق التوحيد حول هيراكليوبوليس، التي نجح أمراؤها بإخضاع ممفيس؛ وفي الجنوب، امتدت أراضيهم حتى أبيدوس . ثمة نص محفوظ ملفت، يرسم العلاقات الاجتماعية تحت حكم هيراكليوبوليس: هو تعليمات الملك كحيتي. يدافع كاتب هذا النص السياسي -وهو الملك بالذات أو مستشاره- يدافع بوضوح عن مصالح الطبقة الحاكمة. المحروم من الملك، متمرد أبدا. ويجب على الملك أن يكون قاسيا مع الشعب. أما السادة ورثة التاج عليهم أن يصونوا ملكهم وحياتهم. لأن "ثروتهم تفيد التاج". بين الارستقراطية التي يعتمد عليها ملك هيراكليوبوليس، يشغل الأقوياء الصغار مقاما هاما. ينصح كحيتي الثالث وريثه برفع الناس حسب مهنتهم، بحسب "أهليتهم" وليس بناء على أصلهم.

تدل هذه الوثيقة أن كحيتي الثاني يؤسس سلطته على طبقة محددة. ويذكر أيضا السند المادي لهذه السلطة: جيش ممتهن من الشباب (ربما كانوا أولئك الذين تركوا أسرهم الأبوية المتصدعة).وتكشف وصايا كحيتي الثالث عن مفهوم جديد للسلطة الملكية: لم يعد الملك "إلها"، بل هو راع صالح، حكيم يهتم بشعبه. يقدم كاتب النص عاهل هيراكليوبولس مدافعا عن "الأرملة واليتيم".

لكن الجيش المحترف والديماغوجية لم تؤمن الاستقرار لهذه الأسرة: فالوحدة أتت من الجنوب، من حكام طيبة؛ فالتناحرات الاجتماعية فيها يجب أن تكون أقل حدة مما في الشمال حيث سلطة الحكام تتجاوز غالبا سلطة الفرعون. وعواهل طيبة الذين سموا مانتوحوتيب، حكموا مصر كلها: والرواية التاريخية تربط مانتوحوتيب طيبة بالأسرة الثانية عشرة (من القرن العشرين حتى بداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد).

السياسة الداخلية والخارجية للامبراطورية الوسطى

إن مؤسس الأسرة الثانية عشرة أمنحيت الأول هو الذي قضى نهائيا على التوجه الانفصالي لدى الحكام وخلق دولة وطيدة. لكن رؤساء القبائل (النوم)، مع الاعتراف بسلطة الفرعون المركزية، حافظوا على استقلال محلي. وحافظت القبائل على إدارتها،وعدالتها

وخزينتها، التي تأسست في أيام الأسر السابقة، والقوى المسلحة المستقلة. كان الفراعنة مضطرين للاكتفاء بإرسال الرجال إلى الأعمال الملكية. واحتفظ أعيان القبائل بفرض الضرائب وتجنيد اليد العاملة للملك ولأنفسهم.

من وجهة النظر الضريبية، كانت أملاك بعض الـ(نومات) الضخمة تقسم إلى منطقتين: منطقة الملك ومنطقة الحاكم. وكان على الحكام -رؤساء النومات، بناء على أمر فرعون، أن يتبعوه في الحملات العسكرية. لكنهم كانوا يتصرفون كملوك صغار، سموا "السادة" يبنون قبورا، ويشيدون معابد للآلهة المحلية.

كان فراعنة الإمبراطورية الوسطى يمارسون وظائف ويتخذون تدابير في مصر كلها. نذكر بهذا الصدد، الهم الذي يعانونه من ترميم وإصلاح نظام الري. تم أكبر هذه الأعمال على بعد ٥٠كم جنوب-غرب ممفيس، حيث كان يوجد من زمن سحيق القدم منخفض واسع أوطأ من البحر بـ٤٠كم. كانت فيضانات النيل قد حولته إلى بحيرة شاسعة -بحيرة موريس- المحاطة بالمستنقعات. بدأ أمنمحت الثالث (١٨٤٩-١٨٠١) أعمالا ضخمة لتجفيف المنطقة. بنيت حول البحيرة حواجز سميكة وحفرت قنوات لتغذيتها وتصريف المياه الزائدة. جففوا أكثر من ٢٥٠٠ هكتار وصارت قابلة للزراعة. وأقيم فيها نصبان هائلان للفرعون، وقصر، ومعبد، بل ولدت هنا مدينة كاملة.

اتخذت تدابير أخرى على مستوى الوطن تهدف الدفاع عن الحدود. فحوالي نهاية الإمبراطورية القديمة كانت النومات السامية قد بدأت التغلغل في مصر. وإلى هذا التهديد الآتي من الشرق، أضيف خطر غزو الأثيوبيين من الجنوب. وليتفادوا كل هذا، دعموا الحدود الشرقية خلف الدلتا. نشبت الحروب مجددا؛ وانتهت في حكم سنوسرت الثالث، والد أمنمحت الثالث، بإخضاع القبائل الأثيوبية على طول ٣٠٠كم من مجرى النيل. وعلى الحدود الجديدة، قرب المحال الحالية كومح وسمح، بنى سنوسرت الثالث قلعتين ضخمتين، مازالت بقاياهما شامخة حتى اليوم. كانت حماية الحدود تحتاج إلى جيش دائم. واحتاج الفراعنة الجيش لحماية سلطتهم أيضا في داخل البلاد. تشكل هذا الجيش من المصريين حصرا؛ نجهل تجنيده ونفقاته ومرتباته.

أرسل فراعنة الإمبراطورية الوسطى أيضا بعثات تجارية، أساسا إلى فينيقيا: إلى جبيل وأغاريت، في شمال البلاد. وأرسوا أيضا حركة العبور مع البلدان الإيجية. وكانت

التجارة أنشط منها في زمن الإمبراطورية القديمة، فقد وجدت في أيام الأسرة الثانية عشرة طبقة تجارة ومحاسبة هامة.

أفضت كل هذه العوامل إلى انطلاق القوى المنتجة، انطلاقة لم تعرفها الإمبراطورية القديمة. وساهم ترميم وإصلاح نظام السقاية في ازدهار الزراعة؛ وإتقان المهن. تضع التنقيبات بين يدينا معلومات هامة حول المدن المصرية. دعم ارتقاء المهن والإنتاج والتجارة الإنتاج البضاعي بخاصة في نهاية الإمبراطورية الوسطى، وصار الذهب أساس القيمة. ولقد أمن نفوذ هذا المعدن في مصر بالاستيلاء على مناجمه في أثيوبيا.

العلاقات الاجتماعية

تفاقمت التناحرات الاجتماعية في أيام الإمبراطورية الوسطى. تطورت العبودية؛ إذ لم يعد أصحاب الأطيان الواسعة –النبلاء– هم فقط من يملكون عبيدا، بل أيضا صار الموظفون الصغار وحتى الناس العاديون صار عندهم عبيد. واتسعت اليد العاملة العبدة بفعل الحروب التي تأتي بالمساجين من سوريا، فلسطين وأثيوبيا. لكن عموم الشعب المصري –الزراع وأعضاء المشاعات– لم يستفيدوا من تحسن وضع الدولة ولا من نقص الفرائض والأتاوات الملكية، لأن استقلال السادة أثقل كاهلهم بنير مزدوج، نير الملك والسادة. ونجم عن هذا فقر شديد لدى الفلاحين. وتحدثت أعمال العصر الأدبية عن بؤسهم: الجوع يجوس حول أكواخ الحراث، فالعمل المضني لايكفي لتأمين حياة العامل. كل الناس تسرقه، ينتزعون منه الحبوب التي يخصصها للسوق، ويصادرون حميره، وشعيره، ويضربونه بدون رحمة ويمنعونه من الاحتجاج.وإن ذهب ليشكو الابتزاز والاغتصاب والقهر، لايجد العدل في أي مكان، حتى لدى كبار الموظفين الذين يحاول استدرار عطفهم بشكاويه وتفجعاته.

كان هذا قدر الصناع، النساجين، الحدادين أيضا، المدانين بحياة لا راحة فيها، بعمل مهلك، وبالعوز والجوع. لا أحد سعيد سوى الموظفين والمدونين الذين يدبجون لوائح بالقادرين على المساهمة ،واليد العاملة والذين يرافقون ملاحظي ومراقبي ورشات الملك والسادة. ولقد تحدثت تنقيبات مدينة الفيوم، قرب بحيرة موريس، في أنحاء كاحوم، المدينةالحالية، عن حي فقير يسكنه صغار الحانوتيين، الصناع وباقي أصناف الكادحين. وكانوا يأوون إلى الأكواخ الترابية، حيث يعيشون فوق بعضهم. والأحياء المجاورة،

الموقوفة على الكهنة والموظفين، تضم عمارات من ٥٠-٧٠ غرفة، في وسط حقول واسعة مزروعة على الأرجح بالكروم والأشجار المثمرة. فظهور عدد ضخم من الصناع في المدن سببه فقر الفلاحين الذين غادروا الريف بحثا عن عمل. وحي الأغنياء، في كاحوم، كان منعزلا عن حي العمال بسور سميك وكان محميا بسرية عسكرية قوية. تشهد هذه السمة المتميزة على الجو السائد الذي يخيم في مصر الإمبراطورية الوسطى. كان المتنفذون يخشون تمرد الفلاحين المضطهدين، والصناع والعبيد. وكانوا يحسون الأرض تميد تحت أقدامهم، ومن ضعف سلطة فرعون "الإلهية" والخوف من الآلهة بالذات. فالدين الرسمي، باحتفالاته الفخمة واكليروسه الضخم، كان غريبا عن الشعب. فالكهنة أيضا يعيشون من عمل الفلاحين المقهورين والعبيد والضرائب العالية التي تهدر على المعابد.

أفضى هذا الضنك والتوتر، بعيد الأسرة الثانية عشر، إلى اضطرابات انتهت بانهيار الإمبراطورية الوسطى.

انتفاضة الفلاحين والعبيد في منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد.

سرعان مانشبت الاضطرابات بعد موت أمنمحت الثالث، آخر ملك قوي من الأسرة الثانية عشر. وعاشت البلاد فترة تمرد وحروب داخلية، دامت قرابة ثمانين عاما. لانملك أي معلومة موثوقة حول هذا الموضوع. وإن كشفت بعض الأخبار المبعثرة أن الملوك حكموا فترات قصيرة، وأن أحدهم لم يملك سوى ثلاثة أيام ناقصة وأن ملكا آخر دعي مير-ميشو، أي رئيس الـ"عسكر".

ربما في هذه الحقبة وقعت الأحداث المذكورة في نصين أدبيين. هما "نبوءات نفرتيتي" المحفوظة في متحف الأرميتاج، في لينينغراد، والثاني إنذار حكيم (جامعة ليد) في هولندا، وصف حي لوقائع توجب على المنشيء أن ينقلها إلى الملك. إيبور يطلع الفرعون على الكوارث الرهيبة التي، كما يرى، أصابت مصر بسبب حكومة ملحدة، أهملت الإجلال المتوجب للآلهة والواجبات التي فرضها الدين. واستنادا إلى لغته، يعود هذا العمل إلى عهد الإمبراطورية الوسطى. يرى الأكاديمي ستروني أن الأحداث التي ذكرتها نفرتيتي وإيبور تعود إلى حكم الأسرة ١٣، أي نهاية الإمبراطورية الوسطى؛ لكن بعض الباحثين السوفيات والأجانب يشكون بالأمر ويفترضون أن النصين أقدم من هذا.

ويقص "إنذار حكيم" انتفاضة جماهيرية للفلاحين، الحرفيين والعبيد، عمت مصر

قاطبة. المتمردون بؤساء لايملكون شيئا، سجنوا الملك، طردوا الأغنياء مـــن قصورهـم، رموا مومياءات الفراعنة خارج القبور، احتلوا المعابد ودمروا المكـاتب الدينيـة. احتلـوا المخازن الملكية، الأميرية والاكليركية، وأعلنوا القمح المخزون ملكية عامة. واحتل العصاة مساكن الأغنياء، ولبسوا ثياب السادة وتزينوا بحليهم وألزموهـم أن يعملـوا لمصلحتـهم. وحسب تعبير إيبور، "دارت الأرض كدورة الفواخيري". واحتل المنتفضون قصر العـدل، دمروا أثاثه، ورموا في الشارع لفائف القوانين، أبادوا المدونين ولوائح الموسم. وهكذا بقـي بيت الملك بدون مدخول، والمعابد بدون قرابين. لسوء الحظ، لم تذكر المصـادر السـلطة التي حلت محل الفرعون المخلوع.

استغلت القبائل الرحل الأسيوية ضعف وتصدع مصر، واحتلت في العام ١٧١٠ قبـل الميلاد شمال وادي النيل. يسمي مانيتون هؤلاء المحتلين بالـ"هكسوس". عاصمة مليكـهم هي أفاريس، في مصر السفلى. وفرضت ضرائب ثقيلة على المصريين، وصار الفلاحـون عبيدا لدى الغزاة الأغراب. قدم الهكسوس براهين على التسامح تجاه أرستقراطية البلد؛ فـي الجنوب وجزئيا في الشمال، تركوا السلطة في أيدي الحكام السـابقين، وأخضعوهـم إلـى مراقبتهم. سلبت المعابد ودمر بعضها. دام نير الهكسوس أكثر من مائة عام ولم يرحلـوا إلا في أيام الفراعنة الأوائل للامبراطورية الجديدة.

الفصل الثاني عشر

إمبراطورية مصر الحديثة

طرد الهكسوس وتوحيد مصر

بدأت حركة التحرر في الجنوب، حيث كانت سلطة ملوك الهكسوس أضعف مما كانت في الشمال. كانت الحركة وطنية. استلم ملوك طيبة القيادة. في البداية، لم يجدوا أي سند حول ملوك الجنوب الآخرين؛ لكنهم بمؤازرة المليشيا الشعبية قاموا شيئاً فشيئاً بمهمتهم وهم يقاتلون دفعة واحدة خصومهم والهكسوس. حفظ الشعب ذكرى مبادرة التحرر، ملك طيبة كاميس.

بعد نضال طويل، تحررت مصر وتوحدت في حوالي العام ١٥٦٠ قبل الميلاد على يد ملك طيبة أحمس الأول، الذي أخضع قادة متمردي الجنوب، ومشى نحو الشمال، دحر الهكسوس،احتل أفاريس وطرد غزاة البلاد. وبهذا الملك بدأت الأسرة الثامنة عشر، التي في ظلها بلغت مصر الموحدة قمة نفوذها وحضارتها.

وسم توحيد مصر في عهد الإمبراطورية الجديدة بتنامي القوى المنتجة. اتقنت آلات الإنتاج. ازداد مردود الزراعة والحرفة، قويت التجارة وانبسطت في داخل البلاد وراء تخومها. ولقد توطد توحيد مصر وتدعمت السلطة الفرعونية بلجوء أحمس الأول للحركة الشعبية في مناضلة الهكسوس والسادة الانفصاليين. ولم يبق في قيادة الأرياف سوى الحكام الطيعين والذين أعيدوا إلى حالة الحكام البسطاء، بدون حق التوريث. وتولى رجال من الفراعنة حكم الأمصار.

وهكذا، في أيام الأسرة الثامنة عشر، تمركزت حكومة مصر. يجدد أحمس تنظيم جيشه وينشره في كل المناطق. يعيش المحاربون على حساب الفرعون ويتلقى الضباط، فضلا عن هذا، أراض ذات أبعاد متواضعة. جندت القوات من الشعب المصري الريفي والمديني. لم يفتقر المتطوعون، لأن البلد الذي دمرته الاضطرابات، ونهب الهكسوس

والحرب، في هذا البلد فقد مئات الناس أملاكهم وفقدوا القدرة على استعادتها. تشكلت الوحدات من المشاة، الذين يختلفون عن مشاة الإمبراطورية القديمة والوسطى في أن الجند بعهدة الدولة ويتسلحون من المخازن الملكية. كل الأسلحة المعروفة حتى آنئذ -أقواس، أسهم، خناجر- أتقنت؛ وظهر السيف. التجديد الرئيس هو تأهيل قوة متميزة من قادة الدبابات، مؤلفة بخاصة من النبلاء والأغنياء. وللدخول إلى مدرسة الدبابات، كان لابد من توفر حماة متنفذين. الجيش إذن هو ركن السلطة الملكية.

لقد مكنت إعادة تنظيم الجيش أحمس من الرجوع إلى شن حملات خارجية. وسجلت غزواته بداية فتوح الأسرة الثامنة عشرة، التي أفضت إلى خلق دولة عسكرية ضخمة.

فتوح فراعنة الأسرة الثامنة عشرة

تمت غزوات أحمس بعد توحيد مصر بهدف الفتح والنهب. وبمطاردة الهكسوس، تغلغل الفرعون في أسيا، لكننا لانعرف تفاصيل هذه العمليات. معرفتنا أحسن حول غزوة النوبة التي هدفت إعادة السلطة المصرية على الأملاك الفرعونية القديمة في هذه المنطقة. ولقد أولى أوائل خلفاء أحمس هذه المهمة. لكن الفراعنة التاليين لم يكتفوا بهذا. بل باشروا حملات جديدة غلى فلسطين وسوريا، بغاية السيطرة على الدول الفينيقية وغيرها للحصول على الذهب، الفضة، الخشب، الخمر، المواشي، والعبيد، وليس بالتبادل التجاري، بل كضريبة، مستمرة وبكميات ضخمة. كانت هذه الحملات تهم قمة المجتمع العبودي: فرعون، أسرته، موظفوه الكبار، الاكليروس والجنرالات. وأفاد جنود الجيش المصري أيضا من هذه الحروب، لأن كلا منهم حصل على شيء من الغنيمة.

لم يتم فتح فلسطين وسوريا إلا بعد حملات صعبة، بدأه اخلفاء أحمس. وأخيرا سقطتا بأيدي الفراعنة في أيام تحوتمس الثالث (١٥٢٥-١٤٩١).

كانت حقبة هذه الحروب قاسية، أولا، لأن الجيش المصري لم يكن جرارا يقاتل ضد عدة تحالفات من المدن والأراضي. كان عدوه الأهم دولة قوية، تشكلت حول قادش على العاصي، المدينة التي قامت في أخصب منطقة في سوريا وأكثرها ازدهارا. بمؤازرة ملوك قادش، انتفضت المدن والإمارات الخاضعة لفلسطين وجنوب سوريا ضد الهيمنة والاحتلال المصري، واضطر تحوتمس الثالث إلى إرسال عدة حملات لتهدئة إلى هذا الحد ، أو ذاك أمراء فلسطين وعدد من المدن الفينيقية. وبهذا فقط تمكن من الالتفاف حول قادش. كانت

المدينة جيدة التحصين، قد احتلت ودمرت بعد حصار طويل ومعارك ضارية. ثم انطلق فرعون نحو الشمال وأدرك الفرات بعد حملتين متتاليين. وهكذا خلق احتلال فلسطين وسوريا من مصر أقوى دولة في الشرق الأدنى, ولقد أرسل ملك الكاسيت في بابل وملك الحثيين إلى تحوتمس الثالث هدايا رائعة. كما فعلت الكنوز المنهوبة من فلسطين وسوريا فعلها في مصر.

لتقدير ضخامة نهب البلدان المحتلة على يد تحوتمس الثالث، يكفي ذكر بعض الأرقام: جلبت الحملة ضد المدينة الفلسطينية ماجيدو للفرعون مئات المساجين، ٩٢٤ دبابة، ٢٢٣٨ حصاناً، ٢٠٠٠ رأس بقر، ٢٢٥٠٠ رأس من المواشي الصغيرة، ١١٣٠٠٠ صاع من القمح، ٢٠٠ قطعة سلاح فردي، حوالي ٢٠٠ كغ ذهب وفضة. وفضلاً عن هذا، خضوع الإمارات والممالك لدفع ضريبة سنوية.

نال الجيش قسما من الأسلاب، لكن القسم الأكبر والضريبة وضعت تحت تصرف الفرعون الذي وزعها حسب رغبته. الغنائم، المواشي والعبيد ذهبت أولا إلى المعابد، في رأسها معبد الإله الرسمي آمون، في طيبة. استنادا إلى المدونات الملكية لذلك العهد، كان هذا المعبد يتلقى بعد كل حملة عددا كبيرا من العبيد، من المواشي "التي لاتحصى"، سبائك الذهب، الفضة والحلي؛ فضلا عن تلقيه جزءا من جبل لبنان وثلاث مدن، هدية. وكنوز مماثلة تذهب إلى المخازن والأهرامات الملكية؛ وعدد من العبيد وآلاف الدواب كانت في طريقها نحو أملاك الفرعون.

لكن تحوتمس الثالث، رغم انتصاراته، لم يستطع ان يبقىذا سطوة في سوريا وفلسطين. فبعد هذه البلاد والمناطق الصحراوية التي تفصلها عن وادي النيل حرمته من توطيد وجوده وتأمين مراقبة صارمة. فكان يضطر، من حين إلى حين، ان يرسل حملات لكبح التمردات. وبنهاية ملك تحوتمس الثالث الطويل، ينظم أمراء قادش ضده انتفاضة واسعة المدى. وليهزم المتمردين، أرسل الحملة الأخيرة إلى آسيا، احتل من جديد قادش وأرسى سلطته. لكن الصراع، في أيام خلفائه، عاد وتتابع دون انقطاع.

عدا حملته إلى آسيا، اندفع تحوتمس الثالث نحو الغرب، وراء النيل، وأخضع جزءا من ليبيا. وفي نهاية ملكه، دخل النوبة ووسع حدود مصر باتجاه الجنوب حتى الشلال الرابع.

وتحت ملك تحوتمس الثالث تشكلت الدولة العسكرية المصرية. دامت ٢٠٠ عام، لكنها، في القرن الثاني لوجودها اضطرت أن تتصدى لنضال شرس انتهى باندحارها.

العلاقات الاجتماعية بعد الفتوح

لقد أفضت السياسة العدوانية لفراعنة الأسرة الثامنة عشرة إلى توسيع الدولة. فنظام الحكم السابق الذي لم يعد يلائم الشروط المستجدة. عوضا عن وزير واحد، اقيم اثنان: واحد للجنوب، والثاني للشمال. لكن وزير الجنوب حافظ على السلطة وطرح القضايا التي تهم كل البلاد. خدمت حكومته بواسطة جهاز ضخم من الموظفين والمدونين، ووحدت كل المصالح: إدارة، ري، الأملاك، العدل والجيش؛ وتوجب على الخدمات، ومصالح الدولة المحلية والعامة أن تقدم للوزير تقارير دورية؛ كان يدرس الشكاوي، يناقش شخصيا الشؤون الهامة، يحل الخصومات العقارية، ويصادق على الوثائق. كانت القضايا العقارية هامة بشكل فريد، لأن الأرض كلها نزعت من يد فرعون.

مارست الفتوح تأثيرا حادا على العلاقات الاجتماعية. احتلت زمرتان من هذه العلاقات مقام الصدارة. شملت الزمرة الأولى نبلاء القصر والإكليروس. اللذين اغتنيا بشكل خرافي على حساب البلدان والشعوب المحتلة وكانا، فضلا عن هذا، قد دعما سلطتهما بتوسيع أملاكهما. فقسم واسع من الأرض ترك بسكانه للمعابد.

وهكذا، صارت المعابد مالكا عقاريا كبيرا. أوطدها وأغناها، معبد آمون في طيبة، والذي كان يتلقى باستمرار أراض جديدة. أعطى تحوتمس الثالث آمون خيرة الحقول والمروج في مصر العليا والسفلى، والأراضي العالية، والمساجين الآسيويين والزنوج الذين يجب عليهم أن يملؤوا أهرامات الإله". كان معبد آمون يمتلك من الأرض والعبيد والفلاحين أكثر من كل المعابد الأخرى مجتمعة. لعب هذا التمييز دورا هاما في تاريخ مصر اللاحق.

كانت الزمرة الثانية من العلاقات الاجتماعية الهامة هي الشريحة العسكرية، حديثة الأصل والمنبت، المؤلفة من ضباط قادة وأمراء. كان الضباط الأمراء، الذين يعينهم الفرعون في الوظائف الإدارية العليا والمركزية ويسميهم القصر، قادرين على التأثير في رسم السياسة الداخلية. وكان الضباط القادة ومرؤوسيهم يتلقون أراض لقاء خدماتهم، ونظرا لعددهم الكبير، كانوا يشكلون دعامة متينة للسلطة الملكية. فمن الطبيعي أن يكون فرعون مهتما برغباتهم.

كان شرط الفلاحين يبقى إجمالا على حاله. كان أعضاء المشاعات مرهقيـــن دومـــا بالضرائب والسخرة وخدمة الملك والمعابد. وتثقـــل الفتوحـــات هـــذا النـــير، بتخريـــض المنتصرين على إعادة بناء وعلى نطاق واسع المعابد والقصور: كـــانت مصـــر عـــامرة بصروح ضخمة، بعظمة وروعة لاسابق لها، تدهش أطلالها حتى اليـــوم زائريـــها. امـــا الفلاحة في الإمبراطورية الجديدة، ترزح تحت وزر هذه الأعمال. فينظر إلـــى الفرائـــض الملكية كأمر مقيم أبدا.

كان أسرى الحرب وسكان البلاد المهزومة يضخمون عدد العبيد. كان يصعب تحديـــد عددهم؛ فكانوا يحصون بعشرات الألوف. وكان العبيد موزعين بغير عدل. الملك والمعـــابد يمتلكون الغالبية. ونبلاء القصر والأرستقراطية العسكرية يملكون منهم الكثير. فبعـــد كـــل حملة كان فرعون يوزع المساجين بكرم. تثبت النصوص أن جنودا بســـطاء، ومزارعيـــن وصناعا كانوا يملكون عبدين او ثلاثة. يستخدمون في الحقول، في المقالع في نقل الأحمال، وخدما في المعابد، إلخ.

كما عززت الفتوح أيضا التجارة الخارجية، واحتكار الفرعون وكهنة آمـــون. كـــانت التجارة تتم بإرسال حملات خاصة إلىالجنوب، إلى بونت ***pount***، وإلى جزر بحر إيجـــة، لأن ماكان يريد الملك والكهنة الحصول عليه، كان يسلم، منذ فتح فلسطين وسوريا، بشـــكل ضريبة سنوية. فقط مدينة صور الفينيقية حافظت على حق إقامة علاقـــات تجاريـــة مـــع مصر.

أرسلت حملتان ضخمتان إلى الجنوب، أرسلت الأولى الملكة حاتشبســـوت، وأرســـل الثانية تحوتمس الثالث. أهمها حملة حاتشبسوت، عادت بكمية كبيرة من العـــاج، الراتنـــج العطر، الأبنوس، الفضة، الذهب، الريحان الشامي، القردة، الكلاب والعبيد.

كان الفرعون والكهنة يبادلون ثمار الاسلاب بسلع يستوردها التجار الملكيـــون مـــن بابل، قبرص، كريت وجزر إيجية أخرى. وكان يتوجـــب علـــى التجـــار أن يقدمـــوا أولا عروضهم للفرعون والـــ"إله آمون" ولايبيعون إلا ماتبقى. كان هذا يغضب كهنـــة المعـــابد الأخرى، والتجار أنفسهم، الذين كبر عددهم بوضوح في أيام الإمبراطورية الجديدة. وكـــان حديثو النعمة، مالكو العبيد السابقون الصغار، أثرياء الحروب، يعارضون نبـــلاء القصـــر الشيوخ والإكليروس.

هكذا، في المجتمع المصري أيام تحوتمس الثالث، يتفاقم التناحر ليس فقط بين المستعبدين والعمال، بل أيضا بين المستعبدين أنفسهم.

إصلاح أخناتون الديني والصراع الاجتماعي والسياسي الذي تلاه

في أيام حكم خلفاء تحوتمس الثالث، تنضج أزمة سياسية في الدولة المصرية العسكرية. ينشب الصراع بين الملوك الصغار لبلدان آسيا المحتلة، بينما تتغلغل فيها قبائل سامية على الأرجح ومذكورة في التقارير المقدمة إلى الفرعون تحت اسم شابيرو، آتية من الجزيرة العربية. يتقدم الحثيون في سوريا من الشمال. ولعدم كفاية السرايا العسكرية، لم يتيسر للحكام تهدئة الملوك الصغار الآخذين بخناق بعضهم البعض، ولا إيقاف لغزو الشابيرو. وكان الفراعنة عاجزين عن الرد أيضاً، بسبب استحالة استبقاء القوات الضخمة، المجندة من السكان الأحرار، في الأرض المحتلة. ولم يجرؤوا أن يرسلوا إلى سوريا الألوية المنتشرة في مصر، لأن الجو مضطرب في داخل البلاد. فمنذ نهاية ملك أمنوفيس الثالث، عبرت شرائح متباينة عن عدم رضاها عن كهنة آمون، الذين تعمق نفوذهم. اشترك أمنوفيس الرابع (١٤٢٤-١٣٨٨) بالمقاومة وحاول، مع مساعده، إنقاذ السلطة الملكية من تسلط كهنة آمون والنبلاء السابقين، الذين كانوا يرون في عبادة هذا الإله دعما ايديولوجيا هاما والذين كانوا يجهدون في إعادة السلطة لحكام الـ(نومات). أما الفرعون، كان يطمح في امتلاك واستقرار السلطتين السياسية والدينية. وجمهرة الشعب الحر، التي تشكل سلاح المشاة المصري، كانت تؤازره في مخططه وكانت لتحسين مستقبلها تعتمد انتزاع ملكية النبلاء والكهنوت.

لم يكن ممكنا تحقيق الهدف الذي يطرحه أمنفيس الرابع إلا بإصلاح ديني. حاول الفرعون بداية معارضة آمون بإله الشمس رع، الشعبي جدا. سام كاهنا كبيرا لرع وشرع ببناء هيكل له في طيبة. لكن عبادة هذا الإله، المرتبطة بمنطقة هليوبوليس قليلة الإنتاج، لم تنجح. الأمر الذي دفع أمنوفيس الرابع إلى صرم العلاقة مع كل الاكليروس وعبادة الآلهة التقليديين، ليقيم إلها وحيدا لمصر هو قرص الشمس آتون. وبرر هذه العبادة بأن الشمس تنير وتدفيء العالم كله. وسمي الملك أخناتون ("النافع من يرضي آتون")، وأغلق المعابد القديمة وابتنى محارب لآتون في أرجاء مصر. غادر طيبة، تل-العمارنة، وسماها أخناتون ("أفق آتون"). وهنا نهض معبد آتون الرئيسي الذي سمي الفرعون كبير كهنته.

أثار هذا التحول المفاجئ في السياسة الدينية مقاومة ضارية من قبل الكهنوت والنبالة القديمة. في هذا الوضع، لم يكن للفرعون سوى جيش من المرتزقة والأرستقراطية الجديدة التي أفادت من الإصلاح بابتلاع قسم من الأرض المنتزعة من الإكليروس. والفلاحون، الذين أملوا تحسين حياتهم، لم يتأخروا عن التأكيد في أن شرطهم مازال متفاقما وليس موضع اهتمام المصلحين. فالنفقات الضخمة لعبادة آتون والقصر الملكي كانت تتلف الخزينة، وأسلاب الحرب والضريبة نضبت بسبب توقف الغزو، فانعكس كل هذا على استغلال الفلاحين. وأشعل كهنة آمون الغضب الشعبي؛ إذ نشروا تنبؤات عن غضب الآلهة، وعن الاعتداءات التي تهدد أمن البلاد، وغيرها.

كان النبلاء يدبرون مؤامرات ضد أخناتون. لكن الفرعون كبح بالحديد والنار التمردات على يد جنوده. وبعيد هذا مات، مخلفا لخليفته امبراطورية مصدعة. ونشبت الاضطرابات في الداخل، بينما كانت ضرائب كحابرو تتسرب أكثر فأكثر إلى الأملاك الأسيوية؛ كان الحثيون قد احتلوا شمال سوريا، وانفصل الملوك الصغار عن مصر، الواحد تلو الآخر. وبعد ثلاث سنين من موت أكحناتون، اضطر خليفته الثاني توتانكحاتون لمصالحة كنهة آمون. وعاد أدراجه إلى طيبة وبدل اسمه إلى توث أنخامون. وتلت موته اضطرابات رهيبة. كبحها الجنرال المصري حورمحب، سليل أسرة نبيلة سابقة. وبمساعدة كهنة آمون، صعد إلى العرش وأسس الأسرة التاسعة عشرة. اتخذ تدابير حازمة بهدف تهدئة الإمبراطورية وعمد إلى إصلاح ديني كامل. لعن أكحناتون، وألغي اسمه واسم آتون من كل مكان؛ أخليت مدينة أكحناتون وهجرت. استعادت معابد آمون أملاكها؛ وأقيمت من جديد عبادة الآلهة السابقة.

فشل إصلاح أكحناتون، لأنه كان مصطنعا. فلم تستفد منه أية شريحة من المجتمع المصري، عدا كهنة آتون والأرستقراطية الجديدة.

الأسرة التاسعة عشرة وسقوط الإمبراطورية الجديدة

نشط فراعنة الأسرة التاسعة عشرة بخاصة لاستقرار سيطرة مصر على سوريا وفلسطين، وفي جنوب النوبة، حيث كانت الانتفاضات قد نشبت في أيام أخناتون. ولقد شن سيتي الأول ورمسيس الثاني حروبا طاحنة على فلسطين وسوريا. لم يعودوا يعتمدون على الجحافل المصرية، بل على المرتزقة الليبيين والسوريين، الذين يتقاضون رواتبهم من

الاحتياطات الواسعة من القمح، الذهب والفضة. يشهد الانتقال إلى نظام الجيش المرتزق أن تجنيد المحاربين من المصريين كان قد أصبح صعبا ،وأن العمال دللوا على عداوتهم لسلطة الفرعون والكهنوت.

نجح سيتي من جديد في إخضاع صور التي انفصلت عن مصر في أيـــام اخنـــاتون وتوطيد المواصلات البحرية مع سوريا، ثم احتل مجددا شمال فلسطين ومنطقة لبنان. وبنى فيها عدة قلاع وخلق قاعدة لينطلق أبعد نحو الشمال. حاول خلفه رمسيس الثاني تحقيق هذا المشروع. كانت مهمته هذه كأداء، لأن سوريا كلها كانت آنئذ تقريبا في أيدي عدو جبـــار هو الحثيون. انتهت حملة رمسيس الثاني الأولى بالفشل: تعرض جيشه لهزيمة علـــى يـد قادش وكاد الملك نفسه أن يقع في الأسر (سنة ١٣١٢). لكن الحملة الثانيــة حققــت هــذا المشروع. تمكن الفرعون من بلوغ المجرى الأعلى للعاصي واستقر هنا. في غضون ذلك، كان الصراع على العرش يعصف في الإمبراطورية الحثية، الأمــر الــذي أجـبر الملــك هاتوسيل أن يبرم معاهدة مع رميسي الثاني (١٣١٧-١٢٥١)، نصت أن الفريقين ملتزمــان بالعيش بسلام وبالمساعدة المتبادلة في حال التعرض لهجوم معادٍ. وختمت المعاهدة بـزواج الفرعون من أميرة حثية. لكن هذا النجاح لم يؤمن أبداً السيطرة المصرية علـــى ســوريا. فانتفاضات الملوك الصغار السوريين والفلسطينين تجددت في المنطقة العربية وجزر إيجة. وفي أواسط القرن الثاني عشر، تحررت سوريا وفلسطين نهائياً من ربقة مصر.

بعد موت رمسيس الثاني ضعفت سلطة الفرعون في مصر نفسها. لكـــن ميرنـــهتح، خلفه المباشر، استطاع صيانة السلطة، والتصدي ورد هجوم الشعوب البحرية والحفاظ على التاج.وبعده، خضعت البلاد للاضطرابات والفوضى: "كل يفعل مايشاء"، يحكم السادة حكماً مطلقاً في الــ(نومات). واستغل إيارسو "السوري" الوضع ليستولي على الســـلطة. وبعــد خمسة أعوام من الصراع الداخلي، تولى العرش ستنكحت، سليل الأسرة العشـــرين، التـــي اتبع فراعنتها سياسة عبادة آمون، وحاولوا عبثاً كبح الحركـــة الانفصاليـــة فـــي المنـــاطق الآسيوية. وفي هذه الحقبة بدأت تنفذ الكنوز الخيالية واحتياطات الأرزاق الواســـعة؛ حتـــى الفلاحون السخرة رفضوا أحياناً العمل، لأنهم لم يستلموا مرتباتهم. وحدثت أحداث مماثلـــة في طيبة، في ورشات المعابد.

تمرد الفلاحون الساخطون من الجوع والجور في القرى. واستمرت سلطة الفرعـــون

بالتصدع، بينما كانت تتسع سلطة الكاهن الأكبر للإله آمون. وحوالي منتصف ملك الأسرة العشرين، كان كهنة آمون يمتلكون قرابة ٨٠٠٠٠ عبد، وكان لدى الكاهن الأكبر جيش كبير وعدد ضخم من الموظفين والمديرين. وتصير مهمته وراثية "تنتقل من الأب إلى الابن، بشكل مؤبد". سابقاً كان الكاهن الأكبر يخضع أساساً للملك، أما الآن يوليه آمون بالذات ويستقل عن العاهل.

كلما ضعفت سلطة الفرعون، توطدت سلطة النبالة المحلية: كهنوت، موظفون كبار، وتجار.وتتسع الأملاك الخاصة بشراء أرضي الفلاحين المرهقين أو الاحتكارات. نجم عن هذا تفكك سريع في المشاعات الريفية واستقرار الحق في الملك العقاري الفردي. وتضاعفت انتفاضات الفلاحين التي يشترك فيها العبيد عادة.

عصر الانحطاط

لقد أفضى تصدع السلطة المركزية والاستقلال المتنامي لارستقراطية الـ(نومات) وبعض رفاق الكهنة إلى تشتت مصري جديد، بعد أن أنهكتها الحروب الطويلة.

فقد صار حيريهو، كبير كهنة آمون، في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، فرعون الأسرة الواحد والعشرين، لكنه لم يحكم مصر كلها. إذ كان لـ(نومات) الشمال ملوكها المحليون. وتم التوحيد في القرن العاشر، هذه المرة بقيادة أجنبية. فقد نجم عن تنامي دور جيش المرتزقة تسليم العرش إلى سليل أسرة أرستقراطية من جنرالات ليبيا دافع عن مصر: شيشانك الأول. وأفضى تدفق القوات الليبية إلى توطيد الإمبراطورية توطيدا ملحوظا. شن شيشانك حربا مظفرة على فلسطين وبنى عدة صروح، أكثرها قلاع.

لكن صراعا استجد في ظل خلفائه وتجزأت مصر إلى عدة دول مستقلة.

بفعل هذا الضعف، أخضع عواهل النوبة مصر في القرن الثامن قبل الميلاد. لم يجلب الفراعنة الليبيين شيئا جديدا إلى البلاد، والدولة النوبية نفسها تطورت بتأثير مصر. ففي أثناء ملك الأسرة النوبية، هاجم الآشوريون مصر، ورغم مقاومة ضارية، قهر أسارهادون البلاد في ٦٧١. لكن الهيمنة الآشورية بقيت عارضة إذ كان المصريون يستغلون أبسط الفرص ليستعيدوا استقلالهم. وفي ملك آشور بانيبال، دمر الآشوريون مصر مرتين، لأنهم لم يستطيعوا الصمود إلا باستغلال الصراع بين عواهل النوبة والملوك الصغار لنومات – قبائل– الشمال. كان أقوى هذه الدول تلك التي تشكلت حول مدينة سيناء، في الدلتا، بمساعدة الآشوريين.

استغل بسامتيك الأول (حوالي ٦٥٤-٦١١) اتفاقات نشطة مع بلدان شرق البحر الأبيض المتوسط، على رأسهم اليونان، حيث تصدر مصر قمحها. فظهر العديد من التجار والمرتزقة في مصر وأسسوا مستعمرات. إن هذه الانطلاقة القصيرة، المعروفة باسم حقبة سابيت ***saite***، متميزة بتطو الإنتاج البضاعي، وبداية التداول النقدي وارتقاء المهن. وساهمت بهذه الانطلاقة المبادلات التجارية والثقافية مع اليونان وآسيا الصغرى.

كانت السياسة الخارجية للفراعنة السابيت تهدف إلى رفع النفوذ العالمي لبلادهم بعقد أحلاف مع الدول العظمى،لأن ضعف مصر النسبي لم يعد يسمح للفراعنة أن يتصرفوا كفاتحين.

كانت السياسة الخارجية الأنشط هي سياسة نيشايو الثاني (نحو ٦١١-٥٩٠٥)، الذي وسع التجارة مع البلدان المجاورة (في أيامه حفرت قناة النيل على البحر الأحمر) وحاول أن يخلق بواسطة الأحلاف العسكرية نقاط ارتكاز في فلسطين، في سوريا وعلى المجرى الأوسط لنهر الفرات. لكن القوات المتحالفة المصرية والآشورية انهزمت أمام البابليين في كركميش وانتقلت الهيمنة في الشرق الأدنى إلى إمبراطورية بابل الجديدة.

فرضت القوة العاتية للأرستقراطية والكهنة على الفراعنة السابيت أن يبحثوا عن دعم التجار والمرتزقة، الأمر الذي حجم تيار مصادقة اليونان في سياستهم الخارجية. فالمنح والامتيازات الواسعة للتجار الأجانب، ونفقات جيش المرتزقة الضخمة أغضبت الشعب المصري، الذي انتفض. واستلم جنرال من عند فرعون، قيادة المنتفضين، وهزم المرتزقة وتولى العرش تحت اسم أحمس الثاني (أماسيس) (٥٦٩-٥٢٥). تابع أحمس الثاني السياسة التقليدية لأسرة السابيت، عزز الروابط مع اليونان وشجع إقامة المستعمرات اليونانية على الأرض المصرية.

إن سحق امبراطورية بابل الجديدة والدول الأخرى في الشرق الأدنى، خول مصر تفعيل سياستها الخارجية لبعض الوقت. فتغلغلت قوات فرعون من جديد في فلسطين. لكن هذا الانتعاش كان قصير الأمد.فمنذ السنة الأولى لملك خليفة أحمس الثاني، بسمتيك الثالث، دخلت القوات الفارسية مصر، الممزقة بالصراع الداخلي، وهزمت قوات فرعون في بيلوز (٢٥٢ ق.م)، وأنهت استقلالها. ولقد مارست حضارة مصر، المدينة بازدهارها للعلاقات التجارية والسياسية مع اليونان، نفوذا واسعا على الحضارة الإغريقية.

الفصل الثالث عشر

الحضارة المصرية

خصائص عامة

لقد خلق الشعب المصري، خلال تاريخه الطويل حضارة رائعة. فنحن مدينـون لـه بأعمال أدبية خالدة. إن صروحه، نقوشه ورسومه تؤخذ نماذج حتى اليوم، شأنه في هـذا شأن اليونان القديمة.

تستقي الآداب والفنون المصرية من تقاليد ثرة، فالشعب المصري صان أبداً وحدتـه وميزاته النوعية. إن بعثات عديدة على النيل وفي البحر، مع أخطارها ومغامراتها، تغـذي الخيال، تعمق وتوسع أفق الناس وتساهم بتطوير الأدب العلماني. وفي الوقت ذاته حسـنت، الوفرة بحجارة البناء والمواد الثمينة، كالذهب ، والأبنوس والعاج فـن العمـارة والنقـش والفنون التطبيقية.

من الخطأ اعتبار الحضارة المصرية كإقطاعة لأرستقراطية العبودية. فالأقـاصيص، حكايات المغرامرات، قصائد الحب ومختلف أجناس الأدب تنهل بالتأكيد من منهل الفولكلور المصري الغني. والفنون التشكيلية تستند كلياً إلى تقاليد شعبية تعود إلـى عـهد المجتمـع البدائي. وكان العديد من أروع هذه الفنون عملَ فناني الشعب الكبار.

الدين

يقدم الدين المصري نفس الثنائية التي قدمها الدين البابلي. فمن جهة، عبـادة الآلهـة "العظام" والميثيولوجيا الملائمة، حيث تتغلغل التأملات التي سعى إليها الكهنوت لتدعيم نظام العبودية. ومن جهة أخرى، لدينا معطيات حول وجود دين شـعبي زراعـي، بأسـاطيره واحتفالاته التي ترتبط إلى حد ما بالدين الرسمي.

كان لكل نوم إلهه، إلهه المزدوج أو الثلاثي. تعود عبادتهم إلى بداية المجتمع البدائـي، لأن لآلهة النوم تمت دوما بربط القربى مع الطواطم القديمة. ينتسب الإله المحلـي إلـى

حيوان معين، وسمي الكثير من النومات باسم حيوانات: نوم الكركدن، الغـــزال، الفحــل، الصقر، الأرنب، وغيرها. وغالباً تبقى عبادة الحيوانات بشكلها البدائي: ففي ممفيس، مثــلاً يعبد الثور آبيس، تجسيداً للإله فتاح؛ وفي تينيس، الصقر حوروس؛ ولقد اعتـــادوا تقديــم الآلهة والآلهات بشكل حيوانات أو كائنات بجسد بشري ورأس حيوان. من هذه الزاويـــة، يتفق الدين الرسمي مع الدين الشعبي، لأن هيرودوت يقول: إن عبادة الحيوانـــات كـــانت منتشرة في كل البلاد. بقيت هذه العبادة حتى التاريخ المصري. لكن آلهة النومات لم تتمتــع بالسحر. فقط آلهة النومات الأوسع والتي لها تأثير سياسي، يمكن أن تأخذ الصفة القوميــة. هذا ماكان فتاح في ممفيس، را في إيونو (هليوبوليس)، أوزيرس في أبيدوس، هوريس فــي تينيس، وآمون في طيبة، وغيرها. كان لبعضها، مثل را، إله الشمس، أوزيرس وإيزيــس، آلهة النبات والخصب، وظائف ترجع إلى أقدم العهود؛ ولقد حافظت على مقامها في الديــن الشعبي. ويأخذ بعضها نسبةً من تعاليم الدين والكهنوت: هكذا، أعلن فتاح خالقــاً للعــالم، والآلهة والناس.

دور الإله الأسمى، سيد الآلهة، أسند لآمون، إله الشمس، الذي يقدم برأس فحل، فــي أثناء التفوق في طيبة خلال الإمبراطورية الوسطى وبخاصة أيام الإمبراطورية الجديـــدة؛ وصارت عبادته العبادة الرئيسة في مصر.

كانت العبادة الأكثر شعبية هي عبادة أوزورس وإيزيس. وصار أوزرس إله المملكــة النباتية. تقول إحدى الأساطير: إنه سمي إله القمح والشعير. ترتبط مثيولوجيته ارتباطاً وثيقاً بالخاصة الزراعية لعبادته: سيث، إله الصحراء الشرس، قتله وقطــع جســمه إربــاً؛ ثــم هوروس، ابن أوزرس، بعثه. وأعلنه الكهنة أيضاً ملك وقاضي الأمــوات. لكــن التقليــد الشعبي يثابر على تقديمه إلهاً للزراعة. وبدءاً من الإمبراطورية الوسطى، منــذ أن كــان الكهنوت أوزرس ملك وقاضي الأموات، صارت عبادته أداة اضطــهاد جديــدة فــي يــد الكهنوت والأرستقراطية الاستعبادية.

في الدين المصري، يعود دور هام إلى عبادة الفرعون، المعتبر صورة حية للشــمس. وقد كان لهذه العبادة أهمية سياسية عظمى: تقدس الدولة وتطهر العاهل. وبعد موته، يتحــد الفرعون المعبود بأوزرس. ففي النصوص الدينيـــة القديمـــة المرســومة علــى جــدران الأهرامات يسمى الملك المتوفى أوزرس، والتعازيم الجنائزية تعلن دوما ان العاهل سـيبعث

حياً كما الإله. وهكذا، خدمت عبادة أوزرس الفكرة السياسية المركزية في الدين المصـري: تأليه السلطة الملكية وتقديس الدولة الاستعبادية.

كانت الطقوس السحرية منتشرة في البلاد. يمارسها كهنة المعابد العظمى، بخاصة في أثناء العبادة الجنائزية وأفكار الآخرة. جمعت هذه الصيغ في "كتاب الموتى"، العمل الضخم المتضمن أكثر من مائة فصل ووفرة من الرسـوم، بعضـها ملـوّن؛ جمـع فـي حقبـة الإمبراطورية الجديدة، استناداً إلى مدونات كهنوتية أقدم. عند جنازة الملـوك والموظفيـن الكبار، توضع لفائف "كتاب الموتى" في القبر لتقي الميت من أهوال مابعد الموت وتـأمين غبطته بعد الموت. من لايملك كتاب السحر الثمين هذا، عليه أن يحيا حياة فاضلـة، أي أن يخضع للأقوياء. هكذا إذن تستخدم العبادة الجنائزية أيضاً كوسيلة ضغط روحي على العمال.

الكتابة

إن الكتابة، التي يسميها اليونان الهيورغليفية –"الصور المقدسة"– مشتقة مـن النقـر التصويرية للأزمنة البدائية. فأقدم كتابة مصرية كانت نقرا تصويريا: كل شارة مرسـومة تمثل مفهوما، وربما جملة قصيرة. ولقد استمرت الكتابة الهيروغليفية في مصر حتى نهاية تاريخها القديم؛ لكن الرسم تبدل شيئا فشيئا، وإلى جانب الحروف الأولية ظهرت حـروف أخرى، مبسطة سهلة الكتابة. ومنذ الإمبراطورية القديمة، وجدت كتابـة سـماها اليونـان ***hie'ratique***. وفي القرن الثامن قبل الميلاد، ارتقت وتحولت إلى كتابةمعروفة باسم يوناني ***de'motique***.

تعد الكتابة الهيروغليفية المصرية قرابة سبعمائة شارة إجمالا. وفي ملـك الأسـرتين الأوليين اكتسب الكثير من الهيروغليف معنى مقطعيا و٢٤ حرفا سميت حروفـا صامتـة. شكلت هذه الـ ٢٤ شارة وعشرات أخرى –٧٠ إجمالا– أساسا للكتابة المصريـة. كـانت الكتابة إذن معقدة كالمسمارية البابلية. كـانوا يكتبـون علـى الحجـر، الخشـب، الـرق والقماش،لكن المادة الأكثر رواجا كانت البردي، المصنوعة من سيقان أو جذوع النخيـل، الذي ينمو على ضفاف النيل. إن الكتابة المصرية ذات أهمية تاريخية كبرى. ففي النصـف الثاني من الألف الثانية قبل الميلاد، استخدمت كنموذج للكتابة الأبجدية الفينيقية، التي تعـد ٢٤ شارة فقط.

الأدب

إن الكتابات في الإمبراطورية القديمة أساساً دينية وتحوي بخاصة نصوصاً سحرية منقوشة على جدران الأهرامات، الأقبية والقبور. يجب الاعتقاد أنهم، منذ ذلك العهد، رتبت وكتبت طقوس الأسرار التي تلعب في أعياد أوزرس والآلهة الأخرى والألحان على شرف "كبار" الآلهة. تعود النصوص والألحان التي وصلتنا إلى الإمبراطوريتين الوسطى والجديدة. أحسنها نشيد ولحن الآمون وآتون، كتبهم أخناتون. وفي عهد الإمبراطورية الجديدة، يدبج كهنة المعابد الرئيسة نصوصاً لاهوتية تعرض نظريات نسب الآلهة وتشكل الكون، لمدارس متخاصمة مختلفة.

تبين بذور الأدب النقي منذ عصر الإمبراطورية القديمة. إنها النقوش الجنائزية التي تقص، على الشخص الأول، حياة الميت. فأقدم السيرات، التي تؤرخ للأسرة الثالثة، هي سرد جاف ومختصر لأملاك، وظائف ومناقب المتوفى. لكن في أيام الأسرة السادسة، تصير موضوعات مفصلة تقدم أحياناً بعض الخواص الادبية. مثل سيرة نيافة أوني التي خدمت ثلاثة فراعنة من الأسرة السادسة، أوني الذي شن الحملة الأولى على سادة النوملت الآسيوية، وحكم الجنوب، وقاد الحملات على النيل حتى المناطق الجنوبية وأثيوبيا. نقرأ العديد من القصص الجميلة من هذا النوع في تراجم كثيرة لموظفين كبار من الإمبراطورية الوسطى والجديدة؛ تشير إلى سيرة مانتوحوتب، معاصر سنوسرت الأول، وسيرة أحمس التي خدمت أحمس وأمنوفس الأول، وسير ركحميري وأنيوتف التي خدمت تحوتمس الثالث. تضم سيرة ركحميري، بخاصة، عرضاً رائعاً للحقوق، والواجبات وطرق حكم الوزير في الإمبراطورية الجديدة. إن قصة سنوحيه،التي ظهرت في الإمبراطورية الوسطى، تقدم أيضاً سيرة ذاتية؛ تقص مغامرات الأمير سنوحيه، الذي أصيب بنكبة في بداية ملك سنوسرت الأول ولجأ إلى سوريا. عاش أعواماً في كنف قبيلة سورية، في خدمة شيخها؛ وصفت العادات والتقاليد بموهبة. ثم، يسمح لسنوحيه بالعودة إلى مصر، حيث يستقبله الفرعون بحفاوة ويسبغ عليه الأمجاد.

يتضمن أدب الإمبراطورية الجديدة مختلف الأجناس، أشعاراً ونثراً. ونحن نعرف قصائد حب كتبت بغنائية فاتنة، وأغاني في احتساء الخمرة، وخرافات، وأحاجي. وثمة أيضاً قصص، حكايا حول روائع المرزبان الملكي، وأنباء عن رحلات غريبة في الجنوب وفي آسيا. وثمة عملان يتمتعان بتفرد هام. الأول، يؤرخ للإمبراطورية الوسطى، وهو

قصة موجزة لكنه تصوير لبعثة مصرية إلى بونت، الذي غرقت سفينته وقذفته الأمواج إلى جزيرة يحكمها ثعبان، ثم، عودته إلى مسقط رأسه. وكتبت الثانية في أيام الإمبراطورية الجديدة، وهي "قصة الأخوين" يستلهمان أساطير الآلهة. مغامرات الأخ الأصغر الذي يموت ويبعث حياً في عدة مناسبات، تذكر بخرافة أوزرس. وكانت الأقاصيص التي تستقي موضوعها من التقاليد الشعبية، واسعة الانتشار. أبرزها قصة الأمير الذي يتوقع له عند ولادته، موت مبكر. حماه أبوه ما استطاع. لكنه ماأن يشب، حتى يرحل إلى بلاد بعيدة. حيث يتزوج ابنة الملك الذي ينقذ حياته بقتل الثعبان الذي يزحف نحوه تحت جناح الليل. ويهرب بأعجوبة من كركدن كان يهدده. نهاية القصة ضاعت، لكن الأمير يلقى نهايته على الأرجح من قبل كلب مذكور في نبوءة الحيوانات الثلاثة التي تسبب موته.

إلى جانب هذه الخرافات، ثمة قصص مستندة إلى واقعات تاريخية، مثل، حكاية الملك سكنجنرا الذي بدأ الصراع ضد الهكسوس، أو رئيس تحوتمس الثالث، الذي احتل مدينة يافا. تصدر هذه القصص بالتأكد من الحوليات الملكية التي، في أيام الإمبراطورية الجديدة، تأخذ شكلاً أدبياً وتسجل أحياناً إمارة الموهبة. كانت تقص الغزوات، الفتوح وأعمال الفرعون العظيمة؛ أشهرها وأروعها، "حوليات" تحوتمس الثالث، ونقوشات رمسيس الثاني حول غزوته لقادش؛ ولقد خلدت معمعة قادش بقصيدة شهيرة، لأحد شعراء القصر، التي بدلت هزيمة الفرعون إلى نصر.

منذ الإمبراطورية القديمة، كان في مصر أدب تعليمي. وكان إما معلومات مباشرة، أو تنبؤية. تطلعنا هذه الكتابات على أخلاق علية المجتمع الاستعبادي. مثلاً، المعلومات التي تنبع من الأرستقراطية العسكرية. الخصيصة النموذجية لبعض هذه الأعمال، مثل "نشيد عازف القيثار"، وبخاصة "حوار رجل تعب من الحياة مع روحه"، الذي يعود للامبراطورية الوسطى، هي التشاؤم والخيبة. وتعكس التبدلات الاجتماعية العميقة الحادثة في المجتمع المصري وحياة الفقراء المضنية، الذين يضطهدم سادة العبيد.

الفنون التشكيلية وفن العمارة

لقد تطورت الفنون التشكيلية في مصر بشكل ملحوظ في أيام الإمبراطورية القديمة، لكن ليس في كل الأجناس.

يومئذ، حقق فن الأنصاب التذكارية إنجازات مشهودة. فأنصاب الملوك والوزراء جيدة التناسب، ولكل منها وجهه الخاص، الذي يتلاءم حتماً مع النموذج؛ لكن وقفاتها فيها

شيء من الفجاجة، مصطنع. أحسن أمثلة الحفر والنحت المصري هـي النصـب القـاعد للفرعون شافرا (شفرن)، وتمثال الكاهن رانيفر والنصب المشهور لأحد النسـاخ متربعـاً، محفوظاً في اللوفر. تأخذ الرسوم النافرة مدى أوسع. بخاصة على القبور. وتمثل مشاهد من حياة الدفين والأعمال الناجزة في ممتلكاته. تنسب إلى هذه الصور السلطة السحرية التـي تؤمن للميت الحياة التي عاشها في الأرض. عيبها فقدان التأمل وتبسيطية الأشكال. الإنسان مقدم بطريقة توفيقية: الرأس مجانب، والجذع مواجه. لكن الطيور والحيوانات من واقعيـة مدهشة. والمنحوتات غالباً مطلية: كان الصناع يعرفون صنع الألوان المقاومة جداً، التـي حافظت على ألقها حتى الآن.

في أيام الإمبراطورية الوسطى، أتقن النحت والحفر وصنع التماثيل، وإلـى جـانب المنحوتات المطلية ظهرت الجداريات الحقيقية، التي تقدم نمـاذج رائعـة مـن المنـاظر الطبيعية، والرسوم الشـخصية *portraits*، مشـاهد المعـارك وسـواها. وكـان فنـانو الإمبراطورية الجديدة أمهر أيضاً. إذ لم تعد تماثيلهم بليدة خرقاء وساكنة لاحركـة فيـها؛ وظهرت تماثيل نصفية *bustes* رائعة. وكانت رائعات الإمبراطورية الوسطى والجديدة هي تماثيل أمنمحت الأول، رمسيس الثاني ورأس نفرتيتي، زوجة اخناتون. بيـن المنحوتـات، تميز تركيبات دقيقة ومعقدة تذكر حملة حتشبسوت إلى بونت، معركة قـادش، والعمليـات الحربية لسيتي الأول. وحقق الرسم أيضاً تقدماً واسعاً. أعطى صـوراً صادقـة للنبـات، للطيور للحيوانات وللوجوه البشرية. والشخوص، البعيدة عن كل تبسيط، تصـير رسـوماً شخصية *portraits*.

لقد مارس ذوق وأستذة فناني مصر نفوذاً دامغاً في إنتاج السـلع المتداولـة وسـائل التعبد. ولقد عثر في قبور الإمبراطورية الوسطى والجديدة على كمية من الأنصاب الخشبية والحجرية التي تمثل العبيد، الحراث، الرعاة، الصناع، المحاربين وسـوى ذلـك. وثمـة أنصاب صغيرة -"متجاوبة"- تلبية نداء الدفين والعمل من اجله. هذه الأنصـاب منحوتـة بمهارة. فالإمبراطورية الحديثة والعهود التالية تركت لنا عدداً لايحصى من مواد الاستخدام المألوف، المرايا، الصناديق، الموبيليا المرصعة، علـب العطـور، الجـرار، الصحـون، الأواني، الحلى -كلها من الذهب، الفضة، العاج، الأبنوس، البرونز، الزجاج، إلخ. لم يعـط هذه السلع صناع بسطاء، بل فنانون تدربوا جيداً تدريبات نوعية.

بلغ فن العمارة في مصر درجة عالية من الإتقان. آثارهم الأقدم هي القبور الضخمـة،

وأهرامات الملوك ومصاطب السادة. المنظر المعروض يتحد فيها مع خطوط في غاية البساطة. وفي أيام الإمبراطورية القديمة، كان بناء المعابد أقل أهمية. وفي هذا الزمان استخدمت أعمدة موشورية أو بشكل النباتات. إذ ترجع أجمل المعابد إلى الإمبراطورية الحديثة. وأطلال الكرنك والأقصر -في مكان طيبة القديمة- وآثار أخرى تعطي فكرة عن عظمة ومجد هذه القبور. في المدخل تبنى الأروقة بأساليب متباينة؛ الأدراج العريضة والمدارج تزين بعنقاوات مصطنعة. يتضمن معبد الكرنك قاعة واسعة من ١٣٤ عموداً سميكة تؤلف ١٦ صفاً؛ بمساحة ٥٠٠٠م٢. مثل هذه الأبنية تتطلب مهارة واسعة من البنائين. عدا المعابد، بنوا قصوراً ملكية غاية في الإتقان. لكنها وقد كانت من الخشب، لم نستطع أن نحكم عليها إلا من خلال صور المنحوتات البارزة.

تقنية بذور العلم

إن صروح مصر الضخمة -الأهرامات والمعابد- كانت مبنية بتقنية بدائية. كل الأعمال تم باليد، بعرق الفلاحين والعبيد. لكنها تنجز دوماً بناء على مخططات وحسابات مهندسي العمارة وملاحظي الورشلات الآخرين. وتشاد التصاميم طبعاً بالخبرة المنتقلة من جيل إلى جيل، وليس على مبادئ نظرية للآلية.

كانت ضخامة الأعمال تتطلب حسابات أولية بالأرقام المدورة، أي الصحيحة بدون كسور. فمن أجل قياس الحقول بهدف زيادة الضرائب، كان يجب أيضاً معرفة حساب السطوح . لذا كان الحساب متطوراً جداً في مصر. وانطلاقاً من النهج الطبيعي للحساب باليد (خمسة أصابع) وبالنهج العشري، خلق المصريون العد العشري لتقديم الأعداد ١، ١٠، ١٠٠، إلخ. حتى ١٠ ملايين. وكانت الهندسة متطورة أيضاً. فلا تقاس مساحة المستطيل فقط بل أيضاً حجم الدائرة، بإعطاء رقم ٣,١٤، كان الفلكيون يدرسون السماء ويضعون لوائح للنجوم حسب تجمعها، دون أن يساووا البابليين. كان التقويم المصري (الموضوع في أيام الإمبراطورية القديمة) شمسياً، لكنه غير مستخلص من مراقبة حركة الشمس السنوية: وكنقطة انطلاق، اعتبروا يوم بزوغ الشمس سيريوس؛ وفي تلك الحقبة بدأت الفيضانات بعامة. وبعد عدة أعوام من المراقبة تحققوا أن الأمر يتكرر كل ٣٦٥ يوماً وأعطيت هذه المدة للسنة، التي قسمت إلى ١٢ شهراً و٣٠ يوماً لكل شهر. وخمسة أيام أعياد في آخر العام. لكن هذه السنة تتأخر حوالي ٦ساعات عن العام الشمسي؛ وفي التقويم الحديث، جرى التصحيح بواسطة سنة الكبيس من ٣٦٦ يوماً، الذي يتكرر كل أربعة

أعوام. لم يجر المصريون هذا التصحيح، وخلال قرون، سينمو الفرق ولم يكن يلغى إلا كل ١٤٦٠ عاماً. لاحظ هذه الدورة الفلكيون المصريون الذين سموه زمن سوتيس (اسم مصري لسيريوس). وقد حقق الطب في مصر تقدماً ملحوظاً. وضرورة فتح الجثة لتحنيطها حسب العادة الدينية خولهم دراسة التشريح،وهذا، بدوره، اظهر بذور علم الفيزيولوجيا وعلم الطب. ويبحث الأطباء المصريون عن سبب الأمراض في تلف الأعضاء، لكنهم لم يستطيعوا التخلص من السحر، وفي أعرافهم بل أساطيرهم تتجاور الريوع السحرية مع الوصايا الطبية البحتة.

الفصل الرابع عشر

الإمبراطورية الحثية

الأصول

تشكلت الإمبراطورية الحثية في شرق آسيا الصغرى، في حوض حاليس *halys*، الإقليم الذي سمي مؤخرا كبادوس *capadoce*. لم تكن شروط البلاد تسمح بزراعة أراض مروية. لأن حاليس نهر أقل أهمية بكثير من النيل والفرات. كان الحثيون قد تعلموا حفر أقنية صغيرة لسقاية المراعي والكروم، لكن الزراعة لعبت عندهم دورا أقل من تربية المواشي والطيور. ففي مراعي الجبل، كانوا يملكون قطعانا غفيرة من الأحصنة والخرفان: كانت هذه المنطقة تزودهم، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، بصوف ممتاز.

كانت كبادوس غنية بالمعادن (بخاصة الفضة) وشهيرة بفن التصنيع المعدني؛ وكانت الجبال عامرة بالغابات والحجارة.

كان الشعب متنافرا: في الألف الثالثة كان ثمة قبائل هاتي *hatti* التي أعطت البلاد اسمها؛ كانت لغتهم تقرب لغة ترانسقفقازيا؛ على ذلك تمثل الثقافة المادية للهاتي والقبائل القفقازية القديمة تماثلات عديدة. وفيما بعد، على الأرجح على تخوم الألفين الثالث والثاني، غزت آسيا الصغرى قبائل أخرى: النيزيت واللويت الذين يتكلمون لغات هند-أوربية. لكن بعد احتلال قبائل الهاتي البلاد سموا أنفسهم حثيين *[he'the'ens ou hittites]*.

تشكل الطبقات الاجتماعية والدولة عند الحثيين غير معروف كفاية. يمكن الافتراض أن تطور التدجين الضخم وصناعة البرونز خلقت، في بداية الألف الثاني، الأساس الاقتصادي للعبودية.

ففي تلك الحقبة تشكل في شرق آسيا الصغرى قبائل (أو اتحاد قبلي) كانت تقاتل بعضها. تجمعت هذه القبائل حول مراكز جيدة التحصين، أهمها كوسار، نيشاساح وحاتوزا. بداية، استلم القيادة ملوك كوسار الذين استعبدوا نيشاساح ودمروا حاتوزا. وبعدئذ صارت

هذه الأخيرة عاصمة الإمبراطورية الحثية.

استناداً إلى التنقيبات، كان لحاتوزا سوران. وكانت جدرانها مؤلفة من حاجز ترابي ومن البلاط الحجري والآجر المشوي؛ وزودت بأبراج تتدرج بفواصل منتظمة. كل هذا أعطى المدينة مظهر البقعة المحصنة.

القليل مما لدينا من تاريخ الحثيين الأول، يشهد على نضال شرس بين العبيد والأحرار، بلغ أقصاه في النصف الثاني من القرن السابع عشر قبل الميلاد، أثناء تمرد "عبيد الأبناء الملكيين" الذين دمروا بيوت السادة و"أراقوا دمهم". وكانت تناحرات قاسية تمزق على الأرجح الطبقة الحاكمة: كانت تتضح أولاً بالنزاع بين مدعي التاج، الأمر الذي أوجب، في القرن السادس عشر، إصلاحاً يهدف تسوية الخلافة. وأخيراً نعرف أن الملوك الحثيين شرعوا، في نهاية القرن السابع عشر وبداية السادس عشر، بحروب الفتح: كان أكثرها نجاحاً غزوات مورسيل الأول الذي احتل كحالبا (حلب) في شمال سوريا، ثم تغلغل في بابل وهزمها ودمرها.

لكن معرفتنا أحسن بكثير للامبراطورية الحثية منذ القرن الخامس عشر حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. كسرات من القوانين حفظت، تعطينا فكرة عن العلاقات الاجتماعية في تلك الحقبة، وحوليات تتضمن معلومات مفصلة عن الدبلوماسية والحروب.

النظام الاجتماعي

كانت الإمبراطورية الحثية دولة استعبادية؛ فالملك، المعابد وحتى بعض الأفراد يملكون عبيداً؛ ويعد بعض الحقول أكثر من مائة منهم. كان العبيد بخاصة صناعاً ورعاة. عند ارتكاب الجريمة ذاتها، يدفع الحر تعويضاً وعقوبة العبد الموت أو بتر أحد الأعضاء: يقطع أنف وأذنا العبد إن أحرق أو سرق. كان العبد يشبه مادة ما والرجل الحر عن قتل عبد لايعتبر قاتلاً: بل عليه ان يعوض الخسارة على المالك بإعطائه عبداً (أو أكثر).

بيد أن بعض سمات الحق الحثي تثبت قدم العبودية. وكان العبيد يقدرون أن يملكوا رزقاً أو عقاراً وأن يقتطعوا من الغرامات التي ترهقهم: وأن يتزوجوا من حرائر، ويتدخلوا -في بعض الحالات- بالمحاكم؛ عند التفريق بين عبد وامرأة حرة، يقتسم الزوجان الأولاد والأرزاق.

عدا العبيد، كان المجتمع الحثي يتضمن عينات أخرى من المنتجين المباشرين

المستثمرين. فأقرب أقرباء الحثيين الهبار *les hippars*. ربما كان هؤلاء من مناطق محتلة، أو كانوا منفيين ليعملوا سخرة لمصلحة الملك؛ وكانوا أحيانا ملزمين بالأعمال العسكرية. كان الهبار يتحدون في جماعات تحمي أعضاءها كفالات متينة. المقصود كما يبدو نوع من مشاعات الجوار.كان العبيد والهبار من أصل أجنبي وبعامة أسرى. لكن الحثيين الأحرار قد يعودون أيضا إلى العبودية: في سنة قحط، تعرضوا لخطر الوقوع وإلى الأبد في قبضة ذاك الذي "جعلهم أحياء" بسبب قرض، لولم يقدموا عاملا آخر عوضا عنهم. كان الفقراء يقدرون أن يبيعوا أبناءهم (أمر ملفت، لم يسمح بهذا الحق للهبار).

أقل قسوة كان تعلق الناس (بالنصيب الوراثي). كانوا حتما أناسا خرجوا من المشاعة واكرهوا أن يصيروا زبائن الحثيين المخولين كل الحقوق المدنية، ومحاربين وملاك عقارات يعملون في الأرض. وكان لهم بعض الحقوق في الاقتصاد حيثما استخدموا: عند فسخ العقد، يتلقون ثلث الثروة.

كانت الكتلة الأساسية من السكان الأحرار مؤلفة من أعضاء المشاعات. كان لدى مشاعات الجوار حقوقا لاتقبل القسمة، رغم انتقال القسم الأكبر من الأرض إلى أيدي الأسر الأبوية ووزعت الأسهم على الأسر الصغيرة. كان قائد الأسرة الكبرى هو المدير الأعلى للأرزاق وينفذ السخرة للدولة؛ وكان "صاحب الدم"، أي قاضي الجرائم التي يقترفها أعضاء الأسرة؛ وكانت تبدو هنا بقايا نظام العشير في أخذ الثأر، في الكفالة المتينة وزواج السلفة . كانت الأرض قابلة للتحويل، لكن البيع والشراء يعتبر إجراما، عقوبته تضحية تكفيرية. والحالة الجنينية للملكية العقارية الفردية ترجم أيضا بتفاهة السعر: حقل من ٣٥ هكتارا يساوي عشر ثور. والكروم التي صارت، بالمقابل، ملكية خاصة في عهد أقدم، كانت أحسن قيمة: كرمة تساوي أربعين حقلا قابلاللزراعة.

كان أعضاء المشاعات، الذين حصلوا على نصيب من الأرض منظم، ملزمين بكل أنواع السخرة المسماة لوزي *louzzi*، التي تشمل كل الأعمال: بناء القلاع والمعابد، إصلاح الطرق، القطاف، إلخ. وكان عليهم، أيضا، تأدية الخدمة العسكرية؛ ومن يهرب من هذا يصادر حقله. فمالك الأرض يضطلع بمهام المالك السابق.

---

[1] - قانون عبراني يفرض على الشقيق أن يتزوج زوجة شقيقه المتوفى بدون ذرية.

كان الصناع خاضعين أيضا للسخرة؛ فقط، بعض المتميزين من المحاربين، الكهنة، ومن تلقى سهما من الأرض من الملك مع إجازة خاصة، يعفى من السخرة.

كان النبلاء في قمة الطبقة المتنفذة: أعضاء الأسرة المالكة، الكهنة، القادة العسكريون، المنحدرون من أرستقراطية الدم، الذين يبقون غالبا سادة أيضا في إقطاعاتهم يملكون الأرض والعبيد ونصيبا من أسلاب الحرب.

النظام السياسي

في رأس الإمبراطورية الحثية، كان "الملك المعظم" الذي يدعى "الشمس". ويعتبر مانح الخير والسعادة للشعب، يتم طقوسا ويوجه أعيادا دينية بصفة الكاهن–الأكبر. ويعبد بعد موته. ويشغل الملك وظائف عدة: قيادة الجيش، المرشد المشرف والقاضي الأعلى.

كانت السلطة الملكية محاطة بمجلس يسمى بانك ***pank***. لغويا، هذه الكلمة تعني كثرة أو حشد. بالأصل، مجلس محاربي موسار، لكن بحسب تطور النظام العبودي، تفقد منظمات الديموقراطية العسكرية سلطتها: يتقلص البانك ليصير مجلسا أرستقراطيا يمثل قمة الشريحة الحاكمة. ويتمتع البانك، المكون من أهل الملك المباشرين (ابن، أخ، إلخ)، ومن الأصهار والقادة العسكريين، بحقوق واسعة، بخاصة حق محاكمة العاهل؛ والعاهل بالعكس، لايقدر أن يحكم بالموت على عضو من الأسرة المالكة بدون موافقة البانك. صحيح أن الملك يقدر أن يعيد النظر بقرار البنك، بخاصة تخفيف عقوبة ما.

وهكذا، كان نظام الإمبراطورية، في أيامه الأولى، أرستقراطيا: القمة النبيلة (أسر الملك) التي تملك القطعان الضخمة، العديد من العبيد، والتي توجه "بيوتا" (أسر أبوية) متنفذة، تتمتع بسلطة واسعة ونجحت في تحجيم العاهل. لكن، فيما بعد، عندما صارت الإمبراطورية دولة عسكرية قوية، توطدت السلطة الملكية وفقد البانك نفوذه.

كان نظام الأرستقراطية يفرض إدارة لامركزية. بالفعل، لم تكن الشروط الطبيعية لآسيا الصغرى قادرة على المساهمة بوحدة البلاد: لكن الافتقار لشبكات الري ولد، كما في مصر، الحاجة للمركزية. وكانت بعض المناطق مستقلة كليا من وجهة نظر الاقتصاد.

كانت الدولة الحثية موزعة إلى أقاليم خاضعة لحكام، مختارين غالبا من الأسرة المالكة ويحملون لقب "ملك". وعلى تخوم الإمبراطورية، وجدت محميات سوت علاقاتها مع المالك الأكبر" معاهدات خاصة تتوقع الأحداث الخاصة في حالة الحرب، وحصة

الأسلاب وحقوق التجارة والعلاقات الدبلوماسية مع البلدان الأخرى. كان لهذه المحميات حق إعلان الحرب وتوسيع حدودها على حساب الجوار غير الخاضعين للإمبراطورية الحثية.

كانت السلطة العليا "للملك المعظم" تمتد أيضاً إلى مدن مقدسة مثل أرينا ونيريك، التي تتمتع باستقلال أكيد.وفي الأرياف، يضطلع شيوخ المشاعات بالوظائف الإدارية والقضائية.

تشكل الدولة العسكرية

في نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، مارس الملوك الحثيون سيادة خارجية فعالة، تهدف إلى توسيع الأملاك بالسلاح والدبلوماسية. يومئذ، كانت السيطرة في الشرق- الأدنى بيد الكوريت، مربّي الخيول الذين شكلوا في النصف الأول من الألف الثاني عدة دول صغيرة في شمال ميزوبوتاميا وسوريا؛ كانت الشريحة العليا من السكان أرستقراطية تقاتل على عربات. وفي القرن الخامس عشر، توحد الكوريت في مملكة شاسعة، ميتاني، ممتدة من كحالبا وألالاح حتى نوزي، الواقعة شرق دجلة. اضطرت آشوريا بالذات للاعتراف بتفوقها، جلب ملك ميتاني من آشور، عاصمة آشوريا، باباً من الذهب والفضة زين به قصره في فاشوغاني (على الخابور).وكانت الدولة الأخرى القوية في الشرق - الأدنى آنئذ هي مصر التي،في أيام تحوتمس الثالث، وسعت حدودها حتى شمال الفرات.

لكن وضع هاتين الإمبراطورتين تزعزع حوالي نهاية القرن الخامس عشر. نجهل الأسباب الداخلية التي أضعفت ميتاني، مع أن رسائل تل العمارنة تكشف أن ملوك آشوريا حققوا في هذا الزمن استقلالهم؛ وفي فاشوغاني ذاتها (عاصمة ميتاني) انطلقت ثورات في القصر وتفجر الصراع على السلطة والميراث. وفي مصر، انتهت حروب الفتح في أيام أمنوفس الثالث؛ وفي أيام أخناتون، خلفه، بدأت إمبراطورية مصر، التي أهلكها ومزقها الصراع السياسي، بالتفكك.

في ظل هذه الظروف المواتية، شرع نبلاء العبودية الحثيون بانتشار واسع. ودلل ملكهم شوبلوليوما على مهارته الدبلوماسية. فبفعل السلاح والمفاوضات، توصل إلى مد نفوذ إمبراطوريته مداً ملموساً وجعلها أقوى دولة في الشرق الأدنى.

نجح بداية بقهر الكوريت: انتصرت قواته في شمال سوريا،اجتازت الفرات ودمرت فاشوغاني. وبعد هذه الهزيمة، قلبت الاضطرابات ميتاني: أكرهت ثورة من القصر، نجهل

أسبابها وحوافزها، ماتوازا، وريث العرش، على الهرب إلى عند الكاسـيت. وباعترافـه، استقبل استقبالا باردا، وخوفا من أن يسلمه الكاسيت للآشوريين أو لأعدائه في فاشـوغاني، "استسلم مع ثلاث عربات فقط وعدد بسيط من الحواشي إلى قصـر شـوبلوليام، دون أن يكون معه بديل للثوب الذي يرتديه". أدرك شوبلوليام الفوائد التي يجنيها من التقرب مـن الوريث الشرعي لتاج ميتاني. أعطاه ابنته زوجة وأرسل قواته ضد المتمرديـن. ويصـير ماتوازا ملك ميتاني، لكن البلاد صارت محمية للامبراطورية الحثية؛ وفي معاهدة نوعيـة، عدد ماتوازا المكاسب التي قدمها له "الملك الأعظم" واعترف بتفوق شوبلوليام.

دعم هذا الأخير نفوذه في شمال سوريا. ارتبطت كحالبا وقمرقميش بالإمبراطوريـة، ووضعت تحت إمرة الأمراء الحثيين. حث شوبلوليام الملوك الصغار في سوريا وفينيقيـا على التمرد على مصر؛ وكان رجل السياسة الحثية في سوريا أزيرو، عاهل بلاد عمـورو، الذي شهر السلاح ضد خلفاء الفرعون. لم يرسل أكحناتون تعزيزات، رغم إلحـاح ملـك بيبلوس، فاحتل أزيرو هذه المدينة؛ فقد أمن غضب الجمـاهير الشـعبية مـن اضطـهاد الموظفين المصريين، أمن دعما ملموسا لأزيرو. فقدت مصر امتيازاتها في سـوريا وفـي فينيقيا، لصالح الحثين، الذين كان اشتراكهم ضئيلا في هذا الصراع: وهكذا ألحقت الدولتـان الصغيرتان سوريا وفينيقيا بدائرة نفوذ الإمبراطورية الحثية.

أخيرا، حاول سوبلوليام التدخل في شؤون مصر الداخلية بعد موت أخناتون، والبـلاد فريسة صراعات داخلية أودت بفرعون بعد أن حرم السلطة. كان سوبلوليام يرغـب فـي تزويج أحد الأمراء الحثيين من أرملة أحد الفراعنة السابقين (ربما كان توتانخامون)، آمـلا تحويل مصر -كما فعل بميتاني-إلى محمية. لكن مشروعه فشل.

لقد وسمت مملكة سوبلويلامي الإمبراطورية الحثية بالأوج السياسي. واختفت شـيئا فشيئا الخصائص الخاصة بالممالك الأولى: وسلطة الملك الذي كان يدير التوسع العسـكري في امبراطورية العبودية، تدعمت واقتربت، بطبيعتها، من الاستبداد المصري والبابلي.

كانت أسلاب الحرب الضخمة وآلاف الهبار المستقرون على الأرض الملكية الأساس المادي لسلطة "الملك الأعظم"، "الشمس".

انهيار الامبرطورية الحثية

لم يستطع ازدهار الإمبراطورية أن يستمر طويلا، لأن دولـة سـوبلوليام متراميـة

الأطراف كانت تفتقر للحمة والانسجام. كانت حروب الفتح تتطلب جهودا ضخمة وتستنفذ الاحتياط البشري: فليس بدون سبب ألزم الحثيون الهبار بخدمة الجيش. وكانت السخرة تثقل كاهل الفلاحين، أعضاء المشاعات؛ فانتهى الجوع والاستعباد إلى دمار اقتصاد الحراثين والمدجنين.

اصطدم أول خلفاء سوبلوليام ابمصاعب جديدة. كان على ولده مورسيل الثاني أن يقاتل.قبائل الكسكائيين الذي يسكنون جنوب البحر الأسود، وغرب مملكة أكحياوا التي أسسها اليونان (الأثينيون)، الذين كانوا يقطنون بلوبونيز في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد.

في نهاية القرن الخامس عشر، نشب نزاع مسلح بين الحثيين والمصريين الذين، في ملك رمسيس الثاني، كانوا يطمعون من جديد بسوريا. انهزم المصريون أمام قادش (١٣١٢)، واستنادا إلى المصادر الحثية، مشوا بسرعة إلى دمشق. لكن هذا كان آخر نصر هام للحثيين.

لقد ترك حاتوسيل الثالث،الذي أتى إلى السلطة في بداية القرن الثالث عشر، سيرة ذاتية ملفتة، تتضمن ذاتية لاتناقش تهدف أساسا تبرير اغتصابه العرش. لم يكن لحاتوسيل، ابن حاتوسيل الثاني، أي حق بالعرش. بل كان يحكم عدة أمصار من الإمبراطورية والمدينة المقدسة نيريك. ولما صار حفيد حاتوسيل، أوركحتشوب "الملك الأعظم" كاد له عمه وظاهر أعداء العاهل الحثيني. ونجح أخيرا بقلب أوركحتشوب (باتهامه إياه في سيرته الذاتية بمخططات ضارة ومهلكة ونفيه إلى جزيرة في البحر الأبيض المتوسط. وقد فاقم هذا الصراع الملكي من وضع الدولة.

كانت سياسة حاتوسيل الثالث دفاعية بحتة؛ أوقف تقدم الكاسكيين وعقد في ١٢٩٦ معاهدة مع رمسيس الثاني. كانت العلاقات مع آشوريا أقل حظا: احتل ملك هذه البلاد مناطق المجرى الأوسط للفرات، حيث كانت ميتاني، وطمح بان يعادل "الملك الأعظم" الحثيني؛ ورغب في أن يناديه حاتوسيل الثاني "ياأخ". رفض هذا. "أنحن من أم واحدة؟" أجاب. لكن هذا الجواب لم يمنع طبعا من توطيد آشوريا وأكحياوا أيضا. وفي نهاية القرن الثالث عشر؛ نشب عصيان عنيف في الأمصار الغربية وأفضى إلى انفصالها. وحوالي العام ١٢٠٠ قبل الميلاد، انهارت الإمبراطورية الحثية. وفي نفس الحقبة، احتل الأثينيون،

أحلاف الحثيين، مدينة طروادة. وهاجم هؤلاء وشعوب أخرى من "شعوب البحر" شواطئ مصر وأبحروا إلى فلسطين.

الحضارة الحثية

كانت الثقافة الحثية بالغة التنوع: يكفي القول: إن رعاياها كانوا يتكلمون عدة لغات وتستخدم نهجين من الكتابة: الحروف المسمارية المأخوذة من الساميين والهيروغليفية.

يؤمن الحثيون بعدد كبير من الآلهة، منهم ثلاثة معظمون بشكل فريد: الإلهة-الأم العظيمة، إله العاصفة وتلبينو الذي بعث حيا كما تموز البابلي.

تروي الخرافة أن تلبينو اختفى غاضبا على الآلهة والحيوانات والناس، وكونه يجسد قوى الطبيعة جلب غيابه البؤس والجوع (وهذه من بقايا العبادات القديمة لبطل التشكل الإنساني) بحثت الآلهة عن تلبينو، لكن لا النسر ولاحتى إله العاصفة استطاعا العثور عليه. فقط النحلة، مرسلة من الإلهة العظيمة، أدركته وأقنعته بنسيان الغضب.

رغم بقايا العبادات القديمة، عبادة قوى الطبيعة)، كان الدين الحثي، في مجمله، قوة ايديولوجية كبيرة تدافع عن الطبقة الحاكمة المالكة: فقد عثروا ليس بعيدا عن حاتوسا على منحوتة تمثل الإله يعانق الملك.

لقد خضع الدين الحثي إلى فنون الأديان والميثولوجيا الكوريت والسومرية-الأكادية. إذ قبل الحثيون التعبد لإله العاصفة الكوريتي تشوب ومجدوا ثيرانهم المقدسة؛ وتعبدوا أيضا عشتار، وسن وآلهة بابلية أخرى. وبدوره، أثر الدين الحثبي بالمثيولوجيا الإغريقية: فربما من هنا أتت عبادة أبولون الذي يحمي، حسب أسطورة حرب طروادة، الطروادين من الآثنيين.

الأعمال الفنية التي وصلتنا في غالبها منحوتات حجرية. وجوه الآلهة ثقيلة وساكنة، لكن المشاهد التي رسمها فنانون ليسوا عبيدا، معبرة وحية. إن منحوتة قرقميش ذات أهمية فريدة: فيها مشاهد عن المعارك، الحيوانات، وكائنات حيوانية خيالية. ووجدت منحوتات أقدم قرب حاتوسا: حيوانات، أزهار رائعة، منقوشة بموهبة؛ وخنزير بري مخيف يهجم على صياد، ركبته في الأرض، يصده بهدوء بقوسه، إلى جانب أيل يحني رأسه الخشبي نحو زهرة غريبة.

قليلة هي الأشياء التي نعرفها عن الأدب الحثي. كان الحثيون يكتبون بعامة على

ألواح خشبية، وأغلب موجودات مكتبة حاتوسا الضخمة فقدت. وبين النذر اليسير المتبقي نقرأ نصوصا مستوحاة من الميثولوجيا؛ على ذلك، يعتبرها بعض العلماء تراجم لملاحم كوريت. السمة الأصيلة لهذه الحكايا قحة الآلهة، البادية بخاصة في قصة كوماربي.

كان كوماربي ملك الآلهة؛ لكن ثمة آخرون راغبون في انتزاع سلطته، فقرر خلق معين له يعتمد عليه. ولما كان أحد الشجعان يبغي الحصول على أم مناضلة شجاعة، تزوج كوماربي من صخرة أنجبت له ابنا سمي أوللكومو. خبأه أبوه في صندوق حيث كبر بدون علم أحد. لكن الآلهة علمت بوجوده وخلصت إلى إغوائه وتضليله.والإلهة عشتار، المزدانة بأحلى الحلي، تغني أمام الصخرة الجبارة. لكن جهدها ضاع، لأن أوللكومي كان بدون عينين ولا أذنيين. يئست الإلهة ورمت حليها في الأرض.

يرى بعض الباحثين أن خرافة كوماربي مارست أثرها على الأساطير الإغريقية، بخاصة على أسطورة كرونوس، أب زيوس *Zeus*.



كبير آلهة الحثيين، بصورة محارب

الفصل الخامس عشر

فينيقيا وفلسطين

أصل الدول الفينيقية

يعني اسم فينيقيا شريطاً رقيقاً ناعماً من الشاطئ السوري، يبدأ من صور حتى أوغاريت. وفي الشرق، تمتد سلسلة جبال لبنان المغطاة بالغابات الكثيفة. ثم تتقدم الجبال حتى الشاطئ وتسقط رأساً في البحر. الأراضي القابلة للزراعة ضيقة لكنها شديدة الخصب. في المنحدرات تتوفر المراعي. وفي العصور الغابرة، عرف هذا الشط أكثر من عشر مدن بحرية، كانت كل منها ضاحية للمنطقة المحيطة.

اشتهر الفينيقيون بجرأة وإقدام بحارتهم ونشاط تجارهم.

هذه التسمية "فينيقيون"، التي اختارها المؤرخون الإغريق، اصطلاحية؛ لم يعرفها السكان الأصليون. كان جدودهم يسكنون حتى الألف الثالثة جنوب وغرب فلسطين. وكانوا عدة قبائل تتكلم لغات سامية. وفي الالف الثالثة بدأوا تقدمهم نحو الشمال، على طول شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

بنت هذه القبائل على الشاطئ السوري أولى مساكنها، التي آلت إلى أوغاريت، جبيل (بيبلوس بالإغريقية) وصيدون. وفيما بعد يظهر مستقبل تسور ***tsor*** (بالإغريقي تير ***tyr***) صور.

بداية، كانت هذه الأماكن قرى صيادين تجمعوا في مشاعات؛ لكنها سرعان ماتحولت إلى مدن، وصارت مراكز للمناطق حيث استقر المهاجرون بمشاعات الجوار.

لقد ارتبط تحول مشاعات العشير إلى مشاعات جوار بولادة طبقات اجتماعية وتأسيس دول فينيقية. ليس لدينا أية معلومة دقيقة حول هذا التطور؛ تدعي الخرافة أن مؤسس وملك صيدون الأول هو كيريت ***ke're't***، الذي امتلك جيشاً خاصاً به؛ وفي صيدون أقيمت معابد لآلهة القبائل.

نظرة في التاريخ السياسي للممالك الفينيقية

لم تتحد دول فينيقيا الصغيرة أبدا في دولة واحدة. بل عاش كل منها حياته السياسية. وعبر التاريخ، تميزت أربع ممالك: أوغاريت، جبيل، صيدون وصور، بغناها ومناعتها.

قبل أن يغزو تحوتمس الثالث فلسطين وسوريا،كانت الممالك الفينيقية مستقلة. وكانت جبيل وأغاريت تشغلان المكانة الأهم.

كانت جبيل قد عقدت، منذ الألف الثالثة، ارتباطات تجارية مع مصر. وكانت أوغاريت قد صارت في نهاية الألف الثالثة مدينة هامة تتاجر مع مصر وكريت وفي النصف الأول من الألف الثالثة، ازدهرت أوغاريت، وكانت عامرة بالمعابد والقصور؛ يقطن التجار والسادة في بيوت من حجر فخمة الأثاث ومزودة بأقبية المؤونة والطبخ. وكان تجار كريت يسكنون حيا خاصا بهم؛ ويتاجرون أيضا مع قبرص.

في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، خضعت المدن الفينيقية ثلاثمائة سنة لمصر والحثيين الذين غزوا في النصف الأول من القرن الرابع عشر شمال سوريا ، وألحقت مؤقتا أوغاريت وجبيل. ومنذئذ وحتى نهاية الألف الثانية، تعيش فينيقيا عهد انحطاط، ناجم أولا بأول عن حروب مصر والحثيين، الجارية على أرضها، ثم "دخول شعوب البحر" الآتية من الجزر الإيجية.

في نهاية القرن الثالث عشر، سمح ضعف مصر وانحطاط الامبراطورية الحثينية لممالك الفينيقية أن تستعيد استقلالها. وفي تلك الحقبة كانت المكانة الأولى تخص صور التي، كونها واقعة في جزيرة، لم تعان كثيرا من ويلات الحروب والاعتداءات. كان عاهلها الأشهر حيرام الذي ملك في منتصف القرن العاشر. كان بإمرته أسطول تجاري ضخم يستغل نفوذه في أرجاء البحر الأبيض المتوسط؛ وسع حصن صور ليجعل منها قلعة منيعة الجانب، قاومت حملة الآشوريين .

دام هذا الاستقلال حتى نهاية القرن الثامن، يوم فقدت الممالك الفينيقية استقلالها إلى الأبد على يد الآشوريين.

النظام الاقتصادي، الاجتماعي والسياسي للممالك الفينيقية

إن الوثائق التي عثر عليها في أثناء التنقيب في أوغاريت، تميز بعض مظاهر النظام الاقتصادي والاجتماعي لهذه الدولة. كانت غالبية الناس يزرعون الحبوب والكرمة في

وادي العاصي الخصبة، وخلفه، في الصحراء، تمر حدود المملكة. وكانت الأرض تعطي مواسم وفيرة؛ وكان مايزيد يباع إلى تجار أوغاريت الأجانب. وكان الزراع يعيشون نظاماً مشاعياً. مشاعات الجوار تصدر من مشاعات العشير، وقد حافظ بعضها على اسمه القديم. كانوا يدفعون مرتبات إلى الملك ويزودونه باليد العاملة لأعماله. كان كل منها ملزماً بأن يعمل من ١٣ يوماً حتى شهرين سخرة، ويقدمون للجيش رماة الأقواس. وفي المنطقة الشاطئية، كانت تقيم مشاعات الصيادين الذين يجندون في الأسطول الملكي.

كانت رعايا أوغاريت مؤلفة من صناعيين، تجار، كهنة وكبار الموظفين؛ والكل عدا الصناعيين، يملك عبيداً. ويحوز بعضهم كروماً متواضعة المساحة. فالعبودية تشكل خصيصة أليفة. وفي إحصاءات الوصيات أو عقود البيع، يذكر العبيد في خانة الدواب والمواد الثمينة كالبرونز والفضة. كان عدد العبيد قليلاً؛ والسيد الذي يفقد عبدين أو ثلاثة يتعرض للافتقار فعلاً، لا بل للدمار. وكانت أراضي الملك مخدومة جيداً: والقصور تغص بالخدم، ويعمل عبيد آخرون في مراعي وكروم العاهل أو يجذفون على مراكبه. أكثر العبيد يشترى من السوق. تطورت العبودية بخاصة في صور، في الألف الأول. وكان ملوك صور يملكون تجارة بحرية رائجة ومقاتلين أشداء كفاء، ويهتم تجاره بمعاملة العبيد المجلوبين من حيث يوجد مستوطنات لصور.

منذ النصف الأول من الألف الثانية، تشكلت شريحة غفيرة من التجار في الممالك الفنيقية. كانت لاتعمل إلا بتجارة الوساطة. بين البضائع الكثيرة المصدرة، ليذكر كمادة منتجة في فينيقيا نفسها سوى القمح، الخمر، خشب لبنان المجفف؛ ماعدا ذلك يستورد من الخارج ويشرى أو يبادل في بلاد ليباع أو يقايض في بلد آخر. وقد بقي الملوك، حتى أفول الدول الفينيقية، على رأس البائعين والشارين. وفي الألف الثانية، كان تجار فينيقيا الأشهر في العالم؛ ولقد أشار ماركس[1] إلى دورهم الهام في التجارة.

من حيث النظام السياسي، كانت الممالك الفينيقية استبداديات صغيرة. نجهل بنية جهاز الدولة ، لكننا نعرف جيدا ايديولوجية السلطة الملكية. كان ملوك فينيقيا يدعون الطبيعة الإلهية. فملوك صيدون، مثلاً، ينسبون ذريتهم إلى آلهة (كريت، الملك الخرافي، وصار

---

[1] – ك.ماركس، رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، منشورات اجتماعية، باريس ١٩٥٠ ص١٣٧/ ملاحظة٣.

إلهاً)؛ ومؤسس جبيل كان يزعم الإله إل *EL*، وإله صور كان يسمى ملكارث ("ملك المدينة" بالفينيقية). ومنظمة العبادة الرسمية تتلاءم مع هذه الإيديولوجيا التيوقراطية: كان ملوك جبيل، أوغاريت، صور وصيدون في ذات الوقت كهنة الآلهة العليا لمدنهم ويرأسون شخصياً الاحتفالات الطقسية الضخمة. لكنهم لم يكونوا مطلقي السلطة كما كان ملوك بابل وفراعنة مصر.

الظلم الاجتماعي الذي توطد منذ بزوغ الممالك التجارية والعبودية الغنية، وتطور العبودية أثارا اضطرابات ومكائد لم تتوقف، وكذلك ثورات في أوساط الأسر المالكة. وحدثت تشوشات في صور حوالي نهاية القرن التاسع، عندما دبرت أخت الملك مكيدة ضده. ليس لدينا معطيات حول حقوق العبيد، عدا لقصة بالغة الغموض حول عصيان نشب في صور في القرن الخامس قبل الميلاد، يوم كانت جزءاً من فارس.

. **إبحار ومستوطنات**

يعتبر الفينيقيون أجود بحارة العصور القديمة. وقد تطور العمل البحري بفعل الوضع البحري لكل هذه الممالك، التي يعيش سكان شطآنها من الصيد ويرحلون كثيرا في عباب البحر على متن مراكب خفيفة ذات مجاذيف. فمنذ الألف الثالث كان الفينيقيون يبحرون حتى مصر وحتى بحر إيجة. وفي الألف الثانية، وصلوا، في الغرب، إلى نوميديا وإيبيريا (اسبانيا). وكان بحارة صور أول من وصل مضيق جبل طارق، ولدى رؤية بحر بدون حدود، اعتقدوا أنهم في طرف الدنيا. وسموا الصخرتين الضخمتين التي انتصبتا وجها لوجه أمامهم، على الشط الأوربي سوتا *Ceuta*، عمودي ملكارث، مفترضين أن الإله غرسهما هنا بيده بالذات من أجل تحديد الأرض. وفيما بعد، وبعد التحقق أن العالم لاينتهي هنا، تجاوزوا جبل طارق عدة مرات. لكن هذه الفكرة المرتبطة بالمضيق عاشت وأخذها اليونان والرومان، وسموهما عمودي هرقل.

في الألف الأولى قبل الميلاد، خرج الفينيقون من البحر الابيض المتوسط: وفي القرن السادس، سار البحار القرطاجي حانون على طول شواطئ افرقيا الغربية حتى الكاميرون الحالية، ووصف رحلته في نص وصلنا مترجما إلى الإغريقية.

أثناء بعثاتهم البحرية، أسس الفينيقيون مستوطنات، وعقدوا معاهدات تجارية مع سكان جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوبه. لكننا نخطئ إن نحن اعتقدنا أن هؤلاء التجار كانوا

دوما مسالمين؛ فإذا ما أتت السانحة، يسارعون إلى نهب القبائل التي تسكن شواطيء أفريقيا، أسبانيا وآسيا الصغرى. وكانت التجارة متبادلة. حيث كانوا يقدرون استقبال وباستمرار بضائع ثمينة وتأسيس مرافئ سهلة التناول، كان الفينيقيون يشيدون مستعمرات، تصير فيما بعد مدنا كبيرة. كان منها في جزر بحر إيجة ومضائق الدردنيل وأمكنة أخرى.

حوالي العام ٨٠٠ قبل الميلاد بنيت أهم مدينة، قرطاجة "المدينة الجديدة" قرب تونس الحالية وسرعان ما صارت أروج مركز تجاري في غرب المتوسط.

لقد طور الإبحار البناء البحري في صور، صيدون وجبيل. وعمر أهالي صور أسطولا كاملا لملك آشوريا سناشرب. وجهزوا سفنا لسلطان فار التي صارت تجهز المدن الفنيقية لحروبها.

الحضارة الفينيقية

تدل المكتشفات في أوغاريت وجبيل أن الفينيقين خلقوا حضارة أصيلة في كل المجالات: الدين، الكتابة، الآداب والفن.

إن الدين الفينيقي، ككل أديان الشرق القديم، يتميز بتعايش العبادة الرسمية والعبادة الشعبية، الزراعية. ولكل دولة آلهتها الرسمية: بعل وبعلات، سيد وسيدة المدينة أو المملكة. وفي جبيل، كان أدونيس واستارتيه؛ في أغاريت، آليين وآنيت؛ في صور، ملكارث (اسم "زوجته" غير معروف). وكان ثمة آلهة آخرون.ويلتقي دين الدولة ودين الشعب في نقطة: عبادة آلهة النبات والخصب. البعل والبعلات في كل مملكة موقران ليس فقط كحاميين للبلاد، بل كإلهين للخصب والنبات. وكانت تنسب هذه المقامات لأدونيس وأيضا لأليين، ملكارث، أستارتية وأنيت. يعلن العيد الرئيس للتعبد في كل مكان بدء الأعمال الزراعية ويرتبط بأسطورة البعث وظهور إله النبات والخصب.

في دين الشعب، يخص المقام الأول العبادات الزراعية، الموقوفة على "آلهة الخير" لمطر، خصب التربة، الحرث والبذر، المواسم، الحصاد، القمح والخمرة. وحسب المثولوجيا الشعبية، "تول" هذه الآلة أو تظهر في أثناء فصل الأعمال الحقلية؛ ويعطي هذا "لاين البحر" آليين، موزع المطر، الذي يهطل فجأة قبل البذر وينتصر على إله الجفاف موت *Mot*. فالحرث والبذر، الحصاد وجمع الثمار تترافق مع طقوس سحرية تؤمن وفرتها تتم كل هذه الطقوس جماعيا في المشاعات.

كان الأدب الفينيقي يؤثر معالجة الموضوعات الاجتماعهية الميثولوجية. فنصـــــوص أوغاريت تصف موت آليين، نزوله إلى المملكة السفلى لموت *Mot*، بعثه وعودتـــه إلــى الأرض، مجيئه وبناء معبد لمجده. وعدا الشعر الميثولوجي، كان ثمـــة الأدب القصصـــي. فالتنقيب في أوغاريت كشف لنا ملحمة كيريت، ملك صيدون الخرافي. وثمة أيضا أجـــزاء من حوليات صور تحكي على الأرجح قصة المدينة منذ القديم الغابر حتى الألف الأولـــى، ووصفا لملك صيدون الذي عاش في القرن الخامس قبل الميـــلاد. وأحـــد أهـــم نجاحـــات الحضارة الفينيقية هو إبداع الكتابة الأبجدية. وتطور الإبحار والتجارة أوجب كتابة مناســبة سهلة، أبسط من المسمارية والهيروغليفية. وفي الألف الثانية قبل الميلاد، تشـــكلت الكتابـــة الأبجدية كما يبدو بالموازاة في مختلف المدن: ففي الشمال، في أوغاريت، بنيـــت الكتابـــة على المسمارية، بينما أخذوا في النوبة نموذج الهيروغليف المصري الذي يبرز الصوت أو الرنة او اللحن *lesoase*. واستخدمت الحروف الفينيقية بدورهـــا فـــي تأسـيس الأبجديـــة الإغريقية، الآرامية، اللاتينية والروسية. وليس صدفة أن تشتق كلمة أبجديـــة ذاتـــها مـــن كلمتين فينيقيتين: ***aleph***(ثور) و***beth***(بيت)، أي ***aleph beth***(ألفا بيـــت)، لتصـــير أخـــيرا ***aleph*** و***beta*** باليونانية.

كان ينقص الأبجدية الفينيقية الشارات لتقديم الحروف الصوتيـــة ***voy elles***، المبـــدأ الموجود حتى اليوم في الكتابة العبرية والعربية.

لقد وجدوا في جبيل وأغاريت نماذج عديدة من الفن الفينيقي، أنصابا ضخمة وصغيرة للآلهة، ومسلات وعليها منحوتات، وسلعا ذهبية، فضية، برونزيـــة وخشـــبية، مشـــربيات بديكور أحمر. تعود هذه الأعمال إلى حقب عديدة ، من الألف الثالثة حتى منتصف الألـــف الأولى قبل الميلاد. وفي صيدون، وفي المعمرات الفينيقية في قبرص وغيرهـــا، اكتشـــفت كمية من الأغراض العائدة للألف الأولى. وقد خلق الفنانون أســـلوبا أصيـــلا، فينيقيـــا أو سوريا، مستقى من التقاليد المصرية والحثية-الكوريت. ومن أعمال الفن الفينيقي الرائعـــة هي منحوتات القبر الضخم لآحيرام، ملك جبيل (القرن الثالث عشر-الثاني عشر)، مســـلات أوغاريت التي تحمل صورة آليين، أوزانا من البرونز بشكل ثيران، صحون فضية تـــبرز أسطورة أدونيس. كما مارس الفن الفينيقي نفوذا واسعا على شـــعوب ســـوريا وفلســـطين، بخاصة الفن العبري.

قبائل اسرائيل وجودها وتغلغلها في شانآن *Chanaan*

لقد سمى الإغريق البلاد الواقعة في جنوب سوريا، فلسطين، استنادا إلى الفلسطسنس الذين كانوا يعيشون منذ القرن الثالث عشر على الشاطئ الجنوبي الشرقي للبحر المتوسط. وكان نهر الأردن الذي يجتاز البلاد من الشمال إلى الجنوب ويصب في البحر الميت. يقسم فلسطين إلى منطقتين متمايزتين: غرب الوادي، الأراضي الخصبة، ووفرة النبات؛ والضفة الشرقية صخرية وجرداء. في الشمال، تنتصب ملتقيات لبنان الغربي الغابية؛ وفي الجنوب بحر الميت، تنبسط السهول التي تزهر في أثناء فصل الأمطار وتتحول إلى صحراء خلال فصل الجفاف.

في الألف الثانية قبل الميلاد، كانت فلسطين المسماة آنئذ شانآن عامرة بالشانئيين، الذين يتكلمون لغة سامية، والكوريت. كانت هذه المناطق الخصبة تثير، منذ الألف ا لثالثة، اهتمام واشتهاء المصريين أبان حكم فراعنة الأسرة الثامنة عشرة، استعبدوها كما استعبدوا فينيقيا. وفي نهاية الألف الثانية بعد غزوات "شعوب البحر" فقدت مصر فلسطين التي أضحت رهان الصراع بين مختلف القبائل.

آنئذ تبدأ بالتغلغل في فلسطين، من خلف الأردن، قبائل عبرية متحدة تحت اسم اسرائيل.

لم تكن هذه الحركة حملة عسكرية منظمة، بل تسلل بطئ للقبائل المنعزلة، التي، في بعض الحالات، كانت تبيد أبناء البلد الأصليين أو تستعبدهم، وفي حالات أخرى، تقيم في أراض غير مأهولة، جنبا إلى جنب مع الشانئيين. وبعد الهجرة حافظت القبائل الاسرائيلية، وخاصة قبائل الجودا، والقبائل المجاورة، القاطنة في المنطقة شبه -الصخراوية في نوب فلسطين، حافظت على النظام العشيري لبعض الوقت. لكن أسلوب حياتهم الرعوي تحول، شيئا فشيئا، إلى الأسلوب الزراعي، الغالب في الشمال ومركز الشانآن منذ القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وأمست القبائل المؤسسة على العشير مشاعات جوار، رغم بقاء بعض التقاليد القديمة، التي تؤثر على النظام الاجتماعي والسياسي للمهاجرين. ومع انتشارها على أرض واسعة وانتقالها إلى حياة الزراع المقيمين، حافظت القبائل طويلا على أعرافها وعاداتها العشيرية الحضرية، العسكرية والدينية. مع ذلك، خلق تطور العبودية واللامساواة المادية، منذ نهاية الألف الثانية، الشروط الاقتصادية لولادة الدولة.

في القرن الثاني عشر والحادي عشر، تغلغلت قبائل أخرى في شانآن. ساميون رحل

من شرق الأردن وصلوا من الشرق؛ وأبحر أحد "شعوب البحر" الفلسطينيون، إلى الغرب، على الشط الفلسطيني. وقف الاسرائيليون على رأس الغزاة الآتين من الشرق بوسائلهم الخاصة. أما الفلسطينيون، دلوا أنهم رهيبون. جيوش بسيوف من حديد ، احتلت الشط وبدأت غزو داخل البلاد: بنوا فيها ميادين محصنة (أهمها أشدود أو آزوت وغزة) وأسسوا عدة إمارات.

أسهمت الحرب ضد الفلسطسنس في توحيد القبائل الاسرائيلية في دولة واحدة. نفذ المحاولة الأولى قائد من القبيلة اسمه سول *Saiil*، ما أن صار ملكا، حتى حارب الفلسطينين. واشتركت القبائل الاسرائيلية في الجنوب (بما فيها يهودا) بالصراع. ولدى موت سول، عادت المعارك بقيادة مروض ومدرب سول، دافيد، من قبيلة يهودا. وما ان استلم عرش يهودا، حتى وحد تحت سلطته القبائل الاسرائيلية من جنوب ووسط شانآن. عرفت هذه الدولة باسم مملكة اسرائيل أو يهودا. نجحوا في دحر الفلسطينيين وطردهم من البلاد. وقد خلد هذا النصر سلطة دافيد (بداية القرن العاشر قبل الميلاد).

مملكتا إسرائيل ويهوذا

بعد دحر الفلسطينيين، قام دافيد بعدة حملات في الشمال وبسط سلطته على القبائل الاسرائيلية في تلك المناطق. واختار عاصمة له مدينة القدس القديمة (أورشليم) وبنى مقاما له في جبل صهيون، المحصن بحيث يستطيع "العرجان والعميان" الدفاع عنه. وهنا شيد لإله قبيلة يهودا يهوه معبدا بشكل خيمة، حسب عادة القبائل الراحلة.

خلف دافيد، الذي مات في بداية القرن العاشر قبل الميلاد، ولده سلومون الذي أنجز بناء القدس. كان سلومون، وكان ملكه سلميا، نموذج الاستبدادي للشرق القديم. يدفع له السكان الأتاوات الطبيعية. واستنادا إلى "كتب الملوك" وهي فصل من التوراة –كانت مملكة سلومون من خمس دوائر، تخضع كل منها فقط إلى التقسيم البلدي. على رأس كل دائرة، وضع العاهل حاكما مكلفا بحماية "الملك وبيته"، يعني الاسرة المالكة وحاشيتها، بإرسال الفرائض الطبيعية إلى القدس، المترتبة على منطقته. وكان موظف خاص مكلفا بإدارة الأعمال "لبيت الملك" المفروضة على كل "اسرائيلي". ثلاثون ألف رجل يؤدون أدوارهم بالسخرة. وهكذا بنى القصر الملكي ومعبد يهوه.

القصر والمعبد لايدهشان بأبعادهما، لكن، استناداً للنصوص، كانا آية في الإبداع من

الداخل والخارج. ولقد بنى سلومون تحصينات وقلاعاً عديدة. والتنقيبات وضعت أيدينا على بقايا من تحصينات القدس والإصطبلات الملكية في مجيدو. وألزم الملك أيضاً السكان الأصليين، الشانآن، بالسخرة. وعقد عقوداً تجارية مع فينيقيا، مصر، سوريا، الجزيرة العربية، التي صدرت له الخيول، العبيد، الذهب، الفضة، الحجارة الثمينة، الزيوت العطرية ومواد البذخ الاخرى.

كانت ورشات سولمون الواسعة، وصيانة قصره، وبذخ حياته، تستند إلى العمل الإجباري وسلب رعاياه. فليس غريباً أن يكون الوضع في فلسطين في، نهاية حكمه، حرجاً جداً. وتفاقم الوضع أيضاً، الملك لم يكن يهتم بمصالح قبائل الشمال بل يولي ارستقراطية يهودا كل رعايته. فتبدى الغضب بخاصة لدى ايفاريحيم، أكبر القبائل الإسرائيلية، وتمردت. كبح العصيان لكن تجدد الصراع بعد موت سولمون أفضى إلى قسمة الدولة إلى مملكتين: يهودا وإسرائيل (٩٣٥ قبل الميلاد).

لقد مزقت الصراعات الداخلية مملكة إسرائيل. وبعد ٥٠ عاما من النزاعات، سقط العرش بيد قائد المليشيات الشعبية أومري (٨٩٠ قبل الميلاد. كان عهد أسرته الألمع في تاريخ المملكة. شيد أومري على قمة شومرون عاصمة جديدة وقصرا منيفا ومعبدا اكتشف بقية منه عند التنقيبات، وسمي شومرون (السامرة)، باسم الجبل. كان هذا العاهل وخلفاؤه على اتصال دائم مع فينيقيا وقادوا حملة مظفرة ضد ملوك سوريا في دمشق الذين كانوا يطمحون في إخضاع إسرائيل. إنما في الداخل، كان الوضع مضطربا. فإلى عبء الأتاوات أضيف الجوع (الذي سبقه زمن طويل من الجفاف والقحط). ويتمرد الفلاحون، يبلغ الغليان الجيش، تقلب أسرة أومري وتبدأ المملكة بالانهيار. وفي القرن الثامن، تتتابع الحروب الداخلية، بينما يظهر عدو رهيب على الحدود: آشوريا. في ٧٢٢، بعد تصد إسرائيلي يائس، يحتل الملك الآشوري صارغون السامرة ويدمرها. وهنا انتهت مملكة إسرائيل.

دامت مملكة يهودا أكثر من هذا. ففي القرنين التاسع والثامن، حاول ملوكها عدة مرار إعادة سلطتهم إلى الشمال. كانوا أضعف من أن يشنوا حربا؛ لكنهم كانوا يحاولون تأريث متاعب هذه المملكة ويبثون الدعايات الدينية، لكن عبثا. وبعد سقوط ودمار سماره، حل الفقر في القدس: وانتظرها ذات المصير. حاصرت القوات الأشورية المدينة. لكن عدة منذرات أجبرت ملك آشوريا على رفع الحصار. وأكره حزقيا، ملك-يهودا على دفع ضريبة ضخمة والاعتراف بتفوقه. وبعد هذا، استمرت المملكة بالحياة قرابة قرن ونصف.

النظام الاجتماعي والنضال الطبقي في إسرائيل ويهودا.

كان الاقتصاد الفلسطيني في النصف الأول من الألف الأول يرتكز على الزراعة وتربية الدواجن والطيور. كان هذا يهيمن في الجنوب، في الأقاليم السهبية والجبلية: كانوا يربون صغار الحيوانات، الماغز والغنم. وفي شمال يهودا وإسرائيل، كان يعيش الناس أساسا على زراعة الحبوب، الكرمة، الزيتون والتين. وكانت الأرض تحرث بسكة حديد، ويتم الحصاد بمناجل حديد: أدوات من حديد اكتشفت في هذه البقاع تعود للقرن التاسع عشر.

كانت المهن تتفرع من الزراعة: الحدادون،الفخارون، والنجارون صناعيون محترفون. وقد تسارع تطور الصناعة بتأثير المدن الفينيقية الأرقى حضارة.

كان تطور العلاقات الاجتماعية في فلسطين قد حدده واقع القبائل العبرية الرحل التي غرست في وسط اقتصادي واجتماعي جديد، حيث حازت الحرف والتجارة، الربا، والملكية تقاليد متينة، ولدت منذ زمن في المراكز الفينيقية والشانآن. فتكون مجال في المجتمع العبري لبروز ظاهرات متناقضة من جهة، بقايا نظام عشيري مستقر بكل وضوح؛ ومن جهة أخرى، كانت الملكية الخاصة، الربى، الفرق في الثروة، يتطور بسرعة.

كانت المشاعة هي الخلية الاجتماعية الأساسية : بداية ، يعني هذا التعبير المشاعة المؤسسة على العشير، لكنه ضم فيما بعد مشاعة الجوار. وكانت هذه تحافظ على بقايا هامة من نظام العشير: مجلس العشير، مقبرة العشير، الثأر، إلخ. يحكم المشاعة أحد الشيوخ (ناشي). وكانت مشاعة الجوار مبنية على الملكية التعاونية-الجماعية للأرض. فمنذ القرن الثامن قبل الميلاد، كان في يهودا مشاعات هيأت أرضا للزراعة تعاونيا ووزع محصولها بين الأعضاء. لكن الأرض، في أغلب الحالات، كانت على الأرجح تقسم إلى أسهم أو حصص فردية عن طريق القرعة؛ وكانت القسمة تتم في اجتماع عام يترافق مع طقوس نوعية. كان هذا أمرا عاديا يدل على إعادة توزيع الأرض دوريا. وكان لكل مشاعة معبدها وكاهنها. وكان أعضاؤها متعاقدين على التزامات عديدة: إنقاذ من يقع منهم عبدا لعجز وفاء الدين، معاقبة جماعية للجناة والتوسط بين القاتل والمنتقم لتجنب الثأر.

رغم بقايا نظام العشير، دفنت العدالة في المجتمع العبري في النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد. كان الأغنياء يملكون قطعانا غفيرة من الغنم، الماعز، الحمير، والعبيد من الجنسين وكل الأرزاق. وكانوا يبنون بيوتا من طابق واحد؛ والقبو للعبيد والعوام،

والأعلى لأسرة السيد، التي تتناول المرطبات، مساء، على سطح المنزل.

كان تشكل الملكية الفردية (المواشي، ثم الأرض) واسع الانتشار في فلسطين: فالأرض المشاع كانت تنتقل إلى رؤساء الأسر الأبوية. وغياب نظام ري واسع تتطلب إدارته وإعادته إلى الحياة تعاونا بسيطا، أفضى إلى تفكك المشاعة: يمكن بناء خزانات لمياه المطر بعمل أفراد الأسرة وعبيدهم الخاصين. وكانت الملكية الفردية واسعة التطور في فلسطين بحيث لايملك الملك نفسه حق مصادرة الأرض.

لقد نجم عن تطور الملكية الخاصة الربا، وسبب خراب بعض أعضاء المشاعة، الذي تفاقم نتيجة الحروب والأتاوات الثقيلة. فيصير البؤساء الذين لايستطيعون وفاء دينهم عبيد دائنيهم. وكثيرا ماترك المفلسون المشاعات ليعملوا أجراء، أو يلجؤون إلى الجبال ،أو إلى غابات ضفاف الأردن، هربا من الدائنين ،أو من "وكلاء" الملك.

لم يكتف المزارعون بمقاومة سلبية. وفي ظل أسرة أومري، كان شعب إسرائيل يتململ ضد الملوك وأصحاب الحظوة لديهم. كانت هذه التمردات ذات خصيصة دينية. وكان الفلاحون الذين يأملون بالتبدل الاجتماعي، يبنون آمالهم على مجيء ملك عادل، "مسيح حقيقي"، مسيح الله ورسول الله بالذات، يلغي نير العمل الثقيل وعصا الوكلاء- المراقبين، من أجل توطيد السلام والعادلة. كان الناطقون باسمهم الأنبياء الذين يقودون أحيانا الحركات الشعبية في القرنين التاسع والثامن (على ألا يخلطوا بينهم وبين الأنبياء الذين يعملون في المعابد الملكية في القدس والسامرة كعملاء مخلصين للكهنوت والملك). كانت الحركات الشعبية تفضي أحيانا إلى تبديل الأسرة المالكة، لكن وضع الكادحين لم يكن يتبدل. وفي القرن الثامن تبدل الغضب إلى عصيان. أنبياء يرأسون "سقوط كل البروج"، "المذبحة الكبرى" للعاطلين الذين يضطهدون الشعب: الإله نفسه حضر الهجوم الجديد، وبعد قلب العاهل الملحد وأتباعه، يلغى الملك، يهدم القصر الملكي وإلى الأبد"؛ الشعب ذاته سيصير ملكا، تتوارى الفاقة والقحط، وتغمر المملكة الجديدة بالمسرة والخير الأبدي.

دون الوصول إلى ثورة اجتماعية، كانت الحركات الشعبية إنذارا جديا للأرستقراطية المستعبدة. إذ اضطر الملوك لاتخاذ تدابير لتحسين وضع الفقراء. وسن قانون لتحديد العبودية الناجمة عن الدين بست سنوات؛ ونشرت قرارت تهدف إلى الدفاع عن الأرامل واليتامى، الذين كثروا في أيام الحرب، وحقوق المأجورين. وقانون العام "اليوبيلي" (الذي أعد، لكنه لم يطبق أبدا، كما يبدو) كان يبغي إعادة، بعد مدة معينة، الأرض المستلبة.

أفول نجم مملكة يهودا

بعد سقوط مملكة إسرائيل. أكره ملوك يهودا، كما قلنا آنفا، على الاعتراف بتفوق ملك آشوريا. واضطروا أن يدفعوا له ضريبة باهظة وقعت كلها على عنق الفلاحين. أثارت هذه الاغتصابات الجديدة في منتصف القرن السابع تمردا. قلب الشعب المتمرد الملك آمون. واستلم العرش أشعيا وهو في عامه الثامن؛ حكم إكثر من ثلاثين عاما وكان آخر عاهل كبير في البلاد.

كانت الأمبراطورية الآشورية في حالة انحطاط، في أيام الملك أشعيا، الأمر الذي مكنه من استعادة استقلال بلاده. وبعد هذا، حاول توطيد دولة الاستعباد، ومركزة الحكومة. وابتغى الإصلاح عام ٦٢١ قبل الميلاد بحرمان المشاعات استقلالها. ألغى الملك كل المهام القضائية، ووظف قضاته في كل مكان؛ وأرسل إلى كل المشاعات موظفين مكلفين بتجنيد الجنود. وأصدر قرارا بمنع تغيير الحدود، دفاعا عن حقوق المالكين الفرديين ضد محاولات المشاعات لاستعادة الأراضي المستلبة. لكن الأمر الأهم للإصلاح مركزة العبادة في القدس. كانت العبادات المحلية محظورة، والمعابد الإقليمية مدمرة؛ وصار، من الآن، المعبد الوحيد الوطني هو معبد القدس. بهذا التدبير، وافق الملك من جهة على طمع كهنوت القدس في احتكار العبادة وبحث، من جهة أخرى، عن تحجيم خطر الحركات الشعبية، التي قادها أنبياء وكهنة معابد المشاعات وأرشدوها. وفي نفس الوقت، ألغى أشعيا من القدس العبادات الأجنبية التي أدخلها أسلافه وكل العبادات التقليدية، عدا عبادة يهوه، الذي صار إله يهودا الوحيد.

لكن محاولة التمركز هذه لم تقدر أن تنقذ المملكة. فجيشان الجماهير الشعبية تتابع، وعلاقاتهم مع الملك تفاقمت أكثر فأكثر. وفي نهاية القرن السابع، مشى فرعون مصر نيشايو إلىالبلاد. خسر أشعيا المعركة. وسلم نيشابو العرش لابن أشعيا الأصغر وفرض عليه ضريبة ثقيلة. بعيد هذا، غزت قوات الملك البابلي نبوخذ نصر سوريا وفلسطين. وفي ٥٨٦ق.م احتلت القدس ودمرت، احرق معبدها واقتيد كل السكان عدا "الفقراء" (المزارعين)، أسرى إلى بابل. ولم تعد مملكة يهودا موجودة كدولة مستقلة.

حضارة إسرائيل ويهودا

لقد أثرت الثقافة التي خلفها الشعب الإسرائيلي مؤخرا على الحضارة الأوربية. فالدين الأكثر انتشارا في أوربا، المسيحية، ولد في ظل الدين اليهودي الذي ماثله في عدة عوامل؛ ولقد استلهم الشعراء، الكتاب والفنانون الأوربيون موضوعاتهم ونماذجهم من الأدب

التوراتي (أي الإسرائيلي اليهودي).

دين إسرائيل ودين يهوه هما النتيجة ذاتها للبنية الاجتماعية الفينيقية (قبيلة وعشـيرا)؛ تتضمن كلها عدة عناصر مشتركة. الإله الرئيس ليهودا كان يسمى يهوه، ولإسرائيل شـلدي ***shaddai***، عدا هذه الآلهة، كانوا يعبدون شالم، إله السـعادة، اسـترتيه، إلهـة الخصـب، وغيرهم. بداية، كان يهوه يجسد القوى الرهيبة للجبال الجرداء، وانتقل ليصير إله العاصفـة والأمطار، المحمول فوق الغيوم. وفي أثناء سيطرة يهودا على إسـرائيل ومجـيء أسـرة يهودا، تتلمذ يهوه على الكهنة في صف خلق العالم (السماء، الأرض، النبـات، الحيـوان، والإنسان)، حامي المملكة والملك. تقدم الميثولوجيا والخرافة يهوه قائدا ، مستشارا، القاضي والأب المغذي لشعبه، يعطي الخبز، الزيت والخمر، ويعاقب عند الحاجة. لقد حوفـظ إذن حتى في المجتمع الطبقي على السمات النوعية لإله قبيلة يهودية.

كان الدين الشعبي ذا خصيصة زراعية واضحة. بين الآلهة العبرية الوطنيـة، كـان أيضاً إله الشمس (شاميش)، الأرض المسماة أم الحياة، وإله القمح داغان ***Dagan***. ولكـل مشاعة أيضاً إلهها المحلي، بعل ("السيد")، الموزع المباشر للخبز، الزيت والخمر.وكـانت الشعائر الشعبية موزعة حتى الأعمال الحقلية وتمارس في أثناء ثلاثة أعياد: أولاً حصـاد الشعير، حصاد القمح، قطاف الثمار والإعداد للبذر. كان هذا الأخير هو العيد الأهم، يحتفى به في المشاعات بمناسبة انتهاء السنة الزراعية .

أدب إسرائيل ويهودا ثري جداً. فالأساطير العبرية تحدثت عن خلق العالم، عن الناس الأوائل وعن الطوفان؛ تذكر هذه ابمحتواها الأساطير البابلية، لكنها أقل إيحاءً. والجنـس الإنشائي يتضمن أعمالاً أصيلة أصالة مطلقة. في القرنين الثامن والتاسع أنشيء بـالتوازي في يهودا وإسرائيل قصتان في أصل القبائل العبرية وتاريخها قبل تشكل المملكة. اسـتوحتا الخرافات والتقاليد الشعبية ببساطة الأسلوب والوعي. ابتغى الكاتبان أموراً محددة: يسـعى الكاتب اليهوي إلى إثبات أحقية قبائل يهودا بالمقام الأول، بينما يدعي الكاتب الإسـرائيلي العكس. وتظهر في يهودا قصص ضخمة تمجد حياة دافيد وسلومون وتنصرهمـا. وفـي قصر ملوك يهودا وإسرائيل كان يوجد مؤرخون يكتبون حوليات كل مملكة. ومنذ ظـهور الأنبياء، بدأوا بجمع أقوالهم والخرافات التي تدور حولهم. وبعـد سـقوط مملكـة يـهودا، استخدمت هذه القصص أساساً لـ"كتب الأنبياء" في التوراة، أجودهـا مـن حيـث الأدب والموقف الجدلي، هي قصص أشعيا ***issais*** وجرميا ***je're'mie***. وعبادة يهوه تفسح مجـالاً للعديد من التراتيل والصلوات تسمى "مزامير". وبعد هذا، جمعـت الأغـاني والقصـص

الشعبي. وأضمومة من أناشيد الزفاف، "نشيد الأناشيد"، اشتهرت في العالم قاطبة. الكتاب مجهولون أو مُغْفلون؛ لاهوتيون يهود من نهاية الألف الأولى قبل الميلادْ ينسبونها إلى عدة شخصيات تاريخية يهودية-إسرائيلية، قادة وأنبياء خرافيين. نخب هؤلاء اللاهوتيون حوروا وبدلوا الأعمال الأدبية لأيام المملكة لتكون الفصول الرئيسة في التوراة (العهد القديم)، الذي يصيربعد هذاالكتاب المقدس لليهود والمسيحيين. ينسبون لموسى كل القوانين التي سنها ونشرها الملوك وطقوس التضحية، السحر والعيد المقام في معبد القدس.

الصحراء العربية وسورية

في شرق وجنوب-شرق فينيقيا وفلسطين، كانت تمتد سهول مأهولة بمد جنين يتكلمون لغات سامية. ونظام العشير وحتى بقايا من عهد الأمومة استمرت حتى نهاية الألف الأولى قبل الميلاد. لكن في بعض المناطق تتشكل دول العبودية. وفي جنوب الصحراء العربية، ظهرت العبودية في حدود الألفين الثاني والأول؛ وتشكلت هنا عدة ممالك: دولة الميديين، السبئيين وسواهما. نظامها الاجتماعي والسياسي غير معروف جيدا؛ لكننا نعرف أن العرب أقاموا في الألف الأولى علاقات اقتصادية وسياسية مع دول الشرق-الأدنى، مع فلسطين بخاصة : ففي القرن التاسع اشتركت قبائل عربية في صراع ملكي سوريا وفلسطين ضد آشوريا.

لقد عزز تدجين الجمل تطور التجارة مع فلسطين وميزوبوتاميا؛ وفي الوقت ذاته، كانْ تجار الصحراء العربية يتاجرون مع الهند وأفريقيا، فمنها يجلبون العطور.

حوالي نهاية الألف الثانية، تغلغلت قبائل المدجنين الأراميين في سوريا، آتية من الصحراء العربية. دحروا الآشوريين وبنوا عدة دول صغيرة عبودية، كانت دمشق في المقدمة. وفي القرن التاسع شنت دمشق ضد الآشوريين صراعا ضاريا: وفي العام ٨٥٤ ق.م تنتصر القوات الدمشقية، الإسرايتيلية والقبائل العربية في كركر على الجيوش الآشورية التي كانت قد دخلت سوريا. وتتشكل في شمال هذه البلاد إمارات حثية-أرامية.

لكن هذه القبائل المبعثرة، المتحاربة أبدا، لم تستطع المقاومة الطويلة للضغط البشري الآشوري فسقطت في قبضتها في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد.

الفصل السادس عشر

آشوريا، أورارتو وبابل الكلدانية

آشوريا وأصل شعبها

سميت آشوريا منطقة شمال ميزوبوتاميا، الواقعة على مجرى دجلة الأوسط. في شمال العراق الحالي. بشروطها الطبيعية، تتميز آشوريا بوضوح عن ميزوبوتاميا- السفلى. يبتعد هنا دجلة عن الفرات مسافة تتراوح بين ٣٠٠-٤٠٠كم، فيضانهما أضعف مما هو في بابل، وتتهل عملية الري هنا فقط من مياه دجلة، والآبار والمطر المجموع في خزانات خاصة. وفي الشرق، آشوريا محاطة بالجبال التي تتقدم حتى دجلة: وآشوريا، أول عاصمة للبلاد، ماكانت تبعد عن الجبال سوى أربعين كيلومترا ، وإلى الشمال، حيث انتقل تمركز آشوريا في الألف الثانية، تتاخم الجبال ضفة النهر.

أثرت الطبيعة الجبلية للمنطقة الممتدة إلى شرق نهر دجلة، في الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي والسياسي لآشوريا. لم تكن المشاعات الجبلية تقدر على العيش من الزراعة فقط. فتربية المواشي والطيور والقنص لعبا دورا هاما في وجودها. أخيرا، كانت أطراف الجبال تؤمن الخشب، الحجر والمعادن.

كان أقدم سكان الشرق-الأدنى على الأرجح هم الكوريت، أقرباء الأورارتيين، وفي الألف الثالثة، بدأ الأكاديون التغلغل في بقاع مجرى دجلة الأوسط. أسسوا فيه عدة محال سكنية، بها سميت آشور استنادا إلى القبيلة وإلهها. كانت آشور على دجلة، إلى شمال بابل بـ٣٥٠كم. وجدت فيها منحوتات ونقوش هامة. خاصة منحوتة لملك آشور شمشي-أداد، معاصر حمورابي، الذي يحكي عن إنشاء معبد يوقف لإله آشور. ومنذ الألف الثالثة، عقدت المدينة علاقات تجارية مع المنطقة المجاورة لكابادوسيا *Cappadoce*..

آشوريا في الألف الثالثة والثانية قبل الميلاد

نحن لانعرف الشيء الكثير عن آشوريا الألف الثالثة. واستنادا إلى بعض الوثائق التي

وصلتنا، كان المجتمع الآشوري من نهاية الألف الثالثة وبعض قرون الألف الثانية مجتمعاً عبوديا. وسميت الدولة ب،"مشاعة آشور"؛ كان في رأسها إيشاكو، العاهل الوارث الذي لم يفقد مشيخة القبيلة والعشير والذي لم يصر مستبدا شرقيا سوى في الحقبة التالية. استمرت حياة الناس في مشاعات، لكن مشاعات العشير كانت تتحول باستمرار إلى مشاعات جوار. كانت الارستقراطية العبودية التي ولدت في تلك الحقبة مؤلفة من العشائر القديمة والموظفين الملكيين الكبار الذين ظهروا بعد تشكل مملكة آشور. لم تتخلف جماعة التجار عن اللحاق بهم. فالتطور المبكر للتجارة الآشورية يعلل في أن ميزوبوتاميا-السفلى كانت محرومة من الطبقات المعدنية وتتلقى المعادن من آشوريا، من آسيا الصغرى ومن أرمينيا الحالية حيث يستخرج النحاس والفضة. كان الطريق إلى هذين المصرين يعبر آشوريا، الأمر الذي مكن ملوكها من استلام وساطة التجارة بالمعادن والأخشاب. نتج من هذا غنى سريع لأعيان المجتمع الآشوري ونمو حاد في مركزها، مدينة آشور. أسس التجار في كابادوسيا معمرات تجارية، تطلعنا وثائقها على اقتصاد وأخلاق التجار الآشوريين، سادة العبيد. كان هؤلاء قلّة . وكان التجار يشترونهم من لولوبي ***Loulloubi***، القبائل الفقيرة في سلسلة جبال زاغروس، حيث كان الأهل يضطرون لبيع أبنائهم مقابل القمح. كان العبيد يقومون بأعمال الخدمة. والتجار يختارون منهم رجالاً موثوقين يشرفون على البيت في أثناء رحيل رب البيت إلى كبادوسيا. وكان عبيد آخرون يعملون حمّالين، بغّالين وحراساً مسلحين للقوافل.

كان النظام السياسي لتلك الحقبة المسماة "آشوريا القديمة" انتقالياً بين دولة العبودية البدائية التي تقدم أيضاً سمات مشاعية، وبين الاستبدادية العبودية. وكانت سلطة عاهل آشور محدودة بمنظمة تعاونية عليا، تحمل أيضاً اسم "مشاعة آشور". لم يكن هذا المجلس يضم سوى "الكبار" بينما يعيش الشعب بعيداً عن الحكومة. وكان العاهل يحمل لقب "نائب الإله أنليل"؛ كان يرأس مجلس الكبار، يوجه الشؤون الدينية وطبعاً الحربية. العدالة، الخزينة والاقتصاد غير خاضعة للموظفين النوعيين. يشبه هذا النظام إذن من بعض الوجوه حكومة القلة في اليونان القديمة. ولم تتسع سلطة العاهل إلا بعد الفتوح الأولى، عندما لقب شامشي-أداد الأول بـ"ملك الكون".

في القرن السادس عشر انتقلت سلطة الشرق-الأدنى إلى ميتاني. إذ لم نتعرف على

النظام الداخلي لمناطق ميتاني الشرقية إلا عن طريق الوثائق المكتشفة في محلة نوزي لكوريت. وربما قامت علاقات مشابهة في آشوريا، المحكومة في منتصف الألف الثانية بحكام ميتاني.فهؤلاء، غير الراغبين في زيادة الضرائب وتنظيم السخرة للعاهل، كانوا يشغلون الشعب لمصلحتهم وينهبونه لجيوبهم وجيوب أتباعهم، بدعوى تغطية الأتاوات "النوعية". ونتيجة هذا الاستغلال الغاشم، منذ أواسط الألف الثانية؛ دمر العديد من مشاعات الكوريت: وكان المرابون يفيدون من الوضع لاستخدام الفلاحين واحتلال أراضيهم. ولما كانت التقاليد تمنع هذا، كانوا يلجأون إلى الحيل والخداع. إذ يصير المدينون المعسرون، حسب العادة، عبيداً وقتيين للدائنين. لكن القانون لم يحدد مدة هذا الاستعباد، فيدوم من ٦-٥٠ سنة، حسب الاتفاق المعقود بين المرابي والمدين، وبعد بدء المدة المحدودة يلزم الرجل المستعبد على الاعتراف باستعباده المؤبد. وكان المستغلون بنفس الطريقة يحتلون أرض ومرعى الحراث المدمرين أو المفلسين. والمحاكم المكونة من هؤلاء أنفسهم تشرع هذه "العقود وهذا الرضى" الباغي.

في القرن الخامس عشر استعادت آشوريا استقلالها وبدأت مرحلة الانطلاق، المسماة "مرحلة آشوريا الوسطى". ولقد تركت لنا وفرة من الوثائق التي تدل بكل أشكالها على العلاقات الاجتماعية والسياسية لذلك العهد. كان أساس المجتمع والدولة الآشورية النظام المشاعي، الذي تعيشه جمهرة الناس المزارعين. لم تكن المشاعات منسجمة مطلقاً، لأنها عدا الأعضاء البسطاء كانت تضم "كبار العائلات". وكانت كل أرض المشاعة محاطة بـ"رابطات أعيان الإقطاعيين" التي عقوبة من لايحترمها أو يحاول تغييرها مائة عصا، وغرامة وشهر من "الأعمال الملكية"، أقصى وأقسى عقوبة حسب القانون الآشوري. وكانت أرض المشاعة مقسومة إلى أراض قابلة للزراعة وأراض احتياط. وهذه الأخيرة موزعة إلى حصص بالقرعة ويعاد توزيعها من حين لآخر. والحصص محاطة بإقطاعات صغيرة عقوبة الاعتداء عليها ٥٠ عصا، غرامة ،وشهر من "الأعمال الملكية". وكانت أرض المشاعة تخص حقاً وفعلاً المشاعة. لكن، برضى أعضائها، كان يمكن استلاب بعض الحصص، الأمر الذي صار فيما بعد أحد أسباب تفكك النظام المشاعي. المشاعات تدفع الضرائب -"حصة الملك"- دون حساب الخدمة العسكرية والسخرات: إدارة الأقنية والطرق، إشادة المعابد، القصور والصروح الأخرى. وكان الاستغلال المفروض من الملك

والعناصر الفنية في المشاعة نفسها، يفضي إلى خراب أعضائها بل المشاعات كلها والتوسع السريع للأملاك الفردية. ففي أشوريا لتلك الحقبة، كان عدد المالكين العقاريين ومساحات أراضيهم أوسع مما كان في بابل. كان كثير من المالكين يحوزون بالفعل أراضي المدينين الذين "اختاروهم" فيصير شرطهم أقرب إلى العبودية.

في القرنين الرابع عشر والثالث قبل الميلاد، ظهرت أول شريعة آشورية تشرع وتخلد التطور العملي للملكية العقارية الخاصة. عقدت هذه القوانين القسمة غير العادلة للثروة. إذ يخصص الابن البكر بنصيبين من الميراث، يختار هو نصيبا عادلا ويتلقى الآخر بالقرعة. يقسم الباقي بالتساوي بين الأخوة الآخرين، أيا كان عددهم. ثم، تسلب عناصر الإفقار المتزايدة أبدا أرض ورزق المشاعات. والأخوة الصغار، الذين لايكفيهم نصيبهم، كانوا بعامة يبيعون أرضهم ويبحثون عن كسب حياتهم بسبل أخرى. من هذه الشرائح المعوزة، كان ملوك آشوريا يجندون الألوف من أجل حروبهم وفتوحهم. ولم تكن القسمة غير العادلة هي التدابير الوحيدة الملحوظة في القوانين الآشورية للدفاع عن الملكية العقارية الخاصة وتشجيعها. فمن يغتصب حق التملك، كانت عقوبته أشد من تعويض الضرر وأقسى. فالأصول القضائية النوعية، التي تتدخل لتثبيت أعمال بيع الأرض والبيت، تدافع عن مصالح وحقوق الحائز.

بعد أن جند جيشا جرارا،شرع ملك آشوريا سلمنصر الأول في القرن الثالث عشر حملات استمرت في حكم ابنه توكولتي ننورتا الأول. كانت المهمة الأساسية لسلمنصر السحق النهائي لميتاني، التي أضعفها الحثيون، ووقاية الحدود الآشورية من الامبراطورية الحثية. نجح بهذا: دمرت ميتاني وبلغ الجيش الآشوري نهر الفرات. وسعت الحملات التالية تخوم البلاد إلى الغرب حتى كركميش، وإلى الشمال حتى بحيرة فان ***Van***، وإلى الجنوب حتى بابل. حول توكولتي-ننورتا، الراغب في تقليص النفوذ السياسي للنيل، حول العاصمة إلى مدينة جديدة، سماها "حصن توكولتي ننورتي". كان هذا الانطلاق العسكري لآشوريا قصير العمر. إذ سقط توكولتي ننورتي ضحية مكيدة؛ وبعد موته، عرفت البلاد عهد الانحطاط.

الدولة العسكرية الآشورية في الألف الأولى

في نهاية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، كانت آشوريا تخضع لتهديد الآراميين الذين

غزوا البلاد مرارا، ذبحوا واستعبدوا الناس، ساقوا القطعان، دمروا وأحرقوا المدن والقرى. لجأ سكان الوديان إلى الجبال، وخوت المدن. ثم جاء عدو آخر. قبائل كانت تعيش في أرمينيا الحالية، حول بحيرة فان *Van* وإلى الشمال قليلا. الآشوريون يسمونهم أورارتيان (أورارتو).

في القرن العاشر قبل الميلاد، ضعف هجوم الآراميين على آشوريا. قسم من الغزاة استقر بين دجلة والفرات، واندمج بالتدريج وتوقفت الغارات. فعاد الآشوريون شيئا فشيئا إلى التخريب، وفي نهاية القرن العاشر تيسر لملوكها أن ينتقلوا إلى الهجوم على الأورارتيين، والآراميين وجبليي الشرق. انتهى هذا الهجوم في بداية القرن التاسع بانتصارات آور -نذير- بعل الثاني (٨٣٣-٨٥٩).ق.م أخضع الملوك الصغار الآراميين واقتاد آلاف الأسرى، الأمر الذي مكنه من تنفيذ أعمال هائلة في كلح. بنى فيها قصرا منيفا مزدانا بالمنحوتات والزخارف، ومشاهد النصر، وشيد ميادين محصنة على حدود المملكة. ووضع آشور -نذير- بعل أسسا لمستقبل آشوريا العسكري. وفي نهاية القرن التاسع، أضعفت آشوريا الاضطرابات الداخلية، الناجمة من كره الاستقراطية التي حاولت الانتقال من نهب الأرض المحتلة إلى ضمها نهائيا؛ آزرهم في هذا الجنود البسطاء، أعضاء المشاعات، الذين يعانون من حرمان الأرض، لكن أصحاب الامتيازات وقادة الجيش الذين يبتلعون القسم الأكبر من الغنائم، ماكانوا يهتمون بتوطيد الفتوح بل يفضلون الغزو المتكرر لنفس البلاد، التي يدمرون كليا قواها المنتجة؛ فضلا عن هذا، حمل هجوم الأورارتيين (نهاية القرن التاسع -نهاية القرن الثامن) ضربة قاسية لآشوريا.

لم يستفق التوسع الآشوري إلا في أواسط القرن الثامن. فقد تبنى الملكان تيغلاث-فلازر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) وسرغون الثاني (٧٢٢-٧٠٥) سياسة عدوانية أساسا. أعادوا تجهيز الجيش. وانطلاقا من تيغلاث-فلازر، ضمت القوات الآشورية محاربين ذوي رماح يقودون عربات تقرن زوجا من الأحصنة؛ وسلاح خيالة أضخم مرتين من وحدات العربات؛ وسلاح مشاة معزز، مسلح برماح ودروع؛ وسلاح مشاة خفيف، مؤلف من رماة سهام وأضخم مرتين من السلاح السابق. ووحدات خاصة تتلاءم مع النسف والتفجير والمدفعية، وأيضا وحدات حفر وبناء ضخمة، مؤلفة بشكل عام من العبيد، ومن مساجين الحرب السابقين. وفي أثناء القتال، تقيم هذه الوحدات المساعدة جسورا عائمة، تشق

الطرق، وتشيد معسكرات محصنة، وتحمل الأثقال،.إلخ. وخلال حصار الميادين ، تحفر الخنادق، ترمي المنجنيقات قذائفها لهدم الاستحكامات والأبراج؛ وأثناء الهجوم، يتسلقون السلالم المعدة مسبقا. وكانت العربات معروفة أيضا لدى الهكسوس والمصريين، لكن ملوك آشوريا كانوا أول من استخدم منهاجيا سلاح الخيالة. ثم تعلموا تعزيز فعل كل هذه الأسلحة؛ تبدأ المعركة بهجوم العربات، تتبعها المشاة، التي تهاجم صفوف الخصم المشتتة، المصدعة؛ ويطارد الفرسان العدو المتراجع أو المنهزم. ولقد أدخل سرغون تجديدا هاما في التجنيد: عدا الرجال الذين يؤدون الخدمة العسكرية الإلزامية، طوع مرتزقة، في البداية من الآشوريين، ثم من الأجانب.

ازداد مع الزمن عدد المتطوعين أو المرتزقة بشكل محسوس؛ واستخدم ملوك آشوريا هؤلاء المتطوعين في داخل البلاد.

لقد شن تيغلات-فلازر الثالث وسرغون الثاني أقسى حروب الفتح. احتل الأول، قاهر القوات المتحالفة التابعة لملكي دمشق وإسرائيل، احتل كل سوريا. بما فيها دمشق. وألحق بابل نهائيا وسمي ملك بابل. وأخيرا، أنزل هزيمة منكرة بمملكة أورارتو، التي تكونت في القرن التاسع قبل الميلاد وصارت أنطلاقا من القرن الثامن عدو آشوريا الرئيس. ولقد خاض ملك أورارتو، أرغشتي (٧٨١-٧٦٠)، صراعا ضد عدو آشوريا وحقق نصرا على عاهلها. وصارت الحرب مع أورارتو المهمة العسكرية الأولى إذن لدى الملوك الآشوريين. كلف سرغون الثاني بحل هذا العبء. وبما أنه كان مطمئنا إلى الحدود السورية والفلسطينية، وكان قد دمر مملكة إسرائيل والإمارات الحثية-الآرامية التي بقيت في منطقة كركميش، وجه كل قواته إلى أورارتو. أضعف غزو سرغون هذه المملكة التي عاشت حتى القرن السادس قبل الميلاد، يوم أبادها الميديون.

لكن خلفاء سرغون لم يتابعوا حروب الغزو بشكل منهاجي. بل جاهدوا للتمدد نحو الجنوب الغربي، لاحتلال مصر. سحق سنحريب مقاومة البابليين واستباح مدينتهم أو عاصمتم؛ ساعدته في هذا مملكة يهودا؛ وبلغ خليفته أسارهدون في العام ٦٧١ مصر وهزمها. لكن هذا النصر كان عارضا، لأن الملك الآشوري لم يتمكن أن يترك في مصر حامية كافية؛ وبعد عشرين عاما، استعادت مصر استقلالها.

بعد أسارحدون ، انصب النشاط العسكري لملوك آشوريا مبدئيا على توطيد نفوذهم

في البلدان المحتلة والخاضعة لدفع الضرائب. إذ كانوا مكرهين على إرسال التعزيزات لكبح التمردات العديدة وزيادة الأتاوات، مع الاحتفاظ بأفواج غفيرة في آشوريا ذاتها، بسبب الغليان المتسع أبدا في داخل البلاد.

النظام السياسي في الدولة العسكرية الآشورية

كانت آشوريا في قمة الاستبداد الشرقي، لكن تنظيمها يقدم بعض الخصائص.

كان الملك يستند أولا على الجيش والارستقراطية العسكرية. ولدى قدومه، قدم نفسه أولا إلى القوات وانتظر تأييدها. وكان ملوك آشوريا يعززون نفوذهم بإعلان الألوهية أو قداسة السلطة الملكية. لكن هذا كان يضعهم في علاقة متينة مع كهنة آشوريا، بابل والبلدان الأخرى المحتلة . وفرض عليهم أوسع الاهتمام بالمعابد، في آشوريا كما في بابل، وإعفاءها من الضرائب، من السخرة وحتى من القضاء الملكي. وأوسع الامتيازات أعطيت للمعابد والكهنوت في آشور وبابل.

تتلاءم إدارة مناطق الدولة مع شروط تجعل هذه المناطق متكاملة. وفي آشوريا بخاصة، كانت الإدارة تتبع تقاليد الحكومة الملكية في بلدان ميزوبوتاميا. وكانت الأراضي المحتلة تعيش في ظل أنظمة متباينة. والبقاع الكوريت، وهي الأقرب إلى آشوريا، كان لها حكامها. وكانت بابل تخضع أيضا لمشرفين يختارهم الملك من أهله وذويه، لكنها حافظت على شريعتها وعدالتها. وكانت مدن بابل، سيبار ونيبور تتمتع بوضع خاص فيما يتعلق بالضرائب. إنما تخضع البقاع البلدان المحتلة فيما وراء ميزوبوتاميا لمعاملة أخرى. ففي مملكة إسرائيل القديمة، مثلا، وفي بعض أقاليم سوريا أبيد السكان أونفوا، وحل محلهم معمرون آشوريون؛ وكانت الإدارة في يد حكام ملكيين. وفي مكان آخر، بخاصة في صور، صيدا، يهودا وفي بعض البقاع السورية، ترك الملوك الصغار والأمراء، الذين التزموا بدفع الضريبة، بتقديم الجنود وبالخضوع لكل الأوامر السلطانية.

كانت آشوريا ومناطق الإمبراطورية كافة مرتبطة أبدا بالبريد. ولتأمين هذه المواصلات والتنقلات العسكرية، شق الملوك طرقا مزودة بمحطات تفصل بينها مسافة منتظمة. وكانوا يحاولون أيضا، لكن عبثا، مراقبة إدارة حكامهم. وكانت مستشارية القصر تتلقى شكاوى الظلم والعسف وسرقات نواب-الملك. لكن هذه الشكاوى نادرا ماحققت العدالة، وكانت السلطات المحلية، والحكام وأتباعهم، يعيشون على هواهم. وكانت المحصلة

هي المصدر الرئيس لدخول الموظفين الآشوريين من أكبرهم حتى أصغرهم.

وكانت الشريحة العليا المدنية والعسكرية والمعابد تتلقى من الملك، أملاكا مع كل الاحتياجات والعبيد وإعفاءات من السخرة ومن الضرائب. وقد تضاعفت هذه العطاءات بخاصة مع مجيء آشور بانيبال.

الاقتصاد والمجتمع الآشوري في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد

في هذه الحقبة الزمنية، عرفت الحياة الاقتصادية في آشوريا تبدلات ضخمة، ناجمة ليس من نمو القوى المنتجة، إنما من الكميات الكبيرة من أسلاب الحرب والضرائب الثقيلة التي تدفعها رعايا البلاد المحتلة. الأمر الذي أدى إلى حدة تطور التجارة. أغنت الغنائم قادة الجيش، الكهنة، كبار الموظفين والجنود؛ كانت الضريبة، قبل أن تصل إلى خزينة الملك، تمر أيضا على أيدي العسكريين والموظفين الشرهة. وكان الجنود والمنتفعون الآخرون يكدسون كثيرا من الحاجات الكمالية ويبعونها في السوق. ويتشكل سوق مشابه في نينيف، التي صارت المركز الدائم الملكي منذ القرن الثامن. في ذلك الزمن كان يوجد هنا ("من التجار أكثر مما يوجد من النجوم في السماء"). وفتحوا أيضا سوقا لتجارة العبيد الذين كانوا أسرى حرب. كانت هذه الانطلاقة التجارية، الناجمة عن الانتصارات العسكرية، مؤقتة؛ وبدأ الانحطاط منذ توقفت الحملات المظفرة.

عدا التجار، كان يوجد شريحة استعبادية غنية ومتنفذة، مكونة من كهنة، من مداهنين ومن موظفين محليين.وأصحاب الدور الأبرز هم الكهنة الذين يتلقون من الملك الأراضي الشاسعة، في آشوريا وفي البلدان الخاضعة. وكانت ملكية السادة العقارية تتضخم أيضا، وبخاصة عن طريق الهبات التي يمنحهم إياها السلطان مكافأة لخدماتهم. وتترافق أعمال المنح غالبا بوثائق تعفو الحقل من الضريبة والسيد من الخدمة العسكرية وأعمال البناء. وكما الأمر في أيام آشوريا الوسطى، كانت هذه الشريحة تستغل ليس العبيد فقط، إنما الحرفث المستخدمين أيضا والسكان المنفين من البلاد الملحقة. تمتاز آشوريا القرن الثامن بزيادة سريعة لعدد العبيد. فعشرات آلاف الأسرى الذين يسوقهم الملوك المنتصرون كانوا يسقطون في جحيم العبودية. أغلبهم يعمل لدى الملك والمعابد. ففي قصر سرغون على الأقل ٣-٤آلاف عبد.

آلاف العبيد يخدمون في الجيش، يشقون الطرق ويمهدونها، يحفرون القنوات، يبنون

صروح نينيف العملاقة، إنها العاصمة الجديدة. وكثير من هذه الصروح يخص المعابد؛ وبعض الأفراد الأعيان أيضا يحظون بالدور الفخمة. يباع العبيد جماعات من ١٠-٢٠، وبعامة، تباع الأسرة كلها. ومنتوج عملهم يتسع بشكل ملفت. بهذا الصدد ، يدنو العبد الآشوري لتلك الحقبة من النموذج الإغريقي-الروماني. كان اتساع الاستعباد موقتا ليلغى بسقوط الامبراطورية. لكن العبودية فعلت فعلها في هذه الكارثة.

أثارت الظاهرات الواردة أعلاه انحطاط النظام المشاعي. تتقلص المشاعات، تفقد استقلالها، تسقط تحت وزر الوكلاء الذين يسميهم الملك او الحكام، ويبادل أعضاؤها بالضريبة غير المؤداة وعدم تنفيذ السخرة. مع ذلك استمرت وشائجهم في المشاعة بشكل رئيس للإفادة المشتركة من المياه.

كان العدد الإجمالي لأعضاء المشاعات الاحرار أقل بوضوح من عدد الحراثين المستخدمين والعبيد من مختلف الشرائح.

سقوط آشوريا

كان فتح مصر آخر نصر عسكري يحققه الآشوريون بقيادة أسارحدون. وفي أيام ابنه أصور بنبال (منتصف القرن السابع)، تصدع نفوذ الدولة بسرعة ثم انهارت كلها، وقد ألغمتها الأزمة الداخلية وانتفاضات الشعوب الملحقة.

إن اتساع العبودية لم يقلل من إثارة الصراع الطبقي. فعدم توفر إعلام مباشر عن عصيانات العبيد، لايلغى اطلاعنا على انتشار عادة تقييد العبيد المتمردين بالحديد. وكانت الشعوب الملحقة وأعضاء المشاعات الأصليون يتمردون أيضاً. وفي أيام أصور بنيبال، قادت عبدةٌ انتفاضةً آرامية. وليس من شك أن الفلاحين الآشوريين، الذين دمرهم التجنيد، والعمل الشاق والأتاوات، كانوا ينتفضون، هم أيضاً. وفي الوقت ذاته، ضعف السند العسكري للعاهل.. فتوقف الحملات العسكرية أوقف فيض الأسلاب، وتمردات الشعوب الملحقة المستمرة هددت زيادة الضرائب. فنضب باب الإنفاق على المتطوعين؛ ولم تعد القوات المؤلفة من آشوريين موثوقة.

في هذه الظروف، كان أول نزاع خارجي يمكن أن يكون نذير انهيار. أتت هذه الساعة في نهاية القرن السابع قبل الميلاد.آنئذ، تأسست في إيران مملكة الميدين، على حدود الآشوريين. عقد ملك ميديا سياخار *Cyaxare* معاهدة مع الأمير الكلديني نبوبولسار

الذي كان قد احتل بابل. واحتلت قواهما المتحالفة نينيف في العــام ٦١٢ وأبــادت فلــول الجيش الآشوري في العام ٦٠٥ في كركمش. وانتقلت آشوريا إلى سلطة ملــك الميديين، بينما تأسست أسرة نبوبولسار الكلداني في بابل.

الحضارة الآشورية

إن نواة الشعب الآشوري كونه من أصل أكادي، كانت كتابــة، ديــن وأدب آشــوريا تكرارا أو اشتقاقا خفيفا من العناصر البابلية. والسمات الأصيلة لا تظهر إلا فــي الفنــون التشكيلية، في أوج ازدهار الامبراطورية.

الآلهة هم نفسهم آلهة بابل. لكن السمة النوعية لمجمع الارباب الآشوري هــو تفــوق الإله السابق لقبيلة آشور. كانت مهامه الأولية كأب وحامي القبيلة زراعية، ومن ثم يصــير إله الحرب والنصر. وفي أثناء الحملة تحمل رايات لمثاله أو رسمه؛ أثمــن نصيــب مــن الغنائم تذهب إلى معابده. وكان الموظفون العسكريون أيضا ينسبون لعشتار، ربة الخصب، التي كانت عبادتها قديمةجدا وشعبية.

ويقيم الكهنة الآشوريون الطقوس المعروفة في بابل. آشور بانيبال يجمع في قصــره بنينيف كل الأعمال الأدبية البابلية. منها قصيدة "المجد لله في العلى..، الاناشيد والنصــوص السحرية البابللية. في العبادة، لاشيء خاص بالآشوريين إلا استنزال المطر وأناشيد آشور.

كان فرع أدبي خاص، الحوليات الملكيــة وتطــور جــدا فــي آشــوريا. والملــوك المنتصرون يصرون على تأييد ذكرى انتصاراتهم بنقوش صخرية حيث دارت المعــارك وتمت الغزوات، ويصفون مآثرهم على جدران وأبواب القصور وعلى الآثار التذكارية.

إن هذه النصوص المكتوبة بأسلوب فخم تمجيدي، بصيغ وعبــارات مقدســة، هــي بالنسبة لنا المصدر الرئيس لتاريخ الدولة العسكري الآشوري.

لقد بدأ ملوك القرنين التاسع والثامن بناء القصور المنيفة، التي عثر على أطلالها فــي أثناء الحفريات. إنها قصور كالاح ونينيف، وسرغون في دورشاروكين،إلى شمال نينيــف بـــ ٢٥كم. لايوجد منها اليوم سوى الخرائب التي تعطي مع ذلــك فكــرة عــن عظمتــها وروعتها. والأعمال الفنية التي تزينها باقية أيضا. أبدعها تماثيل الملوك والثيران الضخمــة المجنحة،عفاريت حراس الأبواب.

كشفوا أيضا منحوتات تمثل حياة السلاطين في زمن الحرب والسلم، مــع حدائقــهم

وغدرانهم،و نسائهم،وأقربائهم وعبيدهم. تشكل هذه النقوش والمنحوتات عنصرا أصيلا في الفن الآشوري. فالحيوانات هنا تضج بها الحياة.

مملكة أورارتو

كانت القبائل الأورارتية تعيش في الطرف الشرقي من آسيا الصغرى، في منطقة بحيرة فان *Van* المالحة. طبيعة أورارتو شديدة التنوع. الهضبة العليا لأرمينيا مفصولة عن آسيا الوسطى بالفرات؛ في الشرق تمتد سلسلة جبال زاغروس، وفي الغرب التورس الأرمني. الأرض الخصبة والقابلة للزراعة غير متوفرة إلا في الوديان والسهول. كانت الجبال غنية بالحديد، النحاس وحجارة البناء؛ وغابات ومراع جبلية تغطي منحدراتها.

إنها شروط ملائمة بخاصة لتربية المواشي والطيور والصناعة. ولقد بلغوا في هذا المضمار شأوا بعيدا من الارتقاء، بخاصة صناعة الأدوات البرونزية والحديد. والزراعة، التي تحتم الري الاصطناعي، لم تتطور إلا بمقدار ما يهيء الأورارتيون شبكتهم المعقدة.

ذكرت قبائل أورارتو لأول مرة في نقوشات ملك آشوريا سلمانصر الأول، حوالي بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد: ثمة قضية اتحاد قبلي مسمى أورارتو ومكون من ثماني "بلدان" صغيرة. احتلها سلماناصر، دمر وأحرق محالها، أخذ الأسرى وحولهم إلى عبيد. وفرض على من بقي من الناس دفع ضريبة ثقيلة. وفي القرن الثاني عشر، اختفى ذكر أورارتو من المنقوشات، التي تتحدث مع ذلك عن عدة غزوات في بلدان نيري *Nairi*، واقعة حول بحيرة فان. كانت القبائل الملحقة تنتفض باستمرار، ويرد ملوك آشوريا بالنار والحديد.

في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، نشأت عدة دول –هوبوشيكيا، موساسير وغيرها– في منطقة بحيرة فان. إحداها أورارتو، عاصمتها توروشبا واقعة على ضفاف البحيرة. تكلل نضال هذه الدولة ضد آشوريا في القرن التاسع بتشكيل مملكة للأورارتيين وحدهم.

والاتحاد، البادىء بشاردورس الأول، ملك توروشبا، أول من سمي "ملك الجماهير *roi des multitudes*" متلقيا الضربة من "كل الملوك"، انتهى بحفيده مينوا، الذي خلف لنا ١٠١ نقشا مسماريا ٣١٠ منها تحكي عن بناء قلاع على تخوم توروشبا وفي الشمال، وكذلك القصور والمعابد و١٩ تخص حفر القنوات.

بسط ملوك أورارتو شيئا فشيئا حدودهم نحو الشرق والجنوب. وتغلغل الأورارتيون

في شرق القفقاس، في مناطق المجاري العليا لكورا وآراكس. وأقاموا حكاما يديرون البلاد المغزوة ويجنون منها الأتاوات.

بدأت أعمال ضخمة في المملكة. وبنيت حصون؛ وقد صار حصن آرجشتكنيلي على جرف نهر أراكس، في أرمينيا الحالية، المبني في ملك أرجشتي، خليفة مينوا، صار المركز العسكري والإداري لملوك أورارتو في شرق القفقاس وميدانهم لفتوحات جديدة. كانت المدينة ذات أسوار منيعة من البازلت، ماتزال بقاياها بادية حتى اليوم.

بلغت أورارتو مجدها الأعظم في النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، في ملك أرجشتي الأول (٧٨١-٧٦٠) وشارودوش الثاني (٧٦٠-٧٣٠). شن أرجشتي عدة حملات إلى الشرق، هزم آشوريا، وطد نفوذه في شرق القفقاس، في منطقة بحيرة سيفان ***Se'van***. تطلعنا منحوتة ضخمة اسمها حوليات كحوركحور ***Khorkhor***، على ضخرة فان ***Van***، على كل حملاته. كان في أورارتو آنئذ عدد غفير من الأسرى الذين آلوا إلى العبودية.

اقتصاد ومجتمع أورارتو

إن الوثائق التي وصلتنا عن مجتمع أورارتو هي حوليات حرب أو منقوشات تتحدث عن الأعمال. والنصوص التي تميز النظام الداخلي لاتحوي أبدا معلومات حول العلاقات الاجتماعية والاقتصادية.

كما نعلم، كان مجتمع أورارتو عبوديا، على رأس الدولة الملك الذي يستند إلى نبلاء الدم. والأرستقراطية العسكرية، المغتنية بالحرب ومالكة أوسع الأملاك، كانت قوية جدا. وعلى أرض الملك، والمعابد والنبلاء، تحرث المروج وتغرس الكروم. ولسقايتها أقيم عدد كبير من البحيرات الاصطناعية وشبكة ضخمة من القنوات توفر الماء للحقول، للقرى وإلى حصون الجبل. كان تشييد هذه المنشآت ضرورة فرضها إقليم أورارتو الذي كان بالغ القحط.

كانت تربية المواشي والطيور متطورة جدا. ظهرت في هضبة أرمينيا منذ العصر الحجري الحديث، ولم تفقد دورها الهام في العصور التالية. كان شيوخ القبائل، ثم الملوك، المعابد والسادة يملكون قطعانا وقطعانا من الأبقار والمواشي الصغيرة ذات القرون والأحصنة. في الصيف، ترعى المواشي في الجبل، يحرسها الرعاة والجنود.

كان اقتصاد الملوك وأعيان الكهنوت والعلمانين عبوديا. كان العبيد كثرا، لأن كل

حملة ملكية تأتي بآلاف الأسرى؛ هكذا، في أثناء حروب شرق القفقاس، أسر أرجشتي أكثر من ١٨٠٠٠ إنسان. كان شغل العبيد يقتصر في الأرجح على حراثة المراعي وغرس الكروم وحراسة القطعان. وكانوا يكلفونهم أيضا ببناء الحصون وحفر القنوات أحيانا.

كانت رعايا الملك الريفية تعيش، حسب الأقاليم، من الزراعة وتربية الأنعام؛ وكانت قطعا ملتزمة بالأتاوات والسخرة المعتادة في بلدان الشرق. المؤسف أن النقوش الأورارتية المكشوفة حتى الآن لاتعطي أية معلومة حول هذا الموضوع.

لم يكن ثمة أية مدينة بمعنى الكلمة الواسع، تكون مراكز تجارة وصناعة. وكانت المهن الريفية متطورة في الضواحي الواسعة. وورشات ضخمة تخدم الملك والمعابد. وإنتاجهم، بخاصة الآيات الفنية، تنتشر على طريق التجار، ليس فقط في أورارتو، بل في الخارج.

لقد عرفنا المواطن الأرارتية بفضل التنقيبات التي قام بها ب.بتروفسكي ليس بعيدا عن إيريغان، على هضبة كرمير-بلور حيث دفنت قلعة تشبايني. كانت مؤلفة من حصن يضم قصر الحاكم ومتطلباته العديدة، من الورشات والمخازن، وسواها. يحيطها جمع من المساكن الصغيرة لايملك سكانها ماشية ولا استثمارة زراعية: هم على الارجح جنود أو صناعيون يتلقون معاشهم اليومي من أهراءات الدولة.

سقوط أورارتو

لما كان سقوط آشوريا يتسع في أيام ملك تغلاش-فلاسار الثالث، في القرن الثامن قبل الميلاد، كانت أركان أورارتو ترتج بعنف. لكن الحروب الطويلة ضد آشوريا، انتهت في ٧٤٣ بهزيمة قوات شاردورس الثاني الذي اضطر أن يطوي رايته ويتراجع على أبواب نهر الفرات. وبعد موته، عمت الاضطرابات وانفصلت بعض المناطق الملحقة عن أورارتو. لكن الضربة القاصمة أتت في العام ٧١٤ من ملك آشوريا سرغون، الذي سحق الجيش الأورارتيني. وتجدد أورارتو قواتها في بداية القرن السابع، عندما نجح الملك روزاس في عقد تحالف مع السومريين، الآتين من الشمال في القرن الثامن من شرق اقفقاس والشرق الأدنى. ويشن الأورارتيون المتحالفون مع السومريين حربا مظفرة في آسيا الصغرى. ويبدأ روزاس الثاني أيضا أعمالا ضخمة؛ ففي أيام ملكه بنيت، بخاصة، قلعة تشبايني. وكانت العلاقات مع آشوريا مسالمة: من المعروف أن روزاس الثاني وآشور بنبال تبادلا السفراء.

لم يعط التاريخ معطيات محدودة حول سقوط مملكة أورارتو. معروف فقط أنها تعرضت في بداية القرن السابع لهجوم عاصف من السيث ***Seythes***: كشفت تنقيبات تشبايني آثار دمارها على يد السيث في بداية القرن السادس. وفي القرن السادس أباد الميديون أورارتو. وبعد زوال مملكة أورارتو، انتقلت السيادة على أرضها لبعض الوقت إلى قبيلة أرمنية، وبالتالي أخذت البلاد كلها اسم أرمينيا. وشكل اختلاط سكان أورارتو الأصليون مع القبائل الآتية فيما بعد، في أثناء قرون، الجنسية الأرمنية. وهكذا في القرن الثاني قبل الميلاد ولدت المملكة الأرمنية.

الحضارة الأورارتية

إن ثقافة أورارتو أحد روافد الحضارة الآشورية. فمن هذه الأخيرة استقى الأورارتيون الكتابة المسمارية، بعد تبسيطها وإتقانها بعض الشيء. وأعمال الفن التشكيلي التي وصلتنا تشهد على قوة التأثير الآشوري حتى أن علماء الآثار كانوا ينسبون بداية لآشوريا منحوتات أورارتية أصلا. فالمواد البرونزية كانت تتم في الورشات الملكية حسب أسلوب أصيل، لكن الديكور يتم حسب النماذج الآشورية. وبين أجود نماذج الفن الأورارتي، نذكر من عرش: قدم تحمل صورة إله مجنح، وثيران مجنحة وكان ثمة أيضا قناديل رائعة من البرونز. وكان الصحن مزدانا بصور نساء مجنحة؛ وكشفوا تماثيل لإلهات قاعدات. وتؤكد الأغراض الفخارية ألمعية تضاهي هذا. وتشهد أطلال القلاع الحجرية على مهارة البناة. والآثار الأروع معماريا هي حصون ضواحي إيريفان، المنتصبة فوق تلال كرمير-بلور وآرين-بيرد، وقلعة تورشبا.

كان على رأس آلهة دين الدولة الإله الأعظم هالديا، وإله الحرب تيشيبا وإله الشمس شيفيني. وتبدأ النقوش الكتابية بعامة بخطاب للإله هالديا، وكان الملوك يقدمون له حسابا عن انتصاراتهم العسكرية. كان هالديا بالتأكيد إلها أورارتي الأصل، تعبده إحدى قبائل المملكة الأولى. وتيشيبا، الذي يشبه اسمه اسم تيشوب، إله الحثيين والكوريت، أقرب جوار أورارتو الغربيين، كان أيضا إله الصواعق والعواصف. وشيفيني هو الإله-الشمس التقليدي. عدا هؤلاء الآلهة الثلاثة الكبار، كان في البانتيون الرسمي قرابة عشرين غيرهم، أقل أهمية، ويعطى المقام الأول بينهم لآلهة شفعاء المشاعات. من المؤكد أن بعض الأساطير قدستهم، لكن العلم لم يعثر على أي منها. أما دين أورارتو الشعبي غير معروف جيدا. ثمة معطيات حول وجود عبادة للحيوانات والأشجار. فعبادة الشجرة المقدسة خاصة بالدين الرسمي: كثيرا مارسموا على الأختام الأورارتية شجرة ما وكان أحد هذه الأختام يمثل احتفالا بالشجرة.

كالديا أو امبراطورية بابل الجديدة

بعد ثلاثمائة عام من السيطرة الآشورية، استعادت بابل استقلالها في العـام ٦٢٦ق.م، في أيام ملك خالديا نبوبولسر. دامت الإمبراطورية التي أسسها حوالي ٩٠ عاما، حتىاحتلها الفرس في العام ٥٣٨.

القبائل الكالدية، وأصلها من الجزيرة العربية، تبدأ بالتغلغل في بابل فـي القـرن ١٢ وتستقر في مشاعات عشيرية، يتحول بعضها إلى مشاعات جوار. لم ينجز هذا التطور فـي أثناء تأسيس الامبراطورية الكالدية، لأن وثائق زمن ملوك آشوريا أساحدون وآشور بنبـال تثبت وجود هذين النوعين من المشاعات. وكان ممثلو النبلاء القبليون مؤتمنين في القصـر وفي جيش الملوك الكالديين. ويلاحظ أيضا في بابل، طيلة هذه الحقبة اختلاط بين عنـاصر مقيمة وأخرى راحلة، وهي سلالات القبائل المؤسسة على العشير.

كان الملوك يستندون إلى مشاعات الكالديين التي كانت لهم احتياطاً لقـوات مسـلحة وتشكل جمهرة المكلّفين. وفي الوقت ذاته، كانوا يبحثون عن مساندة كهنـة بـابل الذيـن يتمتعون بنفوذ كبير بين سكان مدينة بابل. وقد وجدت سلاطين كالديا، غير الراضيين عـن تجديد وتزيين المعابد التي كانت موجودة لدى قدومهم، جددوا عبـادة كثـير مـن الآلهـة المنسيين. وساندهم الكهنة، لأنهم مثل المرابين العلمانيين، كانوا واسعي الثورة فـي أيـام الدولة العسكرية الأشورية، وكانوا يأملون، منذ سقوط آشوريا، أن يروا عودة دولة مماثلـة في ظل الملوك الكالديين. كان "بيت" اجيبي آنئذ، في طليعة ممثلي رأس المـال المرابـي؛ ولابد من الاعتقاد أن "بيتاً كبيراً" آخر قد أسس آنئذ للربى، هو بيت موراشو، في نيبـور، الذي أرخت وثائقه المحفوظة حتى أيامنا في زمن لاحق. كان يدير العمليات المالية "للبيـت" رب الأسرة. وكما في الماضي، كانت العقود تهتم أولاً بالقمح. لكن المرابين كانوا يحوزون أيضاً أراض، حقولاً ومراعي مؤجرة للزراعة. وكانت أصابعهم الجشعة تعـري أعضـاء المشاعات وكذلك كان يفعل الجند. وكانوا يستخدمون كثيراً كمصدر للربح القنوات الملكيـة التي يستأجروها ويحملون تبعة تمتعهم بها في المحال المجاورة.

إن خصيصة العبودية في بابل، في العهد الكالدي، بقيت تقريباً كما هي في القرنيـن الثالث والثاني؛ كانت العبودية أساساً خدمية والاستعباد بسبب الديون كان عارضاً، والفـرق الوحيد هو في أن مدتها الشرعية لثلاث سنوات لم تكن تحترم دوماً وتستمر عقوبة المدينين

المعسرين حتى عشر سنوات في خدمة دائنيهم. ولاتلحظ التبدلات إلا فيما يخص عدد العبيد وطريقة استغلالهم. فقد وسعت حروب الفتوح التي شنها الملوك الكالديون عدد العبيد كثيراً وبسرعة كما الأمر في آشوريا. كان العبيد، هنا أيضاً، يعملون في الأملاك الملكية، في تشييد القصور والمعابد. وفي الاقتصاد الفردي، وجد مبدأ جديد: سمح للسادة بتشغيل العبيد لمصلحتهم الخاصة (بعامة في الصناعة والزراعة)، بشرط أن يدفعوا لهم كل سنة تعويضاً سمي '*mandattou*'. إليكم إجراءات العمل في الصناعة: يعلّم المرابي عبده مهنة ما ويعينه في فتح ورشة، على أن يّصرف له سنوياً "تعويضاً" نقدياً. وهكذا قد يغتني العبيد العائشون من هذا الأسلوب ويصيرون أحيانا مرابين بدورهم ويحوزون إمكانية التحرر. يدعي مستشرقون بورجوازيون أن بابل حوت آنئذ "مشاريع صناعية" ضخمة كانت تستخدم عبيدا. لكن هذا حديث تحكمي، لأن الوثائق لاتتحدث إلا عن المواد الأولية التي توزعها المعابد والمرابون على النساجين العاملين في بيتهم.

كان نضال العبيد يشتد بنسبة ازدياد عددهم. وتكاثر الهرب" يطلب مالكو العبيد من البائعين ضمانا ضد :تمرد وعدم طاعة" الذين اشتروهم.

أعظم ملك في الأسرة الكالدية هو خليفة نبوبولسر، نبختنصر الثاني (٦٠٤-٥٦٢). استعاد حروب الغزو، احتل سوريا، فلسطين وفينيقيا؛ لكن حملته إلى مصر فشلت. وبالأسلاب، الضرائب ومئات الأسرى تمكن من تجديد مركز بابل، الذي تضرر كثيرا في أيام سنحريب. فضلا عن هذا، بني في الضاحية الشمالية قصر استراحة شامخا. كان الشريان الرئيس للمدينة، المسمى "الطريق المقدس للانبثاق"، الذي يصل القصر بالمعابد، كان مزدانا بجدار مبني من الآجر ونحت عليه أسد، وثور وحيوانات أخرى ورموز مقدسة. عاشت بابل بعد أفول الامبراطورية الكالدية، وانتشرت شهرتها كأعظم مدن العالم أبعد بكثير من شهرة ميزوبوتاميا.

كانت نهاية الامبراطورية الكالدية بعيد موت نبختنصر. وتشكلت مكانها امبراطورية قوية، هي إمباطورية الفرس، في إيران في منتصف القرن الرابع. أخضع ملكها سيروس *Cyrus* ميديا وآشوريا التي كان قد غزاها. ثم مشى إلى بابل. جابهه ملك بابل، نبونيد، بجيشه، لكنه دحر وانهزم. وبعد أن صارت ملكا فارسيا (٥٣٨) فقدت بابل استقلالها إلى الأبد.

الفصل السابع عشر

إيـــران

البلاد والسكان

تقع الأرض التي بنيت عليها أول دولة من القبائل الإيرانية في شرق مابين النــهرين- ميزوبوتاميا. وهضبة إيران الواسعة التي تشغل منها القسم الأكبر، تحدها من الغرب سلسلة جبال زاغروس، وشمالا البحر الكاسبيني *Caspienne*، وجنوبا الخليج العربي، وشرقا، تمتد حتى الهند. والجبال التي تحيط الهضبة من كل جهة، بأنهارها المندفعة، ووديانها الجميلـــة وغاباتها الغنية الوافرة، توفر أراض صالحة للزراعة و تربية المواشي والطيــور، الأمــر الذي حدد العبور المبكر إلى عالم حياة الاستقرار. لكن التقدم إلى عمـــق الهضبـــة، يبـــدل الشروط فجأة، تختفي مجاري المياه والبحيرات، ويصير المناخ قاريا. في فصــــل الشـــتاء الطقس بارد جدا، وفصل الصيف قائظ، الأمطار نادرة، التربة جدبــــاء تقريبـــا، والقـــدرة الإنباتية بائسة.

إيران غنية بالمعادن النافعة. في مناطقـــها الجبليـــة، يســتخرج النحــاس، الحديـــد، الرصاص، الذهب، الفضة، الرخام الأبيض والملون، الحجارة الدقيقة، بخاصة الــــلازورد. الغابات التي تغطي الجبال غنية بالصنوبر، بالسنديان والحور، أي المواد التي توفر خــــير خشب للبناء. كانت سفوح زاغروس مغروسة بالأشجار المثمرة: تفاح، إجاص، ســـفرجل، الكرز، الدراق، وغيرها.وعلى الأرض المروية، تنجح زراعة الحبـــوب: شــعير، قمــح، والذرة البيضاء.

لقد أخذت تربية الدواجن بعدا كبيرا. وفي البقاع الغربية، كان التدجين مستقرا؛ وفـــي الشرق راحلا. تربي القبائل حيوانات ضخمة وصغيرة ذات قـــرون، وخيـــولا وجمـــالا. والغابات والسهوب الغنية بالطرائد خولت السكان الأصليين الاهتمام بالقنص.

في الأزمنة الغابرة، كانت هذه الأرض آهلة بقبائل من أصول مختلفة، تفكك نظامـــها

المشاعي البدائي. وكانت القبائل الشرقية تعيش من التدجين؛ وساكنو الشمال-الشرقي والغرب يحرثون الأرض. لم تكن الزراعة ممكنة إلا في حال تأمين نظام ري معقد. وكانت القبائل الرعوية الراحلة تهاجم غالبا الحراثين المقيمين. وبفعل حضارات الشرق الأدنى، تطورت القبائل الغربية تطورا مدهشا.

تدل التنقيبات التي جرت في جنوب شرق الهضبة الإيرانية في المدينة العيلامية سوز *Suse* وبرسبوليس (مدينة الفرس)، على تطور الحضارة المحلية منذ العصر الحجري الحديث. واستنادا إلى نصوص سومرية. تقول إن دولة عبودية تشكلت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في عيلام، في وديان قارون وقرقاح. وفي نهاية الألف الثالثة غزى العيلاميون مابين النهرين السفلى وأخضعوا شعبها. وليس سوى الملك البابلي حمورابي، موحد ما بين النهرين، تمكن من طردهم.

لقد عجل نمو القوى المنتجة -تقدم الزراعة، توسع صناعة النحاس والبرونز، انطلاق السيراميك والمهن الأخرى- عجل في الألفين الثالث والثاني التمايز الاجتماعي وأفرز أشكالا بدائية من العبودية، الأمر الذي نشط تفتح الحضارة. وفي الألف الثالثة، تظهر الكتابة السطرية، المشتقة من التصويرية. وتشهد آثار من الحضارة العيلامية أن الكتابة قد خضعت إلى نفوذ قوي سومري وأكادي.

. انتهازا للضعف البابلي، يحاول العيلاميون في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى، إلحاق ميزوبوتاميا مجددا.

في القرنين الثامن والسابع ق.م خاض الآشوريون ضد الإيرانيين صراعا مريرا؛ ولم تنهزم عيلام إلا في العام ٦٤٥، على يد آشوربنبال. لكن حتى بعد هذه الهزيمة، استمر شعبها يلعب دورا هاما في امبراطورية الفرس، كما تشهد حفريات حديثة لقصر ملكي في بيرسبوليس، حيث عثروا على عدة ألوف من الرقم العيلامية.

في آسيا الوسطى، على أرض خوارزم، سوجديان، باكريان ومرجيان (إقليم بينسير-داريا ومورغاب)، كان يعيش في الألفين الرابعة والثالثة قناصون وصيادون شبه-رحل، في مشاعات عشيرية. وقد كشفت تنقيبات الآثاريين السوفيات أن زراعة الأرض بالمنكاش، والتدجين وربما بداية التعدين يعود هنا إلى بداية الألف الثانية قبل الميلاد وأن حضارة هذه القبائل تمت إلى حضارة بعض قبائل كزخستان وسيبيريا وهضبة إيران.

في الألف الثانية، تعرضت هذه البلاد لتغلغل جماعات تتحدث بلغات إيرانية امتزجت على الأرجح بالرعايا الأصليين.

في بداية الألف الأولى، ولّد نمو القوى المنتجة (ظهور تعدين الحديد، إدارة مناهج واسعة في الري، وإتقان السيراميك)، ولد الفرق الاجتماعي، العبودية وتشكل دول العبودية البدائية في خوارزم وبكتريان.

في نهاية الألف الثانية، تغلغلت قبائل تتحدث بلغات هندو–إيرانية في إيران (ربما أتت من آسيا الوسطى). ألحقت السكان الأصليين وفرضت عليهم ضريبة، وهي تمتزج بهم. كان هؤلاء القادمون الجدد يمارسون أساسا تربية الدواجن.

"أفستا *Avesta*"، الكتاب المقدس للإيرانيين القدماء، يعطينا فكرة عن نظامهم الاجتماعي. كان العشير الامومي آنئذ يتفكك, وكانت تتشكل أسرة تحت سيطرة الأب. والمشاعات المبنية على العشير تجمعت في قبائل، كونت بدورها اتحادات يرأسها شيخ منتخب. وفي هذه الحقبة يتميز انقسام المجتمع إلى طبقات. ويشغل نبلاء الدم والكهنة، مالكو القطعان الغفيرة، موقعا متميزا: يقود ممثلوهم المشاعات العائلية، العشير، القبائل والاتحادات القبلية. وكانت العبودية قد ظهرت، لكنها طيلة هذه الحقبة لم تكن متطورة ومن طبيعة أبوية.

مملكة ميديا

بدءا من القرن التاسع، تذكر الحوليات الآشورية غالبا أسماء مجموعتين من القبائل الإيرانية: الميديون والفرس. كان الأولون يسكنون شمال غرب هضبة إيران، في جنوب الغاسبيان. والمعطيات الوجيزة في الوثائق الآشورية وأنباء هيرودوت تمنحنا الافتراض أن الميديين كانوا في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد في وضع تفكك نظام العشير. فكان الفرعان الرئيسان في الاقتصاد هما الزراعة والتدجين، بينما كانت الحرف تبدأ بالتطور.

كان الميديون يجيدون العمل بالنحاس، البرونز، الذهب والالكتروم (خليطة من الذهب والفضة). والمنقوشات الكتابية الآشورية تتحدث عن حروب ضد الميديين وأسر العديد من المهنيين، وتحويلهم إلى عبيد. وكان الميديون، الشهيرون بتربية الخيول، استخدموا منذ زمن غابر العربة ذات العجلة الدائرية.

تأخذ العبودية عندهم شيئا فشيئا دورا أوسع. وتقدمهم وتطورهم على القبائل الإيرانية

الأخرى، يرجع إلى اتصالهم بآشوريا وعيلام والطريق التجاري الرحب الذي يصل ميزوبوتاميا بالهند عبر زاغروس.

التاريخ السياسي الميدي مكتوب مجدداً إلى حد ما استناداً إلى الأنباء شبه الخرافية التي دونها هيرودوت وإلى النصوص الآشورية. يقص هيرودوت أن دجوسيه ***De'joee's*** جمع في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد تحت سلطته القبائل الميدية وأسس مملكة ميديا. هذه الصورة أيدتها جزئياً الحوليات الآشورية التي تذكر شخصاً اسمه دجأوككو. وفي أثناء القرنين الثامن والسابع، تعرضت ميديا لعدة غزوات على يد الآشوريين ووقعت في قبضتهم إلى هذا الحد أو ذاك. وأمام التصدع الآشوري في نهاية القرن السابع، خاض الميديون معهم عدة حملات.وهكذا في العام ٦٢٥، شن الملك فرأورتس، الذي جمع كل القبائل الميدية في دولةواحدة، شن على الآشوريين حربا انتهت بهزيمة وموت فأورتس، بسبب المساعدة التي تلقاها الآشوريون من قبائل السيث التي تدخلت فجأة.

رد ابن فرأورتس، سياخار (٦٢٥–٥٨٥) هجوم السيثيين ونظم جيشه. والميليشيا الميدية التي تقاتل عشوائيا، صنفت حسب السلاح (قذيفة، سهم، مقلاع)، وأخذ كل سلاح حيزه المحدد في المعركة.

حالف سياخار ملك بابل نبختنصر، واعتبر عدوه الأول آشوريا. ومن ٦١٢–٦٠٥، وجهت القوات المتحالفة من الميدين والبابليين إلى آشوريا ضربة قاصمة. وبدمار نينيفيا أنجز انهيار الإمبراطورية الآشورية. ومن ثم احتل سياخار فارس، أورارتو وكبادوس. واصطدم هجوم الميديين اللاحق باتجاه الغرب، في آسيا الصغرى، بمقاومة ضارية من ملوك ليديا ***Lydia***، الدولة القوية، الواقعة في غرب نهر حاليس ***Halys***. وفي ٢٨أيلو ٥٨٥، توقف القتال بين الميديين والليديين بسبب كسوف الشمس الذي توقعه، كما يقول الإغريقيون، الفيلسوف تالس ***Thales***. وبعد أن كفت النزاعات، عقد سيخار صلحا مع ملك ليديا ألياتس. واعتبر نهر حاليس حدا فاصا بين المملكتين.

تابع خليفة سياخار، أستياج ***Astyage*** (٥٨٥–٥٥٠)، سياسة التوسع. لم يستطع أن يحتل آسيا الصغرى، فبعث قواته لغزو ميزوبوتاميا وشمال وسوريا. يترافق ملكه مع أوج مملكة الميديين، الذين تمتد أراضيهم الواسعة من أواسط هضبة إيران حتى ضفاف حاليس، إلى سوريا والخليج العربي.

أمبراطورية الفرس، غزو سيرس وقمبيز

أوقفت قبائل فارس توسع مملكة الميديين. فالحوليات الآشورية، كما أشـــرنا أعـــلاه، أشارت إلى الفرس منذ القرن التاسع قبل الميلاد. كانت هذه القبائل تقرب الميدين. وعلـــى الأرجح بعد سحق عيلام على يد الآشوريين، تقدمت من الشمال في المناطق التـــي تتـــاخم الخليج العربي. كان تطورهم أقل مستوى من الميديين. وفي ٥٥٨، اتحـــد الفـــرس ضـــد الميديين بقيادة سيرس الثاني (ذكر قائد القبائل الفارسية سيرس الأول في حوليـــات آشـــور بنبال). فيكون سيرس مؤسس مملكة جديدة، تسجل ولادتها تحولا في تاريخ الشرق القديم.

وفي ٥٥٣ تمشي قوات سيرس إلى مسديا. يدوم الصراع ثلاث سنوات وينتهي فـــي ٥٥٠ بنصر الفرس. ساهمت أرستقراطية جيش أستياج إلى حد بعيد بهذه الهزيمة، لأنـــها خانت ملكها وحتى سلمته لسيرس. احتل هذا الأخير عاصمة أستياج عقبتان ***Ecboutana***و، كما تقول حولية نبنيد، استولوا على "الفضة، الذهب، وكل ثروة عقبتان. وصارت ميديا من الآن جزءاً من أمبراطورية الفرس. ولقد عجل انتصار سيرس باختفاء بقايا النظام المشاعي البدائي لدى القبائل الفارسية. واحتد انقسام المجتمع إلى طبقات. وحرض الغزو العبوديـــة. وكان على رأس الدولة ملك خضعت له كل القبائل الإيرانية.

يجاهد سيرس وأرســـتقراطيته، المتلـــهفون للأســـلاب والغنـــائم، لتوســـيع حـــدود الأمبراطورية. ونتيجة الحملات بقيادة سيرس، ألحقت إيران، المتخلفة مـــن وجهـــة نظـــر الاقتصـاد والمأهولة أساسا بقبائل رعوية، ألحقت دولا أرقى حضارة منها لكنها تصدعت في نهاية القرن السابع وبداية القرن السادس جراء الحروب الخارجية والصراع الاجتمـــاعي. فضلا عن هذا، كانت أوساط التجار والمرابين في بابل، آشوريا، فينيقيا وبلدان أخرى تـرى مصلحتها في أن لايكون في الشرق الأدنى سوى امبراطورية واحدة، بحكومة قوية لكبـــح التمردات الشعبية، وتقوية الاقتصاد وتطوير التجارة الدولية. وكان تجديد وتنظيـــم جيـــش الفرس. ويحتل سيرس بسرعة أرمينيا وكبادوس؛ وفي ٥٤٦ اكتسح ليديا واســـتولى علـــى ثروات لاتحصى من كريزوس ***Cre'sus***، مكدسة في ســـاردس ***Sardes***، عاصمـــة هـــذه المملكة. بعيد هذا، أخضع سيرس كل آسيا الصغرى تقريبا، بما فيها المدن اليونانيـــة فـــي جنوب بحر إيجة. وألزم الكل بدفع الضريبة.

بعد أن حاصر ميزوبوتاميا في الشرق، في الشمال وفي الغرب وطوق كل الـــدروب

التجارية، تمكن سيرس أن يفكر بإلحاق عدوه الرئيس، بابل الكلدانية. وأنجزت المهمة بدون عقبات كأداء. فالأرستقراطية، الكهنة، التجار والمرابون البابليون فتحوا الأبواب أمام الجيش الفارسي؛ كانوا يأملون في توسيع أعمالهم التجارية والمالية في إمبراطورية جديدة أوسع من إمبراطوريتهم. دخل سيرس بابل في العام ٥٣٨، أباد آخر فلول الأسرة المالكة وأعلن نفسه ملكاً على بابل. ونشر بهذه المناسبة بياناً وصلنا نصه المحفوظ حتى اليوم وفيه يعد بالحفاظ على النظام القائم في بابل، واحترام آلهتها، ودعم تطوير المدينة.

كان دور مصر قد أتى، مصر التي قد يخلق فتحها من سيرس سيد الشرق الأدنى كله. لكنه قبل أن يبدأ حملة ضد هذا البلد، مشى نحو الشمال الشرقي لكي يوطد هيمنة فارس السياسية. لكن قبائل الساسيين والماساجيت الذين يعيشون حياة ترحال في سهوب آسيا الوسطى قاوموه ببطولة. وقتل سيرس في إحدى المعارك في العام٥٢٩.

تلاه ابنه قمبيز. ورغبة في إرضاء شهوات الأرستقراطية الفارسية، التي تلتقي مع رغبات الأوساط التجارية والمرابية في البلدان المغزوة، كوّن هذا العاهل أهدافاً أوسع جشعاً من سلفه: كان يبغي بسط سلطته على القسم الأعظم من حوض البحر المتوسط، حتى قرطاجة. دونت حربه ضد مصر بنصوص إغريقية ومصرية. وفي٥٢٥، هزم قمبيز، المدعوم بجيش بري قوي، وأسطول وضعه تحت إمرته الفينيقيون، القبارصة والساميون هزم المصريين في بيلوز. وبعد أن احتل البلد وكبح بالحديد كل مقاومة مصرية دفاعاً عن حريتهم، أرسل قمبيز عدة حملات بهدف فتح قرطاجة وأثيوبيا، اللتين كانت ثرواتها خيالية. لكنه فشل هذه المرة. وفي أثناء إحدى هذه المعارك انتفضت مصر ضد السيطرة الفارسية. أباد قمبيز التمرد، وقضى على آخر فراعنة الأسرة السادسة والعشرين، بسامتيك الثالث في المذبحة. كانت الامبراطورية الواسعة الناجمة عن فتوح سيرس وقمبيز غير مستقرة وعارضة، لأن القبائل والشعوب التي تشكل جزءاً منها كانت تعيش في عزلة، دون روابط اقتصادية متينة ولا لغة مشتركة.

تمرد الـ"مجوس" وفتوح داريوس الأول، ابن حستاسب.

كانت الحروب المستمرة التي تتطلب جهودا جبارة من كل قوى البلاد، تغضب جماهير إيران ذاتها والمناطق المغزوة. أفاد بعض النبلاء والكهنة، المعادين لمركزه السلطة الملكية من هذا الوضع. وبينما كان قمبيز يقود حملاته باتجاه الجنوب، نشب تمرد قبائل

إيرانية في ميديا؛ امتد التمرد إلى كل البلدان التي احتلها الفرس وربما أدى هذا التمرد وغيره إلى تفكك الامبراطورية. وكان موجهو التمرد هم كهنة ميديين -الـ"مجوس"- وبعض عناصر نبلاء الدم. وعلى رأس الحركة، كان المجوسي غوماتا المدعي بأنه أمير بارديا، أخ قمبيز. لكن قمبيز، وهو يستعد للحرب، قتل هذا الأخ الأصغرخشية أن يحتل العرش في غيابه. كان الهدف الرئيس للتمرد كما يبدو إعادة السلطة إلى الميديين وإضعاف نفوذ الفرس.

وضع قمبيز في الصورة، فمشى إلى ميديا بغية تسوية الحساب مع المتمردين، لكنه مات في الطريق (٥٢٣). وبقيت ظروف موته غامضة.

اضطلع بالمهمة أحد أعضاء الأسرة المالكة الأشمنيد، داريوس الأول، ابن حيستاسب (٥٢١-٤٨٦). وبعد أن هزم المجوس في ميديا وأعدم برديا المدعي، اضطر لشن هجوم ضارٍ ضد حركات انفصالية وتحررية نشبت في كل أرجاء مورغاب في تركمانيا) ونشب في ٥٢٢ تمرد شرس يبدو أن كل الشعب اشترك فيه. أبيد بأمر من داريس، بوحشية فريدة، لأن طبيعته الوطنية جعلته في نظر الفرس أخطر من العصيانات الانفصالية. دوّن داريس هذه الأحداث على صخرة شهيرة في بحستون ***Be'histoun***.

باشر داريس، الوالغ بدم المتمردين الانفصاليين والانتفاضات الشعبية، اصلاحات هامة بغيةتوطيد أركان الدولة، وسحق في البيضة التوجهات الانفصالية وساهم في تطوير الزراعة، والمهن والتجارة.

امبراطورية داريس

قسم العاهل امبراطوريته إلى محافظات سميت سترابيس ***Satrapios***، يختلف عددها حسب المناهل (٢٠وأكثر). والأرض، المعتبرة ملكا للملك، كانت بتصرف المشاعات التي تعمل بها تضم المحافظة منطقة تشكلت عبر التاريخ وسكنتها جماعة عرقية محددة. على رأس المحافظة حاكم، يسميه الملك، يقبض على السلطتين التنفيذية والقضائية، لكن كثيرا من المحافظات حافظت عل حاكمها الأصلي -ابن البلد- الذي يدير الشؤون الداخلية جزئيا ويبقى مرتبطا بالحاكم. ويمسك داريس بيديه عادة في المحافظات الأشكال المحلية الإدارية والقضائية، والعبادة، لأن لايغضب الأهالي بالاعتداء على تقاليدهم. عدا الحاكم، يسمى في كل محافظة قائد حامية يرتبط مباشرة بالسلطات المركزية. كان هذا، من جهة، لتوطيد

رقابة الموظفين المكلفين بتقديم تقرير عن زملائهم ومن جهة أخرى، الحذر من أي تدبير انفصالي من قبل الحكام والقادة العسكريين الجشعين. وخلق داريس شبكة واسعة من الجواسيس يراقب عناصرها الحكام والرؤساء.

كانت المحافظات تدفع ضريبة نوعية أو طبيعية أو الاثنتين. يبلغ الدخل السنوي الذي يجمعه داريس من المحافظات حوالي ١٤٥٦٠تالان١. تمون مصر فقط بالقمح ١٢٠٠٠٠ محارب فارسي.

ومن أجل تطوير التجارة وتمتين الوشائج بين المحافظات، وكذلك الأهداف الاستراتيجية، شرع ببناء طرق واسعة. كان أهمها "الطريق الملكي من أفيز حتى سوز، الذي يجتاز دجلة والفرات وطوله حوالي ٢٤٠٠كم. وطريق آخر يصل بابل بالهند. كانت الطرقات موضع عناية وصيانة دائمة. كل ٢٠كم، أقيمت محطة تبديل وبريد وخانات. ثمة نص منحوت لداريس يتحدث عن فتح قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر، حفرت بأمر من الملكة المصرية حاتشبسوت. ولقد أنجز داريوس إصلاحا نقديا بهدف استقرار المبادلات وتسوية الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الفارسية. صكوا نقدا وحيدا، سموه "داريك *Darique*". يحق للملك وحده أن يصكها. ومن حق الحكام صك القطع الفضية والنحاسية، وأعطي هذا من الحق للولاة أبناء البلد.وتوجهات داريس في المركزة اتضحت تماما في إصلاحه العسكري. فقد حدد شخصيا عدد القوات في كل محافظة وفي كل حامية، وكان هو يعين عناصر كل سلاح (رامي مقلاع، سهام، خيال وسواه) في الحامية. في الجيوش والحاميات، كان الفرس يشكلون النواة فقط، بينما كانت القاعدة الواسعة من الجند الذين يجندون من ممثلي مختلف القبائل والرعايا. وبعامة، كان الفرس يتمتعون بامتيازات في كل الامبراطورية. وكانت قبائلهم المهتمة أساسا، عدا الخدمة العسكرية، بالزراعة والتدجين، معفية من الضرائب والسخرة.

ولقد أفضت إصلاحات داريس الأول العسكرية والإدارية ووجود العديد من المراكز الاقتصادية الكبرى، أفضت إلى تطوير التجارة الداخلية، والخارجية العابرة، التي كانت مراكزها مدن الشرق الرئيسة، بخاصة بابل. حيث شكلوا رابطات سرقة الشعب

---

[١] - وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧كغ، أو وزن تالان ذهبا أو فضة.

المشروعة. تمول مصارفهم بفوائد باهظة الأوساط القائدة وحتى محافظات الامبراطورية الفارسية كلها. وكان التجار والمرابون، الذين يجنون مكاسب خيالية من استئجار المزارع والتجارة، يدعمون داريس الأول في مشاريعه العدوانية الضخمة وإصلاحاته الداخلية.

انحطاط الأمبراطورية الفارسية

وهو ينظم الحكم، كان داريس يتابع توسيع إمبراطوريته. في الغرب، بإفريقيا، ضم سرنيد وبرقة؛ في الشرق، ثبت حدودا على طول الهند؛ في الشمال، غزا عدة أمصار من آسيا الوسطى: خوارزم، سوجديان، بكتريان وغيرها. وصارت محافظة بكتريان مركز الأملاك الشرقية للفرس. كان يحكمها بعامة أحد اقرباء السلطان. تقول أبحاث س.تولستوف أن دولة عبودية تشكلت بين القرنين الثامن والسادس في خوارزم، في جنوب بحو الأورال و،إلى الجنوب قليلا، مملكة سوجديان، تابعة للأولى؛ وولدت أيضا في بكتريان ومرجيان تشكيلات سياسية. والحاضرات الشاسعة ومنشآت الري الضخمة في خوارزم، التي كشفها المنقبون السوفيات، هي الشواهد الخرساء على العظمة الآفلة لهذه الدولة. كان أساس اقتصادها آنئذ، الزراعة المروية. ورغم أن الامبراطورية الفارسية كانت في ذروة مجدها، وشملت خوارزم، سوجديان، بكتريان ومرجيان، لم تكن علاقة خوارزم بها إلا إسمية، لأن ملوكها كانوا جزءا من الاتحاد العتيد بين القبائل الرحل من السيس والمسجيت. كان هذا الإتحاد على رأس القبائل الفارسية التي، لتأكيد نفوذها في آسيا الوسطى، شنوا الحرب على قبائل شواطيء الأورال. شرع سيرس في ٥٢٩ وداريس الأول في ٥١٧ حملات ضد الساس والمسجيت، التي انتهت إجمالا بالفشل، على أن داريس، في منحوتته في بحستون، يتكلم عن أسر ملك الساس. وفي ٥١٣، أرسل داريس حملة لشق طريق جديد نحو أمصاره في آسيا الوسطى ويهاجم المسجيت من الغرب. لكن هذا كان فشلا ذريعا. وقد سعت القبائل السيثية وقد حصلت على حريتها إلى تكتيك حرب المقاومة: جذبت كواكب خيالتها الجيش الفارسي إلى سهب غير مسكون، مدمرة كل شيء في طريقها. وقد يئس داريس من ملاقاة العدو في معركة نظامية والمرض يفتك بقواته، ونقص التموين والصدامات، طوى لجام حصانه إلى آسيا الصغرى. وفيما بعد، نجح بالمقابل، بفتح تراس *Thrace*، مسدوان وجزر في بحر إيجة.

وفي بداية القرن الخامس، يحاول الفرس إخضاع اليونان القارية. لكن دول اليونان

الصغرى واجهت المعتدين بمقاومة ضارية، وكبدتـــهم خســـائر كبـــيرة وحـــافظت علـــى استقلالها. وفي٤٩٠ قبل الميلاد، انزلوا هزيمة منكرة بالفرس الذين أبحروا إلى المراتـــون. وبعد عشر من السنين، في ٤٨٠، لقي ابن داريسن، خرخس (٤٨٦-٤٦٥)، مصرعه قرب جزيرة سلامين. ولم يعد الفرس دولة لاتقهر. وقواته غير المتجانسة، مهما كانت جـــرارة، لن تستطيع القضاء على فصائل يونانية صغيرة تحدوها إرادة الدفاع عن أرض الوطن ضد الدخلاء. كانت جيوش سيرس وقمبيز قوية بوحدتها، بمصالحها المشتركة. لكـــن جيـــوش أحلافهم، المكونة بخاصة من ممثلي الشعوب الخاضعة، لم تكن مبالية بفتوحـــات الفـــرس، ولابتوطيد دولتهم. في أيام حكم أرتخرخس (٤٦٥-٤٢٥) وداريس الثـــاني (٤٢٠-٤٠٥) تفاقمت التناحرات بين الارستقراطية العسكرية والإدارة الفارسية وشعوب الأقاليم الملحقـــة. فالضرائب الباهظة، والسخرات الثقيلة، وتعسفات مستأجري المزارع العامة ألـــهبت الغـــل على الفرس، فضلا عن ضعف الجيش متعدد العناصر. وهكذا فككت مؤامـــرات القصـــر، والاضطرابات، وتمرد المحافظات الانفصالي وتعسفات الموظفين، فككت دولة الإشـــمنيد. تصدى أرتخرخس الثاني (٤٠٤-٣٥٩) لبعض الوقت لموقف الفرس في حوض بحر إيجـــة بواسطة صلح سمي :أنتلسيدس" عقد في ٣٨٧ مع إسبارطة، لكنه اضطـــر فـــي المنـــاطق الأخرى من الامبراطورية إلى كبح العصيانات والإضرابات. وفي ٤٠٥، في بداية حكمـــه، تنفصل مصر عن الفرس وتدافع عن استقلالها خلال ٦٥ عاما (حتى العـــام ٣٤٠). وفـــي العام ٤٠١، تمرد أخ أرتخرخس الثاني، سيرس الابن، حاكم فريجي وكبـــادوس الكـــبرى، تمرد ليحتل العرش. لكنه فشل وقتل في معركة كوناخا *Counaxa*.

ويتسارع تفكك الامبراطورية الفارســـية. ارتخرخـــس الثـــالث (٣٥٩-٣٣٨) يكبـــح بصعوبة انتفاضة في مصر، في فينيقيا وفي قبرص؛ وفي أيـــام داريـــس الثـــالث (٣٣٨-٣٣٠)، سقطت امبراطورية الأشمنيد تحـــت ضربـــات دولـــة جديـــدة عبوديـــة، أسســـها المقدونيون. سنبحث بالتفصيل ظروف هذا الانهيار في الفصول الآتية.

حضارة ودين إيران

كمصادر لدراسة دين شعوب آسيا الوسطى وإيران، لدينـــا الكتـــاب المقـــدس أفســـتا *Avesta*، وكتابات هيرودوت وبلوتارك وبعض الكتابات المنقوشة عن أيام أشـــمنيد. كـــان الدين الإيراني يعكس عز الإنسان في صراعه مع الطبيعة. وكانت القبائل تعبد الحيوانـــات

المقدسة، مثلا، الكلب، والثور. إن هذا النوع من العبادة التي يمارسها الإيرانيون والشعوب الأخرى هي بقايا من الطوطمية. أما الآلهة الرئيسيون، كانت تجسد قوى الطبيعة. وكانت العباداتالأكثر انتشارا هي الأرض، السماء، الماء، النار، هذه الأخيرة مرتبطة بمتانة بعبادة القبائل الإيرانية لأحورامازدا (أرموزد بالإغريقية).

دور هام يعود للنجوم، بخاصة الشمس، يجسدها الإله ميثرا ***Mithra***. عبادة ميثرا مرتبطة بالزراعة وتربية الأنعام. وكرمز للقوى المنتجة في الطبيعة، تصير ميثرا حامية الموتى وإله الحرب. والدين الإيراني القديم يجهل المعابد. التعبد -صلوات وأضاحي- كانت في الأمكنة المناسبة.

مؤخرا أولي اهتمام كبير لعبادة الدولة المبنية، حسسب الخرافة ، بأمر زرثوسرا (بالإغريقية زوروواستر، ومنه اسم زوروواستريم، المعطى للدين). كثير من العلماء يرون أن زوروواستريم ولد في آسيا الوسطى، أو بالأصح في خوارزم. كان ذا طبيعة مزدوجة. تقول نظريته أن أحوارامازدا، إله النور والرزق، في صراع أبدي مع أحرمان، إله الظلمات والشر. الأول يعلم الناس الفضائل والنظام، الزراعة والمهن؛ ويبذر الثاني في كل مكان الشر والاضطرابات والبلبلات. فكل مؤمن ملزم إذن بتوطيد قوانين أحورامازدا، أن يعيش في الرحمة، يطيع الملوك، يمارس بحماس الزراعة والتدجين، فيكافأ بعد نصر أحورامازدا.

تعبر هذه الثنائية بوضوح عن المنحى الاجتماعي والسياسي للأغنياء الذيم يسعون أبدا إلى تشريع تفوقهم على جماهير الكادحين الغفيرة، بتقديم هذه المقولة كتجسيد لمبدأ "النور والالتصاق والانسجام". لذا ينص الدين على الخضوع المطلق للسلطة الملكية والعمل المطيع كمصلحة الشرائح المهيمنة.

نستطيع أن نكون فكرة عن الفن الإيراني القديم استنادا إلى الآثار والنقوش والمنحوتات. فنماذج العمارة الرائعة الواصلة إلينا، مثل أطلال القصر الملكي في سوز والقاعة ذات المائة عمود في قصر برسبوليس، تدل أن هذا الفن، مابقي قومياً-وطنيا، كان يستلهم أعمال شعوب أرقى، غزاها الفرس. مثلا فكرة القصر ذي المائة عمود مقتبسة من مصر، وطنف قناطر سوز-من آشوريا، وبناء قصر على أرض منبسطة وتزيينها بالنقوش والزخارف-من آسيا الصغرى. لكنه بمجمله، فن أصيل له شخصيته الخاصة ومحياه

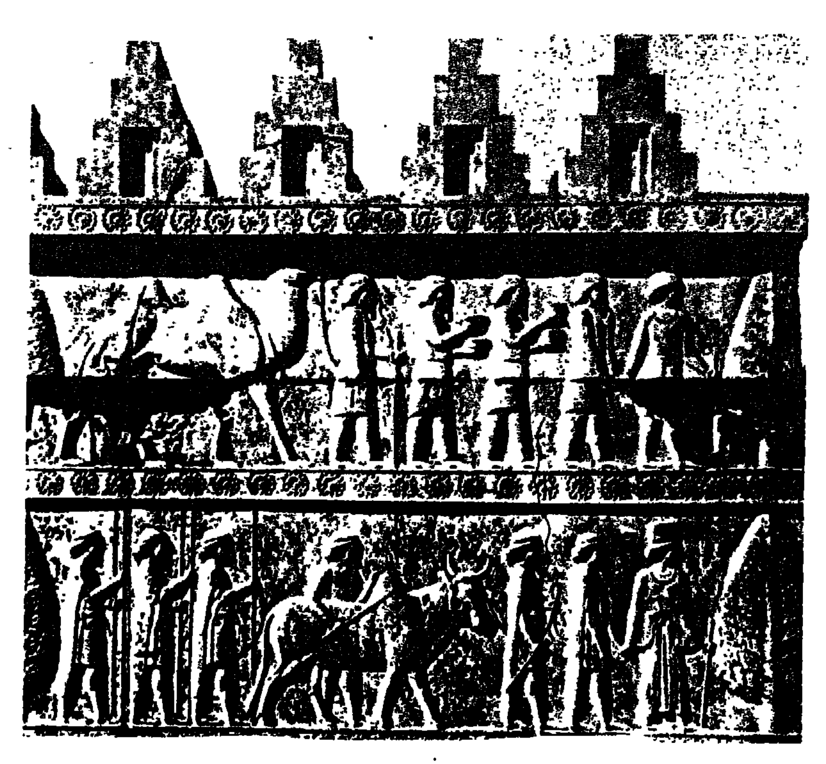
المتميز. ومدونات داريوس الأول-النحتية أو الكتابية تقص أنها بنيت بيد الأسرى الأيونيين، المصريين، البابليين، الليديين وسواهم. وفي صروحهم الشـامخة، يعـرض طغـاة أسـر الأشمنيد عظمة وغنى أمبراطوريتهم.

لم تترك لنا مصر القديمة أي أثر أدبي، سوى بعض المدونات المختصرة والوثـائق على الرقم الفخارية أو الآجرية، فمن الصعب تصور ماذا كان الادب الإيراني. بل يمكـن فقط الافتراض أنه تطور بتأثير النماذج التي أبدعتها شعوب آسـيا الصغـرى والشـرق-الأدنى. فالكتابة المسمارية التي استعملها الأشمنيد على الأرجح منذ سيرس، تصـدر مـن ميزوبوتاميا. وقد استخدمت أيضا بالمدونات الملكية الرسمية. أما أغلـب نصـوص عـهد داريس، فهي بالأرمنية. والتقويم الإيراني، الذي جدده كله تقريبا البـاحثون، يشـهد، هـو الآخر، على التأثير البابلي.

والقليل المعروف من حضارة الأشمنيد، يثبت الانتقائية. تعلل هذ الطبيعة العسـكرية للدولة ذاتها، التي تجني باللصوصية المنجزات الثقافية للشعوب الأخرى. لكن في الوقـت ذاته، عملت أمبراطورية فارس على تقريب وتفاهم الحضارات الشرقية وحضارات العـهود القديمة الكلاسيكية، التي اغتنت بهذه اللقاءات.



من مشاهد الصيد



جدارية على جدار أحد قصور الإمبراطورية الفارسية

الفصل الثامن عشر

الهند

البلد والشعب

بعكس مصر وما بين النهرين، تتميز الهند بتنوع وتعقد شروطها الطبيعية.

تقع الهند في آسيا الجنوبية. تقسم إلى منطقتين واضحتين: الشمال والجنوب. تشغل الأولى شبه جزيرة ديكان (هندوستان)؛ وتقع الثانية في اليابسة. تنفصل الهند عن البلدان الأخرى بجبال منها هملايا، أعلى سلسلة في العالم، وبالبحار التي تعرقل اتصالها بالشعوب الأخرى.

ولما كان مناخ الهند حاراً، كانت العوامل الرئيسة في حياتها الاقتصادية قضية الماء. الصيف (تموز–آب) الفصل المطير، أمر يساعد الزراعة، لكن التبدلات المناخية غير متساوية أبداً: في الشمال الشرقي وفي الجنوب الهواطل غزيرة جداً، وفي الشمال الغربي وداخل البلاد تقل، وفي كثير من الأمكنة، لاتكفي للأعمال الزراعية، الأمر الذي يفرض الري بالآلة.

إن شبكة الهند النهرية كثيفة؛ لكن أغلب الأنهار تمتاز بصبيب غير منتظم، وبالتهور والاندماج في مجاري ضيقة؛ فقط نهرا الهندوس والغانج (وروافدهما) لهما عبر التاريخ أهمية اقتصادية. ولم تستخدم مجاري المياه الأخرى بالري ولا بالنقل.كانت الحواجز الطبيعية (الجبال والغابات الكثيفة) تحول دون اتصال شعوب الهند فيما بينها، فتتابع تطورها بإيقاع متنوع وبأشكال متباينة جداً. وحتى من الوجهة البدنية، تتفرد شعوب مختلف أقاليم الهند بشدة بعضها عن بعض. والألسنة مختلفة هي الأخرى، أغلبها من عائلتين لغويتين: أندو–أوربية والدراويدية[1]. يتكلم بلغات المجموعة الأولى شعوب الشمال أساساً،

---

[1] – نسبة إلى شعوب الدراويد الساكنة شمال الهند.

وينطق بلغات المجموعة الثانية شعوب الجنوب. ويرجع اقتراب لهجة شعوب شمال الهند من شعوب خارج الحدود إلى هجرة شعوب الهند التي تتكلم لغات أندو-أوربية. وشعوب شمال غرب الهند، المسماة بالـ"الآريين" معتبرون عادة دخلاء.

لكن العالم العلمي لم يحدد بعد حقبة دخولهم البلاد، أو أصلهم، ولا طبيعة دخولهم.

حضارة هارابا *Harappa*

الهند مأهولة منذ أبعد الأزمان. وهي واحدة من أقدم مواطيء الحضارة.

فمنذ الألف الثالثة، ازدهرت حضارة عظيمة في شمال-غرب البلاد، في وادي نهر الهندوس. في هذه الحقبة تقريبا، مارس الهنود الزراعة والتدجين وبدأوا العمل بالمعادن. الأمر الذي خولهم استثمار الأرض على أبعد نطاق.

كان الناس يبذرون الحبوب (شعير،قمح)، والزراعات السبخة (البطيخ)، والأشجار المثمرة (البلح)؛ وكان الهنود أول من أنبت القطن. منذ الألف الرابعة او الخامسة، كان مناخ وادي نهر الهندوس أكثر رطوبة بحيث تستطيع الحبوب النماء في أرض غير مروية. فضلا عن هذا، كانوا يستنبتون طبعا تربة غرينية تروى في أيام الفيضان. ربما كانت السقاية موجودة، لكن ليس لدينا براهين لا تدحض. وكان تدجين الدواب (الخراف، الجاموس، الدرباني[٢]، الخنزير، وغيرها) يلعب في الاقتصاد دورا ثمينا.

في نهاية الألف الثالثة وبداية الألف الثانية قبل الميلاد (أي في أيام أوج انطلاقة حضارة الهارابا كما يبدو)، كان الهنود يعرفون صناعة البرونز؛ ومن هذا المعدن صنعوا أدوات عمل (مناجل، بلطات، أزاميل، مناشير)، وأسلحة (خناجر، سهام وقذائف)، وأوعية منزلية (سكاكين، صحون، آلات حلاقة، ومرايا). وفروع أخرى صناعية (خيوط نسيج، صناعة القرميد، الفخار، الذهب والمجوهرات، إلخ) بلغت مستوى رفيعا. وكمية كبيرة من الأوزان، الأختام وأغراض متنوعة مصنوعة من مواد أولية مستوردة، تشهد على علاقات تجارية مع مناطق أخرى من الهند، ومع الأجانب.

ولقد كشفوا أكثر من ٢٠٠٠خاتم بأحرف هيروغليفية. المؤسف أن هذه الكتابة، رغم الجهود العلمية، لم تحل رموزها بعد.

---

[٢] - حيوان ضرعي ذو سنام من الفصيلة البقرية.

كانت المراكز الرئيسة لحضارة هارابا. كما عثروا على خرائب عشرات المدن التي عاشت وبادت في وادي نهر الهندوس منذ ٤٠٠٠عام. كانت هارابا أشهر المدن (التي أعطت اسمها لما سمي حضارة) وكذلك موهاندجو-دارو. كانت هذه الحاضرات العظيمة التي يعد سكانها عشرات الألوف ، كانت تمتد على ضفاف الأنهار وتسود الإقليم المحيط. كانت شوارعها مستقيمة وعمودية على بعضها البعض. وكانت بيوتها ذات الطابق الواحد أو الطابقين مبنية بالقرميد المشوي وتقدم من الخارج منظرا متواضعا ورتيبا، إنما لا تنقصه الراحة: وكان ثمة محلات خاصة بالغسل والوضوء، وتمديدات مياه بسيطة، تشكل جزءا من شبكة المدينة، رائعة بالنسبة لعصرها. وبعيدا عن مركز المدن، أقاموا حصونا تتضمن هياكل التعبد والإدارة، وأهرامات الحبوب، والطواحين وحتى مساكن للعمال.

تمكننا المعطيات التي بين يدينا من افتراض وجود، في وادي نهر الهندوس، منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، المجتمع العبودي الذي، من حيث مستوى ثقافته، لم يكن يتخلف في شيء عن مجتمعات ذلك العهد فيما بين النهرين ومصر.

حول منتصف الألف الثانية قبل الميلاد، بدأت هذه الحضارة تتراجع؛ وغادر السكان مدينتي هارابا وموهاندجو-دارو. وباختصار، دمرت حضارة هارابا دمرت بأيدي معتدين أندو-أروبيين، الآريين، الذين دخلوا الهند من الشمال الغربي. لكن البراهين غير كافية حتى الآن لتأكيد هذا الرأي. على هذا، لم تدمر حضارة هارابا دمارا تاما، وهي ما تزال مرتبطة بقوة بحضارة المحطات التالية.

. الهند في منتصف الألف الثانية حتى منتصف الألف الأولى قبل الميلاد

لدراسة الحقبة الماضية لم يكن لدينا إلا آثار مادية، لكننا نملك الآن مدونات: إنها بخاصة نصوص استلهام ديني (الفيدا) وقصائد ملحمية (ماهابها راتا وراماياانا). إننا لا نلمس أي رابط مباشر بين هذين العهدين التاريخيين. على هذا، تخص معطيات المناهل الأدبية مناطق أخرى: وادي الغانج الأعلى وملتقيات هملايا.

في هذا العصر انتقلت الهند إلى عهد الحديد. باستخدام أدوات من حديد متينة ومريحة، يمكن التوجه بجرأة إلى استصلاح الغابات والأدغال وحراثة التربة الأقسى؛ وفي ذات الوقت، تسهل أعمال الري والتجفيف كثيرا، وأيضا تطور المهن. واستثمر بسعة وادي الغانج، وأراضي الهند الوسطى. وهنا أيضا ولدت مدن وحضارة راقية.

عندما تحدثنا عن عهد هارابا توقعنا افتراضاً فقط وجود مجتمع عبودي. لكننا الآن نقول بثقة أكبر أن ذلك المجتمع وجد فعلاً في تلك الحقبة. فأقدم فيدا، ريج-فيدا، تشير إلى عدد من العبيد. كان هؤلاء قد عرفوا باسم "داسيا *dasya*"، الذي يعني أصلاً "العدو"، "الدخيل"؛ وهذا برهان أن أول العبيد كانوا أسرى حرب. وينضم إليهم بالتالي العبيد الذين كانوا سابقاً رجالاً أحراراً سقطوا في البؤس، وكانوا قد باعوا حريتهم وحرية أبنائهم. وخضع أبناء النساء العبدات إلى نير العبودية.

كان العبيد ملكية مطلقة لسادتهم. يمكن بيعهم إهداؤهم أو تقديمهم مهرا. ويمكن أن يخدموا في أي عمل. ومضى وقت قبل أن يبدل المجتمع البنية بعد ظهور العبودية، لكن عندما يبدأ هذا التطور، يبقى مع ذلك بقايا قوية من النظام المشاعي البدائي، بخاصة، النظام نفسه يستمر ويتشبث.

وتظهر الدولة عندما ينقسم المجتمع إلى طبقات. وتستلم الأرستقراطية زمام الحكومة القبلية وتستخدمها للحفاظ على طاعة العبيد وأعضاء المشاعات الأكثر فقرا. ويصير شيخ -*radjah*- نوعا من الملك. لكن هذه الدول العبودية تبقى لمدة طويلة محافظة على أشكالها القبلية القديمة وعناصر ديموقراطية بدائية، خاصة بالنظام المشاعي.

مع تشكل الطبقات، يتجلى الظلم الاجتماعي أكثر فأكثر، وتتكون شريحة هرمية تؤبد هذا النظام. ينقسم الشعب إلى أربع فئات. وتشكل أرستقراطية الدم والقبيلة فئتين-البراهمان والكشتريان *les brahmanes & les kchatryas*. إلى الفئة الأولى تنتسب ذريات الكهنة، وإلى الثانية ينتسب النبلاء العسكريون. والجماهير العريضة لأعضاء المشاعات الأحرار تشكل فئة فيسياس *Vaicyas*. والأجانب الأحرار الذين لا يملكون شيئا في المشاعة ولا يحق لهم الاشتراك باتخاذ قارات القبيلة، ولا باحتفالات العبادة، إلخ. يشكلون الفئة الأخيرة: الكودرا *les coudras*. ولما كان هؤلاء الأخيرون "غير مطلعين على الأسرار"، ينظر إليهم كأناس "يولدون مرة واحدة"، بعكس "الولادة مرتين"، أي ولادة الفئة الأعلى (طقس المساره[٣] يخلد هذه الولادة الثانية). ولما كان الانتساب إلى إحدى الفئات قد حدد بالولادة، فليس لأحد بشكل عام أن ينتقل من فئة إلى أخرى، والتزاوج بين أعضاء فئات متباينة كان

---

[٣] - احتفالات تقام لإيقاف عضو جديد على بعض أسرار الديانات القديمة والجمعيات السرية الحديثة.

عادة ممنوعا. لا تتمتع الفئات بنفس الحقوق أمام القانون؛ والجرائم التي يرتكبها أعضاء الفئات الدنيا عقوبتها أقسى بكثير من عقوبة الفئات العليا لنفس الظروف.

كانت البراهمية دين أول مجتمع هندي عبودي، كانت المعتقدات الدينية في زمن نظام المشاعة البدائي (التي وصلتنا جزئيا عبر الفاردة) تستند إلى عبادة قوى الطبيعة والإحيائية؛ انسجمت هذه العوامل مع حاجات المجتمع الجديد. وصارت الآلهة حماة الملك والنبلاء. واستخدم الكهنة فكرة التقمص لدعم أن انتقال الروح إلى جسد إنسان يتمتع بوضع اجتماعي رفيع إلى هذا الحد أو ذاك يتعلق بسلوك الدفين. كان العامل نفسه إذن مسؤولا عن النير الذي يلحقه وعن الشروط السيئة في حياته. وبنت البراهمية الدولة على التعاليم المقدسة، وسمو شخصية الملك، وأبدية الظلم الاجتماعي (نظام الفئات *varnas*)، إلخ. وشيئا فشيئا ولد طقس معقد، وكان إتمام مختلف مستحقات العبادة يتطلب إعدادا نوعيا.

أمام تقطيع أو تقسيم الدولة وعدد القبائل الكبير لم يكن لدى البراهمية إله أعلى بل عدة هرميات من الآلهة. كان الإله الأعظم سيفا *Civa* تارة، مجسدا قوى الطبيعة (يرتبط هذا الإله أيضا بعبادات قديمة جدا للخصب)، وحينا فيشنو *VichnouK*، حارس كل الموجودات وواحدا من أقدم تشخيصات الشمس. وحاول الكهنوت أيضا أن يضع في رأس البانتيون براهما، خالق العالم، لكن يبدو أن عبادته لم تدم.

الهند في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد

لقد وسم النصف الأول من الألف الأولى قبل الميلاد بحروب مستمرة بين دول الهند. كما بدد تطور القوى المنتجة وعلاقات العبودية بالتدريج بقايا نظام العشير وصارت الدول ذات طبيعة استبدادية. وفي أواسط الألف الأولى كان في شمال الهند عدد الدول الكبرى المستقلة قليلا نسبيا، وتتابع هذا التقلص، وشيئا فشيئا ابتلعت الكبيرات الصغيرات.

انتهى صراع مرير بين الدول الأعتى -كوسالا وماغادا- بظفر الأخيرة. وفي منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، امتدت سلطة ملوك ماغادا على كل وادي الغانج وقسم من الهند الوسطى؛ وصارت ماغادا الدولة الرئيسة في الهند.

وفي أواسط الألف الأولى قبل الميلاد، ضاعفت الهند علاقاتها مع البلدان الأخرى. وفي نهاية القرن السادس احتل ملك الفرس دارس الأول قسما من وادي الهندوس. وانضمت محافظة هندية إلى إمبراطورية الأشمنيد.

وراح يزداد زوار الهند الأجانب من البحارة والتجار. وبعد رحلات طويلة في الأقاليم الجبلية، والصحارى التي تلهبها الشمس أو اتساع البحار، بدت البلاد بنظرهم أغنى وأكثر خرافة مما هي . وحدث أن ابتكروا في هذا الموضوع قصصاً ليزيدوا دهشة السامعين.

وهكذا بدأوا ، في العام ٢٠٠٠ق.م يتصورون الهند كـ"بلد العجائب"، وكان هذا التخيل قوياً بحيث حفظ جزئياً حتى أيامنا.

بهذا التقويم المفرط لثروة الهند التي، إضافة إلى عوامل أخرى، حرضت المقدونيين واليونان على غزوها في العام ٣٢٧ قبل الميلاد، بعد أن حطموا إمبراطورية الفرس. ولم يكن شمال غرب الهند يؤمئذ يمثل أي انسجام سياسي. ونجح إسكندر المقدوني أن يقيم حلفاً مع بعض ملوك الهند المتنازعين مع بعضهم البعض. ودحر بورس، أحد أقوى ملوك البنجاب، الذي رفض الخضوع، دحر في معركة ضارية. وكان الإسكندر ينوي استمرار الزحف نحو الشرق، واحتلال وادي الغانج. لكن أمام مقاومة الهنود الشرسة، رفض الجيش المقدوني، الذي أضنته المعارك، رفض الخضوع لقائده. واضطر الإسكندر أن يقاتل متراجعاً وغادر الهند.بعيد هذا، بدأ التنازع بين القادة المقدونيين والملوك الخاضعين؛ وتمرد السكان الأصليون على الأجنبي. ومنذ العام ٣١٧ قبل الميلاد، لم يبق في الهند أي حامية مقدونية.

البوذية

في منتصف الألف الأولى قبل الميلاد بينما كان نظام العبودية متطوراً في الهند انبعثت عدة دول هنا، ولم تعد البارهمية ترضي مالكي العبيد.

فانبثق دين جديد، البوذية مشتق من بوذا: الـ"ملهم"، لقب المبشر الذي كان ينسب إليه، في الخرافات، مبدع الشريعة الأساسية للدين الجديد)، انبثق في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد؛ كان رصيد النزاعات المتفاقمة أكثر فأكثر في أحشاء المجتمع، التي يستدعيها تطور العبودية، وتشكل دول الاستبداد المؤسسة على استثمار العبيد، واشتداد حدة الظلم الاجتماعي. وفي الدين البوذي، ليس للكادحين سوى أفق واحد هو روحهم، والتخلي عن كل محاولة لتبديل العلاقات الاجتماعية.

وتبنت البوذية موضوعات التقمص. وهنا، الحياة شر كلها، أن تعيش يعني المعاناة. يجب إذن الجهاد لوقف تطور انبعاثات النفس المتتابعة، المفضية إلى النرفانا، أي كبح

النفس. يتم بعث النفس حسب الأفعال التي جرت في أثناء الحياة السابقة، وسلوك الإنسان هو نفسه نتيجة لرغباته. إذن،بالعزوف عن الرغبات نصل إلى النرفانا. وأولئك الراغبون في "نجاتهم"، يجب أن يهربوا من مباذل الدنيا ويصيروا كهنة.

لا ترى البوذية أن الآلهة تحمي الناس ولا التضحية لهم؛ لا جدوى من الكهنة، فكل منا بوسعه أن ينقذ نفسه من البعث بوسائله الخاصة. والأصل الرفيع، الانتساب إلى هذه الجماعة أو تلك، أو أن تكون عضواً في فئة أو شريحة، لا تلعب أي دور في ولوج النرفانا. العبد فقط محروم منها، لأنه، حتى ولو بالرغبات، يبقى غير حر بأفعاله.

كانت البوذية تنشر السلبية، والقبول المذعن للواقع، وتجريد المضطهدين أخلاقياً من سلاحهم في نضالهم ضد مضطهديهم، وليس فقط لم تتعرض للحرمان والمعاناة (ليس ثمة إلا بين الكهنة)، بل صارت منذ القرن الخامس قبل الميلاد دعامة للنبلاء العبوديين، بينما كانت رابطات الكهنة تتلقى عطايا وهبات أكثر فأكثر كرماً. في هذه الحقبة، لم تعد الولادة السامية، ولا الانتساب الواقعي إلى هذه القبيلة أو تلك، دوراً أساسياً. المهم الثروة، امتلاك العبيد. لهذا، قدمت البوذية، التي كانت أرقى من العبادات القبلية، أساساً أيديولوجياً جديداً للدول العبودية الكبرى التي تتشكل. فضلاً عن هذا، راح الكهنة، المنظمين جيداً والانضباطيين، يخدمون بفاعلية السلطة، الأمر لم يتيسر للكهنة البراهميين الموزعين والمنقسمين أبداً.

إمبراطورية المورياس *Mouryas*

كان على رأس الانتفاضة ضد المقدونيين، التي شبت في شمال غرب الهند، أحد كبار رجال الدولة الذين لم تعرفهم الهند: تشانداغوبتا. رغم ان شخصيته ونشاطه ترك أثراً عميقاً على معاصريه وعلى الأجيال التالية، لا نملك سوى القليل من المعلومات لكي نفيه حقّهُ. كان ينتسب إلى شريحة الكودرا، أي الرابعة، حثالة المجتمع، وكان يعمل في كنف ملك ماغادا، لكنه لم ينسجم معه، هرب إلى البنجاب، حيث نظم عصياناً ضد المقدونيين. ولما تكلل العصيان بالنجاح (وحتى قبل)، قاد حملة ضد ماغادا. يذكر الباحثون عدة تواريخ مقاربة للعام ٣٢٠ قبل الميلاد)، ثم أزاح الأسرة المالكة الهانداس *Handas* واحتل العرش. كان اسم أسرة تشاندراغوبتاهو موريا، لذا سميت الإمبراطورية والأسرة اللتان أسسهما: مورياس. ثم قدر أن يخضع الشمال كله (وربما قسماً من الجنوب) وأرسى دعائم الدولة الأوسع في الهند القديمة.

أخذت إمبراطورية المورياس أوج اتساعها في أيام آسوكا (٢٧٣-٢٣٧) حفيد تشاندراغوبتا. إذ ضمت الإمبراطورية الهند كلها (عدا منطقة تقع في جنوب شبه الجزيرة) وأفغانستان الحالية.

في هذا العهد، أنجز الشعب الهندي إنجازات ضخمة في تطوير القوى المنتجة. يدحو الحديد المستخدم نهائياً المعادن الأخرى في صناعة أدوات العمل. وتصير حراثة التربة قاعدة الحياة الاقتصادية؛ ولم تعد تربية الدواجن سوى رافد للزراعة؛ ويفقد الصيد والقنص أهميتها أيضاً. ويتطور الري ويتقن. وجنى الصناعيون العاملون في المعادن، وناسجو القطن، معمرو السفن النهرية والبحرية خير النتائج. وراجت التجارة الداخلية والخارجية: التجارة البحرية مع مصر، ميزوبوتاميا، سيلان وبلدان جنوب شرق آسيا؛ وتجارة برية مع إيران وبلدان آسيا الوسطى. وتدخل في التداول نقود نحاسية وفضية. وتتسع المدن، أي مراكز حضارة الهند العبودية. ويشير اليونان الموجودون آنئذ في الهند، في كتاباتهم إلى عددها الكبير وغناها وامتداد باتالبوترا ***patalipoutra***، عاصمة ماغادا.

لم تكن الهند العبودية، حتى في أيام ملك موررياس (القرن الرابع -الثاني قبل الميلاد)، متطورة مثل بلدان العصر القديم الكلاسيكية. فليس فيها مزارع كبيرة ولا ورشات واسعة توظف جمهرة من العبيد. على ذلك، كان العبيد كثراً. كانوا يعملون في أملاك الملك، النبلاء وفي الإقطاعات الصغيرة، بل بخاصة في الاقتصاد الخدمي، حيث لا يختلف شرطهم في شيء في الغالب عن شرط الخدم، وعدم كفاية الإنتاج البضائعي وقوة بقايا نظام المشاعية البدائية أعطت العبودية خصيصة الأبوية.

وما كبح بعنف تطور علاقات العبودية هو ثبات المشاعية، الناجم عن طبيعة الإنتاج: إن أعمالاً مثل تجفيف أو إرواء مساحات واسعة، وضرورة حماية حقول القمح من العصافير والدواب الأليفة، من الكواسر، واستصلاح الأدغال، إلخ.، كانت تتطلب جهوداً تعاونية جيدة التنظيم، وخاصة إذا أخذنا بالاعتبار المستوى لتلك الحقبة. كل هذا أوقف فرق الثروة والشرط وصان ملكية الأراضي الجماعية. فضلاً عن هذا، كانت المشاعة منظمة مستقلة إلى نقطة معينة: اقتصادياً، كانت قليلة الاتصال بالمدينة. والتجارة، التي كانت تتطور في الداخل، لم تكن تخصها أبداً. كان لها إدارتها الخاصة، الانتخابية أو الوراثية. وأتاوات الدولة كانت تقع على المشاعة كلها وليس على كل فرد على حدة.

كانت إمبراطورية المورياس مؤلفة من قبائل وجماعات أثنية متباينة جداً من حيث التطور والرقي. وبحسب مانعرف، لم يكن عندهم نظام أداري وحيد. فالقبائل والدول الخاضعة كانت تبقى مستقلة ويتوجب عليها دفع الضريبة فقط وتجهز السرايا العسكرية. ولمراقبة الملوك الملحقين، أقيمت حكومات في مختلف البقاع.

كان العاهل يستند إلى الجيش. يقول الكتّاب الإغريق أن تشاندراغوبتا يقدر، في حالة الحرب، أن يجهز جيش من ٦٠٠ ألف رجل مشاة، ٣٠ ألف خيال و٩٠٠٠ فيل. فكانت صيانة الجهاز الحكومي والعسكري تكلف غالياً. وللنهوض بهذه الأعباء كان الملك يفرض الضرائب مستغلاً المشاعات (كان المبلغ المطلوب بـ١/٦ الموسم) ويعين مكوساً على التجار. وكان العاهل يزيد الضرائب على الأراضي الملحقة ويقبض من عائدات أملاكه الشخصية. فضلاً عن هذا، كان الناس الأحرار ملزمين بأعمال السخرة.

وتصير العبودية القاعدة الايديولوجية في إمبراطورية المورياس في أيام ملك آسوكا. ويهتدي هذا إلى البوذية ويعمل لنشرها في الهند وغيرها؛ وقدر أن يدعم المنظمة الدينية. ومعلومات هامة تاريخية عن هذا العهد موجودة في مدونات آسوكا، محفورة بالصخر وعلى الأعمدة، حيث يمكن قراءة أوامره فيما يخص مراقبة مبادئ البوذية الأخلاقية (خضوع للسلطات، الاحترام، الالتزام بطهارة ونقاء الفكر وتجنب العار، إلخ).

رغم جهوده، لم يستطع آسوكا أن يؤسس دولة متينة وموحدة. وما أن مات، حتى سقطت الإمبراطورية في هاوية الانحطاط. وفي حوالي العام ١٨٧، أزيح عن العرش آخر ممثلي الأسرة وقتل بيد القائد العسكري الذي أرسى أسرة جديدة، هي سونغا ***Counga***.

ليست الأسباب الداخلية وحدها جلبت انحطاط إمبراطورية الموريآس. بل الهزائم في السياسة الخارجية أفضت إلى هذا أيضا. وفي بداية القرن الثاني قبل الميلاد، توغل يونان بكتريان في الهند واستقروا في البنجاب. وفي نهاية القرن الثاني قهرهم المساجيت ***Massage'tes***، إحدى رعايا آسيا الوسطى، ودعوا في الهند الساكاس ***les Sakas***. أخضعت هذه القبائل شمال غرب البلاد وربما حتى بعض أراضي الهند الوسطى.

إمبراطورية الكوشان وإمبراطورية غوبتا

بدءا بالقرن الأول بعد الميلاد، سادت إحدى قبائل الساكاس. استقرت على ارض طادجاكستان الحالية، وعرفت في التاريخ باسم كوشان. وفي منتصف القرن الأول بعد

الميلاد، شرع الكوشان بفتح الهند، أخضعوا الدول الصغيرة في شمال البلد، حكموا بملوك البارث أو الإغريق. وفي بداية القرن الثاني، تملك إمبراطورية الكوشان كانشكا (٧٨-١٢٣) مساحة شاسعة من آسيا الوسطى، من سن-كيانغ، من إيران الشرقية ومن الهند ذاتها؛ حتى نهر نربودا في الجنوب، وحتى مدينة بيناريس في الشرق. كانت العاصمة بوروشابرا (اليوم بيشاور)، الواقعة على الدرب الكبير الذي يصل هند الكوشان بأقاليم آسيا الوسطى.

كانت هذه الدولة، عديدة القوميات، مركز تبادل ثقافي واسع النشاط والمدى. فقد أفاء الهنود من حضارة شعوب آسيا الوسطى (في فن العمارة والفنون التشكيلية)، ومن جهتها مارست الهند تأثيراً واسعاً على الشعوب الأخرى. ماثل الكوشان بسرعة الحضارة الهندية. وصار للبوذية أنصار بينهم. كان كانيشكا رائداً متحمساً. بنى عدة أديرة، وأمر بتشييد المعابد، شجع نشاط المبشرين؛ ومن مجمع بوذي، تلقى هذا الدين صيغة جديدة: الماهايانا. ومنذئذ، انتشرت البوذية في آسيا الوسطى والصين.

لم يتيسر لإمبراطورية الكوشان، المؤلفة من أعراق عدة، أن تعيش طويلاً. تصدّعت بعد موت كانيشكا وحوالي العام ٢٣٠ صار أفولها أكيداً.

في منتصف القرن الرابع، ظهرت إمبراطورية غوبتا: وكانت آخر دولة كبيرة عبودية في الهند. بقي المركز في ماغادا ، و كما في أيام أسرة الموريا، العاصمة هي باتاليبورا. ومؤسس أسرة غوبتا عاهل من المرتبة الثانية، ملك في ماغادا: تشاندرا غوبتا الأول (٣٢٠-٣٣٠). نجح في بسط نفوذه على ماغادا كلها. وقد سيّر ابنه، سامودرا غوبتا (٣٣٠-٣٣٨) عدة حملات مظفرة وأخضع عدة ممالك من وادي الغانج الأعلى والهند الوسطى. نهب الكثير من الهند الجنوبية، ودمرها حوالي منتصف القرن الرابع.

بلغت إمبراطورية غوبتا أوج مجدها في أيام ملك تشاندراغوبتا الثاني (٣٨٠-٤١٤) الذي احتل قسماً كبيراً من البنجاب وبقاعاً من الهند الغربية؛ امتدت دولته من خليج البنغال حتى الخليج العربي.

في منتصف القرن الخامس، تعرض شمال الهند لغزو هانس هفتاليت آت من آسيا الوسطى، تدفق إلى إمبراطورية غوبتاوغيرها. تتابع العدوان طيلة أعوام، وبنجاح متباين. لكن إمبراطورية غوبتا، التي بدأت العهد الإقطاعي، لم تكن قادرة على مواجهة حروب طويلة. وفي نهاية القرن الخامس، اقتصرت سيطرة إمبراطورية أسرة غوبتا على ماغادا وبقاع في شرق وجنوب هذه الدولة. ومنذئذ، انقطعت المعلومات الخليقة بالحديث عن هذه الإمبراطورية.

أزمة العبودية وولادة الإقطاع

تجسد القرون الأولى بعد الميلاد رواجاً اقتصادياً واسعاً في الهند. في هذه الحقبة تبدأ المنطقة الجنوبية بالتطور السريع، بينما كان تطورها حتى الآن أبطأ من تطور الشمال. إذ يباشر الهنود المناوبة الزراعية، واستخدام الأسمدة، وضم أراض جديدة من الأدغال المستصلحة؛ وتطور الري. تشهد أنصاب وأعمدة من الفولاذ والبرونز، محفوظة حتى الآن، تشهد بوضوح على المستوى الرفيع لتقنية هذا العهد. تنحت المعابد في الصخر، الأمر الذي يتطلب يداً عاملة غفيرة، وحسابات معقدة وعملاً ماهراً بالحجر. كانت تجارة الهند واسعة، بحرية وبريّة؛ تتاجر مع كبار بلدان العالم المتمدن، تصدر النسيج، الزخارف، الجواهر، العطور، وتستورد معادن غير مطرّقة، معادن ثمينة، أحصنة، عبيداً. كان الهنود بارعين بصنع النقود الذهبية.

لكن أزمة النظام العبودي ذرت قرنها، وانبثقت علاقات اقتصادية جديدة. إذ بدأ عمل العبيد الموظفين في الإنتاج. وعثر الكثير منهم على استخدام في القصور الملكية والنبلاء والأغنياء. وفي تلك الحقبة، يتبدى ميل لاستخدام الناس الأحرار، أعضاء المشاعات: إنه الإقطاع. وعزفت الدولة أكثر فأكثر عن أداء ديونها عيناً أو نقداً، بل استلم النبلاء أصحاب العبيد، والكهنة وكبار الموظفين أسهماً من الأرض؛ والضرائب المفروضة على المشاعات لم تعد تعطى للدولة، بل للأشخاص الذين تخلت لهم الدولة عن حقوقها. وشيئاً فشيئاً امتلك هؤلاء الأشخاص الأرض نهائياً واستعبدوا الفلاحين الأحرار؛ الأمر سهل فكل الوظائف الممنوحة تصير وراثية. وكثير من القبائل التي كانت متخلفة (بخاصة في الهند الوسطى والجنوبية) بدأت تجني عند انهيار الممالك العبودية من خيرات الحضارة وتدخل أبوابها، أي تنتقل إلى محطة جديدة هي الإقطاع دون إن تعرف النظام العبودي؛ في هذه الحالة كانت طبقة الإقطاعية تصدر من الأرستقراطية القبلية.

لدى دراسة التشكيلية الإقطاعية، ليس لنا أن نهمل دور المعابد والصوامع البوذية الذين كانوا يتلقون هبةً أملاكاً واسعة مع المشاعات التي كانت تعيش فيها. فيتحول الكهنوت البوذي رويداً رويداً إلى إقطاعيين، ويشكل أعضاء المشاعات التابعة لهم طبقة من الأقنان. بقدر استعباد الفلاحين الأحرار، يتبدل وضعهم الاجتماعي: كانوا سابقاً من الشرائح الوسطى فصاروا من الدنيا.

تنبثق تبدلات هامة في المذهب البوذي. فقد تبين أن محاولات جعل البوذية دين الدولة أمر غير مجد، لأن الدول الكبرى العبودية، التي تخدم إيدلوجيتها، بدت هي ذاتها

غير وطيدة. وكان مكان انتشار البوذية بخاصة، في المدن؛ وبقي الريف أميناً للعبادات القديمة. إن أضطرار البوذية على العيش مدة طويلة بجوار هذه التقاليد، فرض عليها التحول التدريجي. ففي ماهايانا، البوذي، الرجل الذي يتبع طريق الخلاص، يضحي إلهاً كلي-العظمة تبنى له معابد رائعة؛ ويُسعى إلى مفاهيم جديدة:الجنة والنار، وتمارس طقوس فخمة، إلخ... وينتهي الامتداد الأعظم للبوذية مع مرحلة الكوشان. ويتقلص دورها في أيام ملك غوبتا. تتبدى مقاومة الإقطاعي أكثر فأكثر؛ وتأتي هذه العبادات لتستبعد البوذية. إن هذه العبادات هي نفسها التي ولدّت هذا الحشد من المعتقدات الدينية التي تسمى عادة هندويسم، الدين الأكثر انتشاراً في الهند.

الشرائح المغلقة

في أثناء القرون الأولى بعد الميلاد يتشكل تدريجياً نظام الشرائح المغلقة. إنها الشرائح المغلقة بشكل مطلق، التي تشغل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية موقعاً متميزاً بالعرف والقانون؛ كان الانتساب إلى إحدى هذه الشرائح بالولادة. وبينما ولدت الفئات أو *Varnas* على أثر تفاقم الظلم الاجتماعي، صدرت الشرائح المغلقة عن تقسيم العمل.

فالتقسيم الاجتماعي للعمل حتى بشكله البدائي، أفرز فئات مختلفة من الناس، يركن كل منها إلى دائرة نشاطه. طالما استمرت المشاعة الريفية وعاشت بقايا قوية من إيديولوجيا القبيلة، لن يتيسر لهذه الفئات أن توطد أقدامها إلا بالإفادة من تنظيم وإيدولوجيا المشاعة. يقرأ هذا في الاسم الذي تحمله هذه الفئات الاجتماعية: "جاتي *Jati*" التي تعني ذرية، قبيلة أصل، ويبدو أن كلمة *Caste* البرتغالية هي الترجمة الأكثر دقة.

ليس لأحد أن يتزوج من شريحته المغلقة؛ مبدئياً تمارس كل شريحة مهنة محددة ولا يجوز الانتقال إلى أخرى؛ ولها إدارتها الداخلية الخاصة بها؛ التضامن المتبادل متوجب على الأعضاء، الذين يقومون جماعة بالتعبد الديني، ويسيرون دورة العمل، ويراقبون قواعد العلاقات القائمة بين الأعضاء مختلف الشرائح، إلخ..كانت الشرائح تولد في إطار الظلم الاجتماعي، بينما الفئات موجودة قبلاً. فليس لها إلا أن تشغل وضعاً اجتماعياً متناظراً. عادة، تتشكل الشرائح بداية في أحشاء الفئات التي تضم الشعب الكادح: الوسط والعامة؛ بين البراهميين، لا تتطور الشرائح مطلقاً. تشمل الفئات الوسطى شرائح يحرث أعضاؤها أرض الدولة ونبلاء العبودية ويخدمونهم كعمال مستقلين أو مختصين مهرة: مزارعين، تجار، صناعيين مرتاحين، إلخ. والشرائح التي كانت بخدمة الشرائح الزراعية (أي الرعي، حرف قروية، إلخ.)، وتلك التي تمارس في المدن مهناً أقل امتيازاً (حدادين،

فخارين، نساجين،إلخ.) كانوا من الفئات الدنيا، العوام.

القبائل المتخلفة والمنتشرة في مناطق قليلة الإنتاج من وجهة الاقتصاد، تفتقد إمكانية الانتقال إلى مرحلة أرقى اقتصاديا. كانت مكتفية بالعيش من الصيد، القنص، اقتصاد الغابة، إلخ. وإن رحلت إلى المدن أو القرى واستقرت تعمل الأعمال الأقل تخصصا، الأقل أجوا، والأكثر امتهانا (مياوم، كناس شوارع، جامع قمامة، حفار قبر، جلاد، إلخ.). شكلت هذه الثلل الاجتماعية شرائح عديدة "المنبوذون" لا يجوز لأعضاء الشرائح "النقية" أن تتعامل معها؛ وإلى هؤلاء "المنبوذين ربما انضم العبيد السابقون، الذين كان يقيمهم السادة على أراضيهم. والطبقات المستغلة، المهتمة كثيرا بعزل العمال، كانوا يشجعون ويدعمون مختلف الشرائح المغلقة، بخاصة أولئك الذين لم يرثوا شيئاً، الأكثر استثماراً: المنبوذون".

حضارة الهند القديمة

إننا مدينون لشعوب الهند مساهمتهم الجليلة في الحضارة العالمية. فقد أعطى علماء الرياضيات العالمَ نهج كتابة أعداد مقبولة بعامة حتى اليوم (نهج أو قيمة الرقم في العدد تتعلق بمكانه)، كذلك بعض الأرقام (بخاصة الصفر) التي اقتبسوها من شعوب الشرق الأدنى والمعروفة في أوربا بصيغة لا تتغير وباسم "أرقام عربية". وكان الهنود القدماء يعرفون استخراج الجذور المربعة والمكعبة، ويحسبون بشكل دقيق العدد π، وكانوا يدركون القوانين الجذرية لعلم حساب المثلثات. واقتبست الشعوب الأوربية للقرن الوسيط عناصر الجبر من العرب، لكن هؤلاء يعترفون أنهم تعلموا هذا من الهنود.

لقد ابتكر سكان الهند القدماء الكتابة التي تشكل الأساس للشكل الخطي لدى اكثر شعوب الهند الحاليين. ومنذ القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، وضع عالم النحو والصرف البانيني أسس علم اللغة، المجال الذي قدم فيه الهنود نتائج ضخمة.

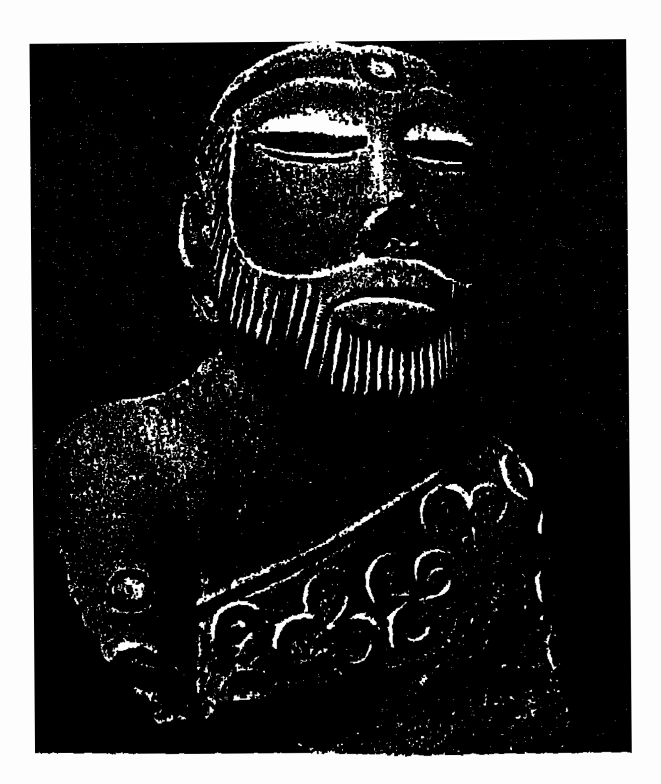
كما مهر هنود العصر القديم في الفنون التشكيلية: الحفر والجداريات. وثمة رسوم رائعة من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن السابع بعد الميلاد محفوظة في معبد أجانتا المحفور في الصخر (دولة حيدر أباد).

أدب الهند القديمة غني ومتنوع. وفي القرن الأول بعد الميلاد كتبوا بالسنسكريتية، لغة أدب الهند متعددة الشعوب مهاراتا وراماياناء قصائد ملحمية تقص مآثر الأبطال وتتضمن العديد من الخرافات القديمة جدا، تستلهم شعراء وفناني الأجيال السابقة. ومنذ زمن قديم أو بعدئذ، ربما، أدركوا ودبجوا لأول مرة قوانين، أشهرها ذلك المسمى "قانون مانو *Lais de Manou*"، نسبها كاتبها لسلف خيالي؛ مقولات في مختلف فروع العلم تعيش حتى اليوم؛

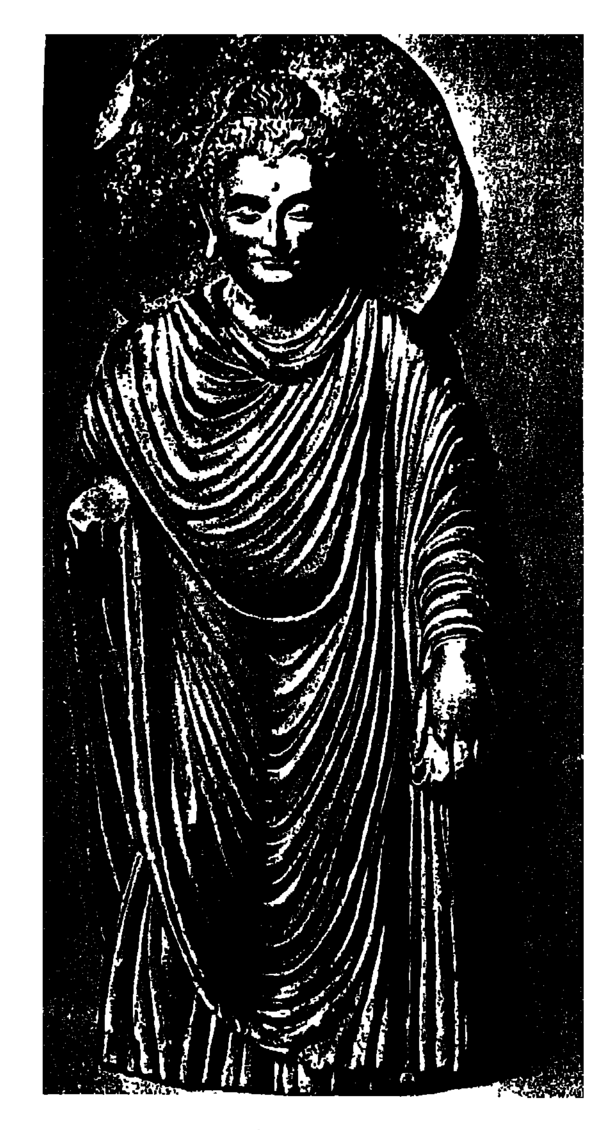
اللغة الشاحبة المستخدمة في كتابة الأعمال الأساسية للأدب البـوذي. ولقـد تفتـح الأدب السنسكريتي في القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد، يوم أزهرت موهبة كوكبة من ألمـع الكتاب،أشهرهم الشاعر والمسرحي كالدازا

منذ زمن سحيق _ربما منذ النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد)، ولدت فـي الهند فلسفة مادية ترفض اللاهوت والمثالية. كان روادها يؤكدون واقعية العـالم المعـاش ويرون في وعي الحواس المصدر الوحيد للمعرفة والوسيلة الوحيدة للإثبـات والبرهنـة. وينكرون خلود النفس أو الروح، التقمص والآخرة، ويهزؤون من الطقوس والأضاحي.

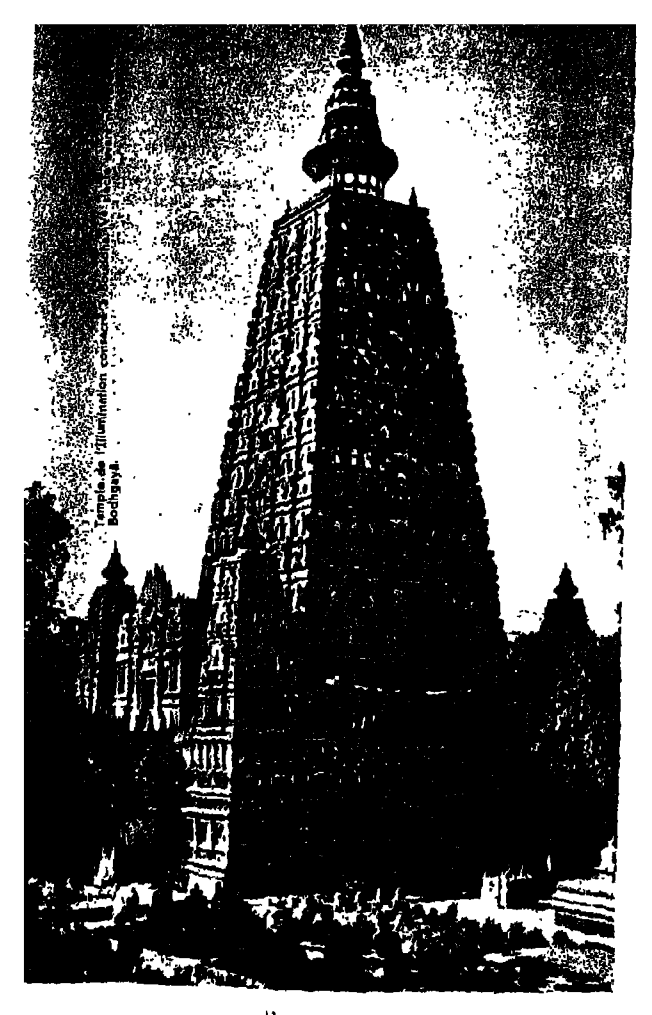
كما نقل عدد كبير من المهاجرين المستقرين في جنوب-شرق آسيا (سيلان، الـهند الصينية، وأندونيسيا) إلى أبناء البلد إنجازات الحضارة الهندية. وقد أفادت شـعوب آسـيا الوسطى والشرق الأدنى من الروائع التي خلقتها الهند، بلد الثقافة القديمة المتألقة.



كاهن هندي



تمثال بوذا



معبد بوذا

الفصل التاسع عشر

الصين

المناهل

إن دراسة التطور الاجتماعي والاقتصادي للصين القديمة صعب بطبيعة الكتابات التي وصلتنا. كثير من النصوص ضاع نهائيا، أو تعرض لكثير من التحوير أو التحريف، بل التفسير، إلخ.، انسجاما مع مصالح الشرائح الحاكمة، ويستحيل غالبا تجديد الأصل.

غير أن أسفارا هامة لتاريخ الصين القديم مثل "كتاب الأشعار"، "كتاب الحوليات"، و"حوليات ملكة لو"، المنسوبة تقليديا لكونفوشيوس، تلائم كما يبدو النماذج الأولى السابقة. مثل "شي-كنج"، المجموعة التي تتضمن أكثر من ٣٠٠ أغنية شعبية ودينية، أبدعت بين القرنين ١١-٧قبل الميلاد. هي منعكس كدح، أفراح وأتراح فلاحين، أعضاء مشاعات، احتجاج على الموظفين الكواسر، أضمومة من الدوافع الوطنية، مشاهد حياة يومية لبسطاء الناس ونبلائهم.

السفر الأول في تاريخ الصين العام حبره قلم أكبر علماء العصور القديمة سوما-تسيو (بين سنتي ١٤٥-٩٠ قبل الميلاد). وهو ابن أحد فلكيي القصر، رحل كثيرا عبر البلاد، مسجلا بعناية بالغة التقاليد، جامعا الوثائق وكل ما يمكن أن يجلو له أعراف وعادات سكان الصين والبلدان المجاورة . كانت "مذكرات تاريخية" عمل حياته كلها. عمل عن حقبة تبدأ من الإمبراطور الخرافي هوانغ-تي حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد؛ يتضمن السفر ١٣٠مجلدا مقسمة إلى خمسة أبواب: حياة الأباطرة، علم الأنساب وعلم تسلسل الأحداث تاريخيا، معلومات مختلفة حول الطقوس، العبادة، الري، النقد، الأسعار، التجارة، استغلال الأرض، حياة الأمراء، وحياة الأشخاص العظام. في هذا السفر يوضح سوماتسيو شجبه للنظام القائم. ونقرأ في هذا العمل أنباء تصدر من أسانيد غير موجودة لدى أحد.

وقصة آل هان *Han* الذين سبقوا (تستيان-هان-شو) التي كانت، بشكل ما، تتمة

لـ"مذكرات تاريخية"، كانت قد كتبتها في القرن الأول بعد الميلاد أسرة بان ***Pan***، حسب سوما-نسيان، المستخدمة نموذجا لكل التواريخ الرسمية؛ يتضمن هذا العمل ١٢٠ مجلدا. وفي القرن الخامس بعد الميلاد نشر فان إي ***Fanye*** تاريخ الـ"هان" اللاحقين، في ١٢٠ مجلدا أيضا.

نجد معلومات تلخيصية ثمينة في العديد من الأعمال الفلسفية مثل مانسيوس، هانفي-تسو أو في أعمال رجال السياسة مثل كوانج، ولدى المؤلفين المختصين بدراسة الأعمال الأدبية للعصر القديم، وأخيرا، في الأعمال الفلسفية.

إن معطيات علم الآثار والنقوش ذات أهمية كبرى بدراسة تاريخ الصين. وأرض الصين لم تسبر حتى الآن سبرا كافيا لكشف الآثار؛ فتنقصنا معطيات لكي نطرح منهاجيا تاريخ المجتمع السابق على ظهور الطبقات الاجتماعية. ومحطات يانغ-شاو وتانغ-تسي-إي التي تؤرخ لمرحلة وسيطة بين العصرين الحجريين الوسيط والحديث واكتشفت حوالي العام ١٩٢٠، تقدم فائدة فريدة. يفترض أنها تعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد. وفخاريات مطلية وجدت في يونغ شاو تمثل عدة تشابهات مع التي اكتشفت في آنو (تركمانيا) وتريبوليه؛ يثبت هذا أن مستوى التطور الاجتماعي والاقتصادي لهذه الشعوب كان متماثلا تقريبا.

بشأن تاريخ حقبة آل شانغ (يين) تزودنا حفريات مدينة شان (قرب المدينة الحالية آنيان) بمعطيات هامة عديدة؛ فقد عثر، بين خرائب الورشات، على قصور، معابد ومساكن خاصة، وكثير من أغراض الاستعمال الخفيف، وكتابات مرسومة على العاج، على القواقع وعلى مشربيات البرونز. وقد فكت رموز هذه النصوص. كما أكدت دراية النقوش الموجودة في أرشيف آنيان في كثير من النقاط ما تقصه علينا الأعمال الأدبية.

تأتينا التنقيبات المتتابعة في الصين بعد ظفر الثورة الشعبية كل عام، خدمة للعلم، بالعديد من المعلومات حول تاريخ البلاد القديم.

شروط طبيعية. سكان بدائيون

إن الأرض التي رأت ولادة حضارة الدولة الصينية تمتد على طول وادي هوانغ-هو في مجراه الأوسط والأدنى. فمنذ ٤٠٠٠عام، كان سهلا وحيد الشكل، محدودا من الجنوب بالجبال ومن الشمال الغربي بهضبة أوردوس ***Ordos***؛ كانت تربته الغرينية الغنية بالطمي

شديدة الخصوبة. كثيرة المستنقعات، تشقها الأنهار وتغطيها الغابات الكثيفة–العذراء.

في الشمال وفي الشمال الغربي كانت تنبسط سهوب منغوليا القاحلة؛ وفي الجنـــوب، خلف وادي يانغ–تسو–كيانغ، تبدأ المنطقة الجبلية والحراجية للصين الجنوبية. نتيجة هـذا، بقيَ الصينيون القدماء آلاف السنين معزولين عن مواطن الحضارة القديمة.

كانت غزارة المياه تفرض الري، تصريف المياه، ومصارعة الفيضانات. لــذا كــان الصينيون ينسبون لبطل أساطيرهم البدائية مآثر تتعلق بترويض الانهار، بناء السدود وحفر الأقنية.

والأرض الصينية مسكونة منذ أقدم العصور. وفي مغارة شو–كـــو–تيــان (قــرب بكين)، اكتشفت بقايا إنسان الصين الذي بشكله الخارجي، يشبه إنسان جاوا. لكـــن إنســـان الصين كان قد عرف النار، وكان يصنع أدوات ضخمة من الحجارة ويقنــص الحيوانــات الضخمة.

في الطبقات العيا لهذا الكهف ذاته، عثر بي–أوان–تشونغ على بقايا إنسان يشبهنا بدنيا وكان يعيش بين الألف ٢٥ و ٥٠ قبل الميلاد.

أخيرا، كان بناة ثقافة العصر الحجري الحديث في يانغ–شـــاو بـدون شـك جـدود الصينيين. وحضارة أولئك الذين اكتشفت بقاياهم في طبقات كهف شو–كو–تيان تعود إلــى العصر الحجري الأعلى. وأدوات الكوارتز، والقواقع المجموعة في شو–كو–تيان تكشــف وجود شكل بدائي من التبادل. بهذا الصدد، دور القواقع هو الذي يوجز أو يحدد، لأن تعبير "قوقعة" موجودة في الهيروغليفية وتشير إلى مقولات "نقد"، "تجارة"، "ثروة"، إلخ. والعصــر الحجري الحديث والحقبة الوسيطة بين هذا الأخير والحجري الوسيط معكوسة في الصيــن في حضارة يانغ–شاو متميزة بخزفيات عديدة الألوان، وحيدة الصنع. وكان يـــانغ–شــاو، المجتمعون في تعاونيات عائلية، يعيشون في كهوف محفورة في الأرض ويحفرون الأرض بالمنكاش (ويبذرون الذرة البيضاء والصفراء)؛ يصطادون، يربــون الكــلاب، الخنــازير، الأحصنة ويأسرون حيوانات وحشية. وفي محطات يانغ–شاو الأحدث (الألف الثانية قبــل الميلاد) تظهر أسلحة برونزية: سيوف، خناجر.

كانت القرى مبنية على التلال ويحيطها سور ترابي ليحميها من هجوم الأعداء. ومــن الملفت العثور غالبا على تعبير "تلة" في الهيروغليفية التي تشير إلى أسماء المدن القديمة.

إمبراطورية آل شانغ أو آل يين

إن انتشار استخدام الأدوات النحاسية والبرونزية، وظهور زراعة الأرز، والقزازة (تربية شرانق الحرير الخام) أفضت إلى تفكك نظام العشير، إلى تشكل الطبقات الاجتماعية وإلى ولادة دولة العبودية القديمة في أيام حكم آل شانغ (آل يين) (١٧٦٦-١١٢٢). كانت هذه المملكة تشغل وادي السرير الأوسط لهوان-هو من حيث ينعطف النهر ويتجه نحو الشرق.

ثمة عدة مصادر تخولنا تمييز النظام الاجتماعي والاقتصادي. في أساس الاقتصاد كان يوجد، كما يبدو، نكش الأرض بالمنكاش. والتربة الغرينية، الناعمة والخصبة، المشغولة بأدوات بدائية من الخشب والحجر، تعطي أيضاً موسماً وفيراً. فضلاً عن الزراعة، استمروا بممارسة الصيد والقنص. وتشير آنيان الإلهية أن القناصين أثناء الاحتيال على الطرائد لحشدها في مكان ما (فخ أو كمين، مثلاً)، كانوا يقنصون مئات الحيوانات من مختلف الاحجام: أيائل، خنازير، إلخ.

كان التدجين يلعب دورا هاما في الاقتصاد. وكان الناس يربون الكبير والصغير من الدواب ذات القرون، والخنازير، والكلاب والطيور. والنقوش التي يمكن أن نقرأها حول المواد المقدمة كضحية، تشهد على توفر الدواب. يقص أحد هذه النصوص قصة مذبحة من ٣٠٠بقرة و١٠٠خروف.

كانت المهن قد بلغت إتقانا واسعا. فالبرونز يستخدم في صناعة الأسلحة، وأوان شعائرية، وبعض القطع للعربات. وأكواب وجرار وأوعية أخرى مصنوعة على طريقة صنع الفخار، والغضار الأبيض من كمية استثنائية، كانت تشوى بعدئذ وتطلى، تشهد على تطور الخزف. والخيوط الحريرية المجتناة من الشرانق كانت تستخدم في النسيج. والإتقان الذي يميز كثيرا من مواد تلك الحقبة، يتطلب تدريبا صعبا وطويلا، الأمر الذي يبرهن على انفصال المهن عن الزراعة. وفي العاصمة، كان ثمة أحياء يسكنها الصناعيون فقط: فخارون، سباكون، نحاتون، غزالون، نساجون، وسواهم.

المصادر التي لدينا تشير إلى وجود، في إمبراطورية الشانغ، مختلف عينات العبيد. وكانت الحروب هي التي تمكن من توفرهم.

وتطور القوى المنتجة، تكديس الثروات وظهور العبودية ولدت في أحشاء العشير قلة

من الأسر المتميزة، التي تشكل الطبقة المتنفذة، المعارضة لجمهرة أعضاء المشاعة. وشيخ قبيلة أوانغ صار رئيسا وراثيا للدولة. وتدل دراسة مقبرة آنيان على وجود في مجتمع الشانغ فارق واضح في الثروة. وبين كثرة القبور الموضوعة رمس متواضع، اكتشفت صوامع تنغلق على أسلحة ومشربيات من البرونز الرائع، وأغراض من حجر اليشب. والعبيد مدفونون إلى جانب أصحابهم. فهنا أيضا اكتشفت لحود للأوانغ، مغلقة على كنوز خيالية. والمساكن المكتشفة تشهد أيضا أن الناس كانوا منقسمين إلى طبقات اجتماعية مختلفة في الملك.

كان في رأس المنتجين في مجتمع الشانغ الفلاحون المجتمعون في مشاعات جوار تحافظ على بقايا ثابتة من نظام العشير. وما تزال طريقة استغلال أفراد المشاعات غامضة حتى الآن.

في رأس الدولة كان الأوانغ (الامبراطور) الذي يجمع وظيفتي شيخ القبيلة وكاهنها- الأكبر. ورويدا رويدا، يحتل سمات الطاغية الشرقي، العاهل المطلق، مالك الأرض كلها، ممثل السماء لدى الناس. حول الأوانغ يلتئم وجوه الأرستقراطية، أفراد الأسرة الإمبريالية وأسر أخرى نبيلة من البلاد. من بينهم يعين موظفو الحكومة، والجنرالات، وغيرهم.

والملاحظات الأولى الفلكية، الضرورية لتقويم الأعمال الزراعية، وضعت في عهد الشانغ. وأحد أهم الاستحقاقات في هذه الحضارة هو ابتكار الكتابة الهيروغليفية، المنسوبة للإمبراطور الخرافي فو-هي *Fou-Hi*؛ والتي اشتقت منها الكتابة الصينية الحديثة.

مفاهيم الامبراطور الدينية للشانغ تصدر من الإحيائية، المرتبطة حميميا بعبادة الأسلاف. فالجدود، بخاصة جدود الاوانغ، كانوا غالبا ما يمثلون بشكل حيواني، وهذا من بقايا الطوطمية. مثلا فو-هي كان بجسد أفعى، بينما كان رأس مبتكر الزراعة شن-هونغ، رأس ثور. وكثيرا ما يسعون إلى السحر، ويعطون بخاصة كل أنواع التفاسير لشقوق ظهر السلحفاة المرمية في النار.

إمبراطورية آل تشو

في غرب دولة نهر وي *Wei*، المتفرع من هوانغ-هو، كانت تعيش قبائل التشو التي من حيث الخصائص الأثنية واللغوية، كانت تشبه، كما يبدو، آل الشانغ. في اقتصاد تشو، كانت الزراعة تلعب دورا واسعا، بينما كان الصيد والقنص أقل قيمة. وكثيرا ما كان

أباطرة الشانغ يستدعون قوات التشو العسكرية لتقاتل قبائل الشمال-الغربي الرحل.

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر قبل الميلاد خارت إمبراطورية الشانغ. تتحدث المعطيات النادرة التي بين يدينا حول هذا الموضوع عن غضب الشعب المرهق بالضرائب، ضحية الاضطهاد الفظيع والنفقات المجنونة لبناء القصور، واحتفالات الأباطرة وحاشيتهم.

وفي العام ١١٢٢ قبل الميلاد، غزا قائد التشو أو-أوانغ بجيوشه إمبراطورية الشانغ او، في معركة طاحنة في سهب موإي (شمال-غرب هو-نان) انهزمت قوات آخر عاهل من الأسرة.واستنادا إلى الرواية الموروثة، كانت المذبحة أشبه بالمطارق الخشبية التي تسحق الذرة البيضاء السابحة في مستنقعات الدم. وبعد مقاومة قصيرة خائرة، ألحقت أرض الشانغ بدولة التشو، وسقط رهط وفير من رعاياها في أتون العبودية. ونهبت عاصمة الشانغ.

وهكذا تأسست، في نهاية القرن الثاني عشر وبداية الحادي عشر قبل الميلاد، إمبراطورية واسعة في الشرق الأقصى تشغل تقريبا وادي هوانغ-هو، أو بالضبط سريره الأوسط والأدنى، وحوض هان والسرير الأوسط والأدنى ليانغ-تسو لغتهم وتآلفت القبائل القاطنة هذه البقاع تدريجيا مع الصينيين وقبلت حضارتهم.

من القبائل الرعوية العديدة التي كانت تعيش راحلة في شمال وشمال-غرب إمبراطورية توطدت قبيلة الهوان بخاصة في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، وتوحدت مع رحل آخرين، وغزت عدة مرات صين التشو. لكن القبائل المستقرة في جنوب يانغ-تسو وسوتشوان حافظت على استقلالها. ومنعهم أسلوب حياتهم الفريد والفوارق اللغوية من الذوبان في الشعب الصيني.

على ذلك، لم تبق دولة التشو المستبدة بعيدة مدة طويلة عن التشقق. إذ كان أباطرتها يوزعون بسعة العبيد والأملاك على ذويهم وأسرهم، بل سلطوهم على مشاعات الناس الأحرار. وسرعان ماتفتت الإمبراطورية إلى أكثر من ١٥٠٠ دولة صغيرة خاضعة نظريا فقط للإمبراطور. أهمها، بدءا من القرن السابع قبل الميلاد: شان-تونغ، شان-سي، تشو، هو-نان وهو-بي. كانت هذه الدول تتحارب باستمرار لكسب العبيد، وضم الأراضي وتأمين السيطرة.

مختلف مراحل تاريخ الصين القديمة

حسب مؤرخي الصين الإقطاعية، انقسم تاريخ الصين القديمة بعد زوال إمبراطورية الشانغ إلى ثلاث حقب، مؤسسة على تعاقب الأسر: تشو (١١٢٢-٢٤٧قبل الميلاد)، تسين (٢٤٦-٢٠٧قبل الميلاد)، وهان (٢٠٦ قبل الميلاد حتى ٢٢٠ بعد الميلاد. وعلى غرار مؤرخي الصين للعصر الوسيط، الذين سعوا إلى تفسير أحداث قديمة جدا بروح عصرهم، رأى المؤرخون البورجوازيون أن عهد تشو-هان كان عهدا إقطاعيا. يتمثل هذا الموضوع بوضوح في كتاب المؤرخ الكبير المختص بشؤون الصين، هنري ماسبارو (الصين القديمة). يجب أن لا يغيب عن ذهننا أن ماسبارو، المؤرخ المثالي البورجوازي، لا يرى الإقطاع أبدا تشكيلة اجتماعية واقتصادية ذات قوى منتجة محددة وعلاقات إنتاجية ملائمة. إنما كان يفهم الإقطاع علاقات حقوقية تحدد الروابط بين سادة وأتباع وتنجم ومن تجزئة البلاد التي، كانت موحدة سابقا لكنها تفككت إلى إقطاعات عديدة تعيش نهجا هرميا متماسكا إلى هذا الحد أو ذاك، تحت سلطة الإمبراطورية الشكلية إلى هذا الحد أو ذاك. إن أعمال ماسبارو، بوتييه، فرانك، وباحثين بورجوازيين آخرين، الثمينة جدا من حيث توثيق ودقة بعض الملاحظات، تجعلنا نفهم أن ليس ثمة تطور اجتماعي في الصين وأن الإقطاع موجود في الصين على مدى تاريخها. على هذا الأساس ولدت فرضيات رجعية، تفرز العرقية، تقول إن الصينيين غير جديرين بالتقدم وهم مدينون للأجنبي بارتقاء حضارتهم.

إنما بفعل أعمال الباحثين الماركسيين الصينيين والسوفيات، رفضت ترهات النظام الإقطاعي القديم في الصين. فاستقر، دونما جدل، أن المجتمع الصيني تطور من النظام المشاعي البدائي إلى الإقطاعية، عبر شكل إنتاج مبني على استغلال العبيد.

صحيح أن حالة العلم الراهنة لم تسمح بعد بتأريخ العهود تأريخا دقيقا وصحيحا. وكثير من العلماء الصينيين يلحون حول الطبيعة الإقطاعية لمجتمع الهان وحتى تشو. مع ذلك ثمة أسباب للتفكير أن عهدي تشو وتسن يقع في قمة نظام العبودية، بينما يسجل عهد هان تفككه وولادة الإقطاع.

النظام الاجتماعي والاقتصادي لإمبراطورية التشو

يتميز عهد التشو بتطور سريع للقوى المنتجة. فحوالي القرن الثاني عشر قبل الميلاد يكتشف الصينيون الحديد، رغم تأخر استخدامه على مداه إلى حقبة أحدث، بين القرنين

السادس والرابع. وفي الحقول يبذر غالبا الرز. والانتقال إلى حرث الرز "المائي" يتطلب وسائل ري أكثر إتقانا. إنها زراعة معقدة جدا تتطلب الكثير من العمل والمهارة. وتبدأ الزراعة باستعمال محراث خشبي بدائي؛ وتظهر حدائق ومروج، وتتسع زراعة التوت، مع تربية دودة الحرير التي تتغذى بها.

التنقيبات التي حققها بحاثة جمهورية الصين الشعبية على أرض إمارة تشو القديمة، دلت أن استخدام البرونز اتسع في الحياة العادية وفي الإنتاج. والمشربيات البرونزية، بصناعتها الحلوة، مزدانة غالبا بنقوش دينية أو توثيقية. وصكت النقود. وأتقن نسج الحرير، النجارة-الموبيليا، والفخار ومهن أخرى. وفصلت، في أيام التشو، الصناعة نهائيا عن الزراعة . وعلى أثر تقسيم العمل، تتطور التجارة والمبادلات النقدية، وتتضخم المدن مثل هو *Hp* (قرب المدينة الحالية سي-آن)، ولو-بي (حاليا لو-يانغ)، إلخ.

في أيام ملك التشو استمر تشكل طبقات المجتمع العبودي. ولما غزا التشو إمبراطورية الشانغ، أهدى أو-أوانغ عائلاته عبيدا من أبناء البلد. وتحدثنا نقوش على أواني برونزية عن تطور دولة العبودية. "أهبك، نقرأ في أحد هذه النصوص للقرن الحادي عشر قبل الميلاد، من هذه الضواحي، ٦٥٩عبدا، غلمان اصطبلات، حراثا وندماء. أمنحك قادة وشيوخا من البربر، أكثر من ١٠٥٠عبدا.".

كانت الحروب بين الولايات تزود البلاد بالعبيد. واستنادا إلى سوما-تسيان، عشرات ألوف الرجال اقتيدوا عبيدا في أثناء هذه النزاعات. وتطور التجارة، والنقد وظهور الربا وطدت كلها في البلاد العبودية كديون. وكانت إدانة الناس الأحرار بتهمة انتهاك القوانين مصدرا آخر للعبيد. كان المدان يصير عبدا موقتا أو إلى الممات؛ وفي ظروف معينة كانت العبودية تطال ذرية المحكوم كلها. فعندما تكون التهمة ارتكاب جريمة، لا يكتفي بعبودية الفلاح وحده، بل كل أسرته، وكضمانة أكيدة، جيرانه أيضا.

بما أن الزراعة الصينية تتطلب من الفلاح معرفة واسعة وكثيرا من الممارسة، كان عمل العبد هنا ضيقا. فكانوا يفضلون استخدامه في بناء السدود، في حفر الأقنية، في تشييد القلاع، وتربية الدواجن، وفي المناجم. وحسب بعض المعلومات، كان العبيد يعملون ندماء. فسعة المعنى لكلمة "عبد" تعكس، كما يبدو، ليس فقط تنوع أصولهم بل أيضا تنوع الأعمال التي يكلفونه بها.

كان اقتصاد المجتمع الصيني في أيام التشو يستند إلى مشاعة الجوار، المستثمرة من الدولة والأسر الأرستقراطية. وكتابات الفيلسوف مانشيوس (القرن الرابع قبل الميلاد) هي التي أطلعتنا على هذه المشاعة. يقول،إن الأرض تقسم إلى تسعة أسهم متساوية، وهي إجمالا، تشبه هيروغليفية "تسينغ" التي تعني "بئر" لذا كل نهج تسينغ-تيان يعني "حقول الآبار". ثماني عائلات تستلم بالقرعة كل الأسهم. تستثمر كل أسرة السهم الذي استلمته، وكلهم، يستثمرون السهم التاسع الـ"كونغ-تيان" الحقل المشترك). كان هذا الأخير يحرث قبل غيره، ويخص موسمه الدولة.

في كتابات مانشيوس، إلى جانب السمة الطوباوية نقرأ مضمونا واقعيا يعكس أسلوب الاستثمار البدائي لأعضاء المشاعات. مع ذلك، ومنذ بداية عصر التشو، كما تشهد أغاني شي-كينغ، خلقت حقول واسعة تخص الإمبراطور ووجوه الموظفين حرثها وبذرها وحصدها فلاحو المشاعات المستعبدون وكذلك العبيد. وشيئا فشيئا ترك وأهمل نهج تسينغ-تيان، وفي أثناء الحقبة الممتدة من القرن السادس حتى الرابع قبل الميلاد، اختفت "الحقول المشتركة" من كل المناطق؛ وأسس بدلا عنها محاصصة عينية تصل إلى الثلث وحتى إلى نصف منتوج الحصاد. واصطدم هذا التدبير بمقاومة المشاعات الذين ضاقوا ذرعا بنير مستغليهم الغليظ. وتعكس أغنية لشي-كينغ، من قصيدة رائعة، غل الفلاحين تجاه المستغلين، والموظفين الذين يهرولون كالجرذان إلى المواسم.

"أيتها الجرذان، أيتها الجرذان، لا تقضمي قمحنا

نعيش تحت شريعتكم منذ ثلاث سنين

وأنتم لاتقدمون لنا أي خير

سنترككم بعيدا.

سنذهب إلى بقعة سعيدة

إلى بقعة سعيدة، سعيدة

وسنجد العدالة...."

كان طاغوت المستعبدين يثيرون غالبا تمرد الجماهير الشعبية.

تصدر لطبقة المهيمنة في صين التشو من المحيط المباشر للإمبراطورية (أسرته)، وكذلك طغاة كبار وصغار ونبلاء الدم. فوشائج القربى كانت تلعب دورا واسعا لتحديد

درجة النبالة. انعكس هذا في الأدب، وفضلا عن الألقاب التي تعين وظيفة ("هو": رامي السهم)، ثمة أيضا الكثير مما يشير إلى درجة القرابة ("تسو":ابن)، بوو *Pouo*": خال أو عم، إلخ). وكان ممثلو السلطة الحاكمة يرتدون ألبسة فخمة، ولهم حاشية وحرس شخصي. ويتلقون من الإمبراطور أو من قائدهم المحلي أرضا يستطيعون أن يستغلوها وتفرض عليهم الضرائب العينية. هذا إذا لم تقع الهبة على الأرض والفلاح.

وشيئا فشيئا يحرث الأرض وينميها جماعة من الناس الجدد: هم التجار والمرابون؛ قانونا، ليس لهم على الفلاح سوى حق الحراثة، اما اقتصاديا كانوا أصحاب نفوذ واسع. الصراع بينهم وبين الأرستقراطية، إحدى شرائح الطبقة المسيطرة، وشم كل تاريخ الصين القديم.

كان نظام إمبراطورية التشو السياسي استبداديا من النمط الشرقي، بمبدأ ملكية الدولة للأرض واستغلال المشاعات. "إن المشاعات القديمة، يكتب انجلز، حيثما حلت، تشكل منذ آلاف السنين أساس شكل الدولة الأكثر تخلفا وفظاظة، الاستبداد الشرقي[٤] ... وكانت الدولة التي تشكلت بعد تمزيق الصين في بداية الألف الأول قبل الميلاد، موضوعة تحت وصاية الطغاة الذين، بعون جيوشهم وإدارة عريضة، كانوا يمارسون سلطة الطبقة السائدة على المشاعات وعلى العبيد. وكانت دول الصين القديمة، كدول الشرق القديم الأخرى تغطي، حسب تعبير ماركس، ثلاث وظائف: نهب الرعايا المحلية؛ نهب الشعوب المجاورة وإدارة الري، التي بدونها لاوجود لأي منتوج.

صراع من أجل السيطرة. تنامي نفوذ مملكة تسين

في أثناء الحروب التي لا حصر لها، تناقصت الدول كثيرا، وحوالي نهاية القرن الرابع قبل الميلاد. لم يكن قد بقي منها سوى عدد ضئيل. كانت خمس دول الأوسع والأعتى تتصارع على السلطة باستمرار. وخلال هذا الصراع، برزت سلطة دولتين: دولة التسين ودولة التشو. كانت مملكة التسين تشغل تقريبا أرض إقليم شان-سي الحالية. كانت دولة غنية، لأن تجارتها كانت رائجة مع القبائل، تشتري منهم العبيد، الدواب، الجلود وتبيعهم الحديد، الحرير، الملح والمنتوجات الحرفية. ولقد قويت التسين بخاصة بعد

---

[٤] - ف.انجلز، انتي-دهرينغ، ص٢١٣.

ممارسة إصلاحات شانغ إيان، أحد رجال السياسة الأعظم في المملكة، إصلاحات أمكن تنفيذها بتطور المبادلات التجارية والنقدية وباندفاعة الاقتصاد. أهم هذه التدابير إلغاء نهج "تسينغ-تيان" (٣٥٠ قبل الميلاد)، ووضع ضريبة عينية وإجازة بيع وشراء الأرض بحرية. وهكذا دفع شانغ إيانغ إلى الأعلى قوة التجار والمرابين (النبلاء "الجدد")، وأمكن إحياء أراض كانت عذراء.

لقد أفضى إلغاء نهج "تسينغ-تيان" إلى تكديس الأرض بين يدي النبالة "الجديدة" وخراب الناس الأحرار في المشاعات. وبعد نهبهم، صار هؤلاء عبيداً. صارع شانغ. إيانغ ضد امتيازات أرستقراطية الدم القديمة وسن قانوناً، يقول إن الألقاب لا يجوز ان تعطى لأحد حسب أصوله بل حسب قيمة خدماته في الحرب. وهكذا حمى شانغ إيانغ المهاجرين الآتين من البقاع المجاورة، الأمر الذي أدى إلى نمو وبحبوحة شعبية.

لتفتيت المشاعات وإضعاف أرستقراطية الدم، اتخذ شانغ إيانغ تدابير هامة، مثلاً تذويب العائلات الأبوية وتنفيذ قسمة جديدة في الإدارة الأمر الذي قلب أراضي العشائر والقبائل القديمة. وفي هذا العهد، جندت مملكة التسين العديد من الأتباع المتطوعين من بين القبائل الرحّل. وسحبت من الناس الأسلحة البرونزية واستبدلت بأسلحة حديدية.

واتساع قاعدة طرق الاستعباد في الإنتاج، وانطلاقة الاقتصاد وتقوية الطبقة الحاكمة خول التسين العبور بجرأة إلى سياسة الفتح؛ من ثم، خلق أول سلطة ملكية متمركزة في الصين.

قامت مملكة تشو على المجرى الأوسط لنهر إيانغ تسو. اعترضت هذه الدولة الواسعة والكثيفة السكان، التي تمتلك جيشاً جراراً، اعترضت تدابير تسينغ التوحيدية، خصمها. في هذه الحالة، كانت حاجات ضاغطة تفرض التوحيد. إذ كان الصراع في أوساط الطبقة الحاكمة يمزق البلاد ويدمر قواها المنتجة؛ فلجأ الفلاحون، وقد حرموا من مصادر العيش، لجؤوا إلى الجبال والغابات وشكلوا فصائل مسلحة بذرت الرعب بين أصحاب العبيد والتجار.

فتكفلت مملكة التسين بتوحيد البلاد. وابتلعت بالتدريج الدول الأخرى.كانت الحروب تدور بقسوة غريبة. مثلاً عندما خضعت إمبراطورية التشو للتسين، أبيد جيشها المؤلف من ٤٠٠ ألف عنصر. وذبح الحكام وذووهم. وفي العام ٢٢١ قبل الميلاد، أعلن حاكم دولة تسين امبراطوراً على الصين وسمي (امبراطور تسين الأول). وتوحدت البلاد.

إمبراطورية تسين (٢٤٦-٢٠٧ قبل الميلاد).

وطد شي هوانغ-تي الملكية المركزية وخنق التيارات الانفصالية لدى نبلاء الدم الذين فقدوا دورهم منذ توحيد البلاد. قسم الإمبراطورية إلى ٣٦ ولاية ومنع ذكر اسم الممالك القديمة. وطبقت قوانين شانغ إيانغ في كل الإمبراطورية. وأدخل شي هوانغ-تي نهجا واحدا للمقاييس والأوزان لكل البلاد ووحد النقد. وألغيت الألقاب وصنف الناس الأحرار في عينتين: النبلاء والعوام. وإلى الولايات، يرسل المفتشون من قبل الإمبراطور مباشرة لرعاية وتنفيذ إرادته وتدابيره. وجمعت كل الأسلحة ليخلقوا منها أنصابا بارتفاع ١٥م لتزيين القصر الامبريالي. وتوحدت الكتابة الهيروغليفية (قبل هذا، كان لكل مملكة كتابتها الخاصة.

لقد مكن توحيد البلاد شي هوانغ-تي من تنشيط سياسته الخارجية. عبرت جيوش تسين نهر يونغ-تسو وانتشرت في أرض الجنوب الشاسعة. حتى فيتنام اعترفت بسيادة تشسين المطلقة. ولمقاومة القبائل الرحل وتقوية العلاقات القائمة معهم، شيد أعظم صرح في الحضارة القديمة: إنه سور الصين العظيم، الذي يمتد من خليج تشي-لي حتى الحدود الحالية لولاية كان-سو. وشرعوا بأعمال هامة في عاصمة تسين، هيان يونغ (قرب سي-آن).

على هذا، كانت إمبراطورية تسين سريعة الزوال. كانت الأعمال الواسعة المنفذة بأوامر شي هوانغ-تي تتطلب يدا عاملة غفيرة. وحسب الخرافة، إن لم نذكر سوى سور الصين العظيم، ٢مليون عبد وفلاح ملزمون بالسخرة، كانوا يعملون تحت رقابة ٣٠٠ ألف جندي. إن هذا العمل الشاق، والفقر بالأرض، والتعرض لخطر العبودية، والابتزاز والاغتصاب ، أفضى كل هذا إلى تمرد الفلاحين، الأمر الذي كان متوقعا في حياة شي هوانغ-تي. كانت النبالة القديمة، هي الأخرى، غير راضية، لأنها استعبدت من السلطة السياسية، دون أن تفقد نفوذها الاقتصادي وتأثيرها. وكانت رعايا الممالك القديمة يعانون الكثير من المضايقات. وبعيد وفاة شي هوانغ-تي (٢٠٩ قبل الميلاد)، انهارت مملكة تسين، بعد أن أنهكتها انتفاضات الفلاحين والعبيد، وكذلك تمردات أصحاب العبيد والأرستقراطية.

كان موت شي هوانغ-تي إمارة العصيان العام. مشى العبيد والفلاحون إلى القتال. وفي العام ٢٠٩، قاد فلاح فقير، تشانغ شانغ، من الولاية الحالية هو-نان، تلة من ٩٠٠ فلاح كانوا أرسلوا لدعم وترميم الحدود الشمالية، من ثم، عمت تمردات الفلاحين على

الأرض كلها. وأمام هذا، امتشق ممثلو الطبقة السائدة السلاح لاستلام السلطة. كان أقواهم هيانغ يو يعتمد على أراض في الجنوب الشرقي)، وموظف صغير اسمه ليو-بانغ. في أثناء الصراع، عقد هيانغ-هو وليو-بانغ اتفاقاً مؤقتاً. وبعد إخضاع الطامعين بالسلطة الآخرة وإبادة حاشية تسين بمؤزارة الفلاحين، خنقت ثورة الفلاحين. وقتل تشانغ شانغ.

لكن انتفاضة الفلاحين سقطت بسبب عدم توفر الانضباط والتنظيم. كان القادة ينتحلون الالقاب، ينفصلون عن الجماهير، وكثير منهم حاول الاعتراف بطبقة السلطة والانضمام إليهم. على ذلك، نجم من ثورة تشانغ شانغ إبعاد الحاشية المستبدة في إمبراطورية تسين وشيء من تحسن حياة العمال. وكانت هذه واحدة من أهم الانتفاضات الشعبية في تاريخ الصين.

إمبراطورية الهان *Han* السابقة (٢٠٦ قبل الميلاد حتى العام ٢٤ بعد الميلاد)

قمعت ثورة الفلاحين، وتنازع ليو-بانغ وهيانغ-يو السلطة. في هذا الصراع كان هيانغ-يو يدافع عن مصالح الأرستقراطية القديمة وعن كبار ملاكي العبيد. بينما كانت سياسة ليونانغ أمرن. ألغت تشريع تسين الصارم، الذي لأقل جنحة يهدد الفلاح الحر بالعبودية. ويمارس جيشه انضباطاً أعمى. وهكذا عرف كيف يكسب شرائح عريضة من الناس وينزل بخصمه هزيمة ساحقة _٢٠٢ قبل الميلاد). ثم أعلن نفسه إمبراطوراً. وسميت الأسرة التي أنشأها أسرة الهان٥.

استهلكت إمبراطورية الهان عمل شي هوانغ-تي: توحيد الصين. وسمحت الحياة المديدة لدولة وحيدة تحت حكم الهان باختلاط العناصر الأثنية من أصول عديدة، كانت تعمر البلاد؛ وساهم التوحيد أيضا بصهر اللهجات والألفاظ المحلية بلغة واحدة وحيدة. وفي أيام إمبراطورية الهان أرخت الجنسية الصينية.

كان دور الهان في الصين كبيرا بحيث سماهم الصينيون فيما بينهم: رجال الهان.

كانت سياسة أوائل أباطرة الهان تهدف دعم جهاز الدولة الملكي، توسيع أملاك الإمبراطورية وإحياء الاقتصاد الذي تأزم بشدة في آواخر أيام التشو والتسين.

---

٥ – تتضمن ملكية الهان عهدين: عهد الهان الأول (٢٠٦ق.م حتى العام ٢٤ بعد الميلاد، حتى ثورة "الأهداب الحمراء" وعهد الهان الثاني (٢٥-٢٢٠للميلاد).

كانت الحكومة تشجع بناء منشآت للري، استصلاح الأراضي البائرة أو المهلة الناجم عن إنهاك الشعب. فتقليص الضريبة سيساهم في دفع الفلاح إلى تحسين حراثة الأرض وتجهيزها. وفي أثناء حكم الهان، ينتشر الحرث بمحراث تجره دواب. وتحسن نهج البذر بالمسكبة. وتتمتع شرائح عريضة من الناس بتحسن نسبي، ناتج عن استبعاد العديد من ممثلي الطبقة المسيطرة.

كما جاهدت حكومة الهان السابقين لتنظيم نشاط التجار والمرابين. جعلتهم يدفعون ثمن تمتعهم بالثروة، بحرمان ذريتهم من استلام وظائف إدارية.لكن هذا التحريم لم يرع دوما. فقد حققت التجارة والحرف تقدما واسعا. "الأصباغ والريش بمختلف الألوان يأتي من ولايات لو *Lou* وشو، الجلود المدبوغة والأمتعة العظمية والعاجية من تسين ويان *Yen*، خشب الأرز والصندل والخيزران من تسيان-نان السمك، الملح، السجاد والجلود من يان وتسي، الخيوط الملونة، النسيج الرقيق وألبسة القنب من يان ويو *You*". هذا الكلام الموثق (من معاصر) يشهد على انطلاقة التقسيم الإقليمي للعمل.

والمبادلات التجارية والنقدية تتطور بسرعة وحسب قول سوما-تسيان، كان الأغنياء يتاجرون في أرجاء الإمبراطورية كلها ويؤمنون أي بضاعة يشاؤون.

لم يخولنا الوضع الراهن لمعارفنا من إيضاح كل القضايا التي يطرحها النظام الاجتماعي والاقتصادي في إمبراطورية الهان. فهي دولة عبودية طيلة وجودها.الوثائق التي وصلتنا تتحدث عن أغنياء أصحاب مئات بل ألوف العبيد وكما في السابق، كانوا يشغلون العبيد في بناء الصروح، والمهن الصناعية والأعمال الزراعية. وكانت تجارة العبيد مع الخارج مركزة في أسواق دائمة. وتشير النصوص دوما إلى تمردات العبيد.

وتبدأ ظاهرات جديدة تبرز في حياة الإمبراطورية الاجتماعية والاقتصادية. إذ راح السلاطين يوزعون على ذويهم وأسرهم وحاشيتهم أراضي مع فلاحيها ليستغلوا. ويخضع الملاك العقاريون أراضيهم للمزارعة -أي التأجير بحصة-. وعل الأرض البائرة وفي مناطق الحدود يوطنون فلاحي الدولة الأقنان. وتظهر "بيوت متنفذة" في شخص كبار ملاك الأراضي الذين يملكون ما لايحصى من الفلاحين، ولهم جيشهم الخاص، القادر على سحق أي مقاومة فلاحية وحتى الوصول إلى السلطة المركزية. تشير هذه الواقعات إلى تطور الإقطاع في المجتمع الصيني منذ أيام الهان.

وتسجل ملكية الإمبراطور يو-ني (١٤٠-٨٦ قبل الميلاد) قمة إمبراطورية الهان. فبعد قمع الأسر الأرستقراطية، عرف يو-تي كيف يوطد التجار أو الصناعيين بالسهر على تنفيذ التدابير الهادفة لدعم قدرة البلاد الاقتصادية، مثل تأسيس احتكار الدولة لاستخراج الملح ومعدن الحديد ومنع الأفراد من صك النقود.

منح رواج الاقتصاد الصين في القرن الثاني قبل الميلاد الانتقال إلى سياسة خارجية نشطة. فأخضع جيش الهان فيات-نام، فتح يان-نان وجنوب منشوريا. وكانت العلاقات مع الهون *Huns* بين أهم قضايا السياسة الخارجية. فغزواتهم المستمرة، التهديد بحلف قوي بأمرتهم وبقيادة شن يومي تي، حرض حكومة الهان للتفتيش عن حلفاء. ولهذا الغرض أرسل في العام ١٣٨ قبل الميلاد إلى الغرب سياسي قدير، الجنرال تشونغ-كيان. بمهمة إقامة صلات مع جيران الهون الغربيين، الميساجت *les Massage'tes*.

وبعد ترحال طويل وبقائه عشر سنين سجينا لدى الهون، وصل تشانغ-كيان إلى آسيا الوسطى حيث زار خوارزم، بخارى ومدنا أخرى.

أيقظت المعلومات التي جلبها حول هذه البلاد الغريبة في الصين اهتماما واسعا. ورغم أن مهمته الرئيسة: عقد حلف مع الميساجت، لم تتم، كشفت تقاريره لرجال الدولة عن وجود حضارة عظيمة تزدهر على أرض واسعة ليس لديهم عنها أي فكرة حتى آنئذ.

واستنادا إلى اتصالات تشانغ-كيان جهزت حملة نحو الغرب. وهكذا كانت رحلته نقطة انطلاق محادثات بين الصين ومواطن حضارية أخرى.

وبعد عدة معارك ضارية، نجح الصينيون بدحر الهون نحو الشمال و، في العام ١٠٤ قبل الميلاد، وبعد اجتياز صحراء تكلا-ماكان وجبال تيان شان، تغلغلوا في وادي فرغانا. هو ذا الأصل لأحد الطرق الرئيسية الكبرى في تجارة العهد القديم المعروف تحت اسم طريق الحرير العظيم الذي كان يصل الصين بالإمبراطورية الرومانية، بمملكة البارث *Parthes* وبالهند. على هذا الطريق صدرت الصين حريرها، حديدها، منتوجاتها المهنية واستوردت موادا هامة، الأحصنة بخاصة.

أزمة إمبراطورية الهان. إصلاحات يانغ-مانغ. عصيان "الأهداب الحمراء"

إن إطلاق اليد ببيع وشراء الأرض، وزيادة الضرائب، المتولد عن بذخ القصر المفرط واتساع السياسة الخارجية، أفضى إلى خراب الفلاحين. ورغم أن الضريبة كانت

٣٠/١ أو ١٥/١ من المحصول مبدئيا، فقد كانت، بالواقع، وبشهادة تسيان هان شو،تتجـاوز النصف. وكانت تفرض ضريبة أخرى على كل رجل يرغب في الإعفـاء مـن الخدمـة العسكرية. نثبت هنا كيف يصف تسيان هان شو وضع الفلاحة في الصين في القـرون الأول قبل الميلاد: "كان المتنفذون يمسحون أراضيهم بآلاف المو٦، بينما لايملك الفقـراء" مرقـد عنزة". الآباء، الأبناء، الازواج والزوجات يعملون بالأرض طيلة العام وثروة عملـهم لا تكفي غذاء لهم، بينما يفرض على الفقراء أن يكتفوا بالنخالة".

لقد مكنت زعزعة الإمبراطورية القبائل الرحل احتلال طريق الحرير العظيم ودمـار تجارة الصين الخارجية.

وتفاقمت التمردات أكثر فأكثر (في نهاية القرن الأول قبل الميلاد)، وشارك بها العبيـد والناس الأحرار الذين حرموا ملكيتهم، فبرزت الإمارات الأولى لأزمة قاصمة كانت تعـد لإمبراطورية الهان.

حاولت الحكومة تجنب انفجار الغضب الشعبي بإصلاحات جزئية، بوضـع، مثـلا، معيار يحدد الأرزاق العقارية (٥٠٠٠مو) وملكية العبيد (٢٠٠). لكن هذه التدابـير ذهبـت هباء.

فكرر المحاولة أحد أفراد العائلة المالكة، يانغ-مانغ، بمساعدة متـآمرين، بـالتصدي للأزمة بسبل أكثر جذرية. وبعد إزاحة الإمبراطور، نشر قرارا (في العام ١٠قبل الميـلاد) بتدويل الأرض كلها. ومنئذ، صار العبيد يعتبرون أملاكا خاصة. كان يانغ-مانغ يهدف بهذا التدبير استبدال عمل العبيد بأساليب استثمار إقطاعية. وكان يطالب أيضا بتوزيـع الأرض على كل الذين حرموا منها آنئذ. وبهذا اعتبر يانغ-مانغ تدابيره كعودة لنظام "تسين-تيان".

حاول أيضا تنظيم أسعار السوق وتنظيم رصيد للدولة بـ ١٠%في العام. فـاصطدمت تدابيره بمقاومة ضارية من الطبقة الحاكمة. فاضطر بالقوة إلى التخلي عنها.

أثار فشل هذه الإصلاحات تمردا ضاغطا عرض الامبراطور للخطر. ونشبت ثـورة فلاحية في عامي ١٧و١٨ بعد الميلاد في ولايات هو-نان، هو-بي وشـان-تونـغ. كـان الثوار منظمين بفصائل لكل منها اسم وقائد. كانت أقواها فصائل "الأهداب الحمراء"، فـي

---

٦ - ٠,٠٦هكتار، تقريبا.

ولاية شان-تونغ، التي تدعى هكذا لأنها كانت تلوّن أهدابها. حاول يانغ-مانغ كبح هذه الانتفاضة بقوة السلاح. وفي العام ٢٣، استولى الثوار على عاصمة إمبراطورية تشانغ-نغان وقتلوا يانغ-مانغ. واشترك بالتمرد أعضاء من بيت الهان الإمبرايالي، كانوا مبعدين عن السلطة. وأعلن أحدهم إمبراطوراً. ثم، تحولت قوات أنصاره ضد المتمردين وأغرقوا العصيان بالدم.

إمبراطورية الهان الأخيرة (٢٥-٢٠ بعد الميلاد)

رغم ان الثورة قمعت، اضطرت الطبقة الحاكمة لبعض التنازلات. حرر الأولاد الذين بيعوا كعبيد، وأعفي عن بعض الثوار. وجزء من الأراضي القابلة للزراعة التي كانت تخص المالكين الكبار انتقلت إلى يد الفلاحين. وقلص الإمبراطور الضريبة. وصارت العبودية أقل قسوة، وتحسنت أساليب الاستثمار، فكانت، إزاء كل هذا، انطلاقة اقتصادية جديدة. رمم نظام الري واتسع، فنمت الأرض القابلة للزراعة. واتسع استخراج معدن الحديد، وكذلك الفونت. وراج الاقتصاد. وعادت الصين في نهاية القرن الأول للميلاد إلى امتلاك طريق الحرير العظيم.

وفي العام ٩١ بعد الميلاد. احتل جنرال كبير ورجل سياسة صيني، بان-تشاو، إقليم سين-كيانغ وشن حملة إلى آسيا الوسطى، التي اضطرت إلى قبول سيادة الصين. ولاقى الهون هزيمة كاملة واضطر قسم منهم إلى دفع الضريبة للصين، واكره الآخرون على النزوح إلى الغرب.

لكن ما أن توطدت اوضاعهم، حتى عزفت الطبقة الحاكمة عن التنازلات التي أعطيت للفلاحين. وأخذ تطور تكديس الأرض إيقاعا غير معروف. فامتلكت "البيوت النافذة" مئات ألوف الهكتارات التي حرثها الفلاحون المستعبدون. ودمرت من جديد منشآت الري. وتصدعت أركان الدولة.

أثار خراب الفلاحة وتفكك جهاز الدولة حركة فلاحية واسعة، عرفت في التاريخ باسم عصيان "القبعات الصفر". لم تكن هذه الثورة الناشبة في العام١٨٤، في ولاية شون-كونغ تشبه أبدا ثورة "الأهداب الحمراء".فقد انبثقت بعد أن علل قادتها أهدافهم للشعب.كانوا قد خلقوا مسبقا عشرات السرايا وحددوا يوم الهجوم. كانت الحركة مستوحاة من كتاب تاو-توكينغ.

أعلن المبشر التاوي تشانغ كيو، قائد الثورة الإلغاء الكامل للنظام القائم (سماه

الـ"سماء الغبراء") ومجيء نظام جديد، عادل (سماه اسماً خيالياً "مملكة السماء الصفراء")؛ يأتي هذا النظام عندما يتحقق (مبدأ السلم الأشمل). استلم مخطط الثورة أحد الخونة، فاستعجل الهجوم. كسب التمرد الإمبراطورية كلها بسرعة، حرر الثوار العبيد وقتلوا الموظفين المحقوقين، واقتسموا فيما بينهم السلع الثمينة التي سيطروا عليها. دامت ثورة "القبعات الصفراء" قرابة ربع قرن وأبيدت بصعوبة كبرى. وفي لهيب المعارك، انهارت إمبراطورية الهان التي احتفظت بشكل من الاستغلال البالي، الساقط، أي العبودية وتركت مكانها للنظام الإقطاعي.

حضارة الصين القديمة

إن ضرورات من النمط العملي حرضت على ابتكار الكتابة الصينية إلى أقدم القدم. وفي النصوص المرسومة على العظام (في الألف الثانية قبل الميلاد)، عد البحاثة أكثر من ٢٠٠ هيرورغليفية، هذا يعني أن الكتابة كانت قد ولدت قبل هذا التاريخ بكثير.

يمكن مقارنة تطور النهج الهيروغليفي الصيني بالنهج المصري. وقد حفظت رسومات نقشية بدائية باعتبارها تساوي كلمات. مثل الهيروغليفيات "رجل"، "ابن"، "امرأة"، "شجرة"، "علو"، "أسفل"، إلخ. وترتيب الهروغليفيات البسيطة سمح أن نشكل منها هروغليفيات أخرى، هرغليفيات من كلمة "شجرة" تعني "غابة".

وفيما بعد (في نهاية الألف الثانية وبداية الألف الأولى قبل الميلاد)، يستمر الصينيون بإتقان كتابتهم بإضافة إلى الشارة المفتاح، التي تشير إلى أي صنف من الظاهرات يعود المفهوم المعبر عنه، شارة أخرى، ذات خصيصة صوتية، ليدلوا إلى اللفظة.

وفي أيام تسين، أول ملكية مركزية، توحدت الكتابة ؛ وفي عهد آل هان، أخذت تقريبا شكلها الحالي بفضل استخدام مادة جديدة: الحرير، ثم الورق (قبل هذا، استخدموا الرقائق الخشبية). وإن كان الصينيون يكتبون حتى الآن بشكل عمودي، ذلك لأنهم كانوا يكتبون على شطائر ضيقة.

كان وضع تقويم زراعي يتطلب مراقبة الأفلاك؛ وقد دل الصينيون على مهارة مدهشة بهذا المجال. هكذا، قبل هيبارك بـ ٢٠٠ عام؛ وضع علماء الصين مبادرة الاعتداليين أي تبديل نقطة اعتدال الربيع حسب دائرة البروج. وفي أيام أسرة تسين وضع أول تقويم شمسي في العالم. صحيح أنه لم يستخدم عمليا لأن الصينيين كانوا يتبعون التقويم القمري. وكان قدماؤهم يعرفون دورية الكسوفات الشمسية.

إلى الصين يعود شرف ابتكار الفرجار. وكان لديهم أسس ثابتة في علم الرياضيات، بخاصة مبادئ الجذور المربعة والمكعبة. وقد وصلتنا أبحاث عديدة في علم وهندسة الزراعة، تمثل بيانا واضحا في معارف التقنية الزراعية لذلك الزمن، تعطي طرقا في الحراثة والتعديل والتسميد. وحول العديد من النباتات، وتصلح للمزارعين. قد تألق الحرفيون الصناعيون بنسج المنسوجات الفنية، مواد من البرونز، من الحديد، من العاج، من الراتنج ومن الحجارة الدقيقة.

وفي مجال الفنون التشكيلية، قدم الفنانون الصينيون روائع نادرة. فمنحوتات القبور، النصب، والآثار المعمارية، التي للأسف لم يصلنا منها سوى القليل، تشير إلى مواهب فائقة.

. خلقت أخطاء النظام الاجتماعي، الحروب، وتفاقم الصراع الطبقي في نهاية أيام آل تشو، خلقت كلها مناهج فلسفية ونظريات دينية طبعت بطابعها كل الإيديولوجيات الصينية.

ولقد عكست نظرية كونفشيوس مصالح أرستقراطية الدم. نحن نعرف الاسم اللاتيني لهذا المفكر الكبير الصيني القديم، لأن اسمه الصيني هو كونغ-تسو، فقد ولد حوالي ٥٥٠ ومات حوالي ٤٨٠ قبل الميلاد؛ وضع نظرية مثالية تخلط السياسة بالأخلاق وأعلنت في بحوث فلسفية، لخصها رواده. وانطلاقا من مبدأ "إنساني"، أعد كونفشيوس منهاجا للعلاقات بين الناس، يرتكز إلى احترام الكبار والإتمام الدقيق لواجبات الإنسان بهذا الشرط أو ذاك تجاه المجتمع. "ليكن الأب أبا، الابن ابنا والعاهل عاهلا"، يقول. ومع إقراره بالخضوع المطلق للأسمى سمح كونفشيوس بإبعاد أحد المتنفذين، إن دل أنه غير جدير بالإضطلاع بمهمته. وقد أفضى ربط أخلاق كونفشيوس بالتقيد الصارم لعبادة الأسلاف إلى طبع هذه النظرية بالطابع الديني.

وكتاب تاو-توكينغ (في القرن السادس قبل الميلاد) المنسوب للاو-تسو ينسجم مع بعض التطلعات الفلاحية الأبوية وصغار الملاكين العقاريين. يصيغ هذا الكتاب التاوية. ورغم أنه يتضمن عناصر من الرؤيا المادية للعالم (نفي الإله الخالق) وجدلا عفويا، ينشر العودة إلى عهد سابق، معروف بالعصر الذهبي حيث يعيش الجميع حياة هادئة. ومع نقده اللاذع والحاسم لنظام المعاش، نظام "يجعل الناس يجوعون نتيجة الابتزاز والاغتصاب والضرائب"، يوصي تاو-توكينغ بالعودة إلى عهود طوباوية حيث "لا يتكالب الناس على اقتناء الكنوز". وكانت مصالح النبالة الجديدة والتجار محمية من قبل رواد مدرسة العادلين، كثير منهم رجال دولة تسين. كان المعلمون في هذه المدرسة، تشانغ يانغ، هان في-تسو

وغيرهم يطالبون بخلق دولة موحدة، بالغة المركزية، تمسك عقوباتها الصارمة الناس من حافة الإجرام وتعيدهم إلى الطبيعة البشرية-الإنسانية. وكثيرا ماتبدى الصراع بين كونفشيوس والعادلين شرسا. ناهض الكونفوشيون ملكية هوانغ-تي و، في العام ٢١٣ قبل الميلاد، عذب الكثير منهم وأحرقت كتبهم. وفي بداية القرن الأول للميلاد، عاش فيلسوف كبير صيني مادي، يانغ تشونغ، كان يؤكد فكرة العالم المادي وينكر خلود الروح.

لقد حافظت الأعمال الأدبية التي وصلتنا على نصاعتها. ففي نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث قبل الميلاد، عاش شاعر الصين العظيم، كيو-إيوان، وكان رجل دولة شهيرا. كان العدو الأزرق للأساليب البربرية والوحشية التي مارسها تسين من اجل السيطرة؛ وكان كيو-إيوان نصيرا لوحدة البلاد العفوية، الأمر الذي كلفه النفي والإبعاد.

ولقد تحدث في كتبه حول وطنه، وحول رحمة وتسامح الناس في أيام الكره والظلم. كما قدر هذا السيد، هذا الأرستقراطي، عاليا التواصل العميق مع تقاليد القصيدة الشعبية، ووثق بعمق بقوى الشعب. وفي تعميماته المترعة بالتهكم اللاذع والحزن العميق تتجلى مع ذلك رنة متفائلة.

وحافظ نثر سوما-تسين والمؤرخ بان-كيو، خلال آلاف السنين، على قيم النماذج الخالدة. تتضمن كتاباتهم خرافات وطنية، عددا كبيرا من الأمثال، من الحكم، والأغاني الشعبية. إن السيرة الشخصية الرسمية لكبار رجال الصين تأخذ غالبا في أعمالهم شكل القصص المقتبسة من الدرامية، التي تدهش الملح والنوادر وقيمتها الوثائقية، التي تشبه الحوارات المبتكرة لصحة التسلسل التاريخي للأحداث؛ وكانت تعتبر من خلال هدفها التعليمي. والموسيقى أيضا، لعبت دورا رائعا في حياة شيوخ الصين. والرقص، الغناء المتكامل مع آلات موسيقية متنوعة، يتمتعان بشعبية عميقة.

إن دور الحضارة الصينية عند شعوب آسيا يشبه دور الحضارة الإغريقية عند شعوب أوربا. فالتقنية، الفن، الأدب والفلسفة في الصين كانت النموذج في اليابان، في كوريا، في فيتنام، وفي منغوليا. وكانت الكتابة الصينية مستخدمة حتى أمد قريب في الأعمال العلمية، في النصوص الدبلوماسية والأدب في آسيا الشرقية.

الفصل العشرون

اليونان

مدخل. مصادر معلومات وتأريخ

لقد لعبت دراسة تاريخ اليونان القديمة، بخاصة تراثها الثقافي، دوراً كبيراً في تطور علم التاريخ الحديث. ماركس وأنجلز، مؤسسا هذا العلم، أفادا جداً من تاريخ العهود القديمة. كانا أول من قدم المجتمع القديم كمجتمع عبودي، وهما يبرزان دوره التقدمي في التاريخ العالمي. إليكم ماهي، بالتالي، القضايا الأساسية في التاريخ القديم: تطور القوى المنتجة، على أساس الاستغلال العبودي، في الحرف، وبخاصة، في الزراعة؛ الطبيعة الاستغلالية في مختلف مراحل تطور المجتمع؛ ظهور الدولة وخوصها؛ الأسباب الفاعلة في تطور الحضارة القديمة؛ مراحل تاريخ المجتمع القديم بعامة والمجتمع اليوناني والروماني بخاصة.

تخص هذه القضايا أيضاً النقاط الرئيسية في دراسة تاريخ اليونان القديم. فالمكتشفات الحديثة تضيف قبساً آخر على تاريخ القبائل والشعوب التي كانت تقطن أرض اليونان القديمة، على الجو الذي ولدت فيه الحضارة اليونانية (الكريتية والمسينية). ثم تأتي الحقبة المتصلة مباشرة بتطور اليونان والمسماة "العهد الهوميري"ـ مرحلة تفكك المجتمع العبودي والدولة، والبناء الحضاري (من القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد)، الذي كان الاستعمار أحد مراحله الهامة، ككل هذه المرحلة من التاريخ.

كانت المرحلة "الكلاسيكية" (القرن ٥-٤ قبل الميلاد)، يوم وصل المجتمع العبودي والحضارة اليونانية إلى أوج تطورها ويوم احتدت واشتدت تناحرات هذا المجتمع، كانت في أحشاء تاريخ اليونان القديم. أخيراً، المرحلة الأهم التي ينمو دورها في علم التاريخ، هي المرحلة الهلينية، مرحلة انصهار التاريخ اليوناني جزئياً بتاريخ الشرق، ومرحلة بلوغ مجتمع الرقيق أوجه (القرن ٣-٢ قبل الميلاد).

مؤرخو اليونان

لقد ظهرت الرغبة في معرفة ماضي اليونان في القرن السادس قبل الميلاد في عمل مؤرخي العهد الأيوني من آسيا الصغرى. فقد عرض هؤلاء، بروح أدبية، الأساطير والخرافات التي تعكس بطريقة أو بأخرى أولى عصور الهلاد ***Hellade***[1] هكذا، كتب ميليه حكايته (حوالي ٥٠٠ قبل الميلاد) أصوله، سنير "الأبطال" (هكذا يسمي اليونان أسلافهم الأسطوريين المنحدرين من الآلهة وكانوا معروفين بمآثرهم).

لقد ولد "أبو التاريخ"، هيرودوت (حوالي ٤٨٤-٤٢٥)، في هلكرناس ***Halicarnasse***. آنئذ، صارت أثينا، المنتصرة على الفرس، المركز الاقتصادي، السياسي والثقافي للكيان البحري العظيم الذي يسيطر على شرق البحر الأبيض المتوسط. وهنا ازدهر نظام ديموقراطية العبودية التي كان هيرودوت، المقيم في أثينا (يسميها وطنه الثاني)، منظرها الورع. يتضمن عمل هيرودوت تسعة كتب. تخص الثلاثة الأولى تاريخ شعوب آسيا الوسطى، الفرس، آشوريا، مصر والبلدان المجاورة؛ يصف الكتاب الرابع سيثيا ***Scythie***[2]. يعطي كل هذا معلومات قيمة عن الهيلاد. وخصصت الكتب الباقية (٥-٩) للحروب الميدية. غالباً ماتكون كتابات هيرودوت ساذجة؛ يؤمن بتدخل الآلهة في شؤون الناس ويقدم لنا الأساطير والخرافات كأحداث تاريخية. لكنه من جهة أخرى يسعى إلى تعليل هذه الأحداث وأعمال البشر بعلل معقولة وطبيعية. فضلاً عن هذا، يطرح أحياناً قضايا نظرية عامة حول ارتقاء الدولة والمجتمع، الأمر الذي يثبت صلته المتينة بالنضال الإيدلوجي والسياسي العنيف الدائر آنئذ في أثينا. وكتابه منهل هام في دراسة الحياة السياسية والثقافية لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد.

ويطلعنا توسيديت الأثيني (حوالي ٤٦٠-٣٩٩)، في "تاريخ حرب البلوبونيز"، المؤلف من ثمانية كتب والذي لم يصلنا كله، على فهم أعمق للتطور التاريخي؛ ولايفتقر كتابه للفكر الثاقب. كان الهدف من كتاب توسيديت تقديم عرض لحرب البلوبونيز، الصراع الضاري بين جزئي الهلاد: آثينا، الدولة البحرية، والمجمع البلوبونيني، وعلى رأسه إسبارطة. يدل

---

[1] - الأقاليم الوسطى في اليونان القديمة.

[2] -في الجغرافيا القديمة، وبالمعنى الضيق، من الدانوب حتى الدون.

المؤرخ على اتساع هذه الحرب الاستثنائي، وإلى دورها في التاريخ: لم يخض الصراع فقط سكان الأرض الهيلينية من البحر المتوسط، بل اشترك الفرس فيه. ومدخل الكتاب الأول (فصول ١-٢١)، المسمى أثاري، حيث يعطي المؤلف، عدا الملاحظات المنهجية، معلومات هامة حول تاريخ اليونان، كتاب في غاية الأهمية. باعترافه، عمل توسيديت في تقديم الأحداث التاريخية بطريقة يجعل كتابه لايفقد قيمته. كونه مؤرخاً تحريرياً، اهتم في الوقت ذاته بكشف أسباب الأحداث ووصف الصراع السياسي الداخلي. كتب هذا الصراع بشكل خطب تخاطب قادة المعسكرين؛ ويشير المؤلف أن هذه الخطابات ألغيت فعلاً، ويقدمها، إن لم تكن كلمة فكلمة، منسجمة مع مايمكن أن يقوله هذا الخطيب أو ذاك في مثل هذه الظروف وانطلاقاً من آرائه. ولوحات الصراع الطبقي رسمتها ريشة معلم، بخاصة وصف الحرب الأهلية في كورسير التي ساهم فيها العبيد بفاعلية. والأكثر تأثيراً لوحة التدمير الناجم عن الصراع الداخلي (كتاب ٣، فصل ٨٢-٨٤). ويقدم لنا المؤلف وصفاً بارعاً للحقد الطبقي في مجتمع الرق، الحقد البالغ ذروته أثناء الحرب الأهلية.

وبعد توسيديت، يستمر العلم التاريخي في اليونان (كباقي العلوم الاجتماعية بشكل عام) بالتطور. صحيح أن دقة التحليل العلمي التي تميز توسيديت لم يستطع أحد أن يقدمها، إلا ماندر، من المؤرخين اللاحقين؛ إنما بالمقابل، ازداد عدد المؤلفات بشكل ملحوظ. في أغلب مدن هيلاد ولو كانت قليلة الأهمية (وكان منها المئات، التي ظهرت، في أثناء القرون التالية، لكثير من المؤرخين الذين تصدوا لدراسة مدنهم أو بلدانهم. للأسف، لم يصلنا أغلب هذه الكتابات؛ فالزمن لم يصن إلا النثرات، وأحياناً العناوين أو أسماء الكتب فقط. لكن لهذا أيضاً أهمية كبرى؛ شواهد مختصرات آثيدس ***Athides*** التي وضعها كتاب أثينيون درسوا ماضي الأتيك ***Attique***، وبخاصة، التقليد التاريخي.

لكن أهمية المؤلفات التاريخية اليونانية تبقى كبيرة في أي حال وصلتنا. مثل "الهيلينيون" بقلم خنوفون، الذي ظهر بعد تاريخ توسيديت وانطلاقاً من الفترة التي توقف عندها هذا المؤرخ الكبير (العام ٤١١ قبل الميلاد). ينجز خنوفون وصف حرب البلبونيز ويتابع تاريخ هيلاّد حتى العام ٣٦٢. رغم أنه اتبع نهج توسيديت، فعرض الأحداث كمن اشترك فيها، لكن خنوفون كمؤرخ كان أكثر سطحية وأضيق أفقاً. كان خنوفون مواطناً آثينياً لكنه، كونه يكره الديموقراطية الآثينية، كتب كصديق ومعجب بالسبارطيين

الأرستقراط. وفي "الهلليونيون" يهمل الواقعات الأساسية في تاريخ آثينا الديموقراطية مثــلاً، الفيدرالية الثانية البحرية لآثينا؛ وبالعكس، يبرز الأمــور الثانويــة، والتــي تقــدم وتنفــع السبارطيين. على ذلك، "الهللينيون" هو العمل الوحيد الذي يعرض بطريقة منسجمة ومنسقة ومنهاجية الحياة في النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. وإذا ما درس بذهن نــاقد، يمكن لهذا الكتاب أن يؤازر بدراسة هذه الحقبة.

كما أننا مدينون لخنوفون بكمية من الكتابات الهامة التي تميز مختلف وجوه الحياة في هيللاد في القرن الرابع قبل الميلاد؛ مثل "أناباس"، المتعلقة بغزوة الـ ١٠ آلاف وتراجعــهم أو انسحامهم. وباعتباره اشترك شخصياً بالحملة. يصف خنوفون القبائل والشــعوب التــي كانت تقطن في شرق القفقاس. لهذه المعلومات أهمية كبيرة في دراسة أرمينيا وجيورجيــا في الزمن الغابر؛ وأعمال أخرى هامة لخنوفون هي "جمهوريــة إســبارطة"، "المداخيــل" (مسألة الأموال في دولة العبودية). أي ماعرف بــ"مذكرات سقراط" وغيرها.

وعلى إحدى قطع البردي الموجودة في مصر (في الأقصر) وصف لتاريخ اليونان في بداية القرن الرابع قبل الميلاد. بين العلماء المعاصرين، يفترض البعض أن هــذا النــص ملخص للــ"تاريخ الهيليني" لتيوبومب، المؤرخ اليوناني للنصف الثاني من القرن الرابع قبل الميلاد. عدا "دستور آثينا" لأرسطو، الذي سنحكي عنه، المكتشف، هو الآخر، على بــردي مصري، لم تصلنا الأعمال الأخرى لمؤرخي القرن الرابع.

وفي القرن الرابع، نشر إيفور عملاً ذا أهمية عالمية، كثيراً مــارجع إليــه مؤرخــو اليونان. لكن لم يبق منه سوى قبسات.

وأحد أشهر مؤرخي العهد القديم، بوليب (حوالي ٢٠٥-١٢٥ قبل الميلاد)، عاش فــي حقبة فتوحات الجمهورية الرومانية وتحولها إلى دولة بحرية جبارة. وقد كتب في النصــف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد "التاريخ العام" يعرض فيه أحداثاً كان هو نفسه شــاهدها. كان بوليب مكلفاً بالإشارة إلى الأسباب التي أسقطت كل بلدان العالم تحت النير الرومــاني. إنه محق تماماً بعنونة كتابه "التاريخ العام" لأنه يشتمل على الأحداث التي جرت في العــالم المتحضر كله. ومثل توسيديت، لم يكتف بوليب بتقديم نتيجة الواقعات وأسبابها؛ إنما يســعى إلى كشف القوى المحركة العامة للتطور التاريخي. وجوهر هذا التطور، برأي الكاتب، في الانتقال الأكيد من نظام الدولة إلى نظام آخر، الانتقال الذي يتم حسب قوانين محددة. يقــول

كل جسم، كل دولة وكل مشروع، تنتقل كلها حسب قوانين الطبيعة، بمراحل متنامية، ثم متفتحة، وأخيراً، منحدرة. رغم سذاجتها الظاهرة، كانت نظرية بوليب إنجازاً كبيراً. إذ يثبت عمله أن بلاد اليونان، وهي تخسر استقلالها السياسي، كانت تحافظ على مستوى ثقافي رفيع. ولسوء الحظ، من كتب بوليب الأربعين لم يصلنا سوى خمسة؛ وماتبقى لايزيد عن مقاطع متناثرة. على ذلك، فقد أغنى "تاريخه العام" بشكل ملموس معارفنا حول يونان القرنين الثالث والثاني.

وبعد بوليب، وفي القرن الأول قبل الميلاد، وحتى القرن الأول بعد الميلاد، تعطي اليونان، وقد صارت أحد أقاليم الامبراطورية الرومانية، تعطي العالم عدداً من أشهر المؤرخين. مثل ديودور سيسيليا، "بمكتبته التاريخية" ذات الأربعين مجلداً التي لم يصلنا منها سوى النذر اليسير. عاش ديودور في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد. رحل كثيراً وقرأ كثيراً. وفي "مكتبته التاريخية" كان يعمل على بعث تاريخ البشرية منذ أزمنة الخرافات حتى أيامه... نقرأ في هذا السفر كثيراً من المعلومات الهامة حول تاريخ اليونان. وبجهد ومجهود ديودور الذي أفاد من وثائق عديدة مشتتة فيما بعد، يتيسر لنا أن ننقح ونتمم "الهلينيون" لخنوفون، وأن نجمع معطيات ثمينة حول حركات ثورية ضخمة في يونان القرن الرابع قبل الميلاد، وغير ذلك. لكن "المكتبة التاريخية" لديودور هي تجميع لأعمال مؤرخين سابقين أكثر منها عمل علمي برأسه. وفيما بعد، في القرن الثاني بعد الميلاد، كتب الكاتب والمؤرخ اليوناني آريان، حول حملات الاسكندر الكبير، السفر الأصح الذي وصلنا. وكمعاصر لآريان، كتب المؤرخ والجغرافي بوزانياس عملاً هاماً عنونه بـ"بيانات وتعليقات حول اليونان"، أطلعنا على مختلف المناطق، والآثار المعمارية، والشوارع، والميادين، والنقوش اليونانية كما كانت منذ ١٨٠٠ سنة. وخلف استرابون، الجغرافي الكبير، الهليني، الذي كتب في حوالي بداية الميلاد، خلف معلومات تاريخية ذات أهمية قصوى. وعمله "الجغرافيا" وهو في ١٧ مجلداً يتحدث عن بلدان حوض البحر المتوسط،أفريقيا، إيران، الهند، الجزيرة العربية، مابين النهرين، أوربا الغربية وجنوب البحر الأسود. وينحو المؤلف أحياناً نحو استطراد طويل فيتحدث عن تاريخ هذا البلد أو ذاك. فنطلع، مثلاً، على كثير من المعطيات القيمة حول ماضي مدن آسيا الوسطى ومختلف مناطق هيللاد.

كان بلوتارك، كاتب سير الشخصيات السياسية الرومانية واليونانية، معاصراً لآريان وبوزانياس. وكتاباته ذات أهمية كبرى في علم التاريخ، لأنه استخدم عدداً من الوثائق التي لم يصلنا منها شيء مطلقاً. وصف حياة ليكورغ، سولون، ثمستوكل، سيمون، أرستيد، بيكلس، ألسبياد، دموستين، ملوك إسبارطا آجيس وكليومين (القرن الثالث قبل الميلاد) وكثير غيرهم من كبار رجالات العهود الغابرة. حفظت ٥٠ من هذه السير حتى اليوم. يبدو فيها مؤلفوها كمؤرخين، وحياة أبطالها على صلة وثيقة بالوسط التاريخي؛ لكن مهمتها الرئيسة من طبيعة تعليمية، الأمر الذي يجعلها أحياناً جزئية ضيقة المدى فالسير التي كتبها بلوتارك التي تشمل قرابة ألف عام من التاريخ القديم، هي مع ذلك ذات قيمة توثيقية كبرى.

تثير أعمال فلاسفة اليونان أيضاً الحياة الاجتماعية والسياسية لبلادهم. وهكذا أوقفت "جمهورية" أفلاطون على بناء نظام سياسي رآه مثالياً. والمسائل الاجتماعية والسياسية، كمسائل التاريخ، تشغل الجزء الأعظم من عمل أرسطو. نثبت هنا اثنين من كتبه: "السياسة" و"بناء أثينا". "السياسة" بحث واسع حول أصول الدولة، جوهرها، أشكالها، إلخ. وهي ذات أهمية كبرى لدراسة تاريخ اليونان. ويقدم مؤلف "بناء أثينا" تاريخ النظام السياسي لأثينا منذ تشكلها من آتيك *Attique* حتى نهاية حرب البلوبونير، أي حتى ٤٠٤-٤٠٣ قبل الميلاد. لم يكتشف هذا المؤلف حتى العام ١٨٩٠. ومنذئذ، تعمقت معارفنا حول الدولة الأثينية، بخاصة أن أرسطو يقدم لنا في الجزء الثاني من الكتاب، عرضاً مفصلاً عن النظام الذي كان قائماً في أثينا في حياته.

وفي كتابه "بناء أثينا" استخدم أرسطو عدداً من الوثائق، كانت المدونات والأعمال الأدبية ذات طبيعة تاريخية: الأتيد *Les Athies*، "تاريخ" هيرودوت وكمية من الحوليات المحلية. وعندما ندرس عمل أرسطو هذا، يجب أن لاننسى أنه ما كان أبداً من أنصار الديموقراطية الأثينية، وهذا واضح في نصوصه. و"بناء أثينا" ليس سوى جزء من عمل ضخم ضاع، بشير "سياسته". لقد كتب أرسطو وتلاميذه إجمالاً ١٥٨ "سياسته"، وبحث حول تاريخ نظام العديد من الدول المذكورة.

مصادر أدبية:

الإلياذة والأوديسة، قصيدتان آبدتان عن العهد القديم الهليني بقلم هوميروس، ترسمان لوحة بليغة عن حياة الشعب اليوناني منذ فجر تاريخه من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد (سنتكلم

عن هذا بالتفصيل في الفصل ٢٣، فقرة٣). وفي نهاية القرن الثامن والسابع نبغ عدد من الشعراء اليونان، شهروا بأعمالهم واقعات تاريخية. نثبت هنا بداية هيزيود، قارض قصائد تعليمية (حوالي العام ٧٠٠) حول حياة الكدح في القرى، والشعراء الغنائيين للقرنين السابع والسادس: أرشلوك، ألسي، تيرتي، سولون، تيونيس، وغيرهم، تتحدث أشعارهم عن الصراع الاجتماعي والسياسي لزمانهم وهي، في الوقت عينه، ذات قيمة تاريخية. أشيل، الكاتب التراجيدي الكبير في بداية القرن الخامس، يرسم في قصيدته "الفرس" معركة سالامين التي اشترك فيها وأتم هكذا قصة هرودوت. فالكوميديات اليونانية القديمة، بخاصة كوميديات أرستوفان، معاصر ثوسديد، كوميديات عبقرية، مقتبسة من الهجاء السياسي القاسي، ولها أيضاً قيمة كبرى باعتبارها مصادر تاريخية.

يفضل المؤرخون اليونان أن يكتبوا عن تاريخ بلادهم السياسي. وأعمال الخطباء ورجال السياسة تخولنا كشف الحياة الاجتماعية والنضال الطبقي. وخطابات العديد من الخطباء، مثل أندوسيد، ليزياس، إيزاكرات، دموستين، إشين، هبريد (القرنين ٥-٤ قبل الميلاد)، محفوظة حتى اليوم. إنها تقودنا إلى خفايا الحياة البشرية؛ والخطباء مثل ليزيلس، يكشفون أعماق الحياة الخاصة لخصومهم. وغيرهم، مثل الذين يتدخلون في الحلقات الشعبية أو ينشرون مقالات عن الشعب، يختارون موضوعاً لهم قضايا ذات راهنية اجتماعية وسياسية؛ مثل ازوكرات ودموستين اللذين عالجا القضية الدقيقة للعلاقة بين ماسدوان واليونان في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد.

وثائق، آثار مادية

إن المنحوتات (وأكثرها على الحجارة) هي المصادر الأكثر دقة. ك منحوتة تقدم واقعة محددة من الحياة السياسية، الاجتماعية أو الخاصة بالعصر. ولقد عرف الآن عشرات الآلاف من هذه المدونات المنحوتة القديمة؛ ضمّ أغلبها في "منحوتات يونانية" بـ١٥ مجلداً (في طريقها للنشر، بعد التنقيح والتصحيح). بعضها أفعال دولة، مثل، قوانين الشرع الأثيني دراكون، القوانين القديمة لكريت، وتقارير، كشوف عن خزينة الدولة، وسواها. وغيرها شواهد قبور، يتحدث بعضها عن الحياة الخاصة. ولقد أثارت اهتماماً فريداً المنقوشات المكتشفة على الأرض الروسية، بخاصة على ضفاف البحر الأسود. وهكذا اكتشف نص اليمين المدني لشرشوزون (قرب سيباستبول الحالية)، الذي يثبت

المستوى الرفيع للحياة الاقتصادية والسياسية لهذه المدينة القديمة أيام القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد؛ ويشهد على هذا قرار مجلس الشعب على شرف المواطن بروتوجين، الذي وجد وجمع في أنقاض أولبيا القديمة (ليس بعيداً عن نيكولايف). ولقد جمع الباحث الروسي ف.لاتشيف في "مدوناته المنحوتة"، التي نشرت بثلاثة مجلدات في أعوام ١٨٨٥-١٩١٦، مدونات عن اليونان القديمة وجدت على الساحل الشمالي للبحر الأسود.

والآن، تحرر من الأنقاض المصرية نصوص كتبت على ورق البردي، أي وثائق تاريخية من نوع آخر، عثر عليها في مصر أثناء التنقيب. إنها،أولاً، حسابات لاحصر لها، ومخالصات، وغيرها، مثلاً المراسلة الواسعة لأبولونيس، الموظف الكبير والمالك العقاري واسع الثراء، مع وكيله زينون). وإنها أيضاً رسائل، وتمارين طلاب، وأوامر،وسواها. كتب عليها نصوص قضائية تميز المحاكم والعلاقات بين مختلف فئات الناس. وتتضمن بعض أوراق البردي أعمالاً أدبية عن اليونان القديمة، لم تكن سليمة، بل فقرات مشتتة. هكذا نص "بناء آثينا" لأرسطو، ما كان قد وجد في العام ١٨٩٠ على ظهر ورقة بردي (ترجع إلى العام ٧٨ قبل الميلاد) تتضمن تقريراً لمدير الملكية. وعلى أوراق البردي هذه وجدت بعض النصوص الأدبية الهلينية (كوميديات ميناز، مثلاً).

على ذلك، هي ذي مواد علم الآثار، بقايا المدن، والصروح المبعثرة ومنشآت أخرى، وأيضاً مواد الاستهلاك الأهلي، هي خير من يطلعنا على اليونان القديمة. وكل أرض البلقان تقريباً،والعديد من جزر بحر إيجة، وشواطئ آسيا الصغرى، وسواحل البحر الأسود، وسيسليا وجنوب إيطاليا هي نوع من متحف واسع في الهواء الطلق. يحقق فيه علماء الآثار من مختلف البلدان تنقيباتهم منذ زمن بعيد. لكن أعمال التنقيب لم تأخذ مداها إلا في النصف الثاني من القرن ١٩.

تمكننا الحفريات الأثرية من إعادة تركيب مقبرة دلف الشهيرة، بمعابدها، ونزلها، وشارعها، وطريقها السري، وكنوزها العديدة، التي بنتها الدول اليونانية لحماية الهبات. ولقد رفع الركام عن مدن بكاملها بشوارعها، ميادينها، قاعاتها، مسارحها، مدارسها، معابدها ومساكنها. وكانت المؤسسات التعليمية تضم أيضاً لوائح الطلاب، بأسمائهم ومناقبهم التي يدونها المعلمون. وأيضاً، في الجهة الصحراوية اليوم من آسيا الصغرى، حررت مدينة بريان ***priene*** الصغرى، ومدينة أولينت ***olynthe*** وغيرها، عادت كلها إلىالنور مرة أخرى.

لقد عثر علماء الآثار السوفيات: ب.فارمكسـفي، ف.بلاتفسـكي، ف.غيدوكفتـش، ت.كنبوفتش وغيرهم على الساحل الشمالي للبحر الأحمر شوارع، أسوار وأبـراج مـدن اليونان القديمة الكبرى، مثل أولبيا، شرزونيز وغيرها. وتمت مكتشفات هامـة علـى يـد البحاثة السوفيات في شرق القفقاس (أرمينيا وجيورجيا) وفي آسيا الصغرى. وقـد حـرر الأستاذ تولستوف، مثلاً، في خوارزم أنقاض ميادين منيعة، وحقولاً مغطاة بنثار الخـزف، ووثائق من كل نوع مطبوعة على الجلد ومحفورة على الخشب يسمح حل رموزها بكشف سر هذه الحضارة المنسية التي كانت، كما هو معروف اليـوم، مرتبطـة ارتباطـاً متينـاً بحضارة اليونان.

والنقود القديمة والصور المحفورة عليها، ووزنها وكمية المعدن فيها، إلخ. يُتم كل هذا معرفتنا بتاريخ اليونان القديم. وعلم المسكوكات، أثمن مساعد للتاريخ، قدم منـذ عشـرات السنين إنجازات هامة في الاتحاد السوفياتي، في مجال دراسة النقود *Historiog raphie*.

نتاج المؤرخين

منذ عصر النهضة، أي يوم شكلت البورجوازية طبقة، يتحقق هـدف إعـادة إحيـاء تاريخ اليونان القديم، الذي حاولت البورجوازية احتكار تراثه الثقافي الثر. فمنذ هلّ القـرن التاسع عشر بدأ بوضوح الاهتمام الكبير بتاريخ اليونان القديم؛ وقد دفع النضال من أجـل الديموقراطية البورجوازية الساسة، القضاة، المؤرخين ونقاد الأدب إلـى دراسـة النظـام الديموقراطي في دول يونان العبودية، بخاصة في آثينا. وهكذا، رأى ج.غروت، المـؤرخ الانكليزي المعروف في النصف الأول من القرن ١٩، الذي تحدث في "تاريخ اليونان" الذي في ١٢ مجلداً (١٨٤٦-١٨٥٦) عن نظام آثينا، رأى أن هذا النظام يمكن أن يكون نموذجـاً لكل ديموقراطية بورجوازية. وفي "التاريخ الهليني" بثـلاث مجلـدات، للعـالم الألمـاني درويزن، والذي سبق "تاريخ اليونان"، يصور مقدونيا القديمة نموذجاً أول لبروسيا. مـع أن هذه التشويهات للتاريخ القديم تفقر كثيراً المنتوج التاريخي البورجـوازي للقـرن ١٩، لـم يتوان أحد عن دراسة المناهل الأولى، وتطوير النقد، وعلى هذه القاعدة شيد تاريخ اليونان.

كانت قضايا الحياة الساسية والثقافية في اليونان القديمة هي التي تشد الاهتمام قبل كل شيء. أما في روسيا، كان علم العهود القديمة، حتى في فجر وجوده، أكثر تقدمية مما فـي الغرب، لأنها كانت تطرح مسائل أعم؛ وكان النتاج التاريخي الروسي أول من تصدى لمـا

يخص الحياة والنضال الاجتماعي في اليونان القديم. فمؤلفات م.كوتورغـا، الأستاذ في جامعة بطرسبورغ (١٨٠٩-١٨٨٦)، اشتهرت حوالي ١٨٤٠-١٨٥٠. حـدد كوتورغـا الواقعات الرئيسة في نظام آثينا السياسي ووضع لوحة عريضة للحياة الشعبية في اليونـان. وفي كتابه "وضع العبيد والمحررين في الجمهورية الآثينية، كان أول بـاحث فـي العـالم نهض لهذه الموضوعة وعمقها. وأبرز أيضاً العلاقة بين تطور الثقافة الروسية وحضـارة اليونان القديمة. وفي العام ١٨٦٩، يظهر مؤلف هام لـ ف.فاسيلفسكي "الاصلاح السياسي والحركة الاجتماعية في اليونان القديمة في زمن الانحطاط" الذي لم يفقد قيمته حتى يومنـا هذا.

وفي النصف الثاني من القرن ١٩ تشب ثورة حقيقية في دراسة تاريخ اليونان، وفـي علم التاريخ بشكل عام، انبثقت بسبب نشر الأعمال العبقرية لكـارل مـاركس وفريدريـك أنجلز، بخاصة "رأس المال" (ظهر الكتاب الأول في ١٨٦٧)، وكتاب فريدرك أنجلز "أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة"، المنشور في العام ١٨٨٤. ولقد أوقف الفصلان الرابـع والخامس من هذا الكتاب على ("العشيرة اليونانية") و"انبعاث دولة أثينا") اللذان يتحدثان عن القضايا الجذرية في تاريخ اليونان.

في هذه البحوث الهامة، يؤسس مؤسسا الماركسية القوانين الرئيسة لتطور المجتمـع ويضعان حجر الزاوية للتاريخ باعتباره علما قائما برأسه. وكان ماركس وأنجلز أول مـن مزق النقاب عن صورة العبودية للإنتاج اليوناني، وبالتالي، الخصيصة العبودية للمجتمـع اليوناني وثقافته. لكن هذا لم يمنعهما عن تقويم عاليا أهمية هذه الحضارة. "لكن الصعوبـات ليست في وعي أن الفن اليوناني والملحمة مرتبطان ببعض أشكال التطور الاجتماعي. إنمـا تكمن الصعوبة في أنهما يقدمان لنا متعة وجمالية وهما لنا، من بعض الوجوه، قيمة المعايير والنماذج العصية.[١]"

وحوالي نهاية القرن التاسع عشر، يشد التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لليونان أكـثر فأكثر اهتمام المؤرخين الغربيين. وقد ظهرت نشرات جديدة لمنحوتـات يونانيـة تسمح بتعميق التغلغل في اقتصاد الهلاد. (نشر هذه المدونات والنقوشات لأول مرة جزئيا أوغست

١-ك. ماركس. "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي"، ص ١٧٥.

بوك الذي كان قد بدأ هذه المهمة في بداية القرن التاسع عشر).

وليس قليلاً ماكتب حول التطور التاريخي لمختلف فروع الاقتصاد في اليونان القديمة: الزراعة ، المهن، التجارة وغيرها. وتشغل هذه المسائل، ومسائل النضال الاجتماعي والعلاقات الطبقية، من الآن فصاعداً حيزاً واسعاً في المؤلفات حول تاريخ اليونان. وفي أثناء انتقال الرأسمالية إلى محطتها الأعلى، الامبريالية، ظهر من جديد انعطاف لتحديث التاريخ القديم. هكذا، كتب البحاثة الألماني إد.ماير "تاريخ العصور القديمة بـ٥ مجلدات (كانت النشرة الأولى في العام ١٨٨٤)، حيث يرسم لوحة مزامنة لتاريخ الشرق، اليونان وروما من الأصول حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. وهو يحلل ويدرس المجتمع والاقتصاد في اليونان، يرى المؤلف فيها "علاقات اقطاعية" في محطتها الأولى وحتى "الرأسمالية" في المرحلة التالية، مع الـ"معامل"، الـ"مصانع"، الـ"مصارف"، وغيرها، كمؤسسات تبعثها الرأسمالية ليس إلا. فضلاً عن هذا، يقدم النظرية الدورية القائلة إن البشرية، في مختلف الأزمنة والأمكنة، تعبر المراحل ذاتها من ارتقائها، المفضية إلى الرأسمالية؛ ويرى أن التقدم يقف هنا، وليس له سوى العودة على عقبيه، الالتفاف إلى علاقات أكثر بدائية. إن النظرية الدورية، بدون نقاش، سلاح إيديولوجي للبورجوازية الإمبريالية في نضالها ضد الثورة البروليتارية والاشتراكية. وروبير بوهلمن، كاتب "تاريخ الشيوعية والاشتراكية القديمتين"، هو الآخر من أنصار هذه الرجعية؛ فهو "يكتشف" في العالم القديم، ليس فقط، هذه الحرمات المعاصرة، بل يجهد للبرهنة أنها بالضبط سببت انحطاط الحضارة القديمة العظيمة. و"التاريخ اليوناني"، العمل الضخم للمؤرخ الألماني ج.بلوش (ظهرت الطبعة الثالثة بأربعة مجلدات في العام ١٩١٢ و١٩٢٧) رغم طبيعته المعتدلة لايقل عن غيره حداثة. ومثل ماير وبوهلمن، ينكر بلوش الطبيعة الرقيّة للاقتصاد اليوناني؛ بل يحجم عدد العبيد في اليونان طيلة حقبة الازدهار، ويبالغ بدور الإجارة.

لكن العالم الفرنسي غلوتز ينطلق من مفهومات مغايرة تماماً، وأكثر صحة. بعيداً عن نصرة الماركسية، اتبع في مؤلفاته مبادئ فوستل دي كولانج، وهو يشير إلى دور المشاعية والتنظيم الوثني في تاريخ اليونان. وبوضوح يتعاطف في كتاباته مع الشعب الكادح.

كان الـ"علم" التاريخي الفاشي في ألمانيا يسعى إلى مثالية إسبارطة بنظامها العسكري والعبودي، وتمجيد الغزاة "الكبار" أمثال إسكندر المقدوني. ويرى مؤرخ ألماني أن انهيار

الحضارة الكريتية ناجم عن تحرير النساء. إجمالاً، يهمل المؤرخون البورجوازيون الحديثون المسائل الاجتماعية والاقتصادية والقضايا العامة في تاريخ اليونان. إن المؤلفات حول تاريخ اليونان ذات طبيعة وثائقية أكثر منها بنائية. وحتى العمل الضخم -بأربعة مجلدات- لآرثر إيفانس "قصر منيوس"، الذي ظهر في لندن بين عامي ١٩٢١-١٩٢٣، يزودنا بواقعات ثمينة، دون أن يحدد العلاقات الاجتماعية في كريت، وكذلك "تاريخ كمبريدج القديم" المؤلف التعاوني لمؤرخين إنكليز (الطبعة الثانية ١٩٢٣)، الذي خصصت كتبه ٢-٧ لتاريخ اليونان. و"تاريخ اليونان" لبجستون يغرق في نفس العيوب. نثبت هنا النجاح الضخم الذي حققه في هذه الأيام العلماء الأجانب في مجال علم الآثار والكتابة النقشية. مثلاً، كان المؤلف ذو الأربعة مجلدات لميريت، ووادجيري وماكغرغور "اللوائح الأثينية لأتاوة الأحلاف (كمبريدج، ١٩٣٩-١٩٥٠) كان ذا قيمة كبرى، لأنه يطلعنا جيداً على تاريخ أثينا والقسم الأعظم من هيللاد في القرن الخامس. وكان لحل رمز الكتابة ***B*** ميسينين على يد العالمين الإنكليزيين فانترس وشادفيك أهمية ضخمة جداً: فقد ألقى قبساً على التاريخ اليوناني من الحقبة الميسيني، التي لم تكن معروفة إلا من البقايا الأثرية.

لقد قدم العلم الروسي من نهاية القرن ١٩ حتى بداية القرن ٢٠ عدداً من العلماء الكبار، الأخصائيين بالعصور القديمة وخاصة اليونان. فقد نشروا عدة مؤلفات كان بعضها ذا طبيعة عامة وعالج بعضها مسائل نوعية. وأتت المساهمة الكبرى على يد الأكاديمي ف.لاتشيف، مؤلف الأعمال المؤسسة على دراسة النقوش القديمةالمكتشفة على الساحل الشمالي للبحر الأسود (انظروا ما ورد أعلاه)، مثل "دراسة في تاريخ أولبيا القديمة ونظامها السياسي (١٨٨٧) ومقالات حول تاريخ مملكة البونت ***pont***[١] (١٩٠٩). وله أيضاً نحن مدينون بـ"بحث في عهود اليونان القديمة في مجلدين (١٨٨٠-١٨٨٩). تفيد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب (١٨٩٧-١٨٩٩) اليوم أيضاً كدليل بين يدي المهتمين بدراسة تاريخ اليونان القديم. ومهمة جداً أيضاً مؤلفات س.جبليف "أثينا في ٢٢٩-٣١ قبل الميلاد" صدر

---

[١] - مملكة في شمال-شرق آسيا الصغرى، على جسر أوخن، أعلن استقلالها عن الفرس في العام ٣٠١ قبل الميلاد. كانت منيعة جداً في أيام مثريدات السادس، عرفت بصراعها ضد الرومان، الذين احتلوها في العام ٦٣ بعد الميلاد.

في العام (١٨٩٨) وأكاي *Achaie* (١٩٠٣) وبقلم م.كفوستوف "التجارة الشرقية بين مصر و اليونان والرومان" (١٩٠٧)، وف.بوسسكول "بيركلس" (١٨٨٩).

العلم السوفياتي استوعب بفكر ناقد التراث الغني للمنتوج التاريخي الروسي قبل الثورة، خلق على أساس الماركسية-اللينينية أسلوباً جديداً، علمياً حقاً لكشف التاريخ القديم، بخاصة تاريخ اليونان. هذا الأسلوب هو أساس الدراسات الشاملة لتاريخ اليونان، مثل: س.كوفاليف، "تاريخ المجتمع القديم". "اليونان" (الطبعة الثانية ١٩٣٧)، و"تاريخ العهود القديمة" (١٩٣٧)؛ س.لوريه، "تاريخ اليونان" (١٩٤٠) ؛ ف.سرغيف،"تاريخ اليونان القديم" (الطبعة اثانية ١٩٤٨). يتضمن هذا الكتاب الأخير جملة من التراجم الشخصية لكل حقب تاريخ اليونان القديم.

وفي الأعوام التي تلت الحرب ظهر "اليونان القديمة" (١٩٥٦)، سفر لمجموعة من من الباحثين السوفيات، و"بحوث في تاريخ اليونان القديم" (١٩٥٨)، بقلم ك.كولوبوف ول.غلوسكين. وعشرات المؤلفات الأخرى.

الفصل الواحد والعشرون

طبيعة اليونان

كانت اليونان القديمة تشغل متسعاً من الأرض يبلغ (٦٤٥٠٠ كم٢ فقط) لكنه شديد التنوع من الزاوية الجغرافية. كانت تضم: ١) جنوب شبه جزيرة البلقان؛ ٢) الجزر الإيجية والأيونية؛ ٣) الأضلاع الغربية من آسيا الصغرى. وكانت تشغل اليونان القارية (البلقانية ربع اليونان كلها ولم تكن سوى شبه جزيرة مقسمة بين خلجان وسلاسل جبلية إلى ثلاثة أقاليم متمايزة: الشمال، الوسط والجنوب أو بلبونيز. ويتألف اليونان الشمالي نفسه من منطقتين: إيبيريا وتساليا. والبقعة الأهم من اليونان الأوسط من الزاوية السياسية هي الأتيك وبيوتيا، وهما في الشرق. وكانت أهم مناطق البلبونيز الأرغوليد، لاكونيا، مسينا، إيليد وأركوديا.

تعلل هذه القسمة المتمايزة لليونان القاري بأن الجبال تشرخها في كل اتجاه، بخاصة السلاسل الأعلى من ٢٠٠٠م المتجة من الشمال إلى الجنوب. وتقسم اليونان إلى قسمين: الغربي والشرقي؛ في شمال اليونان، تقع سلسلة البند *Pinde*؛ وفي الجنوب (بلبونيز)، وكتلة أشاي العريضة وأركاديا تتفرع في الجنوب إلى سلسلتين: في الشرق، البارنون، في الغرب، التايجت. من هذه السلسلة الرئيسة، تنطلق نحو الشرق عدةِ ملتقيات متوازية. وهكذا، في شمال اليونان، بين مقدونيا وتساليا تنتصب عدة قمم أعلاها الأولمب، ٣٠٠٠م. تحجز الجبال فيما بينها الوديان التي يتبع أغلبها مصبات الأنهار. تشكل السهول إجمالاً أقل من ١/٥ اليونان القارية. وفي الشرق مضائق ومعابر (وادي تامبي في الشمال، وتوفر ترموبيل إمكانية واسعة لتواصل وتنشيط بالتالي التطور الاقتصادي والاجتماعي.

وبينما تعزل الجبال المناطق والدول، يعزز البحر المواصلات الخارجية بين المشاعات اليونانية. تفضي الشواطئ المتعرجة إلى تطوير مبكر بالإبحار. من هذه الزاوية تصادف الشروط الجغرافية الأكثر مواءمة في شرق شبه الجزيرة وفي غرب آسيا

الصغرى، ذات الشواطئ المقطعة والتي تقدم عدداً كبيراً من الخلجان الصغيرة التي تسكنها رياح الجبال. في اليونان الوسطى والجنوبية لا يوجد أرض تبعد عن الشاطئ بأكثر من ٥٠كم. ومن كل قمة عالية يشاهد البحر. فضلاً عن هذا، تشكل جزر بحر إيجة الكثيرة (الأرخبيل) سلاسل مستمرة، من شبه جزيرة البلقان حتى شواطئ آسيا الصغرى، حتى أن البحارة القدماء الذين يتبعون خط السير هذا، لايفقدون رؤية الأرض.

الجزر الإيجية مقسمة إلى مجموعات. في الغرب جزيرة أوبي الكبرى، التي تمتد بالتوازي على الشط الشرقي لليونان الوسطى. غنية بخاصة بالقمح، كانت تمون به حتى الأتيك. وإلى الشمال، على طول شواطئ تراس، تتابع جزر ثاسوس، ساموتراس، ليمنوس، إيمبروس وتندوس؛ وفي الشرق، بعض الجزر الواسعة تمتد أمام شاطئ آسيا الصغرى: لسبوس، شيووساموس.

في القديم، كانت جزر بحر إيجة تقسم إلى مجموعتين: السيكلاد والسبوراد. في السيكلاد تتكوكب ٢٤ جزيرة كبيرة و٢٠٠ صغيرة، نصفها يحيط بديلوس. كانت هذه الجزيرة الضيقة الأبعاد مركزاً لتجارة نشطة ولعبادة أبولون-الدلفي، إله البحار. من كل هذه الجزر التي تحيط بديلوس، كانت الأهم هي باروس، حيث صناعة الرخام الأبيض، وناخوس، أندروس وغيرها. وبعدها، باتجاه آسيا الصغرى، تتدرج جزر سبوراد وأكبرها رودس.

في جنوب غرب بحر إيجة، توجد جزر سيبتر وإجين. في الجنوب، تصل هذه الكثرة من الجزر إلى كريت، أكبرها وأخصبها، والتي كانت موطن حضارة قديمة جداً. وفي شرق كريت، ليس بعيداً عن الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى وسوريا، في البحر المتوسط، تقع جزيرة قبرص، الغنية بمعدن النحاس؛ بالغابات، بالكروم والزيتون.

في أشهر الصيف الهادئة، يفيد البحارة أيضاً من انتظام الريح والتيارات البحرية التي تتجه من البحر الأسود إلى آتيك وبلبونيز. يسر كل هذا إقامة تواصل بين اليونان والشرق الأدنى بلغت درجة متقدمة بالتطور وأفادت اليونان أكثر من الدول الأوربية الأخرى بكنوز حضارتها.

في البحر الأيوني، بين اليونان وإيطاليا وسيسيليا، ثمة قليل من الجزر: فقط كورسير، لوكاد، سفالينا وإيتيك، قرب شواطئ اليونان الغربية. لذا كانت المواصلات بين هيلاد

وإيطاليا صعبة جداً. لكن اليونان مضطرة إلى استيراد القمح من هـــذا البلـد ذي التربـة الأخصب.

يدنو مناخ الشاطئ اليوناني، المعتدل والحار، من المناخ الاستوائي. وفـي المنـاطق الجبلية فقط، وبخاصة في إيبيريا، يلاحظ الجليد والعراصف الثلجية. إنه المناخ الذي حـدد أسلوب حياة اليونان، سكناهم وملابسهم. في البيوت، تلعـب الباحـة الداخليـة، المزنـرة بالإفاريز التي تحملها الأعمدة وتقي الناس من حر الشمس، تلعب دوراً رئيسـياً؛ وكـانت الصروح العامة والمعابد محاطة بالأروقة والأعمدة. والقمصان الصوفية أو الكتانية ألبسـة لليونان، لكنهم عندما يخرجون يلبسون فوقها معطفاً صوفياً بدون أكمام. وينتعلون الأخفاف، المبطنة بالفرو في الشتاء. وكجميع سكان الأبيض المتوسط، كان قدماء اليونـان قنوعيـن بطعامهم. يتكون غذاؤهم أساساً من منتوجات الطحين، البقول، الزيتـون، الجبنـة، التيـن اليابس، السمك المملح، المستورد بكميات كبيرة من مملكة البونت ***Pont***.

لاتتمتع اليونان بمساحات واسعة لبذر الحبوب (شعير، ذرة، دخن). أوسـع السـهول موجودة في تساليا، بيوتيا، لاكونيا ومسنا. والقيظ (تبلغ الحرارة ٤٠°) وجفاف الأنهار، لقلـة المطر، تشكل عقبة أخرى في وجه الزراعة. ثم، في أغلب أقسام اليونان، أخذت زراعـة الكرمة والزيتون، التي تتطلب عناية واسعة وإعداد أرض على سفوح الهضاب، والـري، أخذت الاهتمام الملحوظ. إجمالاً، ووفرت أفضل الشروط الطبيعية مناطق شـرق اليونـان القاري، المغطى بالأحراج، بالشوح، بالسنديان والكستناء؛ في الوديان ينمو السور، الغـار الجبلي الذي لايلائم سوى تربية الدواجن.

وتربة اليونان غير خصبة، لكنها غنية بمواد البناء ومختلف المعادن. كانت لاكونيـا غنية بمعدن الحديد؛ أوبي (منطقة شالسيس) وقبرص بمعدن النحاس؛ في الأتيك، تسـتخرج شرائح الفضة؛ وفي تراس (وادي سترمون) يستخرج الذهب. وتحتضن أتيـك، كورنثيـا، أوبي وبيوتيا، الفخار بكميات ضخمة،موظفة في صنع الأواني الفاخرة. ليـس بعيـداً مـن الأتيك، في جزيرة سيوس، كان يوجد أوكسيد الرصاص لطلي الفخار. ولقد أفضى كل هـذا إلى تطور مبكر بالحرف التي، كما الزيت والخمر، لم تكن تستخدم في البلد، بـل تصـدر وتبدل بالقمح وباقي المواد الغذائية الهامة (لحم مملح، سمك، إلخ).

هكذا، رغم ضيق أبعادها ومناهلها الطبيعية، تمتلك اليونان كل الشروط الضروريـة

لتطورها التاريخي: وضع وسيط بين آسيا الصغرى وشبه الجزيرة الإيطالية، بحر يوائم العلاقات مع شرق وجنوب البلدان المتحضرة وكل مايبعث على تطوير المهن والتبادل.

الفصل الثاني والعشرون

الحضارة الإيجية

الاكتشافات الأثرية في القرنين ١٩و٢٠

لايعرف اليونان القدماء الشيء الكثير عن الماضي البعيد لبلدهم. يفترض توسيديد وطنه مسكوناً بشعوب غريبة يسميها "بيلاسج"، "كارمن" و"ليجير". ونسب لهم منشآت حجرية ضخمة، سميت "العملاقة" (أي التي بناها العمالقة). تتحدث الخرافات عن دولة عظمى بحرية لملك كريت مينوس وقصره الواسع، اللابريث، وملك مسينا أغامنون الذي شن حرب طروادة.

لم يكن العلماء الأربيون أبداً أحسن معرفة حتى الربع الأخير من القرن ١٩. إنما في العام ١٨٧٠ و١٨٨٠، تمت اكتشافات هامة فيما يخص العهود القديمة الكلاسيكية: فقد نشر عالم الآثار الألماني المعروف هنري شلمان في العام ١٨٧٤ كتاباً بعنوان "عهد طروادة القديمة وفي العام ١٨٧٨ و١٨٨٦، ظهرت عدة كتب أخرى: مسينا، إيليون، طروادة وتيرانث. ولقد قال هذا العصامي والكاشف الجلود للكنوز التي كانوا يسخرون منه بشأنها، قال إنه كشف طروادة هوميروس، مقابر ومواد ثمينة في مسينا، تعود أصلاً إلى زمن أبطال الإلياذة والأوديسة.

لكن تبين حالاً أن هذا العالم لم يحترم جيداً مكتشفاته. فعالم الآثار دوربفلد، الذي كان أكثر الناس شكاً بعمل شلمان، قرر أن ينهض لمساعدته في بداية ثمانينات القرن الماضي. ودل فيما بعد (١٩٠٢)، أن شلمان كان قد خدع في تقويماته التاريخية وأن لقاه تعود إلى عصر أقدم بكثير، لايعرف عنه العلم شيئاً حتى آنئذ. إذ أثبتت مكتشفات شلمان وجود، في الألفين ٣و٢ قبل الميلاد، في جنوب شرق أوربا، حضارة تشبه بألقها وعظمتها حضارات الشرق الادنى.

ولقد ظهر أن ماستخلصه دوربغلد غير قابل لنقاش، عندما دل في بداية القرن ٢٠

عالم الآثار الانكليزي آرثر إيفانس بتنقيباته في جزيرة كريت أن شلمان ودوربفلد لم يعطيا شيئاً عن المواطن الرئيسية لهذه الحضارة، التي كانت عالية القيمة في كريت ذاتها، وأنها أعظم وتتجاوز حتى حضارات ميزوبوتاميا والنيل. وفي مؤلفه ذي الأربعة مجلدات "قصر مينوس"، يعرض إيفانس نتائج ثلاثين سنة من التنقيب. وبمتابعة التنقيب، يتحدد في التاريخ الإنساني دور هذه الحضارة قبل-الهيلينية، المسماة "إيجية".

على ذلك نشير أن هذه المعطيات الحديثة لم يستوعبها العلم التاريخي أبداً. ولم يوضع بعدُ تأريخ مقبول بشكل عام. والتأريخ الأشهر هو الذي يقترحه إيفانس. إنه يميز ثلاث حقب مينوين (نسبة إلى اسم الملك الخرافي مينوس) تتناسب تقريباً، في الزمن، مع الإمبراطوريات الثلاث التي مرت على مصر: ١) منوين القديم (٣٠٠-١٠٠٠ قبل الميلاد)، ٢) منوين الوسطى (٢١٠٠-١٥٨٠)، ٣) منوين الحديثة (١٥٨٠-١٢٠٠). لكن أغلب الأخصائيين، وقد قبلوا هذا التقسيم فيما يخص كريت التي كانت على اتصال مع مصر، يستخدمون باقي مناطق الحضارة الإيجية دورية خاصة، توازي الأولى. هكذا، لليونان القاري، ثبتت القسمة الهلادية القديمة، الوسطى والحديثة (أو مسينا). فحضارة اليونان الجزيرية -نسبة إلى جزيرة- تسمى حضارة العمالقة.

المرحلة الأولى من الحضارة الإيجية في اليونان *Le chacolitique en Grece*

لدراسة التاريخ البدائي لبلدان حوض إيجة، نطرق باب علم الآثار المعتاد (النقش على الحجر، عصر البرونز، عصر الحديد الأول). فالنقش على الحجر (٣٠٠-٢١٠٠ قبل الميلاد) هو المرحلة الأولى للحضارة الإيجية. ومركزها في أرخبيل الجرز العملاقة التي تشكل نوعاً من الجسر عبر بحر إيجة. لكن أرضها أوسع بكثير: ويكتشف أيضاً فيكريت (طبقابت منوين سفلى)، في بلوبونيز (هيلاد القديمة) في اليونان الوسطى، على الشواطئ الغربية لآسيا الوسطى (طبقات سفلى من طروادة، تسمى "طروادة الأولى"، "طروادة الثانية"، ضيعة ثرمي في جزيزة لسبوس). كانت هذه الحضارة نتيجة الثقافات عالية التطور في العصر الحجري الأعلى التي عاشت طويلاً في حوض بحر إيجة. في تلك الحقبة الزمنية كانت الادوات الحجرية هي المسيطرة، إجمالاً. لكن صناعتها أتقنت إلى أعلى درجة: صنع بعضها من حجر نادر، السبج[1]، وتبدو كنصل حاد. لم تصادف طبقات السبج

---

[1] - حجر زجاجي أسود.

إلا في جزيرة ميلوس، إحدى جزر العمالقة. وجد هنا سابقاً مزرعة صغيرة (فيلاكوبي *PhylaKopie*)، كان سكانها يستخرجون السبج، يصنعونه وينشرون هذه الأدوات، الثمينة جداً في تلك الحقبة.

عدا الحجر، يبدأ استخدام المعدن، أولاً النحاس، ثم البرونز البدائي (المتضمن تقريباً ٩% من القصدير). مع أن البرونز والنحاس مايزالان نادرين لايكفيان إلا لصنع بعض الأسلحة (بلطات بدائية، بدون ثقب، خناجر) وبعض الحلي (دبابيس شعر). وللتزين، يستخدم أيضاً الذهب: وفي إحدى الطبقات القديمة لطروادة (طروادة الثانية)، اكتشف شلمان كنزاً من ثمانية آلاف مادة ذهبية (سميت تحكماً "كنز بريام"، نسبة إلى ملك طروادة الوارد في الإلياذة). باختصار، كنا مانزال في عصر النقش: على النحاس والحجر، حيث كان استخدام المعادن في بداياته وتهيمن فيه الأدوات الحجرية.

تثبت لنا التقنية وجود نظام اقتصادي واجتماعي في بداية تطوره.؟ والاهتمام الأساس، استناداً إلى علم الآثار، الصيد، التدجين الضيق، حرث الأرض بالمنكاش والمقايضة البدائية المترافقة باللصوصية والقرصنة. (من هنا أتى تكديس الثروات مثل "كنز بريام". والأواني المنزلية الضخمة الفخارية وغير المتقنة تصنع باليد، بدون تدوير، والمشربيات كانت بأشكال غريبة من الجرار والأباريق –منقار الطير– وأبراش بوجوه بشرية ("إجانات جبهية")، أكواب مزدوجة، إلخ. لم يكن طلي الفخاريات قد عرف بعد، بل رسوم هندسية فقط.

كان الناس يعيشون عامة في بيوت دائرية أو بيضوية، بقية واضحة من الخص لكن هذه المساكن كانت واسعة جداً (حتى ٣٠٠م٢)، فيها عشرة محال وتؤوي عدة تعاونيات، حتماً من نفس العشير. وكانت القبور أيضاً جماعية: "نواويس" العمالقة، قبور حجرية بشكل صندوق، وكانت الأقبية الدائرية العملاقة الكريتية تضم أحياناً حتى ١٠٠ هيكل عظمي.

لكن يجب أن نعرف أن نظام العشير كان يتفكك. كانت فيلا كوبي *PHYLA KOPIE*، في جزيرة ميلوس، مدينة حقيقية بشوارع مستقيمة، وأعمال الاستحكام والمناعة. تظهر الطبقات السفلى في طروادة (طروادة الأولى والثانية) عن وجود مساكن محصنة جداً، تمتاز عن المجموع بثرائها. أضخمها صروح طروادة الثانية. إنها ثكنة أو قلعة مخيفة ذات أسوار عملاقة، مبنية على متراس من آجر الفيضانات. مسلح بالخشب. والأسوار مجهزة

بباب منيع بمهارة. ويمكن الباب السري المدافعين من أن يباغتوا المهاجمين من الخلف. في وسط الثكنة أو الحصن، ينهض بيت القائد المدعم، بباحته المبلطة. يفضي دهليز طويل إلى قاعة واسعة، في وسطها موقد دائري. إلى جانبه مسكن أضيق، خصص على الأرجح للنساء. والقائد المقيم في مدينة كهذه ليس شيئاً بسيطاً، بل مستغل رعاياه، غير القادرين على النضال ضد هذه التحصينات التي بنوها بأيديهم.

في أيامنا هذه، لايمكن للأسف أن نعرف شيئاً محدداً عن أصل هذه الرعايا التي عاشت على ساحل بحر إيجة. فاليونان،كما أشرنا، يتحدثون عن الرعايا المتأصلة على ضفاف آسيا الصغرى -كاريان، بلاسج وليليج -الذين سكنوا قبلهم بحر إيجة كله. وقد تأكد أن السكان الإيجيين من عصر النقش على الحجر كانوا قد أتوا من آسيا الصغرى، بدلالة طبيعية المواد الأثارية والمعطيات المواقعية[1] (أسماء الجبال، الأنهار والبقاع القائمة حتى الآن في كثير من مناطق اليونان، مثل: بارناس، سفيز، لاريسا، كورنث، إلخ). مع ذلك، تبقى القضية معلقة.

عصر البرونز

لقد وسمت المرحلة الثانية من الحضارة الإيجية بتفتح عصر البرونز في جنوب-شرق أوربا، يقابل ازدهاراً مماثلاً في مصر (الامبراطوريتان الوسطى والحديثة) وحضارة ميزوبوتامي. إن هذه الحقبة الواقعة بين ٢١٠٠-١٤٠٠ قبل الميلاد، هي أوج الثقافة الكريتية (مينوين الأوسط والنصف الأول من مينوين الحديث، حسب إيفان).

كانت كريت آنئذ صلة وصل بين البلدان المتحضرة في العهود القديمة. وضعها الجغرافي الموائم متمايز بأرسطو في "سياسته". ويصيغ هومير ذات الفكرة في هذه العبارات البينة، البليغة:

ثمة في وسط البحر الواسع
جزيرة اسمها كريت
رائعة وخصبة، معطاء، وغاصة بالسكان،
تلتحق بها ٩٠ مدينة جميلة
سكانها لايتكلمون اللهجة ذاتها

(أوديسة، أغنية ١٩، ١٧٢ ومابعد)

---

[1] - دراسة لغوية أو تاريخية لأصل أسماء المواقع الجغرافية.

وفي الحقبة ذاتها، يجب أن نشير إلى سبب آخر لانطلاقة كريت: كانت لكل الحضارات الشرقية للعهد البرونزي مركزاً وسيطاً بتجارة القصدير. يأتي القسم الأكبر من هذا المعدن الضروري لصناعة البرونز من الغرب، من شبه الجزيرة الإيبرية، وكريت التي تراقب النقل، فتمسك هكذا مفتاح الصناعة الأساس في الشرق- الأدنى. تحتجز منه ماتشاء وتصنع البرونز نفسه (كان النحاس يستورد من قبرص. فلم تكن كريتإذن تلعب دور الوسيط فقط، بل دور المنتج أيضاً.

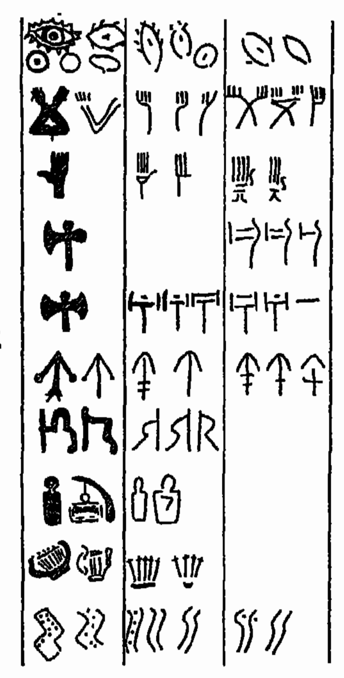
وبلغت تقنيتها واقتصادها مستوى استثنائياً. احتل التعدين المقام الأول: صنعوا من البرونز بلطات متقنة مزدوجة، خناجر، سيوفاً طولها متر، دقيقة، صقيلة، حادة، وحلي النصل بالذهب حسب الفن الدمشقي. وتحلي كؤوس وقطع ذهبية وفضية وتزين المنحوتات بدقة لاقرين لها. ولقد اكتشفوا السبيل لصنع أسلاك معدنية، نتيجة هذا صارت الحلزنة الدافع المفضل للتزيينات الكريتية.

وكانت الصناعة الهامة الأخرى هي السيراميك، استخدمت بسعة دولاب الخزاف والفرن المتقن. بأناقة الأشكال والرسوم التزينية، لم يحتضن الشرق الأدنى كله مشربية أجمل من المشربيات الكريتية؛ والتي تصدر أيضاً إلى مصر، سوريا وأبعد نحو الشرق. وكان النسيج متطوراً جداً هو الآخر، بدلالة ثياب النساء المعقدة الملونة والمحلاة بالرسوم.ولابد من الإشارة إلى رسوم الأختام. والخواتم التي تزين أصابع الأرستقراطيين، والأطواق المعلقة التي تثقل أعناقهم، أذرعهم، أرجلهم وصناديقهم.

تطور الزراعة ثابت بالخوابي الضخمة العارمة بالقمح، بالخمر وزيت الزيتون. وبقايا المرافئ والورشات وأحواض السفن، وكثير من صور المراكب تشهد على إبحار متطور وتجارة عابرة نشطة. وبصدد النقود، كانوا يستخدمون سبائك نحاسية بشكل جلد الثور أو بلطة مزدوجة، بأبعاد وأوزان مختلفة. وكانت كريت تتاجر مع بلدان بعيدة جداً.

وكانت العمليات الاقتصادية والتبادلات التجارية مدونة بدقة بكتابة متطورة. كانوا يكتبون على صفائح من الفخار، بحروف هيروغليفية. وفيما بعد (حوالي العام ١٧٠٠) ظهرت الكتابة السطرية *A*، التي تحولت بعدئذ إلى الكتابة *B*. لكن ولا واحدة من الاثنتين حلت رموزها تماماً. فأنتريك وشادويك لم ينجحا، في العام ١٠٥٣، إلا بحل رموز *B*، الأحدث، ولم نعرف تماماً معاني النصوص الكريتية القديمة التي نمتلكها اليوم.

والنظام الاجتماعي، في هذا العهد، تطور جداً على أثر تطور حاد بالقوى المنتجة.



كتابة هيروغليفية كريتية من الخط A وB

يتضح هذا بجلاء في تعاون العشير في المنشآت والمدافن. البيوت صغيرة، مستطيلة، مخصصة لأسرة واحدة. والمدافن، القبور المفردة أو أقبية الأسرة، لها الصفة الفردية. يظهر كل هذا تفكك نظام العشير واقتسام المجتمع إلى طبقات. وثمة الكثير من إمارات عدم المساواة بالثروة. وفي المدن (غورينا، بالايوكاستور، بسيرا، وغيرها)، يتألف الوسط من بيوت جميلة ذات طابق واحد ونصفية، حيث يسكن النبلاء، ثم تأتي شوارع محاطة بمساكن أكثر تواضعاً، وفي القرى الكثير من الأكواخ، أو المساكن المتداعية. وكان استغلال الفقراء واضحاً جداً ويترجم على الأغلب بعبودية ناتجة عن عدم وفاء الدين، كما في بابل ومصر. في الرسوم، نرى صوراً غريبة للخدم الذين صاروا عبيداً. ومن الممكن أيضاً العثور على معلومات تخص العبيد في بعض النقوش الكريتية.

وتعد تشكيلة الطبقات الاجتماعية في كريت الانتقال إلى دولة مركزية. بداية، كان هناك عدة ممالك صغيرة تتحد بالتدريج بامبراطورية عظيمة وعاصمتها كنوسس، في شمال

الجزيرة. وكانت الامبراطوريات الكريتية تمتلك أيضاً أراضي في جزر بحر إيجة وفي جنوب شبه جزيرة البلقان. يديرها حكام يفرضون عليها الضرائب.

وعلى رأس الدولة الكريتية، ملوكٌ كهنةٌ حملتهم الأرستقراطيةُ إلى السلطة. ولقد حفظ لنا الموروث التاريخي اليوناني اسم مينوس، أحد أعتى أباطرة كريت. بل يفترض أنه ليس اسماً شخصياً، بل لقب الملوك الكريتيين. وفي أيامنا، رفعت الأنقاض من قصر كنوسس العظيم ونظف ليصير مقراً لهم. إنه لصرح واسع، ذو طابقين، يشغل مساحة من الأرض تبلغ ٢ هكتار تقريباً. فيه عدة مئات من المحالّ –قاعات فخمة، غرف وملحقاتها– نضدت بمهارة حول باحة واسعة. من غرف الأبهة، لم تُصَنْ إلا اثنتان: قاعة العرش وقاعة الحوض–الحمام؛ واختفى الباقي مع الطوابق المهدمة. لكن الطابق الأرضي، المكاتب وغرف الخزينة مازالت بأحسن حال، و١٨ بيت مؤونة تختزن الخوابي، الورشات الملكية والسجون. وعثر أيضاً على مدرج مسرح مخصص لـ ٥٠٠ مشاهد. وكان في القصر تمديديات ماء، وأقنية، تؤمن الراحة والأبهة النادرة. وتعطي جداريات أروقته مجموعات فخمة وتكشف مشاهد من مصارعة الثيران التي كانت تأخذ حيزاً في قصر لابرانث عن البعد الحقيقي لخرافات اليونانية في فن عمارة ديدال *DEDALE*[1] والبطل ثيزيه، والأميرة أريان والهريب مينوتور[2].

كانت الامبراطورية الكريتية تعيش وفق نهج بيروقراطي متطور يشبه نظام مصر. ينقسم الموظفون إلى قادة، مراقبين، أمين خزينة وملاحظين، يضعون على أكتافهم رموزاً (قدماً، باباً، عيناً، إلخ). وكانوا موزعين إلى مديريات: مسلحة، بحرية، تموين، إلخ. ويشكل العسكريون ميليشيات مصنفة حسب السلاح. ويحتل الدور الهام محاربون يحملون سلاحاً ثقيلاً ويركبون العربات؛ وكان عندهم للتنقل شبكة طرق مبلطة. وكان الدين هو الوسيلة الأخرى لتأمين طاعة الناس. كانوا يقنعون الشعب بضرورة تكريم الإلهة–الأم، خالقة الجنس البشري، ملكة الرجال، والحيوانات والنباتات وزوجها أو ابنها العظيم الذي (يصور

---

١ – معماري يوناني باني قصر لابرانث في كريت حيث وضع مينوتور. وحبس نفسه بناء على أمر مينوس لكنه هرب بصنع لنفسه جناحين من ريش وشمع.

٢ – وحش نصفه إنسان ونصفه ثور، ابن بازيفاي.

غالباً بشكل ثور). كان الملوك ممثليها على الأرض، الأمر الذي يعطيهم القداسة والعظمة.

إنما في كريت كما في مصر، لم يستطع الموظفـون، ولا الجيش، ولا الكهنة أن يسحقوا مقاومة الشعب المستعبد. فمن حين إلى آخر، كانت تنشب التمردات والـهيجانات. انبعثت إحداها، حسب إيفانس وبعض المختصين الآخرين،.وفي مصر، في وقت واحد،في كريت، في نهاية الامبراطورية الوسطى، حوالي ١٧٥٠ قبل الميلاد. واحتل المتمردون القصور الملكية في كنوسس، وفوستوس وغيرها ودمروها، وردت الحكومة على هذه الأحداث بطبيعة أكثر ديموقراطية. لكن هذا لم يدم طويلاً: فلم تتأخر الأرستقراطية في استعادة موقعها وإعادة البناء بأبهة وعظمة أكثر. وحسب فرضية أخرى، انهارت القصور الكريتية في العام ١٧٠٠ على أثر هزة أرضية عاتية، آثارها بادية في مختلف نقاط الحوض الإيجي.

إن الطبيعة المنغلقة، المعادية للشعب وللحضارة الكريتية كانت السبيل الأساسي لدمارها، في أنها لغمت مقاومتها للمعتدين الدخلاء. هكذا، تثبت المعطيات الأثرية أن هجرات القبائل الرعوية، منذ الألف الثالثة، وجدت على المجرى الأسفل لنهر الدانوب في ثراس وفي اليونان الشمالي، ذات مستوى ثقافي رفيع (في العصر الحجري الجديد الأعلى مع إتقان تعدين النحاس). وفي أواسط الألف الثالثة احتلوا تساليا وأقاموا فيها منشآت حصينة (دميني مثلاً *DIMINI*)، الأمر الذي يثبت انتقالهم إلى أسلوب حياة أكثر استقراراً إذ اتسع دور الزراعة في اقتصادهم. وربما كان هؤلاء هم أسلاف اليونان القدماء.

وانطلاقاً من العام ٢٠٠٠، تتقدم القبائل اليونانية، التي كان بعضها من الآشوريين، الأيونيين، من تساليا نحو وسط اليونان وبلبونيز، كما تشير الطبقة الكثيفة من الرماد وبقايا المحال المنهوبة ووجود على هذه الأرض عدد كبير من مزارعهم، المعروفة بخزفها الأصيل، المزدان بالشرطان. وقد أفضى غزو الآشيين في حوالي العام ١٧٠٠ إلى انتزاع الأراضي الكريتية القارية وولادة، في هذه البقاع، مزارع آشية كان سكانها ملتئمين في قبائل وعشائر تقدم ثقافتهم خليطاً من الحضارة الآشية والكريتية. سماها العلم، اتفاقاً، "الحضارة المسنية (١٧٠٠-١١٠٠) نسبة إلى حاضرتها مسينا في أرغوليد ***ARGOLIDE***، واعتبارها بنفس الوقت المرحلة الأخيرة من الثقافة الإيجية والمرحلة الأولى من الثقافة اليونانية.

الفصل الثالث والعشرون

أخلاق اليونان القديمة ونظامها الاجتماعي

الأخلاق، النظام الاجتماعي

كان الآشيون، في أيام استقرارهم، يعيشون النظام المشاعي البدائي. وكانت القبيلة تنقسم إلى بطون تشكل قاعدة التنظيم الاجتماعي: يضم كل بطن عدة أفخاذ. بداية، كان الفخذ تعاونية اقتصادية تدير العمل في الأرض ومنها الدولاب؛ وفي الوقت ذاته، كان يمثل منظمة عسكرية بأعضائه الذكور. وفي الحياة العائلية، تستمر بعض بقايا الأمومة، تشهد على هذا الأساطير؛ ويظهر هذا في بعض العادات القديمة التي عاشت حتى العهود اللاحقة: هكذا، صانت العلاقات الأسرية في إسبارطا في العهد الكلاسيكي بقايا الزواج الجماعي. وكانت اتحادات البطون تسمى قبيلة؛ كان سكان آتيك وآثينا موزعين على أربع قبائل والسبارطيون: ثلاث قبائل؛ أما عدد البطون، حسب الكتاب اليونان الذين يقولون إن في إسبارطة ٢٧ بطناً وفي آتيك ١٢ بطناً، معلومات مشكوك بها. فالعدد على الأرجح أكثر من هذا بكثير. وعلى رأس كل بطن، زعيم منتخب.

الحضارة المسينية *MYCENIENNE*

في اليونان الوسطى وبلوبونيز، اصطدم الآشيون برعايا أصليين أقدم بكثير، قبل - الهلينية، كانوا قد خضعوا لنفوذ الثقافة الايجية الواسعة، وأقاموا في الحاضرات الموجودة: في مسينا، في تيرانت (أرغوليد)، في آثينا وبعض قصبات آتيك، في بيلوس، في آتيب وغيرها. أباد الآشيون جزئياً أبناء البلد أصحاب الحضارة الأسمى وانصهروا مع من بقي منهم، واقتبسوا منهم أشكالاً اقتصادية أرقى: انتشار البرونز لصنع الأسلحة والأواني المنزلية، وطرقاً جديدة في البناء، وزراعة متقنة (بذر القمح، الشعير، الفول، العدس والزيتون). ومهن مثل صنع الفخار، السباكة، الحدادة وصناعة الذهب التي أخذت بُعداً بعيداً؛ انفصلت الصنعة عن الزراعة وصارت فرعاً مستقلاً في مجال الإنتاج. وبدأ نظام

المشاعية البدائي لدى الآشيين يتفكك: صارت نبالة الدم، المغتنية والوطيدة، حوالي القــرن ١٦ قبل الميلاد، صارت تدريجياً الطبقة المسيطرة. ومن القرن ١٦-١٤ قبل الميلاد، بنــي في مسينا، وتيرانت، ورشوفين قصوراً فخمة محاطة بجدران منيعة تسمى "العمالقة"؛ وفــي تيرانت، مثلاً، يبلغ سمك هذه الجدران، المبنية بالصخور الضخمة، ٢٠م. واشــتهر "بــاب ليون" في مسينا، في العهود القديمة.وكانت قصور مسينا أضيق من قصور كريت. ولاتشبه عمارتها عمارة كريت، لأن قسمها الرئيسي هو "*MEGAROM*"، مسكن واسع فيه موقــد، غير موجود في كريت. ومن جهة أخرى، تكشف الجداريات والأعمال الفنية الأخــرى أن قصور مسينا رافدة للحضارة الكريتية. ومقابر نبلاء مسينا (والأقبية العميقــة) والقاعــات الضخمة القائمة على الصخور، أصيلة جدا. فقد عثر، على الهياكل العظمية، كميــة مــن الأغراض الذهبية: أقنعة، أكاليل، زنانير وحلي؛ والأروع، هو الســيوف البرونزيــة ذات المقبض الذهبي الدقيق الصنع. إن القصور المنيعة والمقابر البهية تشهد على اقتسام طبقــي للمجتمع المسيني. وامتلاك النبالة العسكرية عددا من العبيد الذين أســروا فــي الحــروب والذين يكلفون ببناء الصروح "العملاقة".

وكان بسطاء الناس، أعضاء المشاعات، سكان الضيع الفقــيرة، يفقــدون تدريجيــا حصتهم بالأرض، يسقطون في تبعية النبلاء أو يتحولون إلى محاربين لصالحهم يجوبــون على ظهر السفن الجزء الشرقي من البحر المتوسط. وقد أفاد البحارة المسينيون من خــبرة الكريتيين.

اختار الآشيون الكتابة الكريتية. وفي العام ١٩٣٩، وفي الخمسينيات، لــدى تنقيــب بيلوس في مسينيا،جمعت المئات من الرقم الفخارية المغطاة بالكتابــة الكريتيــة *B*؛ وثمــة علماء سوفيات وأجانب يعملون على حلها (انظر) صفحتــي ٢٩٧،٣٠٧). تتضمــن هــذه النصوص معطيات حول العلاقات الاقتصادية والاجتماعية (بخاصة فيمــا يتعلــق بــالعبيد واستخدامهم في العمل بالقصور). وفي الخمسينات عثر على صفائح تشبه صفائح مسينا.

وحوالي العام ١٤٥٠ قبل الميلاد، احتل الآشيون جزيرة كريت ودمروا قصور ملــوك كنوسس، وبعيد هذا، قطن الآشيون والقبائل تمت لهم بالقربى في بعض الجــزر _رودس، قسم من قبرص) والساحل الشمالي-الغربي من آسيا الصغرى. ولقد استوحيت هذه الأحداث طبعا من أسطورة حرب طروادة (حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد)، الواردة بعبقريــة فــي

إلياذة هوميروس. هكذا، تذكر، قبائل، قادة وأبطال من قصائد هومروس: مثلاً، "أكيـــاوا"-آشيون، "أكاغامونا"-ربما كان أغاممنون.

اجتياح الداريين. العصر الهوميري. بداية عصر الحديد

نقرأ في وثائق شرقية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى جانب الآشـــيين أســـماء جماعات أخرى قبلية يونانية، مثل الـ"جافان *JAVANS*": الأيونيـــون. وحوالـــي ١١٠٠، تحرك اتحاد قبلي كبير من الداريين الآتين من شمال غرب شبه جزيرة البلقـــان، تحـــرك باتجاه الجنوب. تغلغل هذا الحشد المقاتل الأقل حضارة من الآشيين، في القـــرن ١١ قبـــل الميلاد في اليونان الأوسط وبلبونيز. اقتحم الداريون أرغوليد واستولوا على مسينا والمراكز الأخرى. اختلطوا بالرعايا المحليين واستبعدوا قسماً منهم. دمرت مسينا وفقدت إلى الأبـــد أهميتها السياسية والثقافية. واجتاح داريون آخرون لاكونيا، لكن بعد صراع طويل وضـــار. وهنا، في وادي أوراتس، ولدت فيما بعد، في القرن التاسع، دولة إســـبارطة. وقســـم مـــن الآشيين الباقين، التحفوا الجبال صعبة المسالك في شمال ووسط البلبونـــيز، أي المنـــاطق المسماة فيما بعد أركاديا وأشايا *ARCADIA ET ACHAIE*.

لم يعان قسم من أرض اليونان القارية والجزيرية، بخاصة آتيك، موطـــن الأيونييـــن وعدد كبير من الجزر الإيجية، من الاحتلال الداريني. ومرحلة الأيونيين في شبه جزيـــرة البلقان غير محدودة.

إذن في بداية الألف الأولى قبل الميلاد، تشكلت الجنسية اليونانية القديمة. وانقســـمت إلى مجموعات قبلية: أيونية، دارية، آشية وأيولية، التي تتكلم كل منـــها لهجتـــها الخاصـــة وتمتاز بتطورها الاقتصادي، الثقافي والخلقي.

نجم عن غزوة الداريين إلى حد ما انخفاض المستوى الثقافي: توقف بناء القصـــور، وسقطت التجارة والصناعة والفن في هاوية الانحطاط. وانحسرت العلاقات الاجتماعيـــة. توطد العشير من جديد، وتراجع استخدام عمل العبيد. نجـــم هـــذا بســـهولة، لأن مراكـــز الحضارة الميسينية كانت محاطة بالقبائل التي تعيش عهد الأبوة. وفي ذات الوقـــت، تعلـــم اليونان استخدام السلاح الحديدي (السيوف، والقذائف -الحراب- الســـهام وأدوات حديـــدة أخرى؛ وبدأت صناعة الحديد، المقتبسة من آسيا الصغرى بالتطور. واستعاد إيقـــاع نمـــو القوى المنتجة تسارعه.

إلى هذه الحقبة من الزمن تنسب روائع الفن الشعبي في اليونان القديمة: الإلياذة والأوديسة، القصائد الملحمية المنسوبة إلى هومروس، الشاعر الأعمى الخرافي. تعكس هذه القصائد مشاهد من الحياة الثقافية والاجتماعية في الحقب المسينية وبعد المسينية (من القرن ١٢-٨ قبل الميلاد).

تشغل الالياذة والأوديسة أحد أهم الأمكنة في الأدب العالمي؛ فمن الطبيعي أن مسألة معرفة متى، أين وكيف ظهرت هاتان الملحمتان، تهم الحضارة الإنسانية. ففي القرن الثالث قبل الميلاد، كان بعض علماء اليونان يشك بوجود هوميروس. وبعد ألفي عام، في نهاية القرن ١٨ وبداية ١٩، طرح العالم الألماني فريدريك أوغست وولف من جديد، بكل حدة، مسألة هوميروس باعتباره ناظم الالياذة والأوديسة. وفي كتابه معلومات تمهيدية عن هوميروس (١٧٩٥) يؤكد وولف أن هذه القصائد ولدت عفواً من أغان شعبية ملحمية. لكن "الموحدين"، خصوم وولف (منهم شيللر وغوته) يشيرون إلى ان الوحدة الفنية في أشعار هوميروس تفترض شاعراً عبقريا. واليوم، يرى أغلب الاخصائيين أن القصيدتين كتبتا فعلاً، إجمالاً، بقلم كاتب نابغة (هومروس؟) في نهاية القرن ٩ أو بداية القرن ٨ قبل الميلاد؛ لكنه لم يفعل أكثر من أنه جمع بمهارة وأرابة في كتاب واحد أعمالاً فولكلورية (ملاحم مغناة خلال عصور بحناجر شعراء "منشدين").

تعكس أشعار هوميروس عدة قرون من حياة اليونان القديمة. نقرأ فيها (بخاصة الإلياذة) قصص أحداث، نماذج ومشاهد من أيام ازدهار المسينيين، الذين سبقوا الاجتياح الدوري. ويعود موضوع الإلياذة نفسه إلى أوج المسينيين وأسبقيتهم في أثناء الحملة ضد طروادة التي شنها الآشيون المتحالفون تحت قيادة آغاممنون، ملك المسينيين "الغني بالذهب" (في حوالي العام ١١٨٠ قبل الميلاد. تستدعي هذه القصيدة حرب طروادة، أو بالضبط أحد فصولها الأخيرة: الهزيمة الساحقة التي ألحقها الآشيون بالمدافعين عن "طروادة العظيمة". لكن المضمون الأساس للإلياذة يميز اليونان بعد الاجتياح الداري وحتى بداية القرن الثامن قبل الميلاد يونان "عصر هوميروس". هكذا، ذكر فيها السلاح الحديدي كثيراً ولم يكد يذكر السلاح البرونزي لندرته. فنستخلص أن الحديد كان قد عرف وانتشر، لكن الشاعر يصف الزمن الذي كان فيه هذا المعدن زمناً غريباً. وتشير الأوديسة إلى عودة أبطال طروادة، وإلى الحياة اليومية لزمن السلم. هنا، يكرر الحديد ثلاث مرات أكثر مما في الالياذة، إنما

نصادف هنا النحاس والبرونز أكثر أربع مرات من الحديد. أخيراً، تتحدث بعض المقـاطع، عن تشكيلة المجتمع العبودي، المنقسم إلى طبقات، أي أنها تخص مرحلة لاحقة.

عاش المجتمع "الهوميري" من القرن ١١-٩ على قاعدة الاقتصـاد الطبيعـي، أي أن سكان كل ضيعة ينتجون كل مايستهلكونه. أساس الاقتصاد التدجين: الدابة هي وحدة القيمة. مثلاً مرجل ضخم من النحاس يساوي ١٢ ثوراً، شابة عبدة-أربع ثيران. وللزراعة، فـي الشعر، المقام الثاني: وكأنهم لايملكون سوى المحراث الخشبي الذي لايعمل إلا في الأرض الطرية، والوديان الغرينية؛ إذن الزراعة في حالة متطورة: يبـذرون الحنطـة الروميـة، الشعير، ويزرعون البقول والبساتين المثمرة. والصناعيون، الطبقة الوسيطة التـي تمـيز الحراث ومنتجي المواد المباعة في السوق، غير موجودين بعد. يشار إلى مهنيين يعملـون بناء على طلب، عمال الفخار،صناع الجلود، الحدادون، البناؤون، وصناع الذهب، الشـعراء المنشدون، نذيرو الحرب، يشغلون جميعاً وضعاً كريماً ويسمون "من يعمل من أجل الشعب" (الصناع). والإله هيفا ستوس الذي يعمل في محل حدادة وفرن له، بسندانه، ومطارقه، يبدو الممثل الرئيس لمهنة الحدادين.

العلاقات المتبعة والتجارة والنقود غير موجودة. إنما عدا وصف هذه الحياة المنعزلـة عن العالم الخارجي، تحكي الأشعار قصصاً عن البحار البعيد؛ والأوديسة نفسـها تسـرد تجوال وتطواف أبطالها. وأوليس تتحدث هنا عن سفرها إلى مصر؛ وثمة حكايا أخرى عن رحلات بحرية، على رأسها الأعمال التجارية. في اليونان-هوميروس، لم تكـن المدينـة، بصفتها مركز صناعة وتجارة، قد وجدت بعد؛ فالأشعار لا تصفها أبداً، سوى مقطع واحـد في الأوديسة حيث، مملكة *PHEACIENS* "المغرمين بالمجذاف"، نرى مرفأ تجارةفعليـاً. هي ذي الحقبة الأخيرة من العهد الهوميري التي وصفت في هذه الأغنية الأوديسية.

والمجتمع الهوميري مؤسس على العشير لكن هذا يتفكك، لأن الأرزاق المنقولة وحتى البيوت ملكية خاصة؛ فقط استمرت الأرض ملكاً للمشاعة، المنقسمة إلى أسهم يتمتع به مـن تلقاه مدى الحياة. لذا لوحظ فرق واضح في الـثروة. شـيوخ العشـير يحـوزون عـدة أسهم،واسمهم يعني "من بتصرفه كثير من الأرض".

والنبالة الغنية والمتنفذة تشغل، بعامة، وضعاً متميزاً. إنها تمتلك عقارات منتزعة مـن عقارات المشايعين يسميها هوميروس "*TEMANAS*". وتشهر أشعاره فقط الحياة الهادئـة

والواقعات المسلمة لهذه النبالة. في أيام السلم، يعيش الأرستقراطيون بأسر كبيرة في أملاكهم، يخدمهم العبيد. فعلاً، لم يكن عدد العبيد كبيراً، ولايمكن وصفهم بـ"ملكية حية" كما قال أرسطو فيما بعد. نبلاء هوميروس يقاسمون عبيدهم حياتهم. هكذا، *NAUSICAA* "ذات الذراعين الأبيضين"، ابنة النبيل *ALCINOUS*، تغسل الغسيل على البحر مع عبيدها؛ و*EUMEE*، عبد-راعي الخنازير، هو رجل ثقة لدى *ULYSSE*، إلخ. لكن العبيد في المجتمع الهوميري يمثلون الشريحة الخادمة في هذا المجتمع، جنين الطبقة العبدة القادمة.

وتفكك مجتمع العشير ثابت أيضاً بالفرق الواضح في قلب المشاعة. فأشعار هوميروس تصف الوضع الحزين للأعضاء الذين فقدوا عقاراتهم ويخدمون النبلاء؛ وثمة أيضاً مسألة المهاجرين واللصوص المسلوبين النار والمكان، بل كل الحقوق.

لم يكن المجتمع قد انقسم إلى طبقات فليس ثمة دولة؛ ولم تفقد التنظيمات الإدارية والقضائية بعد صلاتها المباشرة مع الشرائح الشعبية ولاتعبر فوقها. السلطة الوليدة تتركز شيئاً فشيئاً في يد الملاك المنحدرين من نبلاء الدم؛ "ومجالس الشيوخ"، المجتمع حول الملاك، يتكون من ممثلي الأرستقراطية. لكن جمهرة الناس البسطاء، أعضاء المشاعات، يحفظون حقوقهم. والنبلاء (بخاصة في أيام الحرب) يهتمون بالناس، ويقيمون وزناً لإرادة الجنود البسطاء وهم مضطرون للاجتماع من أجل اتخاذ القرارات الهامة. يسمي ماركس وانجلز هذا النظام "الديموقراطية الحربية. فالديموقراطية العسكرية هي إذن التي تميز العلاقات السياسية والمرحلة الانتقالية بين المجتمع البدائي ومجتمع الرقّ المنقسم إلى طبقات، الذي تلاه.

انبثاق دين الآلهة الأولمبيين

ظهرت الإيدولوجيا الدينية في الحقبة الهوميرية. وخلق الفن الشعبي ليس فقط أغانٍ ملحمية، بل أيضاً "أساطير"، خرافات تتعلق بالآله، بأنصاف-الآلهة وبالأبطال. وتعبر الأساطير عن عدة مفهومات في قوى الطبيعة وفي موقف الناس من هذه القوى في مختلف العصور من حياتهم الاقتصادية والاجتماعية. إجمالاً، الأساطير من مصدر ديني.

نصادف غالباً، في الأساطير اليونانية آلهة بأشكال حيوانية. يؤكد هذا أن هذه المعتقدات تعود إلى حقبة مختلفة عن المجتمع الطبقي، إلى الإيدولوجيا الطوطمية للأزمنة الغابرة. هكذا، كانت عبادة الأفاعي التي تمثل القوى الشيطانية (لذا سميت هذه العبادات

"*CHTONIENS*" من الكلمة اليونانية *CHTOM*، الأرض)، كانت منتشرة جداً منـــذ أقـــدم العصور. يمثل "*ERECHTEE*، بطل ونصف-إله لآتيك، بصورة تنيـــن ضخـــم يســـكن الكهوف الصخرية في الأكروبول التي كان يحميها. وفي آثينا، عاشت طويلاً عادة تقديـــم القرابين على منحدرات الأكروبول لهذا التنين المحسن. وبني باسمه وعلى مجده، في وسط الأكروبول، الهيكل أو المعبد المسمى "*ERECHTEION*".

وكان أبولون "المشرق" أو فويس، إله الشمس، كان أيضاً مرتبك صميمياً بعبادة ثعبـان ضخم، يقيم في كهف عميق من برناس قرب ديليف. ومن هنا لقب "بيتيان" المعطى لأبولون ولقب بيتس المعطى لآلهات المعبد، التي تأتي العجائب. وبعد أن قتل بيتيون بضربةســـهم، بنى أبولون معبده في هذا المكان؛ وهو نفسه، وقد أخذ شكل دلفين، يسبح في البحر. ويظهر لبحارة كريت، ويطلب أن يبنوا له قرب هذا الهيكل معبداً. لذا سمي هذا المكان "دلف" وهـو نفسه "دلفيني". عدا دلف يوجد في اليونان محال كثيرة ترتبط بعبادة أبولون-دلفيان.

وتمجيد الذئب ترك هو الآخر آثاراً عديدة، وأمكنة عبادة عدد كبير من الآلهة الأحدث تحمل اسم *Lycee* (مثل ليسي آثينا). الآلهة المعبودة هنا تسمى "الذئـــب" (مثـلاً، زيـوس ليسيان، أبولون ليسيان) كورثة أو أخلاف للعبادات التي تركوها. والبومة كانت تعتبر فـــي آثينا طائراً مقدساً؛ وفيما بعد صار وصف آثينا "بعيون بومة"، الإلهة التي تحمـــي آثينـــا. وعبادة النباتات انتشرت واسعة في اليونان القديمة. وفي دودان بايبيريا كان يوجد وســـيط للوحي[1] شهير؛ كان يوجد هنا سنديانة ضخمة، عمرها مئات الســـنين حتـــى اعتقـــدوا أن زيوس يسكن فيها. "يتنبأ"، الكهنة بالمستقبل حسب حفيف أوراقها.

وآثار الإحيائية، البارزة جداً في ذروة نظام العشير، تضاف إلى هذا الأساس الأقـــدم. وبالنسبة لليونان، تتجسد الطبيعة بكائنات نصف-بشر ونصف حيوان: بشر بأفخاذ تيس، أو مقدمة حصان ومؤخرة بشر، وحوريات البحر بذيل سمكة. وأرواح الغابات كانت حوريات الغابات، وأرواح البحار كانت آلهة أمواج سمكية الشكل، إلخ. كـــان النـــاس يعتقـــدون أن العلاقات الجيدة فقط مع هذه "الأبالسة" يمكن ان تؤمن للإنسان حياة سعيدة وأمينة (فلســـفة

---

[1] - كاهن او كاهنة عند الإغريق يعتقد أن الإله يجيب بواسطته عن سؤال حول أمر مـــن أمـــور الغيب.

السعادة *EUDEMANISME*) والموقد البيتي يعتبر مقدساً، لأنه كان مرتبطاً بعبادة الأسلاف. ويزين هذا الموقد بالأزهار، وتعامل شرارته بعناية، وترمى فيه أعشاب عطرة. الخطيبان، وحديثو الولادة، يقدمون له، والمنفيون يلجؤون إليه. وتمجيد الأسلاف، المرتبط صميمياً بعبادة الموقد المنزلي، كان واسع الانتشار في اليونان،حتى في الزمن التاريخي. والوثائق التي وصلتنا تزودنا بشواهد كثيرة.

وتقديس ديمتر *DEMETER*، الأرض المرضع، أخذ مدى واسعاً. ففي ايلوزيس (البقعة الأخصب في جزيرة أكيل)، صارت واحداً من أهم مراكز هذه العبادة، ظهرت أسطورة خطف ابنة ديمتر، كوري *CORE* (تجسيد تجديد الربيع)، من قبل قوى الظلام العائشة في أعماق الأرض. كانوا يعتقدون أن الطقوس المعقدة والغامضة وحدها (الأسرار، الطلاسم) تستطيع إقناع ديمتر، الحزين والهائج، أن لايحرم الأرض من طاقتها المنتجة.

مع تفكك نظام المشاعية وتوطيد أرستقراطية الدم العسكرية، يظهردين جديد ومعقد، دين آلهة الأولمب، سادة السماوات، "سكان الأعالي" و"ملوك العالم"، الذين يفترض أنهم يقيمون فوق جبل الأولمب. كانوا أعضاء "عشير إلهي"، يشبهون نبلاء الأرض،وكانوا قد اقتسموا الكون؛ ونضيف أن الأرض تبقى ملكهم المشترك. الآلهة الكبار هم ثلاثةأخوة: "زيوس إله الرعد، إله الغيوم"؛ بوزيدون، إله البحر، وادينوس، إمبراطور جهنم.

المظفر بوزيدون يجيب:

نحن ثلاثة أخوة، أبناء كرونوس وريا:

زيوس، أنا، أدينوس، الثالث الذي يحكم جهنم.

قسم العالم إلى ثلاثة أقسام، لكل امبراطوريته.

حصتي، عندما أجرينا القسمة،

أن أسكن أبدا البحر المزبد؛

ولأدينوس مملكة الظلمات؛

ولزيوس، السماء الواسعة في الأثير وبين الغيوم؛

لكن الأرض تبقى للجميع، وكذلك

الأولمب العالي".

(الإلياذة، النشيد ١٥، ١٨٦ وبعده).

ثم يأتي الجيل الأصغر من الآلهة، أبناء زيوس. كان هفاستس، ابن زيوس وهيرا، إله النار، والحدادة وحامي فنون صناعة المعدن. الـ"مشرق" أبولون أو فوبس، إله الشمس، يجوب السماء على مركبته النارية، وأرتمس، إلهة القمر، ملكة الغابات والحيوانات المتوحشة، القناصة التي لا تتعب، كانوا أبناء زيوس والإلهة ليتو. وهرمس، ابن زيوس والحورية مايا *MAIA*، كان الرحالة الأبدي، بشير زيوس، سيد السواح وقائد أرواح الموتى لدى إله الجحيم. بعد هذا، إله الحرب الدامية، آثينا، الإلهة الذكية، حامية المدن، وأفروديت، ابنة زيوس وديونس، إلهة الحب والجمال، مع ابنها إيروس، الخبيث والمتمرد، يشكلون أيضاً جزءاً من الآلهة الأولمبيين. ولقد اقتبس كثير من هؤلاء الآلهة من معتقدات الرعايا قبل الهلينية، مثل، أرتمس، لإلهة الحيوانات، وأفروديت ذات "الشعر الذهبي" التي حسب بعض الأساطير، ولدت بأعجوبة من زبد البحر كانت ممجدة بخاصة في جزيرتي قبرص وسيثير، اللتين خضعتا لتأثير قوي مينوي وشرقي. وقد خلقت اليونان نفسها باقي الآلهة. وأعطاهم الشعراء المنشدون شكلاً يلائم ذوق وروح النبلاء القريبين منهم. لذا كان آلهة الأولمب ليس فقط إنسانيي الشكل، بل يمتازون بهيئة "أرستقراطية". يعيشون حياة البطالة والبذخ في قصورهم الذهبية، كما تستقر الأرستقراطية السماوية ـ تنغمس بالرحيق والكوثر الإلهين اللذين يعطيان الخلود، ويصغون إلى الأغاني العذبة من الحوريات. على ذلك، المنازعات والمشاجرات تكثر بينهم كما هي عند نبلاء الأرض. وإن أتى الآلهة من حين إلى آخر لمساعدة الملوك، الذين هم شفعاؤهم، كما حدث مع أوليس، يتأملون بالـ"رصانة الألمبية" آلام الناس البسطاء. في يوم آخر قرر زيوس إغراق كل الناس؛ لكن اثنين فقط أنقذهما بروميته، ومن هذين الاثنين تتجدد البشرية. التي خرجت من حياة البؤس والحيوانية بفعل النار التي سرقها من السماء بروميته نفسه. عاقب زيوس بقسوة التيتان المتمرد، بربطه إلى صخرة قفقاسية وبإرسال نسر له كل يوم، طيره المفضل، لينهش الكبد الجريح.

استناداً إلى هذه الأسطورة نرى "ديناً أولمبياً" جديداً أو "دين ويوس" يتوطد في اليونان جزاء نضال حاد. وخرافات عديدة عن "تيتان" عن "عمالقة" وأبطال مقدسين تعطي فكرة واضحة عن هذا الصراع. كان البطل المفضل لدى الشعب هو هرقل الذي عاش حياته بخدمة أورستيه، الملك الفظ والجبان؛ بشراسته الغريبة، كان هذا الشجاع المقدام يجسد قوة الطبقات الشعبية، التي ترهب النبلاء. ينفذ ١٢ عملاً صعباً. وفيما بعد، يباع عبداً، يخدم

ملكة ليديا أومفال التي تلبسه ثياب امرأة ليقوم بأعمال نسائية. كانت صورة هرقـل، رمـز الكادح التعس، عزيزة غالية لدى عامة الناس.

أسطورة آنيته *ANTEE*، ابن الأرض، الجبار الموهوب يستمد بأساً فريداً من ملامسة الأرض، هي الأخرى إبداع فن شعبي. تعكس هذه الخرافة وعي المزارعين ببأسهم ودورهم.وتعبيراً، على الأرجح، عن نزعة أرستقراطية، تقص هذه الأسطورة معركة فريدة بين أنيته وهرقل، الذي يخنق خصمه برفعهِ ليعزله عن أمه (الأرض).

هكذا تجد مختلف مراحل تطور النظام الاجتماعي القديم وأشكال النضال الايدولوجي البسيط، تجد منعكسها في أساطير ومعتقدات اليونان. وفيما بعد، في زمن المجتمع العبودي المتطور، يتحول آلهة الأولمب إلى مدافعين عن مختلف عناصر الحياة السياسية. آبولـون، مثلاً، صار حامياً للكهنة والمقدسات؛ بوزيدون–حامي البحارة، هرمس–حـامي التجـار. وعلى نطاق واسع تداول الدين رجال الأدب والفن في اليونان القديمة ليدعمـوا ويوطـدوا أيديولوجيا الرق والعبودية.

الفصل الرابع والعشرون

بعث الطبقات الاجتماعية والدولة في اليونان (القرن ٨-٧ قبل الميلاد)

المجتمع اليوناني وفق هزيود[١]

يتميز عصر ما بعد هوميروس بتبدلات عميقة في اقتصاد اليونان ونظامها السياسي. إذ تسارع تفكك النظام المشاعي البدائي بعد تحول، في بعض المناطق، الأرزاق والأسهم العقارية إلى ملكية خاصة أسرية.. وبدأت الأسر المرتاحة تنفصل أكثر فأكثر، واستغلالاً لتميزها الاقتصادي، راحت تحتكر وسائل الإنتاج الأساسية في المشاعة العشيرية: الأرض، الحيوانات والعبيد. وشرع المزارعون الأحرار يسقطون شيئاً فشيئاً في أتون التبعية للنبلاء، وراح يزداد عدد المضطرين للتخلي عن أرضهم والتسيب عبر الوطن بحثاً عن عمل.

يرسم الشاعر هزيود لوحة معبرة عن تحكم نبلاء الدم بجمهرة المنتجين (نهاية القرن الثامن-بداية القرن السابع قبل الميلاد). كانت بيوتيا، بلد الشاعر، منطقة تضم عدداً كبيراً من الاقطاعات الفلاحية الصغيرة. مجد هزيود، المالك الصغير، العمل الفلاحي. "العمل، أياً كان، لايعيب الإنسان: العار والشنار في التبطل".

وفي قصائده "الأعمال والأيام"، يرسم متعاطفاً شرط حراث فقير، سقط بين يدي غني مالك عقاري ومرابي. كانت بيوتيا تعيش في هيمنة ثلاثين نبيلاً عقارياً يصفهم هزيود "أكلة الهدايا"، " الشريحة الظالمة"، أغنياء بالأرض، بالحيوان والعبيد. وفي قصيدة "الباز والعندليب" يثير اضطهاد الناس المساكين. يأخذ البازُ العندليبَ بين مخالبه، ويخاطبه:

---

[١] - شاعر يوناني، ولد في أسكرا حوالي أواسط القرن الثامن قبل الميلاد، ناظم أشعار تعليمية: الأعمار والأيام، ونسب الآلهة.

أيها البائس، لمَ تصرخ؟ أنت من فصيلة

أقوى منك. ستذهب حيث آخذك،

كونك مغنياً ماهراً مخملياً

ومنك، حسب رغبتي، سأجعل وجبة أو أطلقك

حراً

مجنون من يقاوم من أقوى منه:

لن يظفر وإلى الخجل يضيف

المعاناة (شعر ٢٠٥-٢١٠)

كان هزيود بعيداً عن التفكير بنضال سياسي من الطبقات الفقيرة، وليس له سوى أن يهدد "الملوك أكلة الهدايا". يقول: إن العقوبة الإلهية ستضرب المستبدين والقضاة الجائرين، على ذلك، يرى أن الظلم منتصر حتى في السماء. وفي قصيدة أخرى، "نسب الآلهة"، يقدم زيوس كطاغية سماوي، ينزل بالجبار بروميته، صديق الناس، أفدح الأوصاب.

هكذا تدل أشعار هزيود إلى المرحلة التي تلت عهد هوميروس، بخاصة تفكك المجتمع الأبوي وولادة تشكيلة العبودية؛ مجتمع منقسم إلى طرفين متعاديين: طرف المسيطرين، أي الملاك الكبار أصحاب العبيد، المرابين، "والبسطاء غير الخالدين" المستغلين من قبل الآخرين؛ البؤساء، المحرومين من أي حق، الذين يعيشون أشبه بالعبيد. كما تبدو الحياة لهزيود قاسية وظالمة؛ يقول إن الـ"أرض" مترعة بالمتاعب والآلام، وكذلك البحر.

هي ذي العلاقات الطبقية التي توطدت في القرنين ٨و٧ قبل الميلاد ليس فقط في بيوتيا، بل أيضاً في كل مناطق اليونان.

أولى الحاضرات اليونانية

في هذا العهد ولدت الحضارات، المدن-الدول العبودية التي تجمع حولها وتضم الأرياف المحيطة. كانت هذه الحاضرات نموذجية من أجل تطور اليونان اجتماعياً. سمي هذا التطور الانصهاري ("تجمعاً").

ترافق تشكل الحاضرات مع رواج التجارة والحرفة التي انفصلت عن الزراعة. بنيت أغلب هذه الحاضرات، التي عرفت في القرن الثامن، على الشاطئ. هكذا كانت مدن إيونيا مثل ميليه، ومدن الجزر المحاذية لآسيا الوسطى: ميتيلين، سامس، ثم إيجن في خليج

سرونيك، آثينا، كورنث، ميغار، شلس وغيرها.وكانت المدن العبودية الأكثر نموذجية تمتـد على طول الطرق البحرية الرئيسة، من الشرق إلى الغرب، الأمر الذي يشير إلى الصلـــة بين تطور العبودية ورواج التجارة والمواصلات البحرية. يكتب ك.ماركس: "فـــي العـــالم القديم، أفضى العمل التجاري وتطور رأس المال البضاعي دوماً إلى اقتصاد الرق؛ حيـث، حسب وجهة انطلاقه، يمكن أن يفضي إلى تحول بسيط في نهج الرق الأبوي المتوجه نحـو إنتاج فضل القيمة.

وظهر في الوقت ذاته الشكل القديم للملكية العقارية: فقط، مواطن الحاضرة يقـدر أن يمتلك أرضاً داخل الحاضرة.

كانت الحاضرة مركز استغلال عم العبيد والفقراء. فنبلاء الدم حولوا كل ما فيها مـــن مؤسسات أبوية إلى أدوات لسلطتها. استبعدت رؤساء أو شيوخ العشير لتقيم الـ"أولغارشية" مكانهم، أي سيطرة بعض الأسر النبيلة. أما دور المجالس الشعبية فقد تراجع إلى العدم. بل هو من الآن لعبة بقدم الأرستقراطية.

هكذا استبدلت المشاعة الأبوية إلى مجتمع متناحر، منقسم إلى طبقات؛ والسلطة التـي كانت سابقاً وظيفة إدارية بحتاً، تتجاوب ومصالح الكل، صـــارت أداة ســطوة الســلطات العشيرية القديمة. لكن الملاك العقاريين النبلاء حافظوا علـــى بعـض الأشـكال الأبويـــة (عشائر، بطون، قبائل) كوسائل بين يدي المضطهِدين "وبالتالي، استخلص أرسطو واصفـــاً النظام الأرستقراطي في أتيك في القرن السابع والسادس قبل الميـــلاد، ... العبوديـــة هـــي التشكيلة الأكثر معاناة واضطهاداً للناس البسطاء.

الفصل الخامس والعشرون

الاستعمار اليوناني في القرن الثامن حتى السادس قبل الميلاد

أسباب حركة التوسع وخصائصه العامة

أثار استعمال شواطئ البحر المتوسط، البروبونتيد وبونت – أوخن (بحر مرمرة والبحر والأسود) تبدلات ضخمة في بنية الدولة، والعلاقات الاجتماعية، والأعراف والعادات في اليونان.

إن تأسيس مستعمرات هللينية على أرض واسعة كهذه ذو أسباب اقتصادية، اجتماعية وسياسية. وغزو الأراضي على يد نبلاء الدم، انتزاع ملكية صغار الفلاحين، نمو الشرائح المهنية والتاجرة التي تختلف مصالحها مع مصالح أرستقراطية السلطة–، كل هذا بعث صراعا اجتماعيا شرسا. والشرائح الاجتماعية المعدمة أو المقهورة في هذا الصراع كانت مكرهة على ترك الوطن وترحل لتغامر في المستعمرات. والعنصر الهام الآخر هو أن كثيرا من أقاليم اليونان القاحلة كانت بحاجة لاستيراد القمح، الأمر الذي أفضى، منذ القدم، إلى أن تقيم مدن كورنثيا، ميغار، إيجن، شالسس علاقات مع المناطق الغنية بالقمح خارج الأرض اليونانية البحت. وفي بداية الاستعمار، توافد المهاجرون إلى المستعمرات، وأعطوا هذه الحركة صفة زراعية. ثم تطلب ازدياد المهن ورواج التجارة أسواقا جديدة لتصريف المنتوجات المتنامية أبدا التي تنتجها الحرف والعبيد البربر الذين صاروا اليد العاملة الرئيسية في الإنتاج اليوناني المتسع. وقد أسست المستعمرات حيث كان السكان الأصليون أنفسهم قد خلقوا مراكز تداول بين القبائل.

كانت هذه المستعمرات (يسميها اليونان أبويكيا: بعيدا عن البيوت) مستقلة عن المتروبول[1] (المدينة–الأم) وشكلت دولة خاصة بها. ولم تكن المستعمرات والمتروبول

---

[1] – أي الدولة بالنسبة لمستعمراتها.

متصلين سوى بالآلهة والتقويم المشترك، غالبا بتسمية الموظفين، التقسيم إلى قبائل، وأيضا بعض إمارات الاحترام: "كما يحترم الأبناء الآباء كذلك تحترم المستعمرات المتروبول، كتب دنيس هلكارناس (منتصف القرن الثالث). طبعا صارت المستعمرات شيئا فشيئا أسواقا رائعة ومراكز آمنة لتجارة المتروبولات، بخاصة إذا كانت هذه الأخيرة قد اشتركت بتأسيسها. في هذه الحالة، يعين المتروبول مسؤولا لتنظيم المستعمرة. كان مكلفا بإعادة توزيع حصص الأرض بين المعمرين؛ وهو أيضا الذي يرسي النهج الحكومي، إلخ.

كان الاستعمار يمتد بثلاثة اتجاهات: غربا، جنوبا وشمالا شرقا. كان يصدر من مختلف مدن شبه جزيرة البلقان، من يونان آسيا الصغرى ومن جزر الأرخبيل. وكانت المتروبولات الأهم هي: ميليت، كورنثيا، ميغار، شالسس في أوبيا.

المستعمرات الغربية

حسب الرواية، بعد حرب طروادة شرع اليونان باستعمار الجزء الغربي من البحر المتوسط. لكن المصادر الموثوقة تشير إلى تغلغل اليونان في إيطاليا وسيسيليا، لم يبدأ إلا في القرن الثامن. كان عدد المستعمرات اليونانية في جنوب إيطاليا كبيرا، بحيث عمد القدماء هذه المنطقة باسم اليونان الكبرى. كان اليونان قد انشدوا إليها للطف مناخها، خصوبة أرضها، غنى مراعيها، كثافة الغابات التي تقدم الخشب لبناء البواخر.

كانت أقدم مستعمرة على الشاطئ الغربي هي كومس، أسسها شلسزينيو أوبيا. اتسعت كومس واغتنت بسرعة. وخلقت بدورها مستعمرات عديدة، أهمها نابولي.

في نهاية القرن الثامن، على الشاطئ الغربي لخليج تارانتو، ولدت سيباري ***Sybaris***. جعلها خصب التربة النادر وطرق المواصلات الملائمة تزدهر وتعمر بالسكان. اشتهر أهلوها ببذخهم وكياستهم. وصارت كلمة "سيباري" اسما مشتركا يعني: الشهوانيون. وفي نفس الحقبة ظهرت كروتون، مزاحمة وخصمة سيباري، لتمتعها بمرفأ رائع وشروط ليست أقل ملائمة للزراعة. حافظت على أسبقيتها حتى ظهرت تارنتو، التي أسسها حسب الخرافة السبارطيون، أيضا في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد. كان الترانتيون يزاولون التدجين، الزراعة وصيد السمك، ويتاجرون بالصوف، اللحم المقدد والسمك.

كانت سراكوز أهم مستعمرة يونانية أسست في سيسليا على يد الكورنثيين في بقعة غنية بالقمح، قرب أفضل مرسى على الساحل الشرقي. اتحدت مع العديد من المستعمرات:

ليونتين، كاتان، تورومن، مسينا، إلخ. وعلى ساحل سيسيليا الجنوبي انبعثـت أغرجـانت، الشهيرة بزيتونها. أقام الكورنثيون في جزيرة كورسير، التي قدمت مرفأ هبوط إلى الطريق الغربي. اغتنت كورسير بسرعة واضحة، وبعد بعض الوقت، امتلكت أسـطولا تجاريـا يحسب حسابه.

في نهاية القرن الثامن تغلغل يونان فوسيا (مدينة من آسيا الصغرى) في ثغر رومـا، حيث أسست مسيليا (اليوم مرسيليا). من هنا، مد الفونسيون نفوذهم التجـاري علـى كـل ساحل ميديا الفرنسية وشرق إسبانيا؛ وظهرت هنا عدة جزر يونانية. واحتكـر المسـيليون ملاحة السواحل وأقاموا علاقات مباشرة مع بريطانيا البعيدة التي جلبوا منها القصدير.

على ذلك، فقد اصطدم الاستعمار الغربي بمقاومة الفينيقيين. لم يستعمر اليونان سـوى الساحل االشرقي والجنوبي من سيسيليا، بينما كان الغرب بين يدي فينيقي قرطاجة الذيـن كانت مستعمراتهم في مالطا، سردينيا وغيرها. وفيالعام ٥٣٥ قبل الميـلاد، بعـد معركـة وحشية في ألاليا، قرب شواطئ كورسيكا، أوقف القرطاجيون حلفـاء الأوتروسـك تقـدم اليونان نحو الغرب.

بينما كان الاستعمار الغربي حتى القرن السادس ذا صفة مسالمة، عـارضت الـدول القديمة في جنوب شرق البحر المتوسط، بشعبها الواسع الفقير والمتمدن، واجهت اليونـان بمقاومة ضارية. مع ذلك، تأسست مستعمرتان على الساحل الشمال-إفريقي: نوكراس فـي مصر وسيرين في ليبيا. كان اليونان يستوردون من مصر القمح، الملح، المرمر، الخزف، البردي، العطور، الأدوية، البهارات، العاج، الأبنوس وكثيرا من الزيوت. كـانت سـيرين غنية بالحبوب: شوفان وشعير. ويطلعنا نقش اكتشف حديثا، يعود إلى عشـرينات القـرن الرابع قبل الميلاد، أن سيرين صدرت خلال ثلاث سنوات قرابة ٢٩ ألف طن. عدا القمـح، صدرت السلفيوم، النبات الطبي الذي كانت الدولة تحتكر بيعه. وشيئا فشيئا، ظهرت مـدن صغيرة حول سيرين، مشكلة بلدا برأسه.

مستعمرات سواحل ثراس، بروبونتد وبونت-أوكسن

كان الاستعمار اليوناني المتجه إلى الشمال والشمال الشـرقي يمتـد علـى سـواحل الدردنيل، بحر مرمرا والبحر الأسود.

في بداية القرنين الثامن والسابع، شخص العديد من المستعمرات فـي شـبه جزيـرة

شلسديك، التي كان أبناء شلسيس قد بنوا أكثرها (ومن هنا أتى اسم هـذه المنطقـة. وتبـع الكورنثيون الشالسديان وأسسوا بوتيديا. وفي بداية الطرق التجارية التي تقود إلـى داخـل ثراس، إلى مضائق البلقان والدانوب، ولدت أبدير ومارونيه.

لكي لا تترك الأفضلية التجارية لليديا، أمن الملزيان مواقع لهم فـي مؤخـرة دولـة الليديين ، سكنوا على الساحل الشمالي الغربي من آسيا الصغرى وتقدموا شيئا فشيئا نحـو الشمال، من جهة هلسبونت وبروبونتيد. أقاموا سيزيك، مرفأ على الساحل الجنوبي لبحـر مرمرا الذي كا محاطا بمستعمرات ميليزية. والساحل الشمالي لبروبونتيد كان محتلا مـن المغاريين الذين، بتأسيس سلسدوان في مدخل بوسفور ثراس، استلموا مفتاح بونت-أوكسن. وعلى الساحل المقابل، عند مخرج هلسبونت، أرسوا بيزانسيا (في منتصف القرن السابع).

كانت ميليه هي التي لعبت الدور الأول في إحياء شواطئ البحر الأسـود. والقرنـان السابع والسادس، عهد تغلغل الملزيين في المناطق البونتية، كانا قد وسما بازدهـار ميليـه التجاري والصناعي. وكثير من الملزيين مخروا البحر الأسود. وفي النصـف الأول مـن القرن السابع، بنى الملزيون على ساحله الجنوبي مدينتيـن تجـاريتين هـامتين: سـينوب وترابزونت. صارت سينوب بسرعة من أهم مدن البحر الأسود. كان مرفأن تحت تصرفها وكانت تتاجر بالخشب، زيت الزيتون والسمك، وبسرعة أيضا بنت لنفسها عدة مسـتعمرات (كوتيورا، كرازونت وغيرها). وحازت هرقليا، التي بناها الميغار في منتصف الطريق بين بيزانس وسنوب، أهمية كبرى.

في النصف الأول من القرن السادس، شخصت مستعمرات أستريا وتومس وأبولونيـا على الشاطئ الغربي، في جنوب الدانوب. وخـلال ١٥٠ عامـا (مـن القرنيـن السـابع والخامس) ظهرت ثلاثة مواطن أساسية للاستعمار الهلليني على الساحل الشـمالي للبحـر الأسود. الأول أولبيا، يقع على الشط الأيمن من هباني. وفي القرن السادس قبـل الميـلاد، بنى تيراس على الشاطئ الأيمن من ليمان دنستر، ومدن مملكة البوسفور المقبلة، بانتكـابي ومنغوريا من جهتي مضيق كيريت. وفي القرن الخامس، ظهرت شرسنير فـي الطـرف الجنوبي لشبه جزيرة توريد. كانت هذه المدن قد بنيت على الساحل أو جـواره. وكـانت طرق المواصلات التي شقت فيما بعد تمتد على ضفاف الأنهر الكبرى: دانوب، ونسـتر، بوج، دنيبر. وكانت آخر نقطة من الشمال الشرقي تقع على نهر الدون الذي حملت اسمه.

وفي شرق البحر الأسود، في كولشد، وجدت عدة مستعمرات: فازيس، ديوسكوريا وغيرها.

ببناء مستعمراتهم في شمال البحر الأسود، كان اليونان يتابعون أهدافا تجارية. فثروات هذه البلاد الطبيعية، في رأسها القمح، السمك، ثم المواشي، العسل، الشمع، والملح، كانت تشد المعمرين إليها. وقد لعب ساحل البحر الأسود دورا كبيرا كسوق للعبيد يمون اليونان القارية والأرخبيل. أخيرا، خلق تصدير السمك الرائج مراكز للصناعة السمكية، مثل سنوب وبانتكابيه؛ فليس صدفة أن تحمل بعض نقود بونت–أوكسن صور السمك وأن تكون أقدم نقود أولبيا سمكية الشكل. وبالمقابل، كانت اليونان تصدر إلى المستعمرات الخمر وزيت الزيتون، ينقلونه بقوارير خاصة ضيقة الأسفل، والنسيج، والحلي، والأسلحة، والخزف وسواها. على ذلك، لم تتأخر هذه المدن عن صنع، بمساعدة السكان الأصليين، مختلف المواد لكي لا تستوردها من المتروبول.

النتائج الاجتماعية والاقتصادية للاستعمار

لقد ساهم الاستعمار إلى حد بعيد بتطور اليونان اجتماعيا وسياسيا. فالمدن اليونانية، وقد صارت مراكز البلاد الاقتصادية، كانت تحاط بضواحي تجارية ومهنية. وقد تسارعت عزلة الحرفة عن الزراعة. هرعت الحرف إلى المدن، وتطورت الصناعات بوتيرة عالية، بخاصة التعدين، الخزف والنسيج. وتشكلت شريحة من التجار وصانعي الأسلحة ، ثم من المرابين. ومنذ القرن السابع، كان لدى اليونان نقود معدنية. ضربت إيجن ومدن أخرى الدراخما الفضية وأوبول[1] النحاس على السندان: سلحفاة لإيجن، سمكة مجنحة لكورنثيا، وبومة لأثينا. تحسب المبالغ الضخمة على الطريقة الشرقية: ١٠٠ دراخما تساوي مين، ٦٠ مين تسمى تالان، رغم أن هذه الوحدات النقدية غير متداولة في اليونان. فظهرت شريحة تجارية جديدة، تجمع الفضة أو النقد. وتطور الإنتاج الحرفي في عدة مدن مثل ميليا، رودس، سامس إيجن، ميغار كورنثيا وأثينا، وكانت هذه السلع معدة للتصدير.

صارت مراكز التجارة والمهن أيضا مراكز للرقيق. ولما كان مردود العمل منخفضا جدا والتقنية بدائية، أخذ عمل العبيد أهمية قصوى. وكان الرقيق ينهل ليس فقط من دمار

---

[1] – وحدة وزن ونقد في اليونان القديمة.

وفقر الشعب اليوناني بحصر الكلمة (استخدام لقاء الديون)، بل من الحروب، ومن اللصوصية واستيراد العبيد الأجانب. في هذا العهد، لم يكن التاجر يختلف عن القرصان، وغالبًا ماتنتهي الصفقة بتعرية اسر المشترين السذج، ثم يباعون عبيدا. وصار استغلال الأجانب الأسرى الشكل المهيمن في عملية النخاسة في المدن الهللينية.

لقد لاءمت العلاقات الاقتصادية والتجارية الممارسة عبر كل مناطق البحر المتوسط ودفعت تطور الحضارة اليونانية. وكان مستوى الحياة المادي والثقافي غالبا أعلى في المستعمرات منه في اليونان بحصر الكلمة. كما أفادت اليونان القارية من مدن آسيا الصغرى، بخاصة مدن أيونيا التي كانت على اتصال مباشر مع الشرق، فيما يتعلق بالثقافة المصرية، البابلية والآشورية. ويكفي أن نذكر أن الأبجدية الأيونية، المستقاة من الشرقيين (من الفينيقيين على الأرجح) التي أتقنها الأيونيون فقط، استخدمت في العالم اليوناني كله. كما أن الشرق علم اليونان صب التماثيل من المعادن، الأمر الذي ساهم بتطوير فنونهم التشكيلية. وفي إيونيا نظمت انطلاقا من الأغاني القديمة القصائد الـ"هوميرية" التي انتقلت فيما بعد إلى المتروبول وانتشرت في المستعمرات الغربية. وشهدت إيونيا وإيوليا ولادة القصيدة الغنائية، وعوامل العلم والفلسفة اليونانية (انظر الفصل ٣٣).

كان أسلوب حياة البذخ التي سيعيشها المعمرون يلائم عمارة مدنهم، المبنية بمخطط متناسق، بشوارع عريضة ومستقيمة تتقاطع بزاوية قائمة (مثلا، اغرجانت، سلنانت، شرسونيز). وفي المستعمرات أنشئت أعظم صروح العصر، مثل معبد بوزديون الرائع في بوستوم.

الصراع الاجتماعي في اليونان في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. الاستبداد.

لقد أفضت الانطلاقة القوية لقوى الإنتاج في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، في الحاضرات المتطورة، إلى العديد من التبدلات الثورية التي وضعت نهاية لنظام العشير وشرعت مجتمع العبودية المنقسم إلى طبقات.

ففي كورنثيا، ميغار، سسيون، آرغوس، ميليت، وفي جزر لسبوس وسامس، والجزر الإيطالية والسسلية، كان يدور صراع ضار ي بين مختلف شرائح المجتمع، نجمت عنه عدة انقلابات. يعود الدور الأهم بهذه الحركات الثورية إلى الشرائح الجديدة، الحرفية

التجارية، من سكان المدن، لكن القوة الرئيسة كانت في كل مكان شريحة الفلاحين، التي كانت تعاني الأمرين من نير النبلاء. فطرد شرائح كاملة من السكان مصادرة الأرزاق وإعدام قادة الأحزاب المنهزمة صار أمرا عاديا في عدة مدن، بخاصة في أيونيا. في إحدى مراثيه، يقارن الشاعر الميغاري ثيونيس، نصير الأرستقراطية، المدان بالنفي، يقارن مدينته -مسقط رأسه- بسفينة تغرق: "التافهون الحقيرون 'هم الذي يحكمون، الخبثاء يبعدون الطيبين. إني أخشى على المركب من الغرق." وكان يدعو إلى سحق المتمردين بدون رحمة: "اسحق جمهرة الشعب البائس بعقب حذائك، اجعله يحس بوخز الدبوس، أو لسعة السوط، وقيده إلى نير ثقيل".

هناك، حيث كان الحزب الشعبي ينتصر ويقلب الأرستقراطية، كانت تنتقل السلطة إلى يدي قائد هذا الحزب الذي، في هذه الحال، كان يصير، حسب تعبير اليونان، مستبدا. المستبدون يكبحون النبلاء، يوزعون أرضهم على الفقراء، يساندون انطلاقة المدن والتجارة، يساهمون بازدهار اقتصاد العبودية باستيراد جماهير العبيد الأجانب.

كان مستبدو المضيق (سسيون، كورنثيا وميغار) ومستبد سامس، بولكرات، الأشهر بين الطغاة. وفي سسيون، كان المستبد أوثاغوراس، الطباخ السابق، كما نقرأ فيالسن، قد أسسوا أسرة أرثغوريدس التي حكمت ١٠٠عام (من ٦٧٠-٥٧٠). اضطهدت هذه الأسرة نبلاء سسيون؛ استبدلت الأسماء الرسمية لثلاث قبائل أرستقراطية بألقاب ساخرة (قبائل الخنازير، الحمير والخنوص القذر)، ألغوا عبادة البطل الأرستقراطي أدراست وأقاموا مكانها الإله الريفي ديونسوس ودافعوا حتى عن الأناشيد التي تشطب أشعار هو ميروس التي تمجد النبلاء. واتبع الطاغية الكورنثي سبسلوس وابنه بريائدر (٦٥٧-٥٨٥) سياسة أجرأ. قلبا سيطرة الأولغارشية الأرستقراطية، وعلى رأسها أسرة بكشيادس، وصادروا أملاك النبلاء الواسعة ليوزعوها على الفقراء المدقعين الذين تحرروا من الاستعباد. وجهز براندر كورنثيا بأسطول قوي ومرافئ رائعة؛ وحاول حفر قناة في برزخ كورنثيا، لكي تمر التجارة بين بحر إيجة والبحر الأيوني في مدينته. وبلغت صناعة المعادن والسارميك الكورنثية مستوى عاليا جدا. وفي دلفيا، عرضوا، لمدة طويلة، كشيء غريب، "علبة سبسلوس" قدمها أبناؤه وهي عبارة عن نموذج رائع من عمل الحرفيين الكورنثيين. وفي هذه الحقبة احتلت كورنثيا كورسير، الجزيرة التي يعبرها الطريق إلى إيطاليا، وأسست عدة

مستعمرات، إحداها بوتيديا، على شبه جزيرة سلسديك. وفي ميغار، ثياجين قـــاد (حوالـــي العام ٦٣٠ قبل الميلاد) تمردا شعبيا نجم عنه مذبحة مواشي تخص النبلاء ووزع ما بقـــي حيا. ولما صار دكتاتورا لميغار، تياجين سعى لإثارة صراع آخر في مدن أخرى (في أثينا مثلا).

لكن المستبد الأكثر شهرة كان بولكرات دي سامس. يذكره هـــيرودوت كمتمـــرد ".. احتل سامس على رأس عصيان"، ضد الأرستقراطية (١٢٠،٣٩،٣). وفي أثناء حكومته في منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، وضع حدا لسيطرة كبار الملاك العقاريين فـــي ســـامس وألغى بدون رحمة كل محاولاتهم لاستعادة السلطة. يقول هيرودوت أن بولكـــرات "كـــان بالفعل اليوناني الأول.. الذي فكر وحلم بإمبراطورية البحار" (١٢٢،٣). ولهذا الهدف، خلق أسطولا من ١٠٠ مركب وجيشا متطوعا؛ "احتل كثيرا من الجزر وكثيرا من مدن القـــارة"، وعقد حلفا مع فرعون مصر أمسيس *Amasis*. ولقد ظفر بولكرات بأعمال كبيرة: وأمـــر ببناء رصيف كبير وحفر قناة من أجلها فتح نفقا من سبع مراحل (أكثر مـــن ١كـــم، عـــبر الجبل، وشيد معبدا "الأعم بين المعابد" (٦٠،٣). ودعا إلـــى قصـــره الشـــاعر أنكوريـــون والطبيب ديموسيد من كريتون، لكنه نفى من سامس فيثاغورس، لسان–حال النبلاء.

رغم التقدم الاقتصادي والثقافي، المشروط إلى حد كبير بالاســـتعمار، ثمـــة فـــروق واضحة في تطور مختلف أقاليم اليونان: فضلا عن المناطق والحاضرات المتقدمـــة التـــي ساهمت بسعة بالحياة الاقتصادية الجديدة وتبدل العلاقات الاجتماعية، ثمة أجزاء أخرى من اليونان، مثل لاكونيا، تساليا، وكريت، حافظت على الأخلاق شبه الأبوية. ففـــي القرنيـــن السابع والسادس، كانت أتيك، وعاصمتها آثينا، نموذج البلـــدان المتطـــورة، بينمـــا كـــانت إسبارطة تمثل الأقطار المتخلفة.

الفصل السادس والعشرون

إسبارطة

الأصول

الدولة الإسبارطية واحدة من أقدم دول اليونان القديم. تأسست في القرن التاسع، فلم تعرف سوى القليل من تطور القوى المنتجة وتفكك نظام العشير والاجتياح الدوري للمجتمع الآشيني البلبونيزي. فقد أشرنا آنفا أن قبائل الدوريين اجتاحت في العام ١١٠٠ قبل الميلاد إيبيريا في أرغوليد وفي لاكونيا عن طريق بيوتيا ومضيق كورنثيا.

لم تجد هذه الأحداث انعكاسها إلا في الخرافات التي تناولها بعض الكتاب اليونان وأثبتتها البحوث الأثرية الراهنة. والمصادر المتعلقة بالحياة اللاحقة لاسبارطة فقيرة هي الأخرى: نجد بعض المعلومات لدى تيرتي ***Tyrtee***، الشاعر الغنائي في القرن السابع قبل الميلاد، ثم لدى ثوسيديد (الكتاب الأول، ١٠١-١٠٣، ١٢٨، ١٣٤؛ الكتاب الرابع، ٨)، بخاصة في بحث خنوفون "جمهورية إسبارطة ولدى بلوتارك: في سيرة ليكورغ، ليذاندر وآجزلاس. يجب أن نعامل عمل خنوفون بحذر، لأنه مؤلف رجعي يمجد نظام إسبارطة الأولغارشي. أما حياة ليكورغ، التي كتبها بلوتارك، فهي خرافية وغاصة بالخيال المجنح.

تمتد لاكونيا، الوادي الخصب، التي يرويها أوارتس، بين تايجت وبارنون وتتطاول على جزء من مصب هذا الأخير. اتصالها بالبحر سيء، لأن الساحل محروم من المراسي الملائمة.

قبل الغزو الدوريني، كان سكان لاكونيا يعيشون الحياة الواردة في شعر هوميروس. فهنا نجد المدينة القديمة أمليكا، أحد مراكز الحضارة الميسينية. ولقد عثر علماء الآثار حديثا على المقام الغني الخاص بقائد نبلاء الآخيين المحليين. عاش هذا المسكن حتى نهاية العهد الميسنس وازاله الدوريون في نهاية القرن الحادي عشر. كانت درجة الرقي الاجتماعي للرعاة الدوريين أخفض من درجة الآخرين، لكنهم كانوا يمتلكون منظمة

عسكرية ضاربة، فرضت وجودها حياة القبائل الرحل وكثرة الغزوات، التي سهلت لهم فتح لاكونيا. أعلن الدوريون ملكية مشتركة للأرض المحتلة والفلاحين الذين يعمرونها وقسموها إلى أسهم متساوية حسب عدد الأسر: كان السكان حوالي ١٠٠٠٠ وقرابة ٢٠ هكتارا لكل منهم. وشكل الغزاة الشريحة السيدة، محافظين على النظام المشاعي ليؤمنوا سيطرتهم على الرعية المغزوة. وفي القرن التاسع أنشأوا في النقطة الأوسع من الوادي مركزهم العسكري، المسمى إسبارطة أو لاسدمونيا، وسموا إسبارطيين. كانت إسبارطة تضم خمس مزارع غير محصنة؛ فهي مخيم قتال دائم، ومن هنا تمكن السبارطيون أن يحكموا فلاحين، أكثر عددا بكثير من الفاتحين.

. بعد أن وطدوا وجودهم في لاكونيا، بدأ السبارطيون في النصف الثاني من القرن الثامن غزو مسينا، البقعة الخصبة والكثيفة السكان، الواقعة في غرب سلسلة تايجت. ونتيجة حربين طاحنتين، لا نعرف عنها سوى الخرافات، اجتاح الاسبارطيون في القرن السابع قبل الميلاد مسينيا[1] وحولوا سكانها إلى أرقاء. ادخر الأرقاء المسنيون للغزاة حقدا أزرق ووضعوهم في موقف الخائف دوما من العصيان. نشب أهم عصيان في العام ٤٦٤قبل الميلاد. استغل الأرقاء زلزالا كنس إسبارطة كلها تقريبا وهجموا على الإسبارطيين الذين لم يتيسر لهم سحق مقاومة العصاة المنتشرين في جبال إيثوم عصية المسالك. تسمى انتفاضة الأرقاء هذه "الحرب المسينية الثالثة".

النظام الاجتماعي والأخلاق

لقد تشكلت الدولة الإسبارطية نهائيا في آخر القرن السابع، بعد أن اجتاح الداريون لاكونيا ومسينا. يصف العلم الحديث نظامها الاجتماعي بالـ"رقيقي" ليشير إلى الفرق بين استغلال الأرقاء واستغلال العبيد، الفرق الناجم عن عمق مخلفات المشاعية البدائية، ومع هذا، إلى الطبيعة القاسية لعلاقات العبودية.

كان سكان إسبارطة منقسمين بوضوح إلى ثلاث فئات اجتماعية: إسبارطيون، برياك وأرقاء. تعيش كل واحدة، على بقعة منعزلة عن غيرها، الأمر الذي يميز جدا الطبيعة البدائية للدولة.

---

[1] – في اليونان جزيرتان متشابهتا الاسم: *Messenie* و *Mycenie*.

الإسبارطيون هم الطبقة السيدة التي لا تمارس سيادتها على الأرقاء إلا كتعاونية فوق تعاونية أخرى. رغم أن كل سهم يحرثه الأرقاء يخص أسرة إسبارطية، فهذه الأسرة تسكن في إسبارطة وليس على ملكها؛ (الإقطاعي يسكن في دمشق وملكه في أقصى الغوطة)؛ رأس الأسرة لا يدير أبدا اقتصاده، لا يوجه الأرقاء؛ ليس له أن يعتبرهم ملكه ولا يستطيع أن يطردهم، أو يبيعهم أو يقتلهم. هذه هي الدولة -الإسبارطيون منظمون ليحكموا- هم من يسود. وليس للإسبارطيين أن يحرثوا الأرض، ولا أن يمارسوا التجارة أو الحرفة. كل ما يتعلق بالأرض محرم عليهم. هم موقوفون للفن العسكري. على ذلك، تجني الأسرة الإسبارطية حصة من موسم السهم (على الأرجح النصف). ملكية السهم ومن يحرثه وراثية: لايمكن بيعه، ولا أن يوصى به ولاتركه أو التخلي عنه لأي كان، عدا ابن رأس الأسرة.

البرياك هم أحفاد آشيي لاكونيا المحتلة وهم (حوالي ٣٠ ألف إنسان. وهم الناس الأحرار الذين يملكون عقارا ومالا منقولا. لكنهم محرومون من الحقوق السياسية ولا يتزوجون من السبارطيين. يسكنون أرضا خاصة بهم، وحدها. أساسا في منحدرات الجبل والساحل الشرقي والجنوبي، حيث يوجد الكثير من الضيع. يتمتع البرياك باستقلال يراقبه السبارطي. يمارس حراثة الأرض، والحرفة والتجارة ويدفع ضريبة للسبارطيين. البرياك ملزمون بخدمة الجيش، لكنهم يشكلون فيه وحدات قائمة برأسها. والخدمة العسكرية تبهظهم أكثر فأكثر، أي بمقدار نقص عدد السبارطيين المتمتعين بالحقوق المدنية. وهذا أحد أسباب غضبهم المتنامي.

يشكل الأرقاء جمهرة الناس المغلوبين والمستخدمين، وهم حوالي ٢٠٠ ألف أبقاهم المنتصر على الأرض التي صارت تخص الدولة.. تزرع كل سهم عدة أسر من الأرقاء الذين، بعملهم، يغذون المالك وأسرته. وأهم مايميز الرقيق عن العبد في الدول اليونانية الأخرى، هو أنه ملك الدولة، "عبد عام"، كما يسميه المؤلفون القدماء؛ فضلا عن هذا، ورغم ارتباطهم أساسا بوسيلة الإنتاج -الأرض- يحتفظون بنوع من الاستقلال الاقتصادي فيشبهون الأقنان. يزرعون أرض المالك السبارطي بأدواتهم ويعطونه نصيبا معينا عينيا: قمح، خمر، جبن، وزيت. وبعد أن يأخذ المالك حصته (النصف)، لايكفي مايتبقى قوت الفلاحين الضروري، ناهيك عن الضائقة في المواسم الماحلة. وبعكس عبيد الدول الأخرى، يشن الأرقاء هنا حربا بصفتهم حراسا، مرافقين، حمالين وخدم. دعا شظف حياتهم الشاعر

السبارطي تيرتي *Tyrtee* (القرن السابع) أن يشبههم بالحمير الحاملة فوق طاقتها *surcharges*.

وتجنبا لنشوب التمردات والزيادة الخطرة في عدد الأرقاء، يتخذ السبارطيون تدابير قاسية (*les cryptios*) في كل عام يلجؤون إلى اضطهاد وقمع بل إبادة أبرز المتمردين، أجرأ الأظناء. تجوب الفصائل السرية، المؤلفة من شباب السبارطيين، المكلفة بمهمة خاصة، تجوب البلد لمراقبة وإرهاب الناس. في النهار، تكمن هذه الفصائل قرب القرى، وفي الليل تذبح الأرقاء. لم تبد أية دولة قديمة هذا التوحش مع العبيد. يظهر هذا الواقع سعار التناحر والصراع الطبقي في إسبارطة.

من جراء هذا، ارتدت الأخلاق السبارطية طبيعة فريدة. كل الرجال البالغين ملتزمون بالجيش الدائم، فظ الانضباطية المستعد أبدا للهجوم. وكل إسبارطي من العشرين إلى الستين يذهب كل يوم إلى الثكنات ويشترك بالتمارين القتالية. كل أبناء المدن المتمتعين بالحقوق المدنية يشكلون روابط تمتلك كل منها مكانا يجتمع فيه أعضاؤها ويتناولون وجبة مشتركة؛ لايغادرون هذا المكان، بل ينامون غالبا في المهاجع نفسها ويأتون مسلحين. وحسب هذه الروابط يعبأ الناس في وحدات محاربة. فهم ملزمون أن يكونوا أعضاء في الرابطة. والتعيين الشهري للوجبة المشتركة يتألف من كمية معينة من طحين الشعير، الخمر، الجبن، والتين.

تتدخل السلطات السبارطية أوسع تدخل في حياة الناس الخاصة: تهتم بالزيجات، بتربية الشباب. تفرض خضوع الأفراد خضوعا مطلقا لمصالح الطبقة. على الأزواج أن يربوا أولادهم ، الذين سيكونون الدعامة الأكيدة لاسبارطة العبودية، تربية صحية وجادة. يبقى الأولاد عند ذويهم حتى الربيع السادس عشر. بعدها تتكفل به الدولة وتعبئه في فصائل خاصة تحت مراقبة مدرسين تتعهدهم الدولة.

في التربية والتعليم، يعود المكان الأول للتمارين الرياضية: قتال، ركض، رمي القرص والرمح أو الحربة، إلخ. للمساهمة بالتطور البدني للأبناء. ليخشوشنوا، يلزمونهم بالمشي الحافي والجسم العاري تقريبا في كل الفصول؛ بحيث يكفلون استقامتهم، براعتهم وخضوعهم.

التعليم الابتدائي قصير إلى أدنى حد. يحضر الفتيان عادة الوجبة المشتركة واجتماعات يتحدثون فيها عن الشؤون والمآثر. يألفون الحديث عن أفكارهم وأمانيهم كجنود. وتربية

السبارطيين الأخلاقية منسجمة مع الفن العسكري. وفي أثناء التمارين الرياضية، والوجبات المشتركة والمعارك الحربية ينشدون أناشيد ظفر الوطن والمواطنين الأمجاد. وفي ربيعهم الرابع عشر، يتبع المراهقون المحاربين الراشدين عبر البلاد، ليعتادوا حياة الخيام والحرمان. وفي ربيعهم العشرين، ينخرطون في العمل العسكري التام وينتسبون إلى الروابط. وتستمر خدمتهم حتى الشيخوخة.

وتربية البنات تنسجم أيضا مع مهام الدولة الهادفة الإعداد الجيد لأمهات المستقبل لجيل سليم. في الملاعب والمعاهد الرياضية، تخضع البنات كالصبيان للتمارين الرياضية فضلا عن الرقص، الموسيقى والغناء. في الدول اليونانية الأخرى تعيش النساء منعزلات، بينما في إسبارطة يبربين كتربية الرجال، حيث يتمتعن بقسط وافر من الحرية واحترام مواطنيهم. يشهد هذا الوضع على مخلفات عهد الأمومة المعروف.

النظام السياسي

كان النظام السياسي في إسبارطة مغرقا في البدائية. وحسب الخرافة، كان قد أقره روح دلف الأعجوبي ووضعه بين يدي المشرع ليكورغ الأسطوري.

كان يقود الدولة ملكان بالوراثة. كان لهما الدور الأعظم، لكن أثرهما في السياسة ضئيل. وفي زمن السلم، تقتصر سلطتهما على التسوية الشرعية للميراث، الاشتراك بمجلس الشيوخ وممارسة مهام كهنة زيوس. وفي زمن الحرب، يقودون الجيش، وخلف حدود البلاد، يتوليان سلطة غير محدودة.

يشكل الملكان جزءا من مجلس الشيوخ المؤلف من ٣٠ شيخا، انتخبوا حتى الممات من الأرستقراطيين الذين بلغوا الستين من العمر. ومجلس الشعب المكون من السبارطيين الذين أتموا الثلاثين ربيعا، يصدق قرارات مجلس الشيوخ الرئيسة، بخاصة المتعلقة بالحرب والسلم أو يرفضها، دون حق بالمناقشة.

وتدور الانتخابات وتتخذ القرارات في مجلس الشعب، حسب تعبير أرسطو بصورة "تافهة": بدون اقتراع، بالصياح الذي يكشف عنه الموقف السلبي أو الإيجابي من هذا الترشيح أو القرار أو ذاك. وإن كان الصخب والصياح غير معبر، ينقسم الحضور إلى طرفين.

لكل من مزارع إسبارطة الخمس مراقب، ذو سلطة مطلقة، عين على الأرجح في بداية القرن الثامن قبل الميلاد، بهدف اتقاء أو خنق تمردات الأرقاء. وهذه وظيفة سنوية. وكمحصلة لحكم القلة المبتزة، ينتخب المراقبون من الأوساط الأرستقراطية الأكثر تحفظا.

تطال مراقبتهم الملك وأعضاء مجلس الشيوخ. إنهم هم الذين يقودون بالفعل سياسة الدولة. يعلنون منذ وصولهم الحرب على الأرقاء وحتى لهم الحق بمحاكمة وإدانة بالموت الملوك المتهمين بالرغبة في تغيير النظام القائم. يأتي المراقب إذن ليتوج حكم الأقلية السبارطية، ودكتاتورية الطبقة المتوحشة ودعامة الأرستقراطية في اليونان.

في هذه الشروط، كان محالا أي تبدل متطور إلى هذا الحد أو ذاك: التجارة بالغة البدائية، وكنقد يتداولون بارات من الحديد، كان دخول الاجانب إلى البلد ممنوعا. لهذا السبب، حسب قول بلوتارك، لم تكن البواخر الغربية تدخل موانئ اسبارطة. تنفق الدولة من الضرائب المضروبة على البرياك -الطبقة الثانية- ومن المناهل الاستثنائية وأسلاب الحرب. كانت الخزينة فقيرة، لأن المداخيل تدفع غالبا عينا.

كانت المؤسسة العسكرية في إسبارطة هي القوة الضاربة في اليونان كلها. كل إسبارطي محارب مقدام في تمام الجاهزية. جنود المشاة المسلحين حتى أضراسهم يعتمرون خوذة، يرتدون درعا، يحملون رمحا أو حربة وترسا دائريا صغيرا، هم أقوى سلاح في الجيش مدعوون للتمسك بمواقعهم حتى آخر لحظة. في أثناء المعارك الحربية، يمشي الجيش إلى العدو بهدوء وبطء، بصفوف متراصة، وعلى صدح الموسيقى. وسلاح المشاة السبارطي لايقاوم، وندرة أولئك الذين نجحوا في تدارك هجماتهم، لكنهم ضعيفو الخبرة بالحصار ولايعرفون الاستيلاء على المدن بغتة. وبحرية إسبارطة قليلة الشأن.

في نهاية القرن السادس، سقطت بلوبونيز كلها تحت هيمنة اسبارطة. وفي حوالي العام ٥٣٠ تشكلت الجامعة البلوبونيزية التي ضمت أيضا كورنثيا، سيسيون، ميغار وجزيرة إيجن. وكان آرغو، صاحب الدور الأيرز في بلوبونيز، ومشاعات آشي ***Achaie***، في الشمال، القوة الوحيدة التي لم تنضم إلى هذه الجامعة. ورغم أن القضايا العامة نجمت عن لقاء الحلفاء، المنعقد في إسبارطة، كانت حكومة إسبارطة بالفعل هي التي سوت القضايا المتعلقة بالجامعة.

لقد اقتبس النظام الرجعي الإسبارطي الاقتصاد، الحياة السياسية والاجتماعية من بلوبونيز ومن اليونان كلها، وكبح تطورها. وخوفا من التبدلات، دعمت اسبارطة دوما العوامل الرجعية والأشكال البالية من العلاقات الاجتماعية في دول اليونان الأخرى. ولئلا تفقد تفوقها القتالي، كانت تعارض بكل السبل الوحدة مع الدول الأخرى، إذن التطور اليونان السياسي.

الفصل السابع والعشرون

أتيكيا في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد

سيطرة أرستقراطية الدم

بعكس إسبارطة، قدمت أتيكيا للقرنين السادس والخامس مثال الدولة اليونانية العبودية المتطورة. يخولنا تاريخها متابعة تشكل حاضرة العبودية، سقوط أرستقراطية الدم، تجاوز مخلفات نظام العشير وظهور الشكل الأرقى لدولة العبودية: جمهورية العبودية الديموقراطية.

بين يدينا مناهل ثرة لدراسة تاريخ أتيكيا القديم. ملاحظات متفرقة تصادف لدى هيرودوت وثوسيديد، لكن المعلومات الأوفى يزودنا بها "بناء آثينا" لأرسطو و"حياة ثيزي" و"حياة سولون" بقلم بلوتارك. أخيرا، أمكن جمع وثائقية غنية في أثناء تنقيبات أثرية، بخاصة في مقبرة ديبلون وسراميك، وعلى أغورا أثينا.

أتيكيا شبه جزيرة صخرية ممتدة في البحر مساحتها ٢٥٠٠ كم٢. مغطاة بالجبال الكلسية؛ محرومة من الماء والنبات في كثير من البقاع. يدعى شمالها الشرقي العالي، وغير القابل للزراعة، الهضبة. وساحلها (الإقليم البحري) ليس خصبا أبدا، لكنه ملائم جدا لأعمال البحر. خير أقسام أتيكيا السهل المركزي، بيديون. واقعة على طول المجرى المائي الهام والوحيد، لنهر سفيز، الذي ينضب هو الآخر في الصيف، والسهل المركزي محاط بالجبال من ثلاث جهات ويغمره البحر في الجهة الرابعة-الجنوب الغربي. في هذا السهل، على ٧كم من خليج سرونيك، توجد آثينا. كانت ثروة أتيكيا الطبيعية الفضة في لوريون، الرخام في بانتليك وهميت، وكذلك أجود الآجر التشكيلي، المستخدم كثيرا في صناعة الفخار.

في البداية، كان الشعب يعيش عشيرا في مزارع محصنة، حفظت أسماؤها بالتتابع: أشارن، ايلوزيس، كولونيا، فالير، ماراتون، إلخ. كان بعضها مراكز للبطون أو الأفخاذ. وبحسب تطور العلاقات والمبادلات، تغلب المبدأ الإقليمي وشيئا فشيئا تصير أتيكيا بلدا واحدا مركزها أكبر معقل: أكروبول آثينا. هنا يوجد قصر باسيليس، الذي حرره علماء الآثار، والمقابر الهامة: أرشتيون والباريتون. غير بعيد من هنا، على تلة آريس، كان يقوم مجلس الشيوخ، وعلى سفوح تلة أخرى، بينكس، كان يجتمع مجلس الشعب. تنسب الرواية دور التوحيد للملك ثيزي: "ألغى المجالس والمحاكم وجمع كل المواطنين في المدينة الحالية، وأقام مجلسا واحدا ومسكنا واحدا للقضاة"، يكتب ثوسيدسد (المجلد الثاني، ١٥،٢).

وفي الوقت ذاته، كما يقول بلوتارك (ثيزي، ٢٥)، انقسم الناس إلى ثلاث شرائح: نبلاء، مزارعون صغار، وصناع. كان النبلاء أرستقراطيين أغنياء بالأرض والماشية، تشكل الشريحتان الأخريتان الشعب الأكثر فأكثر استرقاقا. وعدا السكان الأصليين، كان يوجد كثير من العبيد والأجانب المقيمين في آثينا، أحرار شخصيا، لكنهم محرومون من الحقوق المدنية.

بقدر تطور التبادل وصيرورة المنتوج بضائع، يتسع دور حراثة الأرض من قبل الأفراد وتوطد الملكية العقارية الخاصة. يحتكر النبلاء أخصب أراضي البيديون ويحولون أراضيهم الواسعة إلى إقطاعات. بالقرصنة وقطع الطرق يأسرون العبيد للعمل في الأرض ويستخدمون بالربى المزارعين وبلادهم. على أثر هذا التطور، "صارت كل الأرض بتصرف عدد ضئيل من الناس"، يكتب أرسطو، وكل الشعب يخدم الأغنياء: "...كان الفقراء، بنسائهم وأبنائهم عبيدا للأغنياء. كانوا يسمون "زبائن" و"سداسيون" أي يحصلون على ٦/١ منتوج الأرض" (بناء روما، المجلد الثاني).

كان السداسيون على الأرجح الملاك الصغار المدنيين الذين رهنوا أرضهم لدى كبار الملاك، لذا وضعوا على أرضهم حدودا تدل إلى مبلغ الدين. وكفائدة يدفعون ٦/٥ المحصول. وهكذا صارت مدينة آثينا والأكروبول، معقلها، مركز تجمع النبلاء الذين يحكمون كل رعية أتيكيا.

لقد وقفت مبادئ النظام العشيري القديم حجر عثرة في وجه اغتناء ملاك العبيد وتشكيل الدولة. وفي القرنين الثامن والسابع، حددت السلطة الملكية في أتيكيا ثم استبدلت

بتسعة حكام أوليين (أرشونت) منتخبين من الأرستقراطية ويمثلون السلطة التنفيذية العليا. وفي منتصف القرن الثامن، كانت مدة الأرشونتية عشرة أعوام. وبدءاً من العام ٦٨٣، صارت عاماً واحداً. يرأس الجميع الأرشونت الذي يعطي اسمه لسنة حكومته؛ يراقب الشؤون الداخلية، يحل الخصومات العائلية، يهتم بوصاية الأرامل واليتامى. الأرشونت الثاني، هو القيصر، يمارس الوظائف الدينية التي كانت للملك سابقاً. الثالث، هو قائد الجيش، يشرف ويدبر الشؤون العسكرية. والأرشونتية الستة الأعضاء الآخرون، الذين يحملون اسم الأرشونت المشرع، يسهرون على تنفيذ القوانين ويقاضون مواطنيهم. ويعقل مجلس الشيوخ، المؤلف من الأرشونت السابقين، السلطة التشريعية؛ وكذلك الجهاز الأعلى للقضاء والمراقبة. السلطة إذن بين يدي النبلاء الذين يفيدون منها من أجل استقرار سيطرتهم السياسية، بينما الشعب، حسب تعبير أرسطو، لايملك أي حق" (بناء آثينا، المجلد الثاني،٢).

أولى حركات شعب آثينا. تمرد سيلون. قوانين دراكون

إن تطور المهن والتجارة في أتيكيا، وكذلك في الحاضرات اليونانية الأخرى، أفرز فئات شعبية جديدة، مكونة من تجار وصناعيين، لا يتلاءم وضعهم السياسي مع دورهم الاقتصادي. وقد صارت أثينا، وباقي مدن اليونان الكبرى، ليس فقط مركزاً للأسر الاستقراطية المتنفذة، بل أيضاً مركزاً للتجار، وصغار الصناعيين، والحانوتيين والأجانب الأحرار شخصياً *meteque* (سيراميك، ميليت، وغيرها)، التي حازت أهمية جعلتها في القرن السابع حصوناً. كان صناع الفخار الأثنيون قد ابتكروا طلاء أسود وبدأت مشروبياتهم المزخرفة تزاحم مشربيات كورنثيا. وبدأ استثمار طبقات الفضة في لوريان، وكان مرفأ آثينا في فالير قد صار مرس بالغ الحيوية.

كانت أرستقراطية نبلاء روما تحتقر هذه الجماعة التي تعيش من التجارة والمهن المتنوعة. مع ذلك، كان النبلاء قد تحولوا إلى حلقة من كبار الملاك الذين أغناهم الربى. وقد مارس البعض منهم القرصنة. بينما انخرط آخرون، مثل أسرة ألكميونيد ونسل أسرة الكودريد الملكية، وسولون، في التجارة. لكن الغالبية أفادوا من دورهم المهيمن في المنظمات الاجتماعية السابقة، بطون وأفخاذ، من أجل احتلال أراضي المشاعات التي لم تقسم بعد، واحتكرت أسهم أعضاء العشير الآخرين، واستخدمت أكثر فأكثر المساديين

المدنيين جاعلة منهم عبيداً أو خدماً. "كان عامة الناس خدماً لدى القلة...، وكان النير الأثقل يحمله العبيد"، يكتب أرسطو (بناء آثينا، المجلد الثاني، ٢) بصدد العلاقات الاجتماعية في أتيكيا الريفية في القرن السابع.

لقد كبح هذا الشكل البدائي جداً من العبودية بشأن الدين، كبح تطور القوى المنتجة. وترتب على سكان الريف، عوض من أن يزداد التناقص على أثر بيع المدنيين المملقين وأبنائهم للأجانب بيعاً جماعياً، الأمر الذي أثار حزن ورثاء بعض المعاصرين، مثل سولون. وبدأ الشعب يحتل أكثر فأكثر مكان الطليعة في مقاومة الفلاحين غير المنظمة، الناشبة بين "النبلاء والعامة" حسب تعبير أرسطو (بناء أثينا، المجلد الثاني،١)، كان شعب المدينة يبغي التحرر من الملاكين العقاريين الكبار ويجهد في تبديل شكل الاستثمار البدائي الذي تمارسه النبالة فيحول أحرار آثينا إلى عبيد، إلى ناظم أرقى: استغلال العبيد المستورد من الخارج. فأخذ استخدام العبيد الأجانب دوراً هاماً في النشاط الاقتصادي لسكان المدن، في ورشات الحرف والمشاريع التجارية.

تطلعنا الرواية على شكل أولي لهذا الصراع في أتيكيا: محاولة الآثيني سيلون قلب سلطة النبلاء وتنصيب مستبد في آثينا (في حوالي العام٦٣٠). كان سيلون من أصل نبيل ومعروف كنجم في الألعاب الأولمبية. اعتمد في حركته على ابن حميه المستبد ميغار ثياجين. وفي أثناء الاحتفال بأحد الأعياد، احتل فجأة الأكروبول بمعونة ثلة من تلامذته. لكنه سرعان ما طوق بالنبلاء الذين كتلوا "جمهرة الحقول" المرتبطة بهم. نجح سيلون بالهرب، ولجأ أنصاره إلى معبد آثينا. وبعد أن أضناهم الحصار والجوع، قبلوا الاستسلام بشرط أن يكسبوا حياتهم. لكنهم ما أن خرجوا من مأواهم حتى ذبحوا. واعتبرت مسؤولة عن هذه المذبحة أسرة الألشمونيد الشرسة. إن أنصار سيلون، الذين انضموا بالصدفة إلى أعداء الألشمونيد واتهموا بحنث اليمين وارتكاب المحرمات. فنفوهم وعظام موتاهم نبشت ورميت خلف الحدود.

رغم التفصيلات الخرافية لهذه القصة التي رواها ثوسيديد (المجلد الأول،١٢٦)، فإن مؤامرة حيكت لاحتلال السلطة المستبدة في آثينا في تلك الحقبة. ولقد فشل سيلون لأنه لم يؤمن دعم ومساندة جماهير الريف التي آزرت الملاكين الكبار على خنق التمرد الذي لم يعده سكان المدن إعدادا جيدا.

تعتبر هذه المحاولة المهيضة في أتيكيا بداية حقبة طويلة من الاضطراب. كان النبلاء يثيرون هذه الاضطرابات لأنهم فسروا لصالحهم عادات العشير، غير المذكورة في أي مصدر ولم تنقل إلا شفاها. إن أول المطالب التي طرحها الشعب في نضاله من النبلاء هي إذن سن قانون مكتوب ملزم للجميع، يحكم العلاقات القضائية في المجتمع العبودي الوليد.

وخوفا من تحول غضب الشعب إلى تمرد، اضطرت الأرستقراطية أخيرا إلى التسليم وتكليف الأرشونت دراكون (العام٦٢١) الاهتمام بسن هذه القوانين. اشتهرت "قوانين دراكون" بقسوتها، لأنها أساسا مجموعة من عادات العشير البدائية. أي خرق بما فيها سرقة فاكهة أو بقول) كان يعاقب بالموت. يقول ديكاد (خطيب أثيني في القرن الرابع) إن دراكون كتب شريعته "ليس بالحبر، بل بالدم". على ذلك، كانت تقدمية، لأن وضع قانون ملزم للجميع يحد إلى حد ما تحكم النبلاء. كانت الشريعة المنقوشة على قطع حجرية معروضة في الأغورا، على مرأى الجميع، الأمر الذي يضع المحاكمة تحت مراقبة العامة.

اصلاحات سولون

لم تسو شريعة دراكون أبدا وضع الشعب الريفي وصغار الفلاحين المستخدمين. بل كانت تأزيما وتأريثا للصراع وإفساح المجال لانتفاضة فعلية. كان الصراع قاسيا "وتواجه الطرفان (الشعب والنبلاء) مدة طويلة"، يقول أرسطو _بناء أثينا، المجلد الخامس،٢). يجب إذن إصلاح النظام السياسي والاجتماعي في أثينا لوضع حد للشقاق والنزاع. كان يوجه الحركة الشعبية حزب التجار المعتدلين، الذين نجحوا بتسمية الشاعر الشهير سولون حكما عاما. وأمام الطبيعة المهددة لوضع الجماهير الثائرة، كلف سولون، في العام ٥٩٤، بإجراء اصلاحات اجتماعية وسياسية.

سولون سليل أسرة نبيلة مفتقرة. اضطر للعمل بالتجارة منذ فتوته، الأمر الذي قربه من شعب المدينة. ومراثيه، التي أدانت الجشع والغطرسة الأرستقراطية، قربت منه الناس. وبناء على إلحاحه ومساهمته فتحت جزيرة سلامين التي تخص ميغار وأغلق المرفأ الأثينين في فالير.

بصفته أرشونت –حاكما أول– يقول سولون "...فتح سلسلة مايسمى ثورات سياسية، وهذا يكون بإلغاء الملكية[1]". بدأ نشاطه بـ"تخفيف الحمل": رفع من الحقول حدود الرهن،

---

[1] – ف.أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة، ص١٠٧.

ألغى الديون، الرهونات، وحرر كل المدنيين المحولين إلى العبودية. واشترى على نفقة الدولة كل الناس المباعين للغريب كعبيد. وللمستقبل، يحرم الدائن من كل حق شخصي على المدين أو، كما يقول أرسطو، "حرر سولون الشعب في الحاضر والمستقبل بمنع الإقراض بارتهان الأشخاص". (بناء أثينا، الكتاب الرابع،١). ولتحسين وضع المدينين، قام بإصلاح نقدي استبدل النظام النقدي الإيجيتي بالنظام الأوبي: ١٠٠ دراخما جديدة، بسعر الفضة، لاتساوي إلا ٧٣ دراخما قديمة، الأمر الذي قلص الديون ٢٧%. ثم نظمت حرية الوصية وتمليك أرزاق الناس الذين لم ينجبوا أولادا، التي كانت تعرقلها حتى آنئذ حقوق ملكية العشير والأسرة. كانت كل هذه التدابير موجهة ضد النبلاء وتهدف تحرير الفلاحين.

في واحدة من قصائده، يتحدث سولون عن إصلاحه. لا أخشى أن تلومني على هذا الإصلاح أم الأولمبيين المقدسة، الأرض السوداء، التي انترعت منه الحدود المنتشرة في كل مكان؛ عبدة سابقا، حرة الآن. أعدت إلى أثينا، إلى الوطن الذي أسسته الآلهة، أناسا بيعوا ظلما إلى هذا الحد أو ذاك، منهم من نفي بسبب الضرورة الرهيبة..، وغيرهم كانوا هنا يرسفون بقيود سادتهم الرهيبة، لقد حررت كل هؤلاء". (ارسطو."بناء أثينا"، الكتاب ٢،١٢).

لقد عززت تدابير سولون الاقتصادية اللاحقة تطوير التجارة والمهن. منع تصدير المواد الغذائية (عدا الخمر وزيت الزيتون). وأوضح استبدال النقد الإيجني بالنقد الأوبي أيضا توجه السياسة التجارية والاستعمارية لأثينا، أي نحو إيونيا والمضائق الموصلة إلى البحر الأسود. وبشهادة بلوتارك، شجع سولون بكل الوسائل المهن وجذب إلى أتيكيا الحرفيين الأجانب. وسن القانون الذي يخول الابن عدم طاعة أبيه إن هو لم يعلمه مهنة. وقوانين أخرى تمنع التقتير، وتحظر الترف المفرط والنفقات غير المنتجة التي يبذرها النبلاء في أثناء الزواج والمآتم، وسواها.

كان الإصلاح السياسي أهم تدابير سولون، إذ يقضي على حصر السلطة بنبلاء الدم وسن مبدأ دافع الضريبة[1] أو "*timocracie*"، حسب تعبير القدماء: لا يتعلق اشتراك المواطن بالحياة السياسية بأصله، إنما بملكه، بمدخوله وبالشريحة التي تصنفه فيها ثروته.

إذن صنف المجتمع حسب دافع الضريبة بأربع شرائح: تضم الأولى الناس الأغنى،

---

[1] – نظام سياسي يقضي بأن يكون المواطن دفع ضريبة ليحق له الاقتراع.

أولئك الذين يجنون من أرضهم على الأقل ٥٠٠ عبوة من المنتوجات الزراعية (العبوة= ٥٢،٣ ليتر؛ عبوة الشعير=دراخما واحدة). ويدعون (ملاك الـ ٥٠٠ عبوة). لهؤلاء فقط الحق بأن يشغلوا المناصب الأهم (أن يكون حاكما أول=*archantes*)، وبالتالي دخول مجلس الشيوخ. الشريحة الثانية مؤلفة من أبناء المدن الذين يساوي دخلهم السنوي ٣٠٠-٥٠٠ عبوة، يحملون لقب فارس، لأنهم يقدرون أن يؤدوا الخدمة العسكرية على حصان. يستطيع الفارس أن يمارس وظيفة ثانوية (مفتش أسواق، مفوض شرطة) وغيرها. والمواطنون الذين يتراوح دخلهم يمكنهم من اقتناء زوج ثيران. عليهم أن يذهبوا إلى الحرب بأثقل الأسلحة. وهم الجمهرة الأساسية من المزارعين الصغار. وكممثلي الشريحتين الأولبين، يحق للشريحة الثالثة دخول مجلس الـ ٤٠٠ الذي تشكل في أيام سولون وإلى محكمةالجنايات. وبقية الرعية (مياومون وفلاحون فقراء)، تشكل الطبقة الرابعة. لا يحق لهم دخول مجلس الشعب ومحكمة الجنايات وأن يقترِعوا، لا أن يقترَعوا.

وبالتالي خضعت المنظمة الحكومية إلى تبدلات جوهرية. صحيح أن الأرشونت كان منتخبا من بين أغنى الناس ودوما من القبائل التي يقدم كل منها عشر مرشحين؛ فمن ٤٠ رجلا يختار بالقرعة تسع حكام. لكن الأمر الهام بخاصة، هو إعادة مجلس الشعب إلى الوجود، يشترك فيه كل مواطني أتيكيا، وينتخب كل موظفي الدولة الآثينية.

ليس أقل أهمية التجديد في حقل القضاء. ولكي يتمكن الشعب من التدخل بالقضاء يجب أن يختار قضاة للمحاكم لتدير شؤون الحق المدني والحق الشخصي. هكذا صار مجلس الشعب، مجلس الـ ٤٠٠ ومحكمة الجنايات الجهاز الجديد في بناء أثينا.

هكذا نرى أن النظام الذي أسسه سولون لعب دورا كبيرا تقدميا: "هنا إذن دخل عنصر جديد تماما في البناء: الملكية الفردية. فحقوق وواجبات مواطني الدولة تقاس حسب سعة ملكيتهم العقارية، وبقدر زيادة نفوذ الطبقات المالكة، كان يستبعد الجهاز القديم القائم على قرابة الدم[١]".

فضلا عن هذا، فقد فتح إلغاء الشكل البدائي للاستعباد الناتج عن عدم القدرة على وفاء الدين، بابا واسعا لشكل أرقى من استثمار عمل العبيد: استثمار الأسرى المجلوبين من

---

[١] - ف. انجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة.

الخارج. "عوضا عن استغلال مواطنيهم بطريقة فظة، استغلوا بخاصــة العبيـد والزبــائن اللاأثينيين"، يكتب انجلز. بهذا الصدد.[1]

لكن سولون، النبيل الأصل والمنتسب من حيث وضعه الاقتصادي إلى أوساط أغنيــاء المدينة، ولمصلحتهم أنزل ضربة قاصمة بنبلاء الدم، لم يلغ كل مخلفات نظــام العشــير. أبقى، مثلا، المسند الرئيس للنبلاء: أملاكهم العقارية الواسعة، وترك لهم النفــوذ السياســي على الأفخاذ والبطون القديمة حيث كان النبلاء يلعبون دور المهيمن. وفي الوقت ذاته قــاوم بصلابة مطالب الجماهير التي ألحت على إصلاحات جذرية، بخاصة إعادة التوزيع العــام للأرض.

طغيان بزسترات *pisistrate*

كان قدر سولون كقدر رجال السياسية غير الحذريين الذين يبحثون عن تجنب التدابــير لناجزة والوقوف منها تماما في الوسط: لم يسو حسابه مع أغنياء الأرض ولم يرض تمامــا رغبات الفئات الدنيا من المواطنين. "ظن الحزب الديمقراطي أنه واصل إلى قسمة جديــدة عامة، وتصور النبلاء أنه سيترك ذات المنظمة تعيش أو يبدل فيها بعض الشــيء. لكنــه عارض الطرفين". (بناء آثينا، الكتاب ١١،٢).

لقد ألزم الغضب الشعبي سولون على الدفاع عن نفسه من كل الجهات، حتى لـيــهتاج كذئب بين رهط من الكلاب"، كما يقول عن نفسه. طبعا، سرعان مانشب الصراع، أقــوى مما سبق. وبعد أربع سنوات، لم يستطع الآثينيون أن ينتخبوا الأرشــونت الأول، وتكــرر الأمر بعد أربع سنوات. وفي العام ٥٨١، حاول الأرشــونت دامازيــاس عبثــا أن يحتــل السلطة.

لكن خبرة الأعوام السابقة كانت قد جعلت الصراع أكثر منهاجية. وفي تلــك الحقبــة، يروي أرسطو في كتابه "بناء آثينا أن ثلاثة أحزاب ولدت. البديون ***les pediens***، حــزب أرستقراطي يقوده ليكورغ، يضم سكان سهل بديون الخصب حيث أملاك الأغنيــاء؛ كــان يدافع عن مصالح أغنى المالكين ويعمل لعودة النظام القديم. الحزب الثاني، البــارليون ***les paraliens*** (منطقة بحرية)، كان قادته الالسمونيد ***les Alcmonides***، واحدة مــن أعتــى

---

[1] – نفس المصدر.

أسر آثينا، كان قد قبل النظام الجديد ومثل مصالح الأوساط التجارية والصناعية في الساحل. كان قائد هؤلاء ميغاكلس *Megacles*، أحد أعضاء هذه الأسرة. حزب معتدل إجمالاً، لكنه لا يبتعد عن الإطار الذي أرساه سولون. والحزب الأوسع كان حزب الدياكريين *Diariens* (الجبليين) الذين يسكنون شمال-شرق هضبة دياكر من أتيكيا، على تربة قاحلة، ضم الفلاحين سيئي النصيب من الأرض، الغاضبين مما لم يحدث لدى توزيع الأرض، مثل الفلاحين، الرعاة، المياومين، بل كل الشعب الكادح. وكان الحزب الأكثر ديموقراطية، الذي يتمنى انقلاباً كاملاً. كان على رأسه بيزسترات الذي، رغم أنه من علية النبلاء، كان قد قطع صلته بالأرستقراطية وسعى إلى مساندة الشعب ودعمه.

ليست معروفة بشكل دقيق طريقة نجاح الدياكريين في العام ٥٦٠ في تحقيق النصر ولاكيف صار بزسترات حاكماً مستبداً، ورئيساً للدولة الآثينية. القصص التي وصلتنا ذات صبغة طريفة ولابد أن تكون صادرة عن خصوم بزيسترات. استناداً غلى هيرودوت "جرح /بزسترات/ نفسه وجرح بغاله، ثم رمى نير هذه البغال في الساحة، وهرب من خصومه الذين أرادوا قتله بينما كان يتنزه في الحقول، ووجه نداء إلى الشعب ليحميه.." كان مجلس الشعب واثقاً بكلامه وسمح له بأن يحيط نفسه برجال مسلحين". على ذلك، كما يقال، زاد عدد حراسه بشكل كبير، واحتل في ٥٦٠ الأكروبول وصار مستبداً طاغياً.

أياً كان الأمر، فقد اصطدم ظفر الحزب الديموقراطي في مجيء بزسترات بمقاومة ضارية من قبل الأحزاب المعادية التي اتحدت ضده وطردته بعد جولتين من المعارك. استمر إبعاده الثاني عشر سنين. نفي بعد السقوط الأول لكنه بقي على اتصال مع رواده من دياكريا وجمع أسباب الصراع، مستغلاً مناجم الذهب من تلة بانجيه، في تراس، وتحالف في الوقت ذاته مع الدول المعادية لآثينا، بخاصة إرتريا واوبي. وبعد أن اطمأن للقوى العسكرية ودعم الفلاحين، أبحر بزسترات في العام ٥٤١ إلى خليج ماراتون، وتحدى أعداءه في معركة بالين، واحتل أثينا تقريباً بدون قتال وبقي سيدها حتى مماته (٥٢٧).

اتسمت حكومة قائد الدياكريين بهزيمة ارستقراطية الدم بشكل ناجز. نفي الكثير من النبلاء، وقتل من بقي، وصودرت أراضيهم. هدفت تدابير بزسترات إلى تقوية اقتصاد الفلاحين بخاصة ودعم الميلشيا المسلحة، الركن الرئيس لسلطته. دون أن يحقق إعادة اقتسام الأرض الذي طلبه الفلاحون، وزع مع ذلك على العناصر الفقيرة عددا كبيرا من

الأملاك التي صادرها من النبلاء، وادخل نظام رصيد الدولة لصالح الفلاحين في حياتهم وخفف العبء الضريبي على الفئات الأفقر، على حساب الشرائح المرتاحة، واضعا ضريبة ١٠% على الدخل. كان أحد التدابير الأهم تعيين قضاة متنقلين ومحاكم من المشاعات الريفية -*demes*- التي تحل الخصومات الدقيقة. لكنه، ممثلا لمناطق أخرى، لم يستطع أن يعتمد كليا على دعم الدياكريين، فسعى للتحالف مع الباليان: لا بل تزوج ابنة قائدهم ميغاكلس. وإرضاء للتجار والصناع، جهز أسطولا عظيما للحرب والتجارة، لتروج التجارة العابرة مع الخارج. وفي أيام بزسترات، جهد الآثينيون لطرد الميليزيين من منطقة البونت *pont*، مصدر القمح الرئيس الذي تحتاجه أتيكيا. وأسس لهذه الغاية نقطة تمركز على مضائق الدردنيل، بعد أن استولى على مدينة سيجي *Sigee*. وفي نفس الوقت، تمتنت العلاقات بين الآثينيين ومصر. وهكذا نرى بزسترات، وهو يطور التجارة الخارجية، توجه نحو مستقبل سياسة آثينا الاستعمارية وشيد قواعد الانطلاق البحري لدولة آثينا.

وصدر أيضا إلى أعمال البناء الواسعة. بنى هيكلا "طوله مائة قدم" في أثينا، على صخرة الأكروبول؛ وشرع بتمديد الماء والخزانات الضرورية لهذه المدينة التي تفتقر للماء. وأحيت أعمال هامة عامة (نظمها مستبدون آخرون مثل بولكرات دي اسمس) العديد من الصناعيين والعمال. وفي أيام بزسترات، صارت أثينا مركزا للثقافة الإغريقية. فقد عرف الحاكم المستبد كيف يشد إليه كبار الشعراء، مثل أناكريون *Anacrean*. وكلف ثلاثة من الباحثين بجمع شتات الإلياذة والأوديسة ووضع نص واحد. وإرضاء للشعب، كان يقيم كل عام احتفالين تمجيدا للإله الريفي ديونزس. وفي أثناء هذه الاحتفالات تقام في أثينا أعظم التمثيليات المسرحية.

حوّل نشاط بزسترات هذا أثينا إلى مركز ثقافي هام ومنحها المقام الأول بين الدول اليونانية. وحازت المدينة شهرة دولية. إذ ساهمت الشروط المناسبة لتطوّر التجارة والمال بارتقاء العبودية، النظام التقدمي في ذلك العصر. "فالتجارة، الصناعة، والمهن الفنية، الممارسة على نطاق يزداد اتساعا بعمل العبيد، صارت فروع نشاط بارز[١]"

لكن توفر القمح المستورد بسعر مناسب وجلت مجموعات من العبيد الأجانب لم يتأخر حتى انعكس انعكاسا محبطا على الاقتصاد الفلاحي.

---

[١] - ف.انجلز. أصل الأسرة، الملكية الفردية والدولة.

سقوط البزستراتيين. اصلاحات كلستين *Clisthene*

مات بزسترات عن عمر مديد في العام ٥٢٧، تاركا السلطة إلى أبنائه الثلاثة: هيبياس، هيبارك، وتسالوس الذين اضطروا لمواجهة صعوبات كأداء داخلية وخارجية. وبعكس أبيهم الذي كان بسيطا جدا في علاقاته مع الشعب، دلوا أنهم فوقيون وأجلاف. ولتأمين بذخ بلاطهم، كانوا يفرضون الضرائب على كل شيء في المدينة: طوابق المنازل، على الزوايا البارزة خارج البناء، وسوى ذلك.

كانت أوضاعهم بالغة القلقلة بسبب تعثر العلاقات الخارجية. كان الفرس قد أخضعوا شواطيء آسيا الصغرى، أعدموا حاكم سامس بولكرات *Polycrate*، حليف أثينا، اجتاحوا مصر وأخذوا المضائق المؤدية إلى مملكة بونت *Pont*(٥١٣). وهكذا عزلت أثينا عن شط البحر. ومن جهة أخرى، كانت تعاني من ضغط إسبارطة المتزايد، التي تحمي بحيوية الأرستقراطية في صراعها مع حكم الاستبداد وألجأت النبلاء المبعدين عن أتيكيا.

فندرك تماما، في هذه الظروف، رغبة نبلاء الأرض في التمرد ضد حكام آثينا. إذ حاكت مؤامرة بقيادة أرستقراطيين، هارموديس وأرستوجتون. كانا، كما يبدو، خصمين شخصيين لأحد أبناء بزسترات، هيبارك، الذي أهان أخت هارموديس. حدثت المحاولة في أثناء الاحتفاء بعيد بناته العظام، لأن المتآمرين اعتمدوا على مساندة الجمهور. مع ذلك لم يقتلوا سوى هيبارك. نفق هارموديس في ساح المعركة، أوقف أرستوجتون وأعدم فيما بعد. وبعد هذا أقيم لهما نصبان في آثينا وظفرا بلقب "شهداء الاستبداد".

وبعد أربعة أعوام من موت هيبارك، نفي هيبياس لعلاقته باجتياح إسبارطة المسلح (٥١٠). نجح السبارطيون باحتلال أثينا وأعادوا إليها الأولغارشية الأرستقراطية، وأقاموا عليها إزغورس، قائد المهاجرين. وخلال سنتين (٥١٠-٥٠٨) احتلت الحامية الإسبارطية الأكروبول وانتشر الإرهاب في أثينا. لكن رجوع الأولغارشية لم يعمر طويلا: فانتفاضة شعبية مخيفة جمعت الدياكريين إلى البارالين بقيادة كلستين زعيم البارلبين أحد ألسميونيد. طرد السبارطيون، ووزعت أراضي أوبي والأرستقراطيين على المعمرين الأثينيين.

إنتخب كليستين أرشونت أول، وشرع في ٥٠٦ بنشر الديموقراطية في النظام الأثيني، آخذا بالاعتبار الدور المتنامي للجماهير في حياة البلاد الداخلية.

كان هذا الاصلاح يرتبط صميميا بتنظيم جديد، وحدات مستقلة، مؤلفة من قرية أو

قريتين أو ضيعة من أتيكيا. كان كل حي من أثينا يشكل وحـــدة، وللوحـدات مجالســها، موظفوها،أراضيها وحتى أعيادها، على رأسها حاكم، منتخب لعام واحد، يحكـم الشـؤون المحلية ويأخذ لائحة برعيته. يسجل الشباب الذين بلغوا الثامنة عشرة على لوائح ويمنحـون الحقوق المدنية. يعين المجلس العام نسبة أعضاء الوحدة الإدارية للمواطنية الأثينية وينفـذ المعلومات المعطاة بشأنهم. ولقد صارت هذه الوحدات منظمات في غاية النشـاط الإداري المحلي، حيث يمارس كل الأثينيون تدريبهم المهني.

الإصلاح الهام الآخر لكلستين هو النهج الانتخابي، النابع من التقسيم الجديد لمواطنـي أثينا إلى قبائل. القبائل الأربع من العشير الموجود منذ القدم وأحصاه سولون وصانه، تلغـى باعتبارها دوائر وتبدل بعشر قبائل إقليمية، ضمت كل منها في البداية عشر وحدات. لكـن هذه القبائل لاتشكل أقاليم كاملة: ولكي تمثل كل منها المناطق الرئيسة الثلاث مـن أتيكيـا، تضم عدة وحدات إدارية من المركز، من الساحل ومن الجبال. تتكون كل قبيلـة إذن مـن ثلاثة أقسام تسمى ترتي أي (ثلث) ليكون العدد الإجمالي ثلاثين. فنرى أن كل قبيلة مؤلفـة من مواطنين من مختلف المهن والشروط؛ أما الأسر النبيلة الكبرى التي كانت قد انتسـبت كليا إلى قبيلة معينة ولعبت فيها دورا مهيمنا، في الانتخابات، كانت قد تفتتت. فتقلصت إلى العدم القوة الرئيسية لأرستقراطية الدم ولغمت تقسيم المواطنين السابق إلى ثلاثة مراتـب، تألفت حسب مناطق أتيكيا الثلاث. فحازت القبائل فضلا عن الطبيعة الإقليمية، وحدة البنية.

جدد كلستان أيضا تنظيم المؤسسات المركزية في الدولة، بوضعها علـى سلم كـل المجتمع العبودي. فمجلس الأربعمائة لسولون، صار المجلس الأعلى للدولة الأثينية، بعد أن أضيفت إليه مائة عضو. تنتخب القبيلة ٥٠ عضوا، ولكل وحدة إدارية في عدد من المقـاعد يتناسب مع كبرها. وكان مجلس الخمسمائة المنظمة الإداريـة الرئيسـية لأثينـا. يجتمـع باستمرار، يناقش خمسون من أعضائه بالدور القضايا العاجلة، طيلة ١/١٠ السنة؛ يحمـل مندوبون عن هذه القبيلة أو تلك، خلال هذه المدة لقب حاكم.

كان مجلس الشعب، المؤلف من كل الأثينيين المتمتعين بالحقوق المدنية، السـلطة الفعليـة العليا للدولة، التنظيم الديموقراطي العبودي الأعلى. يجتمع المجلس ثلاث أو أربع مـرات بالشهر، برئاسة أحد الحكام، المتغير باستمرار. ومجلس الشعب يراقب ويوجه نشاط مجلس الخمسمائة؛ فكان في أساس سيادة أثينا التعاونية. أما سلطة مجلس الشـيوخ والأرشـونت،

كانت محدودة. لم يعد الأرشونت الأول يقوم الخزينة، بل عشرة خازنين يختارون كل عام، واحد لكل قبيلة. ينهض بالشؤون الحربية مجمع الاستراتيجيين، الـــذي ينتخـــب أعضـــاءه العشرة، كما انتخب عشرة خازنين للخزينة. يقودون محاربي قبائلـــهم. ولا يحتفـــظ قـــائد الجيش بسوى بامتياز تشريفي هو رئاسة مجلس الاستراتيجيين واحد مـــن أهـــم مؤسســـات الديموقراطية الآثينية.

أخيرا، ولاستبعاد أي احتمال لقلب النظام القائم، بإصلاح الاســـتبدادية ***les tyramie***، مثلا، أو تجديدها، أدخل كلستان ***l'ostracisme*** أي نفي المواطنين "الخطرين"، أي أظنـــاء التخطيط المدمر. مورس هذا التدبير بالشكل التالي: في بداية العام، يضع مجلس الخمسمائة بين يدي مجلس الأمة مسألة معرفة إمكانية تطبيق الــ ***ostracisme***= نفي الخطرين. فـــإن أعطت غالبية الأعضاء جوابا بالإيجاب، تعقد جلسة أخـــــرى، فيســـتطيع الحـــاضرون أن يسجلوا على قوقعة أو كسرة خزف الاسم الذي يراه خطرا على الدولة. ويقبل الاقـــتراع إن صوتت غالبية الستمائة لنفي المتهم. وبعد ١٠ سنوات، يعود المبعد إلى البـــلاد ويمـــارس حقوقه.

لم ينشر كلستان، ممثل التجار الأغنياء ومالكي العبيد، أي قانون لمصلحة الفقراء. إنما كانت مواقفه كلها تخص العلاقات السياسية وبنية الدولة. وكـــان العبيـــد الذيـــن يشـــكلون الشريحة الأوسع من رعايا أتيكيا، والذين يؤسس عملهم الحياة الاقتصادية للمجتمع الأثينـــي، والمحرومين من أي حق، كانوا في طليعة ضحايا هذا الجهاز الذي دبجتـــه ديموقراطيـــة العبودية. كما حرم من الحقوق السياسية النساء والعناصر الخدمية والمضطهدة في المجتمع

أنهت إصلاحات كلستان في أتيكيا مرحلة التحولات الاجتماعية والسياسية، التي دامت قرابة مائة عام لتفضي إلى تشكيل الطبقات الاجتماعية والدولة. والتبدلات المقصودة، التـــي نجمت في أثينا في القرنين السابع والسادس، لا تعود حصرا إلى كلســـتان ومـــن ســـبقه، سولون وبزسترات. فقد وقف عند خلق رويدا رويا نهج ذكي مـــن مؤسســـات العبوديـــة وتشريع محصلات الحركات الاجتماعية، التي وضعت حدا لمخلفات نظام العشـــير. ولقـــد كانت القوة المحركة هي الطبقة الأخيرة في الهرم الاجتماعي، بخاصة الفلاحين الشـــريحة التي تصارع نبلاء الدم الذين يهدفون استخدامهم. لكن الفلاحين عرفوا كيف يدافعون عـــن شرطهم الدقيق ليصيروا منتجين أحرارا وينخرطون في المجتمع المستعبد.

حدثت تطورات مشابهة في باقي حواضر اليونان المتطورة، لكنها لم تدرس بالتفصيل، لعدم توفر الوثائق.

الفصل الثامن والعشرون

الحروب الميدية وتشكل الاتحاد البحري الأثيني

بواعث الحروب الميدية وأهدافها

في القرن الخامس قبل الميلاد بلغت اليونان أوجها بفضل النتيجة المظفرة للحروب الميدية التي تتابعت خلال النصف الأول من القرن كله. خلق هذا النصر شروطا لانطلاق الحضارة والاقتصاد اليونانيين.

ليس لدينا الكثير من المصادر حول هذا العصر. والشاعر أخيل *Eschyle* الذي، كما هو معروف، اشترك هو نفسه في معركة سالامين، لايقدم في تراجيديته "الفرس *les perses*"، سوى مقاطع من هذه الحرب. وإلى هذه المصادر، يجب أن نضيف بعض صفحات تاريخ هيكاتيه لميليه وكثيرا من النقوش (بخاصة نقش حاكم سراكوز جيلون بمناسبة مجد ظفره في هيمير، ومسلة نقش عليها اسم كل الدول التي اشتركت بالدفاع).

لكن المجموعة الرئيسية من المعلومات حول الحروب الميدية هي "قصص" هيرودوت التي تروي أحداث ٥٠-٦٠سنة بعد انتهاء القتال. هدف هذا المؤلف، حسب قول هيرودوت، هو: "..صيانة أعمال الناس والبربر من النسيان، وبعيدا عن كل هذه الأمور، تطوير البواعث التي دفعتهم إلى شن الحرب". لكن هيرودوت لم يكن بعيدا عن الذاتية، بل هدف (من الكتاب نصرة الأثينيين كمنفذي هيلاد *Hellade*، اليونان القديم.

ثمة مصادر أخرى عامة لدراسة هذه الحقبة من الزمن هي "المكتبة التاريخية "لديودور سيسيليا وسيرة ثمستوكل، أرستيد، سيمون وبركليس، التي كتبها بلوتارك. لكنها، وقد ظهرت طبعا بعد الأحداث المدروسة، تستمد قيمتها من توثيق الأعمال التاريخية السالفة، التي لم تصلنا ابدا. وبالتالي، معلوماتنا في موضوع نصف القرن هذا ناقصة بشكل ملحوظ. أملنا في أن توسع معارفنا أرشيفات برسبولس، عاصمة سلاطين الفرس، المكتشفة حديثا، وتزودنا بمعلومات جديدة.

كان سبب الحرب التوسع المستمر والمنهجي للإمبراطورية الفارسية نحو الغرب. فقد ضمت في أيام داريوس الأول أراض شاسعة تمتد من الهند إلى بحر إيجة ومن القفقاس إلى مصر. كانت هذه الإمبراطورية مجموعة من الشعوب المتنافرة وحدها الغزو، عديمة الوشائج، متباينة في مستوى ثقافتها ومصالحها واهتماماتها. وكان الذهب الآتي من المناطق والأقاليم المحتلة، بشكل ضرائب، لا يتحول فقط إلى نقد، بل يكدس في المشربيات الفخارية التي تبقى عشرات السنين في أقبية القصور الملكية.

كانت الأرستقراطية الفارسية تجهد في إخضاع واستغلال الشعوب المجاورة، وإلحاق الأراضي والعبيد. وكان المستشارون الملكيون، القادة العسكريون ومئات الموظفين الذي يديرون الأقطار الملحقة يصيرون شريحة اجتماعية حاكمة، مستفيدين مباشرة من هذه السياسة.

وكان التوسع مدعوماً من طرف أرستقراطية العبودية وتجار النخاسة لـرق البحر المتوسط، بخاصة في فينيقيا. وكانت بعض الأوساط التجارية والصناعية من المدن اليونانية في آسيا الصغرى، المنذهلين بمّاسب الأسواق الشرقية، يتعاطفون مع الفرس. واجتياح فينيقيا، ليديا وسلسلة من حواضر آسيا الصغرى، جعل من الفرس دولة ضاربة عاتية بحرية، مدعومة بحلف هجومي مع جمهورية قرطاجة: فإن مشى الفرس إلى الغرب، توجب على الأسطول القرطاجي أن يهاجم سيسيليا لمنعها من مؤازرة يونان البلقان.

بدأ غزو الفرس لأوربا في العام ٥١٣، يوم هاجم داريوس الأول السيثيين[١]، ليخضع الساحل الشمالي من البحر الأسود. لكنه لم يستطع أن يقهرهم. وبعد عدة معارك فوق أرض مولدافيا الحالية، انسحب السيثيون، جارين وراءهم في السهب الصحراوي الواسع جيش العدو الجرار (٧٠٠ألف رجل، إذا صدقنا الشهود). فلم يستطع الفرس أن يقاوموا هؤلاء الفرسان المهرة الذين يهاجمون فجأة ويضربون في الحال وينسحبون، مدمرين في دربهم الآبار، مناهل المياه والنبات. أنهكت هذه الاشتباكات المستمرة جيش داريوس، الذي لم يرَ نهاية لهذه الورطة القاضية في الصحراء، فرغب في مفاوضة السيثيين. لكن محاولته باءت بالفشل. فتراجعت القوات الفارسية، المتعبة، خائبة.

---

[١] – شعب من أصل إيراني، شكل دولة في سيثيا، لكنها تفككت في النصف الثاني من القرن الأول ق.م.

رغم الفشل في سيثيا، احتل الفرس شاطيء هلسبونت، المناطق القريبة من تراس، بيزانسا، وشالسدوان، الأمر الذي فتح لهم دربا إلى مملكة البونت[1]. فانقطعت أية صلة بين اليونان والساحل الشمالي للبحر الأسود، وانتقلت التجارة مع هذه المنطقة من أيدي الأثينيين، الميغاريين ومدن من آسيا الصغرى إلى أيدي التجار الفينيقيين. واحتل الفرس عدة جزر شاطئية من آسيا الصغرى (شيو،ساموس، إلخ). وأخضعوا لسبوس، وقطعوا، في نفس الوقت، العلاقات التجارية بين مدن آسيا الصغرى واليونان البلقانية.

وفي العام ٥٠٠، بدأ الفرس تقدمهم نحو اليونان القارية. حاولوا احتلال أكبر جزيرة في سيكلاد، ناكسوس الغنية والخصبة. كان موجه هذه الحملة حاكم ميليت، أرستاغوراس، الذي اشتراه العدو. لكن الأسطول الفارسي لم ينجح في انتزاع ناكسوس، الأمر الذي دفع أرستوغوراس، حسب رأي هيرودوت، إلى خيانة ملك الفرس وإثارة ضده في العام ٤٩٩ المدن الإيونية التي كان نير المحتل قد أبهظ كاهلها: ففي حملة داريوس على السيثيين، حاول البحارة الأيونيون تدمير الجسر الذي أقامته قواته على الدانوب وإهلاك جيشه. لكن المنتفضين، غير القادرين، حسب رأيهم، على النصر بوسائلهم الخاصة، استنجدوا بدول اليونان القارية. وهكذا نشبت الحرب الميدية.

وضح ضعف اليونان وتشتتها منذ البداية. إسبارطة، المشغولة بإعداد الحرب ضد أرغوس وغير المتعاطفة أبدا مع أيونيا، الأرقى منها، رفضت دعم ومساندة أرستاغوراس؛ وكورانثيا ومدن يونانية أخرى حليفة إسبارطة ومصالحها المحلية تفرض عليهم القتال المشترك، لم تازر هي الأخرى المترددين. بينما أرسلت أثينا فقط، التي كانت الهيمنة الفارسية البحرية تهدد مصالحها، أرسلت عشرين مركبا للمتمردين. وبعثت مدينة أرتريا خمسة مراكب إلى أوبيا، التي تتاجر مع ميليت. لكن عدم كفاية المساعدة الأثينية اتضح بالصراع الشرس الذي دار بين الشرائح المتضررة من التوسع الفارسي وبين الذين تكمن مصلحتهم في علاقات طيبة مع هذه الإمبراطورية لاستمرار التجارة مع آسيا. وأيضا، رغم النجاح الأول (احتلال ساردیا)، وبسبب عدم كفاية المساعدة الفعالة من اليونان الأوربية، انعزل المتمردون عزلا تاما.

[1] - مملكة في شمال شرق آسيا الصغرى، استقلت عن الفرس في العام ٣٠١ق.م.

هزم الفرس اليونانيين في البر، أمام ايفيس ***Ephese*** (٤٩٨). ثم طلبوا سفنا من مصر وفينيقيا الحليفتين، لمتابعة الحرب على البحر. وقرب جزيرة لادس، على ضفاف ميليت، ذاق اليونان هزيمة ماحقة (٤٩٤)، الأمر الذي مكن الفرس من تطويق ميليت (مركز التمرد) برا بحرا واقتحامها. دمرت المدينة ومن بقي حيا أسر أو بيع عبدا. واحتل الفرس بيزانسا مرة أخرى. وهكذا احتلوا في العام ٤٩٤ مواقع مفتاحية في التجارة والإبحار إلى آسيا الصغرى واستعادوا سلطتهم في أيونيا.

أولى حملات الفرس ضد اليونان

تذرع الفرس بوجود سفن يونانية وأريترية في معسكر الأيونيين، لشن هجوم على اليونان القارية. وفي صيف٤٩٢، سارت إلىاليونان أولى الحملاتَ الفارسية بقيادة مردونيوس، صهر داريوس الأول. تقدم الجيش برا وبحرا، عبر هللسبونت، ثراس ومقدونيا.

لكن الأسطول الفارسي غرق في رأس أثوس، في أثناء عاصفة عاتية. حسب هيرودوت، كانت الخسائر حوالي ٢٠ ألف رجل. أما جيش البر، فقد ذاق خسائر فادحة عندما حاول سحق مقاومة البريجس، القبيلة الثراسية التي أرادت أن تحول دون عبور الفرس. ومردونيوس نفسه جرح واضطر بعد لأي أن يتخلى عن متابعة العمليات. ومع ذلك، كان للحملة نتيجة هامة: احتل الفرس ساحل ثراس الغني واستطاعوا أن يقيموا فيه نوعا من الجسور المتحركة تساعد القوات على العبور في حملة قادمة إلى اليونان.

لم يكن فشل مردونيوس حادا ليثبط تصميم الفرس على التوسع. فأرسل داريوس إلى كل مدن اليونان سفراء مكلفين بالمطالبة "بالأرض والماء". انتهت بعض دول اليونان ذات النظام الأولغارشي التي تخشى الانتفاضات الشعبية، منها ثيساليا، بيوتيا، إيجين، وأرغوس، انتهت إلى الاعتراف بتفوق الفرس. لكن أثينا وإسبارطة رفضتا بوضوح دون أن تخشى قتل المسافرين. وفي بداية القرن الخامس، تشكل في أثينا حزب سياسي سمي "البحري"، بقيادة ثمستوكل تمكن أن يوسع قاعدة اقتصادية لأثينا باحتلال طرق تجارية وأسواق. فأراد الحزب أن يخوض صراعا حاسما ضد الفرس، بخاصة اجتياح بعض المضائق، كونها هامة جدا للتجارة مع ساحل البحر الأحمر وثراس لتصدير بخاصة منتوجات صناعية، مقابل القمح. فإغلاق المضائق كان سيضر كثيرا بهذه المكاسب.

ونهضت شريحة اجتماعية أخرى، بقيادة الثري والنبيل ملتياد، حاكم ثرسونيز السابق، وتركها بعد الاحتلال الفارسي، لتنضم أيضا إلى الصراع ضد الغزاة. لكن ملتياد، باعتباره مدافعا عن مصالح المالكين العقاريين، اهتم بصيانة الأرزاق والالتزام بحرب دفاعية.

وهكذا كانت شرائح التجار والصناعيين، بإشراف وتوجيه ثمستوكل، والمالكين في الأرياف بقيادة ملتياد، في أثينا، وفي إسبارطة، قررت الأرستقراطية الحاكمة المقاومة والتصدي. في الوقت ذاته، كان الغزو الفارسي في نظر الشعب الاثيني نازلة فادحة ودفنا للديموقراطية. فكان الاثينيون إذن أمام حرب وطنية، دفاعا عن البلاد والحضارة. من هنا أتى التوازن الوطني الذي أنهض مختلف فئات السكان في أثينا.

في العام ٤٩٠، بعد ١٨ شهرا من الغزوة الأولى لليونان تقريبا، شرع الفرس بحملة أخرى. كانت خطة داريوس، هذه المرة، الإبحار إلى اليونان الوسطى، واليونان الشمالية كانت كلها تقريبا بين يديه. كان داتس، القائد العسكري المحنك يقود الأسطول الضارب، بينما كان الجيش بإمرة الشاب الأمير آرتافيرن، حفيد داريوس. وقد لعب هيبياس، المبعد من آثينا والذي يأمل، بمساعدة الفرس، العودة حاكما إلى هذه المدينة التي ما تزال تضم العديد من أنصاره، لعب دور المستشار في قيادة هذه الحملة.

إتجه الفرس مباشرة إلى سيكلاد وأبحروا إلى ناكسوس واجتاحوها. ثم وصلوا إلى أرتريا ودمروها. وبناء على رأي هيبياس، أبحروا إلى شرق أتيكيا، قرب سهل ماراتون، المفتوح من جهة البحر، والمغلق بالجبال من كل الجهات. العدو باغت الأثينيين. وتبين أن وضعهم أسوأ من حال الإسبارطيين، المعادين لنظام كلستين، لكن هؤلاء لم يسارعوا إلى النجدة. وأعلنوا أنهم، احتراما للعادات، لن يباشروا الحرب إلا والقمر بدرا. لكن بلاتيا، المدينة البيوتية، المجاورة لأتيكيا أرسلت، وحدها، ألف جندي. فاضطر الأثينيون إلى استنفار كل الرجال، حتى العبيد. بداية، فكروا أن يعتصموا خلف جدران المدينة، لكنهم بناء على إلحاح المالكين والكادحين قرروا المسير إلى ماراتون؛ على مرأى العدو. كان يتألف جيشهم من ١٠ آلاف رجل مشاة ثقيل السلاح، وألف مسلح من بلاتيا وسرايا خفيفة، وكان ملتياد، قائد الحزب الزراعي، يقود عمليا كل القوات كأحد الستراتيجيين وثمة أريستيد، قائد محنك آخر في هذا الحزب. استحكم الأثينيون قرب هضبة بانتيليك، في مجال ضيق، منيع على الخيالة ويحمي طريق آثينا.

ليس لدينا معرفة دقيقة بعدد الجيش الفارسي. وحسب هيرودوت، كان الأسطول يضم ٦٠٠ سفينة، لكنه رقم مبالغ جداً. وفي كل حال، كان عدد الفرس أكبر بكثير من خصومهم وقد يكونون ٤٠ الفاً. لكن مشاتهم كانت مؤلفة من عناصر متنافرة، غير منسجمة، مجندة من مختلف المناطق المحتلة.

وضع ملتياد جيشه في أرتال طويلة، بحيث دعم الجناحين وأخلى الوسط أو المركز. أغلق منافذ الوادي الضيقة، فحرم الفرس من نشر خيالتهم، الذين عادوا إلى البواخر، تاركين المشاة وحدهم. استغل الأثينيون هذا الوضع الجيد، نزلوا من الجبل انقضاضاً وفتحوا معركة ماراتون الشهيرة.

في أثناء العراك، خرق العدو وسطهم، لكن الجناحين دخلا اللعبة في وقت معاً، مهددين بالوصول إلى مؤخرة الفرس المنخرطة في عمق الوضع الأثيني. أخيراً اضطر العدو إلى التراجع نحو السفن. تابعه اليونان حتى الشاطئ، لكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء إلا على سبعة مراكب فقط. وكما يروي هيرودوت: "نفق في هذه المعمعة من الفرس، حوالي ٦٤٠٠ رجل؛ ومن الأثينيين ١٩٢" (١١٧،٦). مع ذلك، بعد أن جمع الفرس أكثر قواتهم علي ظهر البواخر، قصدوا أثينا على عجل؛ واعتماداً على مساندة أنصارهم في نفس المدينة أملوا أخذها من جهة البحر بهجمة مفاجئة. لكن الجيش الذي حمى وادي ماراتون، اجتاز بمسيرة انقضاضية ٣٠كم تفصله عن المدينة. وبينما كان الأسطول الفارسي يدنو من فالير، مرسى أثينا الرئيسي، كان مظفروماراتون قد دخلوا في السور، بحيث ان الفرس خوفاً من مواجهة ثانية، بقوا على متن مراكبهم وانطووا باتجاه آسيا.

وهكذا هزم الأثينيون هجوم الفرس الأول (لم يأت الاسبارطيون إلا بعد فوات الأوان)، وبخاصة علىأ يدي فلاحي أتيكيا -الزوجيت- الذين كانوا يشكلون نواة أو قلب الكتيبة. وصار ملتياد، القائد الأعلى، البطل المظفر. ورفع له مواطنوه نصباً قرب القبر المشترك للمحاربين الذين سقطوا في ماراتون (مايزال الضريح قائماً حتى اليوم). فجهد ملتياد، المتمتع بشهرة طبقت الآفاق، في دفع حزبه إلى حرب هجومية. اقترح خلق أسطول من ٧٠ مركبا وإرسال حملة إلى الجزر الباقية تحت حكم الفرس. وعلى رأس جحفل هاجم ملتياد جزيرة باروس وطلب من أهليها ضريبة من مائة طالان[1]. لكن الحصار فشل ورجع

---

[1] - وحدة وزن في اليونان القديمة تساوي من ٢٠-٢٧كغ، أي هذا الوزن ذهباً أو فضة.

ملتياد خائبا. ومثل أمام القضاء، وأدين بتأدية ٥٠ طالان غرامة ومات بعيد هذا الحكم متأثرا بالجراح التي أصابته في أثناء حصار باروس.

أما رئيس الحزب البحري ثمستوكل، رجل الأعمال والسياسي البارع، راح يسعى لتدمير النفوذ السياسي للأسر النبيلة. فأعد مخططا واسعا لبسط نفوذ أثينا البحري. سهل إنجاز المشروع استثمار حقول الفضة في أتيكيا، التي أنفقت، بناء على اقتراح ثمستوكل، في بناء أسطول لايقهر، وإدارة وتحصين المرافئ. وسحقت مقاومة حزب المزارعين بنفي قائده أرستيد، وبجهود ثمستوكل، وضع الأثينيون في الماء ٢٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف خلال عامين.

حملة خرخس

في العام ٤٨٠، أي ١٠ أعوام بعد معركة ماراتون، بلغت الحرب ذروتها. مات داريوس في العام ٤٨٤، وخلفه أحد أبنائه، خرخس. ترافق تبدل الملوك هذا بفتن داخلية دامية، إحدى نماذج الاستبداد الشرقي، كالانتفاضات الخطرة التي قمعها خرخس في مصر وبابل. فضلا عن هذا، فقد وعى جيدا أن يونان أوربا كانوا أعداء شرسين ورهيبين، فأعد لهم بعناية حملة جديدة. وليضمن حرية العمل لأسطوله وتجنب خطر غرقه قرب رأس أثوس، حفر خرخس قناة عبر البرزخ الواصل بين شبه جزيرة أكتيا ولابر. أنجز المشروع بفن مدهش بمطرقة وإزميل المصريين والفينيقيين، فكان عريضا يتسع لعمارتين كبيرتين محاربتين. وبني في ثراس من مخازن التموين التي غصت بالماشية والأعلاف. وأقيمت الجسور فوق أنهر ثراس وحتى فوق مضيق هللسبونت. وجند خرخس خلال أعوام جيشا جرارا اتبع تدريبا نوعيا في كابادوسيا، التي صارت مركز تجمعه. "كل هذه الحملات، وغيرها كثير، لا تستطيع ان توازي هذه وحدها"، يكتب هيرودوت.

كانت استعدادات الفرس القتالية قد ألزمت مدن اليونان بالاستعداد لمقاومة العدو مقاومة عامة. كان فقدان الوحدة السياسية، كما أشرنا، نقطة ضعف اليونان. إذ كان لكل مدينة مصالحها. والجوار المباشرون –اسبارطة وأراغوس، أثينا وإيجين، المدن البيوتنية من ثسبيا وبلاتيا وثيبيا وغيرها– كانت تعيش كرها متبادلا. وعدة دول، مثل أرغوس، تساليا وثيبيا، كانت تطمح إلى الحياة وتبدو مستعدة لدعم الفرس ليصمدوا. وحسب هيرودوت، "إن أولئك الذين أعطوا الفرس الماء والأرض كانوا واثقين أن ليس ثمة ما يدعوهم لإغضاب

البربر، وكان من لم يعطهم، بالعكس، غارقين في الإرهاب، ولا تملك اليونان مراكب كافية لمقاومة الفرس، والناس راغبون عن الاشتراك في الحرب، لكنهم مضطـــرون للخضـــوع للميديين" (الكتاب ٧، ١٣٨).

كان الأثينيون بقيادة ثمستوكل أبطال الوحدة المتحمسين. وكانت الفئــة الحاكمــة فــي إسبارطة، رغم عدم رضاها عن أثينا الديموقراطية، كانت واعية أيضا ضرورة التضـــامن، لأن الإسبارطيين ما كانوا قادرين على مواجهة الفرس في البحر. وشـــكلت دول يونانيـــة أخرى حلفا دفاعيا. وفي خريف العام ٤٨١، اجتمع ممثلون عن أثينا، إســـبارطة، إيجيـــن، أوبيا وغيرها من الدول علىالبرزخ، في معبـــد بوزيـــدون ***Poseidon***، وأقســـموا يميـــن الإخلاص للاتحاد الجديد. انضمت إليه ثلاثون دولة، لتعبر عن المحاولة الأولـــى لمنظمـــة لكل الإغريق. واعلن السلم الشامل بين الدول المتحالفة، التي أعلنت أيضا العفو الشامل عن المجرمين السياسيين. ولعلة تفوقها العسكري المعترف به من الجميع، كلفت اسبارطة بقيادة القوات البرية والبحرية.

وفي خريف ٤٨٠، كرر الفرس خط سير مردونيوس، منطلقين مـــن الشـــمال نحـــو اليونان، البعض على طول شواطيء تراسيا، برا، والآخرون بحـــرا. يبـــالغ هـــيرودوت بوضوح بعدد جند خرخس. وكما قال، كان المشاة وحدهم ١٧٠٠٠٠٠ جندي، والكل، بمـــا فيهم القباطنة، المذخرون، النساء، إلخ، ٥٢٨٧٣٢٠. ويضم الأسطول ١٢٠٧مراكب. بينمـــا يدعي بعض المؤرخين المعاصرين أن خرخس لا يستطيع أن يرسل إلى آسيا أكـــثر مـــن ٢٦٠٠٠٠ قاتل. أيا كان الأمر، كان هذا، لذلك العهد، مشروعا فريدا من حيث الفكرة ومـــن حيث المدى: فرس، آشوريون، عرب، ليبيون، هنود وشعوب أخرى انطلقت بالتتابع ضـــد اليونان الدولة الصغيرة.

كانت بداية الحرب بائسة بالنسبة لليونان. اهتموا قبل كل شيء بحاضراتهم، فلم يهيئوا عملهم جيدا، فلم يقدروا ان يوقفوا العدو عند الحواجز الطبيعيـــة التـــي تقدمـــها السلاســـل الجبلية. تقدمت القوات الحليفة بداية نحو تساليا، أقبل الفرس واحتلوا معبر تامبيا بين جبـــال الأولمب وأوسا ***Ossa***. لم تكن المعنويات في تساليا مستقرة، واعتبرت القيادة الاســـبارطية هذا الموقف غير مطمئن، وسار الجيش اليوناني مباشرة إلى الحاجز الثالث، الذي يشـــكله البرزخ الذي يفصل اليونان الوسطى عن البلوبونيز. وسقطت تساليا بحقولها الخصبة بيـــد

الخصم. لم يكن مضيق ثرموبيل، مفتاح اليونان الوسطى، محميا بأكثر مـــن ٣٠٠ مقـاتل إسبارطي، بقيادة ليونيداس. تقول الأسطورة إن خائنا من أبناء البلد قــاد الفـرس بمعــابر الجبال إلى مؤخرة خطوط اليونان. قاتل الفصيل الإسبارطي بشجاعة وأبيد كله بمـا فيـهم قائدهم ليونيداس.

وأخليت اليونان الوسطى بدورها، فدمرها الفرس ونهبوها. واحتل خرخس علـى رأس جيشه البري، وخرب بدون شفقة بيوتيا وأتيكيا. لم يوفر سوى المدن البيونية، بناء على أمر الكسندر، ملك مقدونيا الذي انتقل إلى العدو، متعاطفا مع الفرس. وبعد نهب معابد أثينا وقتل الناس الذي لجأوا إلى الأكروبول، حرق الغزاة المدينة. ولقد جند كل القادرين على حمـل السلاح في أيتكيا، في الجيش البري والبحري، بينما أخلي علـى عجـل النسـاء، الأولاد، الشيوخ والعبيد إلى جزيرة سالامين.

كان الأسطول هو الذي أنقذ اليونان في هذا الموقف الحـــرج. ففـي أثنـاء معركـة ثرموبيل، حقق الأسطول اليوناني، الذي كان يحمي خاصرة سرية ليونيداس، ظفرا مؤزرا، بإنزاله الهزيمة بالأسطول الفارسي قرب رأس أرتميزيوم. وبعد مغادرة اليونان الوسـطى انسحب نحو جزيرة سالامين.

ألح الإسبارطيون على بقاء الأسطول بعيدا عن خليج سالامين نحو الـبرزخ، حيـث تمركزت القوات الحليفة البرية، المكلفة بالدفاع عن البلوبنيز. ولقد بدأوا ببناء جدار علـى عجل عبر البرزخ، ليمنعوا الجيش الفارسي من التغلغل أبعد. لكن هذا الانسحاب كان يعني الأثينيين التخلي عن وطنهم. وبناء على إلحاح ثمستوكل فقط، وهو القائد الأعلى للأسـطول اليوناني (الذي يمثل أكثر من نصف البحرية اليونانية كلها)، أمكن تقرير خـوض معركـة ضد الفرس في مضيق سالامين. وذهب ثمستوكل حتى تهديد الحلفاء: "إن لم تصغوا لـي، لن نتأخر عن اخذ عائلاتنا وننتقل إلى إيطاليا، في سيريس، وهي لنا منذ وقت طويل وحيث يعلن الوحي ان علينا أن نبني مستوطنة. وآنئذ، تتذكرون قولي هذا!" (هيرودوت، ٨، ٦٢). على فرض أنه أنبأ خرخس بانطلاق قريب للأسطول اليوناني وأن هذا طوق سالامين مـن الجنوب، بدون علم اليونان، بطريقة إغراقهم في المضيق. وفي صباح الغد، دارت معركـة قرب سالامين قررت مصير الحرب الميدية. أنزل الأسطول اليوناني، المؤلف من مراكـب غير كبيرة تتحرك كيف تشاء في المضيق الأليف، دون هدنة ولا مهادنة، ضربات قاسـية

بالأسطول العدو. بالمقابل اصطدمت العمارات الفارسية القاسية الثقيلة، المتزاحمة في هـذا الساحل الضيق، وغرقت إثر هذه الواقعة. وبعد ان جمع خرخس فلول أسطوله،اتجه إلـى آسيا الصغرى؛ وأكره أيضا على لملمة أكثر سراياه، التي يستحيل تموينها بدون بواخـر. بقي ٥٠ ألف يوناني تقريبا، بقيادة ماردونيوس، اضطروا هم أيضا لدى اقتراب الشـتاء أن ينسحبوا إلى تساليا الخصبة.

يرسم الشاعر أخيل، الذي اشترك شخصيا بمعركة سالامين، يرسم لوحة أخـاذة فـي تراجيديته "الفرس":

".. اختلط الحابل بالنابل. يبذل أسطولنا
أول جهد؛ لكن مراكبنا، العديدة جدا،
المتزاحمة في المضيق، لا تقدر أن تساعد
بعضها؛ مجانيف تحطمت؛ واليونان، المهرة
بالمناورة، يضربونهم من كل صوب، ويغرقونهم
أيعيدونهم على أعقابهم؛ يختفي البحر تحت
الحطام والموتى؛ وتغطي الجثث الشطآن
والصخور. والأسطول كله يولي الأدبار
مبلبلا مشتتا."

(أخيل، "الفرس"، ٤١١ وبعدها)

اليونان ينتقلون إلى الهجوم. اتحاد ديلوس البحري

لقد أقنع نصر سالامين اليونان أن اتحاد الدول يقدر ليس فقط أن يطرد الفرس خـارج أرضهم، بل أيضا متابعة الحرب حتى النصر النهائي، لاسيما فـي نفـس العصـر، فـي سيسيليا، يوم هزم جيلون حاكم سيراكوز قرب هيمير القرطاجيين حلفاء الفرس. وأيضا في صيف العام ٤٧٩، يوم دخل ماردونيوس من جديد أتيكيا، ترك الجيش اليوناني استحكامات البرزخ وانتقل إلى الهجوم. وشغل الجيش اليوناني الذي وحد قلوب ٥٠ ألف رجل (قرابـة ١١٠ آلاف حسب هيرودوت)، بقيادة المحافظ بوزانياس السبارطي، شغل في أيتكيا مواقف جديدة على سفوح ستْرون التي تشرف وتتحكـم بـدرب أثينـا. فرضـت القـوة علـى ماروِدونيوس أن يتراجع إلى بيونيا، بعد أن دمرت أتيكيا مرة أخرى. نصب معسكره قـوب

بلاتيا لكي تقدر خيالته أن تناور في سهل بيوتيا الواسع. وهنا أمام بلاتيا، جرت أكبر معارك هذه الحرب؛ دامت عدة أيام. وكما في مراتون، كان تفوق السرايا الثقيلة اليونانية واضحا. تفرد الإسبارطيون، مشوا إلى العدو بسور لا يخترق، بينما احتل الأثينيون معسكرا منيعا. ماردونيوس ذاته مات في المعركة، الأمر الذي دب الهزيمة العامة في الجيش الفارسي. ثم أتى دور ثيبيا، التي كانت نقطة استناد لمردونيوس؛ أخيرا، دخل الحلفاء شاليا على أجداث ومخلفات العدو. تقول الرواية إن ثلة صغيرة فقط من الفرس بقيادة المزربان أرتباز استطاعت الهروب عن طريق مقدونيا وتراسيا. وهكذا تحررت اليونان القارية كلها.

وفي الوقت نفسه، طرد الأسطول اليوناني الفرس من بحر إيجة. وفي صيف العام ٤٧٩ نفسه، دارت معركة بحرية قرب رأس ميكال، نقطة تمركز البحرية المعادية. كان الفرس قد سحبوا بواخرهم إلى الساحل، خشية الاصطدام باليونان. ثم أبحر الأسطول اليوناني، بقيادة ملك اسبارطة ليوتشداس والأثيني خانثيوس (والد بريكلس)، وطوقوا المواقع الفارسية وأحرقوا المراكب التي لم تتعرض لخطر الإبحار. ألزم هذا النصر جزر ثاسوس، ساموس، لسبوس وشيو أن تفك ارتباطها مع الفرس وتنضم إلى الاتحاد الهلليني.

وهكذا أفضت معارك سالامين،ميكال وبلاتيا إلى انعطاف حاسم. برهنت أن التمسك بالحرية كان قوة قمينة بتخطي، في الساعة الحرجة، التفكك الداخلي في الدول أو بعض الفئات الاجتماعية، باسم الآمال المشتركة للشعب اليوناني.

بعد هذا خلقت الحرب الميدية جامعة أخرى للدول اليونانية، بقيادة أثينا هذه المرة، وأضيق من السابق. فبعد النصر المؤزر الباهر لميكال، انسحب الأسطول المتحد نحو هللسبونت ليعزل الفرس عن أوربا. لكن مراكب ليوتشداس البلوبونيزية تركت الأثينيين لتعود إلى اليونان. أما هذه الأخيرة، التي كان همها الأول التمون المنتظم بقمح بونت، تابعت العمل في البحر. فحاصر الأسطول الأثيني، الذي انضم إليه الموجودون في الجزيرة، قلعة سستوس في المكان الأضيق من هللسبونتو، وبعد شهرين من التطويق، أجبر الحامية الفارسية على الاستسلام. وفي العام ٣٧٨، عقد تحالف بين المدن اليونانية من آسيا الصغرى والجزر من جهة أخرى، سمي تحالف ديلوس الدفاعي. كان هذا التحالف جامعا مدن بحرية مهمتها تقديم الرجال والبواخر للحرب ضد الفرس. والحاضرات الصغيرة غير

القادرة بوسائلها الخاصة على بناء سفن، كان لها الحق أن تدفع سنويا مبلغا معينا (الدينا لائحة ببعض النقوش). وفي جزيرة دالوس، قرب معبد أبوللون، كان الصندوق المشترك، الذي ضم ٤٦٠ تالان (قرابة مليون روبل-ذهب). هنا اجتمع المجلس الاتحادي. كان الحلف يملك أرضا واسعة، يشمل حتى ٢٠٠ حاضرة.

كان الأثينيون هذه المرة يقاتلون الفرس بمعنوية أعلى وأمل أمتن ويحققون نجاحات أوسع وأهم. وفي العام ٤٧٠، طرد الجنرال اليوناني سيمون العدو من شواطئ تراسيا. فالتحقت بسيمون كل المدن اليونانية المرتبطة بالفرس. وتصدى اليونان للفرس في بامفيليا، على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى، عند مصب أورمدون (٤٦٨). أخيرا فتحت كل الطرق التجارية والجزر شواطئ بحر إيجة أبوابها أمام التجار اليونان. لا بل جهد الأثينيون في التغلغل في الأرض الفارسية. وفي العام ٤٥٩ قررت أثينا مؤازرة مصر المتمردة ضد الفرس وأرسلت لها خيرة بواخر أسطولها. على ذلك نجح الفرس في قمع تمرد المصريين، ودمروا تقريبا كل الأسطول اليوناني (٤٥٤). وبعد خمس سنوات، ٤٤٩، لاقى أسطول أثيني آخر، بقيادة سيمون، لاقى الفرس قرب قبرص، أمام مدينة سالامين. انتهت المعركة بظفر الأثينيين وطرد نهائي للفرس من شرق البحر الأبيض المتوسط.

كان تفوق اليونان بديهيا، وأكره الفرس في العام ٤٤٩ على عقد السلم، المعروف في التاريخ باسم سلم كالياس *paixde callias* (السفير الأثيني الذي مهر المعاهدة في سوز *Suse*، عاصمة ملك الفرس). بعد الحرب الميدية، شرعت المناطق الغنية في آسيا الصغرى،وبحر إيجة والبحر الأسود، شرعت ثغورها أمام اليونان الذين غرسوا فيها التجار الشرقيين. وبلغ الرواج الاقتصادي، والتفتح السياسي والثقافي لليونان في النصف الثاني من القرن الخامس، نقطة الأوج.

الفصل التاسع والعشرون

قمة الاقتصاد العبودي في اليونان

الاقتصاد في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد

حتى في أوجه، في القرن الخامس، لم يشكل اقتصاد اليونان كلا متكاملا. البلاد، كما هو معروف، تتكون من عدة دول ومناطق مستقلة تختلف بوضوح من حيث النهج الاقتصادي. وفي عدد من بقاع اليونان، بقي أسلوب الحياة القديم ساري المفعول. ايبيريا،أركانانيا وإتوليا كانت أقاليم رعوية. وفي تساليا، بيوتيا، لوكريد، فوسيد وفي جزر بلوبونيز، كانت زراعة الأرض هي المهيمنة. المكان الأول بين الأمصار الزراعية يعود إلى تساليا، التي تصدر حتى مما يفيض عنها من القمح؛ وكانت تربي الكثير من الأنعام بخاصة الخيول. وفي اليونان الوسطى، تنسب الملكية الزراعية إلى بيوتيا. كان فلاحو بيوتيا هم الممونون العاديون للسوق الأثيني، حيث يبيعون نتاج حقولهم، السمك والطرائد. وفي اليونان الجزيرية، تتميز أوبيا بخصوبتها.

كانت الأقطار الزراعية والرعوية متخلفة من الزاوية الاجتماعية والسياسية. فحسب شهادة ثيوسيديد، كان الأكانانيان والأتوليان يعيشون في القرن الخامس كما في أيام هوميروس: يحملون أبدا أسلحتهم، تخطف النساء وتسبى، ولم يعرفوا بعد استخدام العبيد. وفي عدد من الاقاليم، كان يوجد مختلف أنواع العلاقة البدائية للشعب الريفي مع الملاك العقاريين. وفي إسبارطة، كما نعرف، كانت أراضي الحكام -السبارطيين- محروثة بتعب الأجراء المستعبدين وكان شرط هؤلاء يذكر بشرط......تساليا... كريت، .....أرغوليد.

وبعكس المناطق الزراعية، كان العديد من الحاضرات مثل أثينا، كورنثيا، أيجين، ميغار، ميليت وغيرها قد صارت قبل الحروب الميدية مراكز كبيرة للتجارة والصناعة. وبعامة، كانت أراضيهم غير ملائمة لزراعة الحبوب. وفي أتيكيا، مثلا، كانوا يزرعون بخاصة المزروعات التي تحتاج الكثير من العناية: الكرمة والزيتون. وقد ولد نقص القمح

رعية ريفية فائضة تسعى الى المهن، الى التجارة، محتاجة لتصدير منتوجها الصناعي واستيراد المواد الغذائية، والمواد الأولية والعبيد.

وكانت المهن والصناعات في الحاضرات متطورة في القرن الخامس. يشير بلوتارك الى النجارين، النحاتين، صناع النحاس، البنائين، الجواهرجية، صناع العاج، الرسامين، المزخرفين، المرصعين، الحبالين، الحائكين، الدباغين، مرممي الطرق، الخ.

الى هذه اللائحة نضيف الفرانين، الحلوانية، الأسكافية، البراذعية وغيرهم. وفي المدن الكبيرة مثل أثينا، كان يوجد أحياء كاملة تعمر بأناس من نفس المهنة، كانت ميليت مثلا، للحلوانية، الأسكافية، البراذعية وكانت سيرلميك حي الفخارين. وكانت بعض المدن مشهورة بهذه البضاعة أو تلك. وكانت أثينا وكورنثيا مختصتين بصناعة السلع المعدنية، الأسلحة بخاصة، المفروشات، الحياكة، والفخاريات. وكانت مشربيات كورنثيا المطلية المصنوعة للتصدير منذ القرن الثامن تصل حتى ايتروريا. وفي أثينا وكورنثيا كانوا يهتمون أيضا بتعمير السفن.

وفي القرن الخامس ق.م. كان يوجد في أثينا ورشات صغيرة، يعمل فيها أفراد الأسرة كلها، يساعدهم غالبا عبد أو عبدان، وأحيانا أكثر.

لم يكن أجر الصناعي يتجاوز دراخما واحدة في القرن الخامس ودراخمتين في القرن الرابع. وكان الفقراء يأوون ألى أكواخ تصعب تسميتها بيوتا: غرفة واحدة طولها عدة خطوات، بجدران من الخشب أو بعض الحصى الممزوج بالفخار وأرض صخرية ممهدة. كان الجدار الأساسي غالبا صخرة واحدة، ترتبط به الجدران الأخرى. بين السطح والسقف كان يقوم مسكن صغير يسكنه أصحابه أو يؤجرونه؛ يصعد إليه بسلم.

والمهنة في اليونان القديمة، لم تكن ابدا معتبرة عملا مشرفا. "إن المهن كلها عمل حقير، يكتب خنوفون ("اقتصادي"،٤،٢)، ومن الأكيد والطبيعي أن ينظر إليها في المدن بازدراء ومهانة". وينسب الكثير من الاحتقار للأجراء المشتركين أيضا بالإنتاج، مع أن عددهم كان ضئيلا.

وبعد الحروب الميدية، بخاصة في القرن الرابع ق.م، راح يظهر إلى جانب الورشات الصغيرة، مشاريع تنمو باستمرار تستخدم عبيدا. كان أغلب مؤسسيها أجانب أحرارا. يعلل ظهور هذه المشروعات نمو التصدير من اليونان باتجاه المحيط. كان دموستان قد ورث

عن أبيه ورشة يعمل فيها ٣٢ عبدا في صنع الأسلحة. ويتحدث أيضا عن ورشةأخرى لصنع أسرة ينام عليها ٢٠ عاملا أعطيت لأبيه رهنا. وكان خطيب ليزياس يمتلك ورشة لصنع الدروع والتروس تستخدم مائة عبد. ويمتلك ورشة أخرى من نفس النوع تنتج مصابيح، آلات موسيقية وسواها. ونلمس هنا بداية تقسيم تقني للعمل. وفي ورشات التعدين، البعض يطرق الحديد، وأخرون يشحذون، وغيرهم يسقون المعدن. وورشات السيراميك تستخدم، عدا صناع الفخار، رسامين ودهانين لتزيين الأواني المنزلية. لكن الصناعات اليونانية لم تستخدم في القرنين الخامس والرابع الآلات. فما كانوا يعرفون آنئذ إلا التقنيات البدائية: العتلة، البكرة، مسن أو رحى، وغيرها، العاملة أساسا بقوة الإنسان العضلية.

وكمثل على سلع منتشرة في كل اليونان وخارجها، نذكر صناعات الفخار. ففي القرن الخامس، انتج هنا المشربيات الرائعة المزدانة بصور على خلفية سوداء شديدة المقاومة، يبهر جمالها العين حتى اليوم. والقدور المصنوعة من الفخار المشوي كانت تحمل أحيانا شارة شيخ الورشة وشارة مفتش السوق، اللذين يتحليان بالكفاءة المحلية. على إحدى هذه القارورات نقرأ النقش التالي: "أوتميدس صنع هذه المشربية خيرا مما لن يستطيع صنعها أفرونيوس" (أحد المزاحمين).

بينما كانت السلع المصنوعة ماتزال تستخدم العبيد والعمال الاحرار، لم يبق لصناعة المناجم أو المقالع كيد عاملة سوى العبيد. تشهد على هذا مناجم لوريون الشهيرة، في جنوب أتيكيا، التي تخص الدولة وتؤجرها للأفراد. كانت تبلغ حتى ٤٩م عمقا. من هذه الآبار، تذهب أروقة أفقية، مقطوعة في صخور صلبة، حيث ينتشر معدن الفضة. كان كل رواق يحفره عامل يعمل ١٢ ساعة،ويتتابع العمل ٢٤ ساعة ولايعطي إلا ١٠م في الشهر. وكان المعدن، الذي يفصل بالمعزقة والرفش، يكوم في سلة تسحب نحو الآبار عبر الرواق؛ كان ينهض بهذه المهمة الأولاد والمراهقون، ارتفاع الرواق متر واحد. يرفع المعدن بالسلال الكبيرة، بواسطة ملفات يدوره هؤلاء العبيد أنفسهم، ثم يجرش بحجر الرحى ومطارق حديد ثقيلة. ثم يغسله الفتيان والنساء في أحواض رخامية بماء جار، لتخليصه من الرصاص. ويصنع الفونت بأفران واسعة. نأخذ من هذا سبائك، يربطها المسنون والصبيان حزما ويرسلونها إلى أثينا على ظهور البغال. كان الرصاص يضغط بصفائح سميكة،

يحمل خاتم مالك العبيد. ولجلب الفحم، وخشب التدفئة وإرسال معدن لوريون، شقوا طرقا وبلطوها.

كان تطور المهن يترافق مع رواج التجارة. فالتجارة الداخلية، بخاصة على أرض صلبة، بين مختلف دول اليونان في شبه جزيرة البلقان، بحاجة لمدى واسع. وكانت التجارة المحلية أساسا تجارة سلعية، تجارة سوق. كان ممثلوها النموذجيون الباعة الجوالين، الحانوتيين، باعة المفرق، والفلاحين. وكان لكل مدينة مكان في السوق، الأغورا، الذي يشكل مركزها أو وسطها، تتجمع حوله الصروح العامة والمعابد. وثمة رف خاص لكل بضاعة: سمك، جبن، فخاريات، خمر- إلخ. ومكان خاص للنخاسة. وفي هذا الميدان العام، من المدن الكبرى ، يزاول المبادلون والمرابون القابعون وراء مكاتبهم، كل أنواع العمليات المالية: يتلقون الفضة مكدسة، يكلفون بإرسالها إلى طالبها، وإجراء الصفقات، وغيرها. كانت الفوائد عالية: ١٨% بشكل عام، وفي حال الارتياب أو الاظطراب التجاري، تصل إلى ٣٦%.

كانت المراكز التجارية والصناعية الكبرى في اليونان القديمة تشترك بتجارة البحر الخارجية، لأنها بحاجة للقمح، خشب البناء واليد العاملة (العبيد). وبعد هزيمة الفرس، استعادت اليونان اليد الطولى في بحر إيجة ومضائق بونت-أوكسن. وقد أضعف سحق القوات البحرية الفارسية بصورة غير مباشرة الفينيقيين، حلفاء الفرس والمزاحمين السابقين لعمارة السفن اليونانية. وتجدد التبادل بين اليونان ومستعمراتها في آسيا الصغرى، وكذلك التجارة مع الشرق، مصر، شلسدوك، ثراسيا، مقدونيا وبخاصة مدن ساحل البحر الأسود. وكانت مراكب التجارة اليونانية تبحر باتجاه اليونان-الكبرى، نحو سيراكوز، وتصل كمبانيا، أوترارِيا و، أيضا إلى الغرب، شواطيء الغول ***Gaule*** وايبيريا.

أثينا، مثلا، كانت تجلب من ساحل البحر الأسود، مصر وسيسيليا القمح، الماشية، السمك (المدخن، المملح، والمجفف)، الجلود، الفرو والصوف. وتستورد البرونز الأوترارِي، البردي ونسيج الكتان من مصر. والسجاد الباذخ والعطور من الشرق.والعاج من إفريقيا. وتستقبل شرائح العبيد، بحيث كانت عاصمة أتيكيا الديموقراطية، في القرنين الخامس والرابع ق.م مركز نخاسة هيلاد (اليونان قديما) الكبرى.

ومقابل البضائع المستوردة، تصدر اليونان زيت الزيتون، العسل، الرخام، الرصاص،

الفضة، السلع المعدنية، النسيج، والفخاريات. وقد كشفت اللقى الأثرية سعة التجارة الأثينية ومراكز التجارة والصناعة اليونانية الأخرى. ووجدت السلع اليونانية حتى في خاركوف، فورونيج وسمولنسك.

وبعكس التجارة الداخلية الصغرى، كانت التجارة الخارجية الضخمة تأتي بمرابح هائلة (حتى ١٠٠% مما يحمل المركب). ومنذ القرن الخامس ق.م. تطورت التجارة اليونانية بحيث أصبحت عابرة: فبعض البضائع، كالقمح، تأتي إلى البيريه لتباع بدورها في الخارج. لذا كانت المدينة التجارية والصناعية ملزمة بتوفير لنفسها مرفأً مجهزاً. كان اهمها مرفأ بيريه (الواقع على عدة كيلومترات من اثينا). تشكل جزيرة بيريه ثلاث مراسي يستخدم اثنان منها لإرسال السفن الحربية. والثالث في الغرب، هو البيريه ذاتها، حيث مرفأ التجارة. بين المخازن والمستودعات المتواصلة، كان ثمة صرح يسمى (ديغما–العرض)، حيث تعرض البضائع وتقوم سوق المال. كان ثمة جدران تزنر المرافيء الثلاثة والبيريه ذاتها المتصلة بأثينا بالـ"جدران العالية الطويلة". وكان في كورنثيا، إفيز، ديلوس، رودس، سيراكوز وغيرها، مرافئ رائعة.

نما الانتاج وعزز حياة الرعايا التي كانت على علاقة بالصناعة والتجارة: صنلعيون، وسطاء، مياومون، عمال أرصفة ومستودعات، بحارة، أصحاب مشروعات، تجار ومرابون. ورغم التناقضات فيما بينهم، كان ثمة علاقات مشتركة: تطور التجارة والصناعة. وبخاصة ، ترافقت الانطلاقة البحرية للدولة الأثينية مع السيطرة على الدول اليونانية الأخرى. بالنسبة للتجار، فتحت هذه الغزوات أسواقاً جديدة ووسعت نفوذ الدولة المالي؛ وبالنسبة لبعض شرائح الشعب، ترجمت إلى امتلاك أراض في المناطق الملحقة، وتوزيع النقد والخبز، التوظيف في المراكز العامة وازدياد الطلب على اليد العاملة، بخاصة في الأسطول. وبكلمة، تكون لكل الناس الأحرار مصلحة في استغلال العبيد وسحق مقاومتهم؛ هذا مع اختلاف حجم هذه المصلحة.

كان صناعيو المدينة وتجارها أوسع تعلقا من الفلاحين بسياسة الحكومة الداخلية والخارجية وتموجاتها. وكان يهم أيضا سكان مدينة أخرى مثل أثينا أن تحكم الجمهورية نفسها. فضاقت أثينا بسكانها النشطاء، الخبراء بالسياسة، بعكس الريف الواسع، مما أفضى إلى أن يحتل أبناء المدن سلطة الريف وأرضه.

العبودية في اليونان في القرنين الخامس والرابع ق.م

كانت دول الطليعة في القرنين ٥و٤ تعيش اقتصادا عبوديا راقيا. جمع كاتب أثيني، من القرن الثالث للميلاد، قد جمع في أعماله السابقة التي لم يصلنا منها شيء، معطيات حول ألوف العبيد التي كانت بحوزة بعض الدول: "كانت كورنثيا مزدهرة لأنها كانت تمتلك٦٤٠ ألف عبد... حسب الإحصاء الذي جرى في الأولمبياد ١١٧ (العلم ٣١٢ق.م)، كان سكان أتيكيا يعدون ٢١٠٠٠ مواطن أثيني، ١٠٠٠٠ أجنبي حر، ٤٠٠٠٠٠ عبد..." وينقل أرسطو في "دستور إيجين أن هذه كانت تمتلك ٤٧٠٠٠٠عبدا" (أثيني،٦، ٢٧٢ب). أن بعض العلماء الحاليين يشكون بهذه الأرقام. فبعض الحسابات المعقدة تجعلهم يخلصون أن عدد الأحرار في أتيكيا، مثلا، بما فيهم الأجانب الأحرار، كان آنئذ يساوي تقريبا عدد العبيد؛ ويرى آخرون أن العبيد أكثر. فإذا ما فكرنا أن جزءا فقط من الناس الأحرار يقومون بعمل منتج وليس عندهم عبيد، النسبة الأولى -عبد واحد لحر واحد- تكفي لتأكيد الفكرة القائلة إن العبيد كانوا في اقتصاد أثينا للقرنين الخامس والرابع، هم المنتجون الرئيسيون. وليس لنا أن ننسى أن حقل عمل العبيد كان يتسع أبدا.

وككل مجتمع عبودي، لم تكن قوة عمل العبيد في اليونان بضاعة ولم تتم حيازتها بالإستئجار، بل بطريق غير اقتصادي: الإكراه، القهر والعنف. والعبد، حسب تعبير اليونان، ليس سوى "جسد" سلعة، أداة إنتاج بسيطة، نوع من إنسان آلي. تماما كالأدوات والبهائم، كان العبد ملكية مطلقة لمالكه، له أن يبيعه، يشتريه، وحتى يقتله.

وكان المصدر الرئيسي للعبودية استيراد الأجانب الأسرى، القرصنة والحرب. وسكان سوريا، فريجيا، ليديا وأقاليم أسيوية أخرى، من بلاد البونت (السيث)، ثراسيا، ومصر كانوا يشكلون أغلب عبيد اليونان. كانت معاهدة المساجين أحد أهم الفروع المربحة وأهم مواد التجارة. ففي شيو، ساموس، إيفيز، كان يوجد أسواق نخاسة واسعة، حيث يمكن شراء من القراصنة ثلل كاملة من الأسرى ليعاد بيعهم في دول اليونان القارية. وفي ثراسيا، كانوا يستبدلون العبيد بالملح: كان الأمراء الثراسيون يتحاربون دوما فيما بينهم ولايعدمون أبدا مساجين لهذه المبادلة. وكانوا يشترون في ثراسيا عبيدا فرادى؛ يقول هيرودوت أن الثراسيين "كانوا يبيعون أبناءهم للأجانب". وقد لاحظ بوليب، بصدد البلاد البونتية، أنهم "بين الأشياء الضرورية يقدمون الماشية وكمية كبرى من العبيد بنوعية أعلى كثيرا"

(٣٨،٤، ٤). وأبناء العبيد واللقطاء ويصيرون أيضا عبيدا. فضلا عن هذا، ثمة عادة في كل اليونان تخول الأهل بيع أبنائهم. وفي أثينا، يلجؤون إلى هذا في حالة واحدة: يقدر الأب أن يبيع ابنته الساقطة. ويطبق الاستعباد على المدينين المعسرين: في أثينا، ألغي الاستعباد لقاء عدم وفاء الدين في أيام سولون، لكنه بقي في الأقاليم الأخرى من اليونان. وأخيرا، كان الاستعباد يعوض عن عقوبة تقضي بها المحاكم: في ليسيا (آسيا الصغرى)، لقاء عقوبة السرقة، وفي أثينا، لقاء عقوبة الربى بالمواطنية –أي حرمان الإنسان من مواطنيته مقابل الربى أو اكتساب المواطنية مقابل الربى، إلخ.

كان سعر العبيد متبدلاً. من لايعرف سوى الأعمال العادية يساوي ٢ أو ٢,٥ مين[1] وأولئك الذين يعرفون مهنة ما ٣-٤ مين. والعبيد الندماء أو يليقون بالـ"الأفراح" ١٠، ١٥، ٢٠ مين. إذا ما صدقنا الوثائق، نرى أن عبداً مشرفاً=٤٠ ميناً.

كان عمل العبيد موظفا كثيرا في الورشات الحرفية، المناجم والمقالع. وأحيانا يكلفهم صاحبهم بفتح ورشة على نفقته.والعبد المكلف بدفع أجور عنده عبيد يعملون تحت إشرافه وهم تحت تصرفه فعلا، رغم انتسابهم القانوني إلى مالكه. وفي بعض الحالات، يؤجر العبد المشرف كعامل لدى الأفراد، بخاصة لدى الصناعيين الأحرار، ويؤدي قسطا من مرتبه لسيده. وقد يشتري المالكون عبيدا بالحصة ٣٠٠-٤٠٠ فردا ليؤجرهم بالتالي لأشخاص آخرين عليهم أن يعيدوهم بالأجل المحدد. هكذا كانت تحاز اليد العاملة في مناجم لوريون.

وكان استخدام العبيد في المزارع أيضا ظاهرة منتشرة. فالملاك العقاريون الكبار وحتى الفلاحون المرتاحون يشترونهم ليجعلوهم يعملون في الاستثمارات.

ومألوف أيضا أن يعمل العبيد خدما. أسرة مرتاحة تملك ٥أو٦. والناس الأكثر تواضعا يكتفون بواحد. فمنزل أسرة غنية عالم مغلق، أي مكتفية ذاتيا، عندها طاحونتها ، فرنها، نولها، وصناعيوها. وكان الصناعيون المشرفون ملزمين بالعمل في بيت السيد لدى أول نداء.

أما عبيد الدولة فيشكلون عينة قائمة برأسها. كان في أتيكيا فوج من العبيد السيث *Scythes* (ألف رجل) يخدمون في جهاز الشرطة. المبلغون، الناسخون، المحاسبون،

[1] – مائة دراخما لدى قدماء اليونان.

وعمال النقد كانوا عبيدا عموميين. يعملون لمصلحة الدولة، يتمتعون بحرية واسعة، وأحيانا بشيء من الاحترام.

لا ينظر القانون إلى العبد نظرة إنسان. فأي هفوة أو ضرر أو إهانة تجاه السيد تعرضه للضرب المبرح، دون حساب عدد الضربات. كانت القاعدة أن يعامل العبيد بقسوة: "كل كلمة، أو تقريبا، موجهة للعبد تعتبر أمرا، يقول أفلاطون. لايجوز بخاصة المزاح مع العبد: رجلا كان أم امرأة".

وفي الدول الكثيرة العبيد، كان الخوف من التمردات يكبح تحكم مالكي "الأدوات المتكلمة". هكذا، كان قتل عبد في أثينا معاقبا كجنحة.

والعبد المساء إليه من قبل صاحبه أو سيده يقدر أن يحتكم إلى حق "الملاذ"، يلجأ إلى معبد تيزي أو محراب أومفيد. تقضي العادة ببيعه إلى مالك آخر. لكن الواقع، لاتقدم المعابد ملجأ آمنا. لايمكن استعادة العبد بالقوة، بل يمكن قسره بالجوع أو بالنار على ترك ملاذه. وكان مصيره معلقا آنئذ بالكاهن الذي يقضي بصحة دعواه.

مختلف أوجه نضال العبيد

كان كل هذا يفضي إلى نضال شرس طبقي. " حر وعبد، شريف وعامي، بارون وقن، سيد محلف ورقيق، وبكلمة، مضطهَد ومضطهِد، في تناقض مستمر، خاضوا حربا دائمة، أحيانا خفية وأحيانا مفتوحة... كتب ماركس وأنجلز في بيان الحزب الشيوعي. والشكل الأكثر انتشارا لهذا النضال الخفي للعبيد ضد سادتهم أو بالأصح أصحابهم كان هو مايسميه هؤلاء "كسل". يعبر هوميروس عن الفكرة هكذا:

هي ذي عادة الخدم، ما أن يغيب سادتهم أو
يضعفوا أو يفقدوا سلطتهم، حتى يتوانوا ولا
يفكرون أبدا بالقيام بواجبهم".
(أوديسا، نشيد١٧، ٣٢-٣٢١)

ولما يتحدث مؤلفو الزمن القديم عن طريقة تعامل العبيد، يذكرون قبل كل شيء التدابير التي يجب اتخاذها ضد توانيهم.

وكان ثمة وجه آخر للنضال هو الأبق. لنكون فكرة عن توافر هذه الظاهرة، يكفي أن نعرف أن ثمة أخصائيين مهنتهم البحث عن الآبقين. وشاهد آخر تقدمه الأختام والأطواق

التي تميز العبيد عن الأحرار وتجعل هربهم أصعب. يقع البحث عن العبيد الهاربين وإعادتهم على عاتق السلطلت؛ ويكافأ من يعيد عبدا هاربا. يهرب العبيد فرادى أو جماعة. وأثناء الحروب، يستغلون ضعف الدولة وينتقمون من سيدهم ويأبقون جمهرة. لما احتل الأثينيون، في العام ٤٢٥، مرفأ بيلوس في مسينا، وكان أرقاؤهم السبارطيون يهربون، خشوا، حسب ثوسيديد، "من ان يعم التمرد كل المنطقة؛ كانوا إذن في غاية الاستنفار" (٤، ٤١، ٣). وفي العام ٤١٣، عندما احتل السبارطيون ديسيليا في أتيكيا، "أبق أكثر من ٢٠ ألف عبد، أكثرهم حرفيون". (ثوسيديد، ٧، ٢٧، ٥).

كان الشكل الأرقى لنضال العبيد ضد مضطهديهم هو العصيان. وفي القرنين الخامس والرابع، اتخذت تمردات العبيد في اليونان صفة عفوية. كان العصاة يهدفون تحرير أنفسهم، دون أن يفكروا بتحطيم نظام الرق واستبداله بآخر.

ولقد كان أول تمردات العبيد في اليونان وأقدمها في أراغوس في العام ٤٩٤. هيرودوت هو من يخبرنا هذا (٦،٨٣). كان السبارطيون قد هاجموا وذبحوا أغلب الأرجيين. "أما مدينة أراغوس، فقد خلت من الناس، حتى أن العبيد احتلوا كل الإدارات العامة. حتى كبر أبناء المدينة وصاروا بسن الرشد. آنئذ عاد هؤلاء إلى أراغوس واستعادوا سلطتهم وطردوا العبيد الذين، بعد هزيمتهم، احتلوا تيرنث بقوة السلاح. وعاش الطرفان هنا ردحاً من الزمن في أتم وفاق؛ ثم أتى إلى العبيد عرّاف، كليادروس، أصله من فيغالي أركاديا؛ أقنعهم هذا الرجل بنمهاجمة ساداتهم. وهنا نشبت حرب عاشت مدة طويلة؛ وبعد لأي، استطاع الأرجيون، بعد مشقة، النصر". يشير هيرودوت على الأرجح إلى عصيان رقيق أراغوس، الذي يشبه أرقاء اسبارطة.

وفي العام ٤٦٤ نشب تمرد كبير قاده أرقاء اسبارطة ومسينا. وحسب بلوتارك، هزة أرضية حدثت في أسبارطة "في العام لتنصيب أرشداموس ملكاً". عم المدينة الاضطراب. "أرشداموس، الذي داهمه الخطر، حدس ما يخشى... قرع جرس النفير، كما لو كان العدو على أبواب المدينة، لكي تسارع الرعية لإحاطتهم بأسلحتهم.. فسارع العصاة من كل أنحاء الريف لذبح الاسبارطيين الذين نجوا من الهزة الأرضية؛ لكن عندما رأوهم مسلحين ومستعدين للمعركة، تراجعوا إلى المدن المجاورة، التي يدافع أهلوها عنها، دعمهم المسينيون، الذين من جهتهم هاجموا السبارطيين، وبدأوا ضد لسدمون حرباً مكشوفة."

بلوتارك. سيمون، ٢١). هكذا بدأت الحرب المسينية الثالثة التي دامت قرابة عشر سنين.

كان العبيد يشتركون غالبا بنضال مختلف شرائح الناس الأحرار، وهذا يساوي عندهم التحرر. وفي أثناء الصراع الذي نشب، في العام ٤٢٧، بين القلة والديموقراطية في جزيرة كورسير، "أرسل طرفا الصراع خلف العبيد في الأرياف واعدين إياهم بالحرية. انضم الغالبية إلى الشعب" (ثوسيديد، ٣، ٧٣).

دور العبودية في تطوير الاقتصاد اليوناني

يطرق العلم البورجوازي الحياة الاقتصادية في العصور القديمة بطرق مختلفة، لكنها دوما خاطئة. نقف عند وجهتي نظر متعارضتين: ك.بوشر وإد.ماير.

حسب بوشر، مرت الحياة الاقتصادية الأوربية في ثلاث محطات بارزة. الأولى هي محطة الاقتصاد الطبيعي المغلق أو "الخدمي" للعصور القديمة، حيث تستهلك المنتوجات في أرضها؛ كان هذا اقتصادا بدون تبادل، ليس بحاجة للتجارة. منتجوها الرئيسيون هم العبيد. واقتصاد المحطة الثانية "مديني" للعصر الوسيط، يتم بالتجارة، هو الآخر؛ تذهب منتوجاته مباشرة من المنتج إلى المستهلك، من الحرفي الحر إلى الزبون. والمحطة الثالثة اقتصادها "وطني" حديث، تجتاز منتوجاته عدة منظمات قبل الوصول إلى المستهلك؛ هوذا "عصر دوران المنتوج"، عهد التجارة المتطورة والمنتوج الضخم المبني على الأجرة.

إن هذا الوصف التبسيطي للحياة الاقتصادية في العصور القديمة متعارض مع ما نعرف عن الصناعة والتجارة في مناطق اليونان المتقدمة. وخطأ بوشر المنهاجي هو اعتبار التبادل و المعيار، العنصر الأساسي، بينما يجب الانطلاق من تباين أساليب الإنتاج وعلاقات الإنتاج التي تلائمها.

ونظرية ماير أمر آخر تماما، لكنها خاطئة هي الأخرى. يبالغ بدرجة تطور الاقتصاد القديم ويحدثه. حسب هذا الباحث، يبدأ تاريخ العصور القديمة بالإقطاع، "عصر وسيط قديم ". والمرحلة التالية، عند ماير، تعكس رأي بوشر، لأنه يضع في المقام الأول الدول ذات العلاقات الاقتصادية المتطورة، ويشبه ذروة الاقتصاد القديم بنهج الأجر في أوروبا الغربية للقرن الثامن عشر ويتحدث عن "رأسمالية قديمة". ويدلل ماير أن دور العبيد في إنتاج ذاك الزمن كان أضأل مما يفترض بعامة، فإلى جانب الكادحين العبيد كان يوجد عدد كبير ينتسب إلى الناس الأحرار.

إنه مفهوم خاطيء بقضه وقضيضه. فمن المعروف أن تطور المجتمع اليوناني لم يبدأ بعلاقات إقطاعية. أما في الأوج الاقتصادي للعصور القديمة، لم يكن الفلاحون ولا الحرفيون المحرومون من المصادر قد صاروا أجراء، بل بائسون يعيشون من أرباح عارضة، عالة على الدولة. فليس ممكنا الحديث عن دور مهيمن للمأجورين في أوج الاقتصاد القديم. فالذي كان مهيمنا هو كدح العبيد، وعددهم يتزايد.

ففي القرنين الخامس والرابع ق.م. كان اقتصاد العبودية في بعض دول اليونان قد بلغ مستوى معينا من التطور، وكان هذا بالتأكيد ظاهرة تقدمية. إننا "...ملزمون أن نقول، يكتب أنجلز، إن دخول العبودية في ظروف آنئذ تقدم كبير، حتى ولو ظهر قولنا متناقضا وشاذا". فالعبودية هي فقط التي جعلت قسمة العمل ممكنة بين الزراعة والحرفة إلى حد بعيد، ثم، أن تكون الحضارة اليونانية[1] ***l`Helle`nisme*** ذروة العالم القديم.

على ذلك، كان مجتمع العبودية، المبني على العمل الإلزامي، محكوما بالجمود التقني. يصدر السبب الرئيس لهذه الظاهرة من أن العبد، كما يقول ماركس... "يعامل معاملة الحيوان وأداة العمل البعيدة جدا عن أن تساويه، ومن أنه إنسان. ولكي يحرم من هذه المتعة، يعامل ككائن مغفل *con amore*. وأيضا، مبدأ اقتصادي، مقبول في أسلوب الإنتاج هذا، استخدم أدوات العمل الأصلب والأثقل، لأن فظاظتها ووزنها يجعلانها تعيش طويلا[2]". ولتأمين الحاجات المتزايدة للمجتمع من المواد المصنوعة ، والتقنية بدائية، وبالتالي، إنتاجية العمل منخفضة جدا، ليس ثمة سوى وسيلة واحدة: زيادة عدد العمال ليتناسب مع حاجات المجتمع. والنمو المستمر لجيش العمال بالقسر غير الاقتصادي، أي بالحرب وبكل أنواع الإكراه، كان إذن الشرط الحتمي لتقدم الإنتاج القديم، مادام الناس الأحرار يتملصون من العمل اليدوي، المعتبر غير مشرف. "حيث العبودية هي الشكل المهيمن في الإنتاج، يصير العمل نشاط العبد، وأمرا معيبا لدى الناس الأحرار[3]." إذن أو الخلاصة، سيفضي نهج عبودية الإنتاج إلى عرقلة تطور القوى المنتجة، ويخضع المجتمع القديم لأزمة مستديمة.

---

[1] – ف.انجلز، أنتي دوهرنغ، الجزء الثاني، الفصل الرابع، ص٢١٣.

[2] – ك.ماركس. رأس المال، الكتاب الأول، المجلد الأول، ص١٩٦.

[3] – ف.أنجلز، جدلية الطبيعة، أرشيف ك.ماركس وف.أنجلز، العام ١٩٢٥، ص٨٦.

الفصل الثلاثون

انطلاق الحركة الديموقراطية في اليونان بعد الانتصار على الفرس

اليونان الظافرة

لقد أثارت الحروب الميدية حماساً ملتهباً لدى الجماهير الشعبية. إليكم هذا المثل الساطع: بعد اجتياح خرخس، لم تعد أثينا أكثر من خرائب. وصار يجب إنشاء دفاعات للمدينة. اشترك في هذا كل الأثينيين، شيباً وشباباً وأنجزوا العمل خلال شهر واحد. وأعيد بناء الأسوار بطول ٩كغ، ٣,٥م ارتفاع و٦م سماكة، على أحسن وجه وبأقصر وقت. ما كانوا يستخدمون الملاط. بل كانت الحجارة تقص بكل عناية وإتقان وكأنها متلاصقة.

فقد وسم عصر الحروب الميدية بصراع سياسي حاد في بعض الحاضرات، لأن الحرب أوقدت النار تحت التناقضات بين مختلف فئات الطبقة المستعبدة. شمل أتيكيا، نيوتيا، اسبارطة وباقي دول البلوبونيز، ومستعمرات اليونان سيراكوز، أولبيا، هيراكلي البونت.

ففي بيوتيا، استبدلت سلطة أرستقراطية الدم بسلطة الملاك العقاريين وأغنياء المدجنين الذين لاينتسبون للأشراف. استعرت معاقبة الأرستقراطية البيوتية، أنصار الفرس، التي بدأت بتحالف اليونان بقيادة السبارطي بوزانياس، قاهر بلاتيه. حاصر بوزانياس ثيبيا وطلب تسليمه الخونة الأستقراطيين وأعدمهم.

حكم بوزانياس اسبارطة ما دام ولي العهد بلإستوناكس قاصرا، وقاد مقاومة الطبقة المهيمنة السبارطية ضد الحزب المحافظ بقيادة الأفوريين، بهدف حرمان الأفورات من تفوقها وممارسة سياسية معادية لتوطيد سيطرة اسبارطة في اليونان، لزيادة عدد المدنيين المتمتعين بالحقوق المدنية، بإضافة شريحة ممن اقتطع أو استأجر أرضا. ولتحقيق هذا

المشروع، اعتمد بوزانياس على الفرس؛ وبشهادة ثوسيديد: "وعد الأجراء والأرقاء بالحرية والبورجوازية إن تمردوا معه وآزروا كل خططه (١، ١٣٢،٤) وضع الأفوريين حداً لهذا النشاط. فاتهم بوزنياس بالتعامل مع الفرس، وأعدم. وبعيد هذا، في العام ٤٦٤، تمرد الأرقاء (الحرب المسينية الثالثة المشار إليها أعلاه).

وفي أراغوس، جوار لاكونيا، أفضى التطوير الديموقراطي بعد الحروب الميدية إلى ظفر الديموقراطيين وتوطيد أركان السلطة الديموقراطية. وامتد هذا إلى المدن اليونانية في المستعمرات. رأت سيراكوز سقوط الحكام المستبدين (حوالي العام ٤٦٠ق.م). واستقرار النظام الديموقراطي الذي عاش أكثر من ٥٠ عاما. وفي هراكلي البونت والمدن اليونانية الأخرى على ساحل البحر الأسود، استبدلت الحكومة الأرستقراطية بحكومة ديموقراطية.

النضال السياسي في آثينا في العام ٤٧٠-٤٦٠

يقدم تاريخ أثينا في القرن الخامس ق.م. وقد انبسطت الديموقراطية وبلغت شأوا عاليا، أسطع مثل للصراع المظفر لديموقراطية العبودية. ففي أثينا، أشرف ووجه الصراع بين ظهراني الطبقة المستعبدة حزبان: الحزب الزراعي المحافظ الذي يشكل الفلاحون وصغار الملاك غالبيته. لأحد يجهل الصراع الشرس الذي دار قبل معركة سالامين بين الحزبين بشأن طريقة تنظيم الدفاع ضد الفرس الذين كانوا يعدون حربا جديدة في البحر والبر. كان زعيم الحزب الزراعي، أرستيد، متأثرا بالإبعاد. وكانت الأوساط البحرية، بإمرة خانثيوس ثم ثمستوكل، قد أنجزت برنامجها وبررته من وجهة النظر البحرية. لكن أتيكيا قد دمرت. وفي الريف، أغضبت سياسة الديموقراطية الناس، الذين رغبوا في العودة إلى الأيام السابقة، إلى "عادات الآباء"، أي عهد سولون يوم كان القمح مقياس الغنى.

كان يوجه الحزب الديموقراطي أو البحري التجار، المصدرون، تجار السلاح، ملاك الورشات البحرية، وشيوخ المشاريع. كان أغلب أعضائه من الحرفيين، أبناء المدينة الفقراء، من الكادحين الذين يهتمون بأعمال البحر والذين يسكن أغلبهم في البيريا: ربابنة، مجذفون، حمالون، معمرو سفن، موظفو مرافئ وبقية "متسولي البحرية"، كما يسميهم خصومهم السياسيون.

رفع الحزب الديموقراطي شعارين: *isononia* و*ise`goria*، يعني الأول المساواة

بالحقوق المدنية (حقوق متساوية بإدارة الأرزاق، الميراث، وغيرها) والثاني، المساواة بالحقوق السياسية (حق متساوي في التصويت الإيجابي والسلبي). وكانت سياسة الديموقراطيين الخارجية عدوانية؛ فتطور التجارة والصناعة يتطلب توسيع الدولة اليونانية، إلحاق أراض ومرافئ الغير، بناء مستعمرات ومستوطنات. وسمت هذه الحقبة بالعدوان بين اسبارطة وأثينا والإعداد للصراع من أجل الهيمنة في اليونان. فيحاول الديموقراطيون توحيد الدول في وجه الأحلاف الأرستقراطية التي تواكبت حول أسبارطة.

إن احتدام النضال بين الحزب الزراعي والبحري يسم النصف الأول مما يسمى "الخمسينية" (مرحلة مابين اجتياح خرخس في العام ٤٨٠ وبداية حرب البلوبونيز في العام ٤٣١ق.م.

فقد لعب ثمستوكل، قائد الحزب الديموقراطي دورا بارزا في نهاية أعوام ٤٩٠ حتى نهاية أعوام٤٧٠. إذ كانت شخصيته بالذات نموذجية لرجال الأعمال الجدد الذين يوجههم. لم يكن من علية القوم ولم يحصل على تربية طيبة، وبلغ المجد بقوة مواهبه فقط. يشير ثوسيديد أنه كان قادرا على الخروج من كل المآزق وعنده لكل معضلة حل. "دلل ثمستوكل بطريقة مدهشة على دور الطبيعة الكبير... وبفضل بصيرة متقدة، ودون سابق إنذار، كان يتخذ قرارا حكيما، يكتب ثوسيديد (١٣٨،١).

كان سيمون، قائد الحزب الزراعي والذي خرطه في حقل السياسة أرستيد، من النبلاء الأثينيين: كان ابن ملتياد، قاهر ماراتون، ومن جهة أمه، حفيد أولوروس، ملك ثراسيا. أرستقراطي غني، عدو الديموقراطية والحوار يحتال على الشعب ليس بأعماله فحسب، بل بدروبه الملتوية. "فخلق من بيته محجة مشتركة لكل الناس..." (بلوتارك، سيمون، ١٢)، كان يقيم العديد من الولائم. ولقد هدم جدران حدائقه ليخول كل الناس أن يذوقوا ثماره. كان رجل سياسة محنكا وقائدا دربا.

وفي العام ٤٧٠، تفوق الحزب الزراعي المحافظ. وقائد الديموقراطيين، ثمستوكل، أدين ظلما بالإبعاد(٤٧١)، وما أن نفي، حتى استضرى خصومه وراءه، واتهموه بالـ"ميدية". فوضعته محكمة أثينا خارج القانون. استسلم ثمستوكل للفرس، ومات عندهم بعد عدة أعوام.

رسميا، لم يحدث أي تغيير في النظام الأثيني، لكن دور مجمع الحكماء اتسع جدا.

فكان لهذه المؤسسة البالية الحق في الاعتراض على القرارت التي يتخذها مجلس الشعب، إن بدا لها أن هذا المجلس يناقض القوانين. وكان مجلس الحكماء يسهر أيضاً على حقوق المواطنين ويدين الجرائم. وفي العام ٤٦٠، عاد الدور الرئيس في أثينا إلى سيمون. ولقد قلنا سابقاً أن سيمون قاد اليونان في معركة أورمدون (٤٦٨). وحقق النصر، وعلقت العمليات الحربية لمدة سبع سنين (حتى ٤٦١).

وفي نهاية الستينات، استعاد الحزب الديموقراطي نشاطه حتى أن أنصار سيمون اضطروا لإخلاء المكان لخصومهم. كان السبب المباشر لسقوط سيمون هو اقتراحه دعم السبارطيين ضد الأرقاء المتمردين في العام ٤٦٤. ورغم معارضة مجلس الشعب، أرسل الفصيل التأديبي إلى مسينا. تلقى السبارطيون النبأ بغضب وصرفوا الجنود الأثينيين، خوفاً من أن يدعموا الأرقاء عوضاً من أن يساعدوهم هم. أثار هذا الحدث غضب أثينا. فأقيل الستراتيجي سيمون وحكم عليه بالنفي.

إصلاحات إيفيالت

في نهاية الستينات من القرن الخامس، استعاد الديموقراطيون الراديكاليون السلطة. تولى الدور الأول إيفيالت، قائد "فقراء البحرية". لم يقوم عمل هذا الرجل بشكل عام كما يجب. فلم يكتب أحد من مواطنيه حياة هذا الديموقراطي "المتطرف"، صاحب المناقب الفذة، ولانعرف عنه سوى القليل. هو ابن سوفوندس، سليل أسرة أرستقراطية أفل نجمها. كان "أيضا أنزه من أن يكرس للدولة" (أرسطو، دستور أثينا، ٢٥، ١). قريب من شرائح المجتمع الأفقر، كان إيفيالت صديق المساكين الذين رأوه محاميا لهم ("*Prostate de demos*"). في نظره، الشعب هو السيد الفعلي للدولة. كان أعداء الديموقراطية يكرهونه، وانتقدوه "لأنه أعطى الناس كل الحرية، وأترع لهم الكأس فسكروا" أفلاطون. حارب إيفيالت بكل قوته مختلسي ومبذري أموال الناس. وفي العام ٤٦٢ أقام عدة دعاوى على موظفين مختلسين ومحتالين. ولم يوفر حتى أعضاء مجلس الحكماء، مهيئا الرأي العام وإعادة تشكيل هذه المؤسسة. وقد انتزع مجلس الشعب، برئاسة إيفيالت، من مجلس الحكماء، حق إلغاء القوانين التي شرعها الأكليروس. فضلا عن هذا فقد مجلس الحكماء حق معاقبة الإخلال بالواجب؛ وأعطيت هذه الشؤون مجلس الخمسمائة ومحكمة الجنايات. وأخضعت للمراقبة الشعبية أعمال الموظفين من مختلف الأصناف. ولم يبق لمجلس الحكماء سوى مقاضاة القتلة والجرائم الدينية.

ومن المرجح أن محكمة الجنايات كلفت في هذه الحقبة بحماية الدستور. وكان الجميع يتمنع بعد قسم اليمين، أن يعلن أن الاقتراح الذي درسه مجلس الشعب يكبح القـــانون. ثـــم تنتقل القضية إلى محكمة الجنايات. وإن رأت المحكمة أن الحق إلى جانب المعارض، يغرم الذين استنوا مشروع القانون، وفي حالات استثنائية يدانون بالموت. وإن كان الاعـــتراض غير وجيه أو غير سديد، تحمل الطرف الآخر الغرامة. اسم هذه المؤسسة: مؤسسة شـكوى ضد خرق القانون أو اتهام ضد من خرقه.

تمنع هذه المؤسسة أعداء الديموقراطية من الاستفتاء على الدســـتور. وبـــهذا تؤمـــن الحماية القضائية للاستقرار.

ولقد نجم عن إصلاحات إيفيالت انطلاق الحركة الديموقراطية. كثيرا مايدعى مجلـــس الشعب للاجتماع، ويضاعف مجلس الخمسمائة نشاطه. كانت إصلاحات إيفيالت الاجتماعية كثيرة، لكن الزمن لم يمهله لإنجازها. كان النبلاء يكرهونه. وفي العام ٤٦١ ذبح في الليـــل بمكيدة جبانة. ولم يعرف المجرمون. إنه على الأرجح ضحية أعدائه السياسين أو أذنابهم.

الفصل الواحد والثلاثون

حكومة بيركلس

إمبراطورية أثينا البحرية (٤٥٠-٤٤٠)

بعد اغتيال إيفيالت، بقي الحزب الديموقراطي في الحكم بـإدارة بـيركلس، تلميذه وزميله. في الأعوام الخمس عشر الأولى، مارس الحزب سياسة إمبريالية أساساً. كـانت هذه المدة حقبة حروب مستمرة تشنها جمهورية أثينا على الدول اليونانية (بخاصـة علـى الجامعة البلوبونيزية) وعلى الفرس، لتصير امبراطورية بحرية وترسي الهيمنة اليونانيـة. فبعد موت إيفيالت لم يعد الشعب الفقير هو سند الديموقراطية الأثينية، بل ممثلو الشـرائح الوسطى المرتاحة.

لقد أثار النزاع التجاري بين أثينا وكرنثيا حرب البلوبونيز. استقر الأثينيـون علـى شواطيء خليج كورنثيا الذي يفتح لهذه المدينة دروب الغرب البحرية. وفضلاً عـن هـذا وضعوا حامية في ميغار التي انفصلت، في العام ٤٦٠، عن بلوبونيز، لتنضم إلى أثينا. كما هددت الحامية الأثينية كورنثيا من الشمال.

شنت كورنثيا اعتداءات دامت بشكل متقطع من ٤٥٩-٤٤٥. فشل الكورنثيـون بعـد دخول إسبارطة المعركة. تصدى السبارطيون للأثينيين في تنفرا (بيوتيا) في العـام ٤٥٧، لكن الأخيرين بقيادة ميرونيد، انتصروا بدورهم على البيوتيين واحتلوا كل بيوتيـا تقريبـاً ولوكريد وفوسيد. تخطى تولمدس الذي يقود الأسطول الاثيني بلوبونـيز، هـاجم شـطآنها وحاصر سيكيون. وأرسل الأثينيون حملة بحرية أخرى بقيادة بيركلس، إلى خليج كورنثيـا. وأخيراً وقعت كل اليونان الوسطى تقريباً تحت الرقابة الأثينيـة. وتحـالفت ثسـاليا مـع المنتصرين.

وفي الوقت ذاته (٤٦١-٤٥٤)، شنت أثينا الحرب على مصر التي كانت قد انتفضـت ضد النير الفارسي. وتلبية لطلب قائد المتمردين، الليبي أنهاروس، أرسلوا لهم ٢٠٠ مركب

ثلاثي المجاذيف. ولج الأسطول الدلتا، وبمساعدة المصريين المتمردين، طوقت ممفيس. على ذلك، آل المشروع إلى نكبة: غرقت كل المراكب و٣٥ ألف رجل، أكثرهم أثينيون. وبعد هذه الهزيمة، أجبر الأثينيون على وقف القتال لمدة خمس سنوات بمعاهدة مع الجامعة البلوبنيزية.

تجددت المعارك في العام ٤٤٨، لكن ليس لصالح أثينا. فالفصيل الأثيني الذي أرسل لمقاتلة البيوتيين بقيادة تولمدس هزم شر هزيمة وأبيد تقريباً في كورونيا (٤٤٧)؛ سقط تولمدس في ساح القتال . وتحررت بيوتيا، ثم لوكريد وفوسيد. وتمردت أوبيا، التي كانت جزءاً من التحالف الأثيني. واقتحم السبارطيون أيتكيا ودمروها.

ومرة أخرى اضطر الأثينيون توقيع السلم مع الجامعة البلوبونيزية، ولمدة ثلاثين عاماً هذه المرة (٤٤٥). بموجب هذه الـ"معاهدة لثلاثين عاماً" حافظت كل الأطراف على ممتلكاتها قبل-الحرب والتزمت بعدم الانضمام إلى الجامعات الأخرى وعدم دعم أي عضو في إحدى هذه الجامعات، إن تمرد ضد الدولة القائدة. وتخلت أثينا عن فتوحاتها في بلوبونيز وميغار.

كانت نتيجة الحرب بشأن التفوق في اليونان فاجعة بالنسبة لأثينا. بتأثير النكبة المصرية. ولامبالاة اليونان بقواتهم، أفضى إلى هزيمتهم المتتابعة أمام عدة خصوم. على ذلك، فقد نجحوا بمسعى مندوبهم كالياس بعقد مع الفرس معاهدة سلم لصالحهم، في العام ٤٤٩، حرم الفرس من الإبحار في بحر إيجة.

وفي أثناء حروب ٤٥٩-٤٤٥، لم تعد العلاقات بين أثينا وحلفائها، كما كانت في حلف ديلوس. فلم تعد حلف دول متساوية، بل صارت حلفاً بين أتباع ودولة مهيمنة. ومحاولات بعض الحلفاء (مثل، ناخوس وثاسوس) الانفصال عن الجامعة في العام ٤٦٠، قمعت بالقوة. فدولة أثينا تمتلك كل المناهل التي أسهم بها الحلفاء. وفي العام ٤٥٤، نقلت الخزينة الاتحادية من ديلوس إلى أثينا. وقد طلبت حكومة أثينا من حلفائها دعم القوات البرية والبحرية لإرسالها ليس فقط لمقاتلة الفرس، بل أيضاً ضد الدول اليونانية الأخرى. فضلاً عن تدخل الأثينيين في شؤون الحلفاء الداخلية: قسموا الأرض التابعة للجامعة إلى خمس قرعات يحكمها أساقفة. ووظف مواطنون أثينيون في بلدان حليفة. وكانت مؤسساتهم مستعمرات زراعية وحربية. كان كل معمر ملزماً بالخدمة العسكرية؛ وكانت كل مستعمرة

بالمحصلة حامية تكمن مهمتها الأساسية في الحفاظ على طاعة الحلفاء. إذن، فقد حلف ديلوس طبيعته كجامعة طوعية بين بلدان مستقلة ومتساوية. فتحول إلى إمبراطورية لأثينا، وصار أعضاؤه ملحقات بها.

إننا نجهل تفصيلات سبعة عشر عاما من الصراع السياسي بين التجمعات الزراعية والعسكرية (الديموقراطية)، الصراع الذي بدأ في العام ٤٦٢، أي منذ وصول الديموقراطيين. يمكننا فقط أن نؤكد أنه كان ضاريا وتحول إلى مصلحة الديموقراطيين. تسنم سيمون رئاسة المعارضة. عاد من المنفى حوالي ٤٤٥، ومات بعيد هذا. وتلاه ثوسيديد، ابن مليدياس (ليس المقصود المؤرخ ثوسيديد). لكنه نفي هو الآخر في العام ٤٤٤ أو ٤٤٣، ومنذئذ سيطر الحزب الديموقراطي تماما حتى العام ٤٣٠. ومثل بيركلس، القاضي المتجدد الانتخاب، الذي تسنم السلطة خلال ١٤ عاما، حقبة معروفة باسم "حكومة بيركلس".

حكومة بيركلس

بيركلس، ابن خانسيبوس، وسليل أسرة أرستقراطية غنية، من جهة أمه أحد أحفاد كليستين. بعض أصدقائه شعراء وفنانون موهوبون: الفيلسوف أنكسفور الذي لامس المادية عن قرب، سقراط، الشاعر التراجيدي سوفوكل وهيرودوت، "أب التاريخ"، الذي عاش في أثينا في هذه الحقبة والنحات فيلياس وكثير غيرهم. كان بيركلس يتمتع بنفوذ عميق في مجلس الشعب. وكان يعتبر خطيبا مفوها. وحيد عصره في فن الحديث أو القص، وكاتبا ذائع الصيت. في ساح القتال، كان يقود الجيش بحنكة وبطولة. وهو القائد الكميت، مع أنه أصغر من سيمون.

في حياته الخاصة، كان يدل أنه تقدمي، دون فكرة مسبقة. تزوج من أسبتزيا، إمرأة نبيهة من ميليت، يقال إنها كانت عاهرة. كانت جميلة، ذكية، ومثقفة. في قلب حمى الحياة السياسية، عرفت كيف تحيط نفسها بأوعى رجال عصرها. وكان أشهر أصدقاء بيركلس يرغبون في خوض نقاشات معها. كانت امرأة جديرة، صديقة طيبة ورفيقة أريبة لرجل الدولة هذا.

لم يكن بيركلس يمثل أقصى يسار الحزب البحري (الديموقراطي)، بل وسطه. كان يدافع عن مصالح الشرائح الوسطى في المجتمع: التجار المرتاحين، أصحاب الدكاكين،

الصناعيين، الملاك العقاريين الطليعيين الذين يمارسون في أرضهم زراعة كثيفة، فلاحين أحيوا الأرض التي دمرها الفرس لتعود تواكب متطلبات السوق، والذين اهتموا بالتجارة الخارجية.

هكذا يتحدث ثوسيديد عن بيركلس كرجل سياسي فيقول: "بفضل رقيه الشخصي، وعمق آرائه، ونزاهته غير المحدودة، كان بيركلس يمارس في أثينا نفوذاً لايجارى. بقي حراً وهو يقود الناس... وبكلمة، استمرت الديموقراطية باسمه؛ إنما بالفعل كانت حكومة المواطن الأول" (ثوسيديد،٢،٦٥).

ولحماية وحدة طبقة العبيد، عمل بيركلس وحكومته لإرضاء جزئياً، وعلى نفقة الدولة، المطالب المالية والسياسية لفئات المجتمع الدنيا. وتنسب لبيركلس مؤسسة الأجر لممارسة الوظائف الانتخابية، تدفع باليومية. والقضاة، مثلاً، يتقاضون ٢أوبول١، الحكام ٤، وأعضاء مجلس الخمسمائة، ٥أوبول. ليس هذا كثيراً؛ إذ كان الحرفيون يتقاضون أحياناً أكثر من هذا؛ هكذا، يتقاضى "المقلعجي" دراخما واحدة، أي ٦ أوبول في اليوم. لكن بالنسبة للأسعار القائمة، لاتبدو هذه الأجور قليلة.

ففي العام ٤٥٧، اختير أحد العوام لأول مرة حاكماً، ثم فتح الباب لتولي كل الوظائف. وبمعنى آخر، مؤسسة الأجور هي التي أعطت الطبقات غير المالكة إمكانية مزاولة حق الانتخاب.

وعينت أجور للجنود، للملاحين وللضباط. المجذف، مثلاً، يقبض دراخما في اليوم، الضابط يقبض الضعف أو ثلاثة أضعاف. وكانوا يمارسون نهج التوزيع المباشر على مداه. ويقبض المواطنون نقوداً (من ٢أوبول إلى دراخما واحدة) ليشتروا مقاعد في المسرح، ويقدرون أن ينفقوا هذا المبلغ كيف شاؤوا. وكان يحدث أن يوزع الخبز مجاناً ("هبات" مصر والبوسفور). وفي أيام بيركلس، وزعت أراضٍ شاسعة على من يحتاجها، خارج أتيكيا مبدئياً في الدول التي تشكل جزءاًمن الامبراطورية البحرية. كان لهذه المستعمرات التي قلصت عدد الناس الذين لايملكون أرضاً أهمية استراتيجية وتجارية أيضاً. معروف أن أكثر من ١٠ آلاف أسرة حازوا نصيبهم.

---

١ – وحدة وزن ونقد في اليونان القديمة.

كما شرع بركلس بأعمال ضخمة عامة بهدف تشغيل العاطلين عن العمل والمحتاجين، وغير هذا من الأهداف. كانت الأعمال عالية الثمن جدا: كـــل ***partheon*** يســـاوي ٧آلاف تالانت. يذهب القسم الأكبر من المبلغ للفنانين، البنائين، الصناعيين، الحجارين واليدالعاملـة البسيطة. لقد ساعدت كل هذه المبادرات الفلاحين المرهقين (سكان المســـتعمرات، مثـــلا)، وعمال الأسطول وشرائح أخرى.

دستور أثينا

لقد ارتدى دستور الديموقراطية العبودية في أثينا في هذه الحقبة شكله الأتم. الســـلطة العليا بيد مجلس الشعب المسؤول عن عدد كبير من المسائل. كما يدرس ويحل كل القضايـا المرتبطة بحكومة الدولة.

يختار مجلس الشعب برفع اليد عشرة قضاة مكلفين بمهام خاصة (قيادة الجند، الدفـــاع عن حدود أتيكيا، تعمير السفن، إدارة بيري ***piree***،إلخ). ويتم توزيع هذه المهام برفع اليـــد أيضا. يراقب مجلس الشعب نشاط القضاة. إن اتصف ســـلوك أحدهـــم بالصفـــة الظنيـــة، "تقاضيه المحكمة التي... تثبت العقوبة أو تعين مبلغ الغرامة."أرسطو، دستور أثينا،٦٣،٣).

وينتخب قادة الجيش، والأشخاص المهتمين بتربية الشباب (١٨-٢٠) أبناء المواطنيـن المتمتعين بالحقوق المدنية، وتدريبهم عسكريا، وبرفع اليد أيضا. ويسمى مجلـــس الشـــعب موظفي المال، ومفتش الري، إلخ. يفضل الأشخاص الأكفا، ويستبعد الأغنياء القادرين على تجنيب الدولة الخسائر الناجمة عن خطئهم. ويراقب مجلس الشعب بســـهولة كـــل ممثلـــي السلطة، لأن جهازه ضخم وله الحق في مقاضاة كل من اعتبر جانيا.

ويضطلع مجلس الشعب أيضا بالمهام التشريعية. لكل عضو الحق في إعداد مشـــروع قانون. ويشترك المجلس كله بمناقشة هذه المشروعات التي، بعد قبولها لدى المجلس، تحال إلى مجلس الخمسمائة. وبعد هذا يدرس مجلس الشعب مرة ثانية المشروع الذي لم يصـــادق عليه مجلس الخمسمائة، مع مراعاة رأي هذا الأخير. وبعد انتهاء النقاش، يطرح القـــانون على التصويت للمرة الثانية ويصير مبرما، ولايصير ساري المفعول إلا بعد تصديقه مـــن لجنة خاصة في محكمة الجنايات. أفضت هذه السنة وسنة الشكوى من خـــرق القـــانون أو اتهام من خرقه، إلى توطيد النظام الديموقراطي.

وليس مجلس الخمسمائة وهو أحد أجهزة الدولة أقل أهمية. ينتخب أعضاؤه بالقرعـــة.

تقدم كل وحدة إدارية مرشحيها نسبة لعدد السكان، بحيث يكون لكل قبيلة ٥٠ ممثلا. ونادرا مايجتمع المجلس بنصابه الكامل. تقسم الدولة كان إلى ١٠ ولايات، حسب عـــدد القبـــائل. وخلال السنة، يجتمع الولاة كل بدورها ويبقون مجتمعين أكثر من شـــهر (٣٦-٣٩يومـــا). جعلت هذه العادة من المجلس مؤسسة تعمل باستمرار. يمتلك المحافظون مسكنا خاصا بهم، ويأكلون على حساب الدولة. وفي كل يوم ينتخبون رئيسا جديدا. وفي القرن الخامس كـــان يرأس هذا الرئيس مجلس الخمسمائة ومجلس الشعب. ويستلم مفـــاتيح بيـــت المـــال ودار المحفوظات (الأرشيف)، وكذلك خاتم الدولة.

يجسد مجلس الخمسمائة الدولة في العلاقات الدبلوماسية؛ وهو الذي يستقبل الســـفراء ويقدمهم لمجلس الشعب. ويتمتع بحق مفتوح في توقيف المجرمين الكبار وتسليم شـــؤونهم للمحكمة أو لمجلس الشعب، إن كانت عقوبة جريمتهم تتجاوز صلاحية محكمة الجنايـــات. يضبط المجلس آراء الأعضاء. فمن حقه تحقيق الحقوق المدنية وتدقيقها وكذلـــك منـــاقب الأعطاء والولاة. يراقب الولاة تنفيذ قرارات مجلس الشعب ويسوسون اقتصـــاد الدولـــة، يفتشون الأعمال العامة، يسهرون على تربية الشـــباب، يجيبـــون عـــن حالـــة الأســـطول ومستلزماته. وفي المدن، يمارس الولاة مهام الأمن ويدعون أعضاء المجلسين للاجتمـــاع، ويقررون جدول أعمال جلساتهم. إن مجلس الخمسمائة ليس فقط الهيئة التنفيذيـــة لمجلـــس الشعب، بل أيضا مكتبه.

بعد تأسيس منظمة تضبط عدم خرق القانون وتتهم مـــن خرقـــه وإصـــلاح مجلـــس الشيوخ، أخذت محكمة الجنايات أهمية واسعة في أثينا. وفي أوج الديموقراطية، انتخـــب الهلياست٢ بالقرعة. كانوا ستة آلاف(ستمائة لكل قبيلة)، منهم ألف عضو احتياط، ويـــوزع الخمسة آلاف، بالقرعة أيضا، في اللجان القضائية. في أثنـــاء الجلســـات، يتكلـــم المتـــهِم والمتهَم، وبعدئذ يقترع الهلياست اقتراعا سريا، بواسطة حجـــارة صغـــيرة: حجـــر ســـليم للتبرئة، وحجر منقوب للاتهام.

في هذه الحقبة الزمنية، كانت المؤسسات القديمة، مثل كلية الولاة ومجلس الشيوخ، ما تزال قائمة، لكنها فقدت أفضليتها. كانت مهد الولاة الرئيسة تدقيـــق الشـــؤون القضائيـــة ورفعها إلى المحاكم. ويهتمون أيضا بالشؤون الدينيـــة (تنظيـــم الاحتفـــالات، وواجبـــات

---

٢ – من تجاوز عقده الثالث وأراد أن يترشح.

الاكليروس، إلخ). ومنذ إصلاح إيفيالت، صار مجلس الشيوخ ينهض، كما قلنا، بمهام المحكمة التي تحاكم القتلة والفوضويين ومنتهكي الحرمات.

كان هذا هو نظام أثينا في القرن الخامس ق.م. كانت أثينا "...دولة ذات شكل كلي الإتقان: الجمهورية الديموقراطية..[3]" كانت هذه الديموقراطية العبودية خطوة إلى الأمام بالنسبة للدول الأرستقراطية المتخلفة في اليونان واستبداديات الشرق. فقد عكس الدستور الأثيني نظاما اجتماعيا جديدا كان، بالنسبة لعهده، تقدميا.

لكن لايجوز أن نبالغ بأهمية الديموقراطية القديمة، التي كانت ديموقراطية رقيق. ففي هذا المجتمع، كان السكان الأحرار يشكلون شريحة صغيرة من الرعايا العاملة، فالمنتجون الأهم والأوسع هم العبيد. ولم يتمتع هؤلا بأي حق سياسي، وكانت تضطهدهم مؤسسات الدولة التي كانت تحارب كل طيف مقاومة يبدونها. وفي أتيكيا، حيث يناهز العبيد عدد الأحرار، كانوا محرومين أيضا من أي حق إنساني. فالنساء اللواتي يشكلن قرابة نصف المجتمع الحر، وكذلك الأجانب الأجراء، لم يكونوا أحسن حالا من الزاوية السياسية. والمحصلة، كان سدس أو سبع سكان أتيكيا فقط أصحاب حقوق.

كان دستور أثينا يغدق على المدينة على حساب حرمان الريف. كان مجلس الشعب يقيم كل صباح على بنيكس[4] في أثينا. وكان التجار، الحانوتيون، المأجورين، المياومون وباقي المدينيين يستطيعون حضور هذه جلسات. أما الفلاحون، بشكل عام ماكانوا ممثلين أولا يرسلون إلى الجمعية سوى عدد صغير من المندوبين، لأن الحضور يخسرهم يومين أو ثلاثة أيام، تكون أحيانا في أحرج أيام العمل الزراعي. لذا ماكان يتجاوز عدد المشتركين ألفين أو ثلاثة آلاف، من أصل ٣٥ ألف مديني حر في أتيكيا. ولابد من ذكر نقيصة أخرى في الديموقراطية اليونانية: حسب القانون، كان جميع رعايا الحاضرة مخولين استلام أي وظيفة في الدولة، ولما كانت هذه الوظائف غير مأجورة، فلم يدخلها سوى الأغنياء. ورغم أن بيركلس عين أجورا للمحلفين لم يكن أعضاء مجلس الخمسمائة والولاة والستراتيجيون مأجورين والحصيلة توظيف الأغنياء.

---

٣ -ف.أنجلز. أصل الأسرة، الملكية الخاصة والدولة. ص١١.

٤ - هضبة في غرب أثينا، حيث تجتمع الجمعية الوطنية.

السياسة التوسعية لديموقراطية أثينا العبودية

كانت ديموقراطية اليونان، البعيدة عن اتباع أهداف تحررية، تتوق إلى التوسع، إلى استغلال عبيد جدد وحلفاء جدد.

وكانت أثينا تأخذ مداخيلها من مرتبات الجمرك، المرفأ، السوق، العدالة، التجارة، النخاسة، الرسوم المفروضة على الأجانب، والأملاك العامة. وكانت بعض حاجات الدولة تؤمن من الطقوس الدينية، التي كان يؤديها الأغنياء. وكانت على أنواع: *la trierchie*، مثلاً، أي التزام تجهيز مركب حربي؛ *choregie*، مبلغ ينفق لتطويع وإعالة جوقة تنشد في التمثيليات الدرامية، وسواها. وفي حال الضرورة، يفرض مجلس الشعب ضريبة خاصة، يؤديها سكان المدينة الذين يتجاوز دخلهم ٢٠٠٠ دراخما. على ذلك، لم يكن الدخل القومي ٤٠٠ تالنت يكفي لتغطية نفقات الجمهورية المتزايدة. ولتعديل الميزان، الميزانية الفدرالية (قرابة ٦٠٠ تالنت بالعام) تنصهر نهائياً مع خزينة أثينا التي تمتلك موارد مشتركة وتنفقها على رعاياها.

في أيام بيركلس، تقلصت عدوانية السياسة الخارجية لأثينا بعض الشيء، إنما بقيت سياسة امبريالية تستدعي حرباً دامية جديدة. كان "العدوان السلمي" لبيركلس يتميز بالأهداف التالية: ١) تعزيز القدرة البحرية لأثينا بتوسيعها بالطريق الدبلوماسي (اتفاقات، وغيرها)؛ تأكيد نفوذها في شرق وغرب عالم اليونان (بونت-أوكسن،إيطاليا، سيسيليا) بمعاهدات تحالفية. لم تكن هذه السياسة تدعم التجارة والطاقة الحربية لأثينا فقط بل أيضاً لاستمرار تفوقها في العام الهلليني.

وهكذا، بعد معاهدة السلم مع الفرس، احتل مستعمرون شرسونيز من ثراس، ليموس وأمبروس، الأمر الذي فتح بونت-أوكسن وسوق ستريمون في ثراس، الإقليم الغني جداً بثرواته الطبيعية، وكذلك أراضي وحدات إدارية فدرالية، خنقت محاولات تمردها على يد حملات تأديبية. قاد بيركليس إحداها شخصياً. وقد رفض حكام ساموس وساطة أثينا في نزاعها مع ميليت. فأتاها بيركلس على رأس ٤٠ مركباً ثلاثي المجاذيف، قلب السلطة وزرع في ساموس نظاماً ديموقراطياً. وعندما عاد المعمرون الذين تمكنوا من الهرب إلى ساموس بمساعدة الفرس لاستعادة النظام القديم، هاجم بيركلس مجدداً هذه الجزيرة وبعد تسعة أشهر من الحصار،أكره المتمردون على الاستسلام. وأعيدت الديموقراطية. فاضطر الساميان لتحطيم استحكاماتهم، وتسليم أسطولهم ودفع الضريبة.

وفي العام ٤٣٧، توجه جحفل ضخم من الأثينيين بقيادة بيركلس نحو بونت-أوكسن. هدفت هذه الحملة الديبلوماسية فرض هيبة القوة الأثينية وضم المستعمرات اليونانية في حوض البحر الأسود إلى فدرالية أثينا البحرية، لم تكن النتائج بسيطة: فقد ألحقت سينوب بالاتحاد الفدرالي، وكذلك نيمفي (مدينة صغيرة على البوسفور السومري)، وعدة مستعمرات على الشاطئ الغربي لبونت-أوكسن. وعلى أرض بعض التحالفات (بخاصة سينوب) أقيمت مستوطنات. وهكذا امتلكت الإمبراطورية الأثينية نقاط ارتكاز على شط البحر الأسود.

ولترسيخ نفوذها في إيطاليا التي تتاجر معها منذ زمن بعيد، أقامت أثينا، بمبادرة من بيركلس، مستعمرة ثوريوا، ليس بعيدا عن سيباريس، التي خربها الكروتونيات. وانتسبت هذه المستعمرة ليس فقط لأثينا بل لمجمل العالم الهلليني. وأرسل إليها معمرون من مختلف مناطق اليونان، كثير منهم رجال مشهورون: الفيلسوف أمبدوكل، من أغرمنت في سيسيليا،الفيلسوف بروتاغورس من أبدير في ثراس، والمؤرخ هيرودوت من هلكرناس. اشترك بروتاغروس بإعداد شريعة للحاضرة الجديدة. ووضع المعماري الشهير هبوداموس مخطّطا للمدينة بشوارع مستقيمة، تتقاطع بزاوية قائمة، بحيث يتوزع الضوء على كل المباني. كان مؤسسو المدينة يظنون أنهم بنوا مدينة-دولة نموذجية.

فيما بعد انفصلت ثوريوا عن أثينا وقبلت قضية خصومها. ردا على هذا، وقع بيركلس اتفاقات مع جزر زازينت وسفالينيا- مع مدن ساجيت وليونتنوا في سيسيليا، مع ريجيون ونابولي في إيطاليا، أخيرا مع جزيرة كورسير (٤٣٣). بهذه الطريقة، أمنت أثينا طريقا للتجارة مع الغرب.

لقد لاقت خطة بيركلس في توطيد الهيمنة الأثينية على كل اليونان تعبيرها في سياسة تضم كل الهللينيين. حاول عقد مؤتمر لكل اليونان توخى حل القضايا التالية: ١)خلق خزينة لهيلاد لترميم، حسب مخطط محدد، كل معابد اليونان التي دمرت في أثناء الحروب الميدية؛ ٢) قمع القرصنة ٣) حماية السلم بين دول اليونان.

لكن المؤتمر لم يعقد، بسبب معارضة إسبارطة. وبعيد هذا، اقترح بيركلس تعميم عبادة إيلوزيس ***Eleusis*** وان تنفق أولى ثمار موسم كل البلاد الهيللينية على الإلهات الأيلوزية ديميتر وكورا. وهكذا تلتزم كل حاضرات اليونان بأفضلية العبادات الأثينية. لكن

واحدة لم تقبل الاقتراح. ففشلت كل محاولات أثينا لتدعيم نفوذها السياسي عن طريق ترسيخ هيمنتها الدينية.

وفي "قرن بيركلس" بدت أثينا عاجزة عن فرض هيمنتها السياسية على اليونان، لكن نفوذها التجاري بلغ الأوج. إن سيدة البحر، أثينا، تصير المركز التجاري لليونان، وبيريا مرفأها الأغنى.

أثينا، المركز الثقافي للعالم الهلليني

في أواسط القرن الخامس، صارت أثينا أيضاً المركز الثقافي للعالم الهلليني. "كان عصر بيركلس قمة تفتح وازدهار اليونان... يقول ك.ماركس. كان يأتي أثينا من الدول الهللينية الأخرى العلماء، الشعراء والفنانون: الفيلسوف أنكساغور من كلازمين (أيونيا في آسيا الوسطى)، السفسطائي بروتاغورس، ابن إيدير في ثراس، السفسطائي غورجياس ابن ليونتنوا في سيسيليا. وديموكريتس ابن أبدير، الفيلسوف المادي الكبير ابن العصور القديمة، الذي زار كل الأرض اليونانية، وعاش أيضاً في أثينا. هيرودوت ابن هلكرناس، "أب التاريخ"، حيث حصل على حق المواطنية. والشاعر بندار والنحاس ميرون، مبدع "دسكوبول"، الاثنان الأخيران من بيوتيا، عاشا طويلاً في عاصمة أتيكيا؛ وفيدياس، سقراط، أخيل، سوفوكل، أوربيد، أرستوفان، المؤرخ العظيم توسيديد، ابن أولوروس، الممثل الكبير للثقافة الهللينية، كانوا قد ولدوا في أثينا.

لم يكن الفن الأثيني في أوج ازدهاره حكراً على صفوة الأغنياء مالكي العبيد. ففي "عصر بيركلس"، كان يحتفل في أثينا بأربعين عيداً في العام (كان أهمها الأعياد العظيمة لكل الأثينيين، والديونيز والينيين). فضلاً عن الأعياد الدينية، كان ثمة احتفالات فنية، ومباريات رياضية. ولقد حازت هذه الأخيرة من أيام برسترات الصفة الوطنية-القومية، بخلاف المنافسات العسكرية البحت التي كانت تجري في أيام شريحة من النبلاء. هكذا، كان الديونيز يقيمون تمثيليات مسرحية تدوم ثلاثة أيام. وكتب سرفوكل، أخيل، وأروبيد تراجيديات لهذه الأعياد، وكتب لها كراتنوس،ارستوفان وغيرهما من كتبة الملهاة. وتصدر لجنة من عشرة أعضاء أمراً بالأوسمة. كان الأغنياء يضطلعون بالإنفاق على هذه التمثيليات، وكان هذا نوعاً من الدخل. فيخضع مضمون الأعمال الفنية لنوع من المراقبة غير المباشرة من قبل الأغنياء.

إن أعمالاً إنشائية ضخمة صنعت من أثينا واحدة من أجمل مدن اليونان. لقد حظـي مرفأها، البيري، بتحصينات لاتطال، من حواجز وأرصفة جديـدة. وأهـراءات ومخـازن للقمح. بين "الجدران الطويلة" التي انتهت في العام ٤٥٥ والتي تصل مرفأ بـيري بأثينـا، أنشيء، بأمر بيركلس، جدار ثالث، يحصن المدينة والمرفأ تحصيناً أبدياً. وصار الأكروبول بعد الترميم مركزاً دينياً وثقافياً.

صارت مداخل المعابد، العمل التحصيني الذي يوصـل إلـى الأكروبـول، تصـير مجموعة أعمدة رائعة تتصف بالزهد والرزانة، ملتصقة بأروقة تزدان جدرانـها برسـوم ومنحوتات تستدعي الماضي الماجد لمدينة أثينا، تمثل إحداها معركة مراتون. وفي داخـل الأكروبول، بين الصروح، امتدت المروج، وبسـقت الأشـجار، والأنصـاب المرمريـة والبرونزية وإلى يسار المداخل، على قاعدة عالية، انتصب تمثال لأثينا (الحامية). الإلهـة تتقدم مسلحة، تأخذ بيدها رمحاً ترى نهايته اللامعة من بعيد وتقود البحـارة إلـى المرفـأ (البيري).

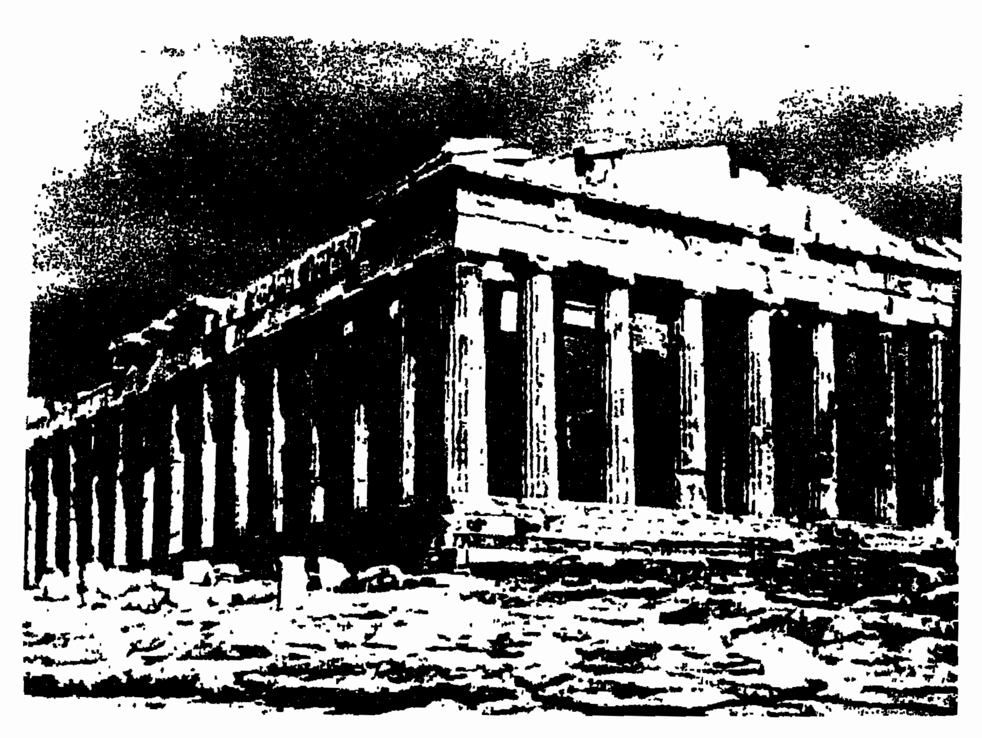
لكن الأبدة الأبرز في أثينا هي البارثيون ***Parthenon***، إبـداع المعمـاريين إكتنـوس وكلكراتس، بني حسب الأسلوب الدوري[٥] العظيم، المغتني بعناصر أيونيـة تسـاير أذواق المواطنين الجدد. وبكلمة كان المظهر الذي تفرضه الصروح الدورية يرمز إلـى الطاقـة المنيعة للجمهورية الأثينية.

وحسب التقليد الأيوني. وبعض الزخارف والمنحوتات البارزة التي أبدعها فيديـاس- النحات الشهير. وفي داخل المعبد، ارتفع نصب عاجي وذهبي، من عمل فيدياس. لتكويـن فكرة عن أبعاده (١٤م)، يكفي أن نعرف أنها تضع على راحة يدها اليمنى صورة للنصـر بقامة إنسان. يشكل هذا النصب جزءاً من ثروة الدولة (إنه يساوي قرابة ٢٠ مليون روبل- ذهب). وأقاموا مؤخراً في الأكروبول إرشتي ***Erchtee***، (ملك خرافي لأتيكيا) ومعبداً آخر، أصغر، هو معبد الظفر، الاثنان طرفتان من الأسلوب الإيوني. وعلـى السـفح الجنوبـي الشرقي للأكروبول، بني الأوديون ***Odion***(معبد الغناء)، للمباريات الصوتية. هـوذا رأي بلوتارك حول الآثار التي بنيت في أيام بيركلس: "ماكان ينتهي كل من هذه الأوابـد حتـى

---

٥ - أسلوب استخدم في بناء وزخرفة المعابد اليونانية، والمتصف بالزهد والرصانة.

يأخذ بروعته طبيعة القدم؛ على ذلك إنها الآن تجسد الطـــلاوة والألـــق الحديـــث، روعـــة الشباب، حيث تتألق هذه الزهرة الجديدة التي تحافظ على انفعالات الزمن!" لكن الكل غـــال جدا. البرانثيون، مثلا، يساوي كما قلنا، ٧آلاف تالانت، أي سبع مرات ميزانية الدولة. لقـــد توجب على الدولة الحليفة لآثينا أن تغطي كل هذه النفقات، الأمر الذي كان يسعر غضبها.



البارثنون (القرن الخامس قبل الميلاد)

الفصل الثاني والثلاثون

حرب البلوبونيز

أسباب النزاع. حرب أرشداموس٦

على ذلك، كان ازدهار أثينا عرضيا مؤقتا: إن حربا جديدة ضارية بين امبراطورية أثينا البحرية والجامعة البلوبونيزية (٤٣١-٤٠٤) وضعت حدا لذلك الازدهار. شملت هذه الحرب، المسماة البلوبونيزية، تقريبا كل اليونان وحتى بعض الدول الأخرى: مقدونيا، تراسيا وإيران. يشير ثوسيديد أن هذا النزاع أثار حركة واسعة بين أغلب الشعوب وأنه كان الأعمق من كل ما سبق. فتناحرات الحياة الاجتماعية والسياسية في الدول اليونانية تسارعت وتفاقمت بوضوح في أثناء الـ٢٠ سنة من هذا النزاع الأهلي وأفضت باليونان إلى أزمة حادة.

كان وراء حرب البلوبونيز أسباب سياسية واقتصادية عميقة جداً أعلنت أزمة في مختلف الدول لابل في مجمل المجتمع الإغريقي. يجب أن نذكر، أولاً، ألا مهرب ولابد من التصادم بين أثينا واسبارطة، كنتيجة لنزاعهما من أجل الهيمنة. لقد طمعت إسبارطة بنجاحات أثينا، بخاصة حينما حاولت الدولة الأثينية بسط نفوذها ليس فقط في البحر، بل أيضاً على اليونان القارية. كان التطاحن من أجل وسط اليونان قد أثار الحرب الأولى، انتهت بصلح الثلاثين سنة أو صلح بيركلس: يتخلى الأثنيون عن بسط نفوذهم على القارة وتعترف الجامعتان بحدودهما السابقة. طبعاً، ليس لهذه التسوية أن تحل نزاعاً حاداً بين دول تساند أنظمة لا لقاء بينها. فبينما كانت أثينا تعزز الديموقراطيين، كانت سبارطة تبني نظاماً أرستقراطياً رجعياً. كل منهما يهدم قاعدة الآخر ويسعّر التناحرات السياسية.

فالنزاع بين أثينا وسبارطة عقد الصراع التجاري الأثيني مع كورنثيا وميغار اللتين

---

٦ – أحد ملوك اسبارطة.

تشكلان جزءا من الجامعة البلوبونيزية. وصارت كورنثيا عدوة أثينا الأعند والأشرس، بعد شروع أثينا ببسط نفوذها على مدن الشاطئ الغربي لشبه جزيرة البلقان، الواقعة على الطريق بين إيطاليا وسيسليا. ولما كانت التجارة قد أخذت مدى أوسع منذ الحروب الميدية، تفاقم الخصام على الأسواق الغربية. وكان الباعث الأهم لحرب أثينا ضد الجامعة البلوبونيزية هو بالضبط التزاحم التجاري بين أثينا من جهة، وكورنثيا وميغار من جهة أخرى.

كانت الذريعة الأولى للحرب تدخل أثينا في صراع كورسير وكورنثيا من أجل "أبدا من" مدينة الأدراياتيك الغنية السوق. ساندت أثينا كورسير وأرسلت أسطولها ضد الكورنثيين، وكانت النتيجة الأساسية لهذا الدعم انضمام كورسير، الشهيرة بثرواتها وأسطولها، إلى الاتحاد البحري الأثيني. فاتسع الصدام بين أثينا وكورنثيا. وتبدت الذريعة الثانية أيضا في كورنثيا. كان سبب التصادم مدينة بوتيديا في شبه جزيرة شلسديك. فقد وجدت كورنثيا نفسها مضطرة للانضمام إلى الفدرالية البحرية، الأمر الذي صعد النزاع بين آثينا وكورنثيا. وقد جعل ارتباط بوتيديا المزدوج منها حلبة الصراع، المتمثل بالمطالب الأثينية التي، خوفا من ضياع بوتيديا، تتجلى في رفض الموظفين الكورنثيين وتدمير الاستحكامات التي تحمي المدينة من جهة البحر.

ردا على هذا، انفصل البوتيديون عن الاتحاد، بتشجيع من الكورنثيين، وحذا حذوهم حلفاء أثينا في شلسديك وتمردوا. فسير الأثينيون قوات ضخمة برية وبحرية. وكانت الذريعة الثالثة للحرب قرار الجمعية الوطنية الأثينية (٤٣٢)، منع الميغاريين، حلفاء كورنثيا، من عبور مرافيء الاتحاد، الأمر الذي ينزل بتجارة كورنثيا ضربة قاصمة.

طلب اللاسدمونيون، بسبب شكاوى حلفائهم، أن يرجع الأثينيون عن قرارهم ودعوا لاجتماع ممثلي دول الجامعة البلوبونيزية. وكان الكورنثيون أضرى أعداء أثينا في هذا النزاع. ادعوا أن "استبداديت"ها تهدد كل اليونان ودعوا إلى الحرب من أجل "إنقاذ الهلليبيين وتحريرهم من النير الأثيني. وقد وقف أكثر أعضاء الجامعة إلى جانب الحرب: استعادة استقلال الهلليبيين من استعباد الأثينيين، كان هذا شعار النزاع؛ استغلت إسبارطة المزاج القتالي لحلفائها، وأرسلت إنذارا نهائيا إلى أثينا باسم الجامعة البلوبونيزية.

وفي أثينا، حث بيركلس، الستراتيجي الأول ورئيس الدولة، مواطنيه على عدم ترك

الساحة البلوبونيزية وعلى إعلان الحرب. يرى البعض أنه كان مدفوعا بدوافع شخصية. ففي تلك الحقبة احتد التناقض ضد بيركلس. فطالب الديموقراطيون الأكثر راديكالية، بإشراف كليون ، مالك إحدى المدابغ، بزيادة أجور الموظفين وإعانات الدولة، وكذلك بسياسة غزو أكثر حزما وإصرار. وكان خصم بيركلس أيضا اليمين الذي يريد الصلح مع إسبارطة وتقليص التدابير المتخذة لصالح الشعب. فما أن تزعزعت مواقع بيركلس، حتى بدأ الهجوم لنزع الثقة منه. حتى أصدقاؤه، النقاش وقائد الأعمال فيدياس، والفيلسوف أنكسغور وحتى زوجته، أسبزي افتروا عليه وقاضوه. ربما كان بيركلس يعمل بدافع شخصي، من بين الدوافع، لكن الأساسي هو أن الديموقراطية الأثينية، التي تدافع عن مصالحها، اهتمت بإلغاء مزاحمة كورنثيا وميغار، وتطور التجارة والصناعة وبالمحصلة أرادت الحرب. لذا لم ينتظر مبعوث إسبارطة الجواب وغادر أتيكيا وهو يعلن: "سيكون هذا اليوم عند اليونان يوم حلول أفدح الآلام." (ثوسيديد، ٢، ١٢). فسعرت الأوساط المتنفذة الأثينية النزاع، عوضا عن البحث والسعي.

كانت خطة هجوم بيركلس تقوم على القتال في البحر، مستفيدا من تفوق أثينا البحري؛ أما أرض أتيكيا، لم يهتم بالدفاع عنها ورأى خطأ خوض معركة في البر مع البلوبونيزينيين رغم أن جيشهم كان أضخم من جيشه. "إن ما يجب أن يحزننا، ليس خسارة البيوت والأرض، بل الرجال"، يقول بيركلس في خطاب استشهد به ثوسيديد (١، ١٤٠-١٤٤). فقد أهمل تماما مصالح الشرائح الزراعية وبنى آمالا عراضا على الطاقة البحرية للاتحاد. معتمدا على ضعف العدو في البحر وافتقاره للنقد . لكنه لم يحدس المضاعفات الداخلية والخارجية التي ستعطي الأحداث دورا غير متوقع.

سميت المرحلة الأولى من الحرب (٤٣١-٤٢١) حرب أرشدموس، نسبة لاسم ملك إسبارطة. بدأ النزاع باعتداء الاتحاد البيوتي على بلاتيا، حليفة آثينا. احتل العدو المدينة لأن الأرستقراطية فتحت له أبوابها. ومنذ هذه المعركة، راح ينجم بكل وضوح تعقيد المواقع القتالية والصراع الاجتماعي الحاد، الذي وسم الحرب كلها. فقد بدأ تدخل البلوبونيزيين بقيادة الملك أرشدموس بغارات مدمرة على أتيكيا. كان هذا في وسط الصيف، وكان القمح ينضج. دمر الغزاة المحصول، اقتلعوا الزيتون والكرمة، ونهبوا البيوت. احتل سكان الريف المدينة بناء على اقتراح بيركلس، وأخليت البهائم من الجزر. وفي هذا الوقت، كان

الأسطول الأثيني يعمل في البحر ويسبب النكبات للبلوبونيزينيين. وقاتل جزء من المراكب (١٠٠ مركب ثلاثي المجاذيف) على طول شواطيء بلوبنيز، فدمروا السواحل وشلوا التجارة الكورنثية؛ وحاصر لواء آخر بوتيديا في شلسديك. وبقي الأثينيون لبعض الوقت متفوقين.

لكن وضع الأثينيين المتجمهرين في أثينا راح يسوء من يوم إلى آخر. كان الخطأ في إهمال مصالح الريف. والمدينة تغص بالسكان، واللاجئون يقطنون الأكواخ، في الساحات العامة، في أبراج الاستحكامات وحتى في المقابر.

كان تدمير التراب الوطني، المرئي من أعلى الأكروبول، يغضب الشعب (بخاصة الفلاحين) الحاقدين على صانعي الحرب، لكن بيركلس، إخلاصا لخطته، كان يمنع الأثينيين من الانتقال للهجوم. تفاقم الوضع، انتشر الطاعون الوافد من مصر بسرعة عبر المدينة. رسم ثوسيديد لوحات رهيبة لهذا الوضع (٢، ٤٧-٥٤). كان الناس يموتون في الشوارع، حتى ناءت المدينة بالجثث التي لم يتوفر الوقت لرفعها. وانهال الغضب الشعبي علىبيركلس، الذي اعتبر مسؤولا عن كل النكبات. فدعم الريفيون بنشاط أنصار وقف المعارك. حاول بيركلس تحييد هذهالمساعي، بإقناع مواطنيه بأن عليهم أن يتغاضوا عن القلق الشخصي من أجل سلامة الدولة. يبدو أن مصلحة الدولة بمجملها كانت أهم لدى المواطنين من ازدهار بعض الأفراد في دولة في حالة انحطاط (ثوسيديد،٢، ٦٠)، لكن الغضب كان يستعر ونفوذ بيركلس يتراجع. وفي العام ٤٣٠، لم يجدد انتخاب بيركلس الذي مارس مهامه كقائد استراتيجي، ومات بالطاعون في العام نفسه. يبرهن سقوط بيركلس أن سياسته المعتدلة لم تعد ترضي الأثينيين في حال استعار التناحرات بين السكان المدنيين الراديكاليين وأبناء الريف المحافظين. عامان بعد موت بيركلس، كان كليون يقود الشريحة الردكالية، التي لها الأغلبية في الجمعية الوطنية. وكان يقود المعتدلين نيسياس، أحد أغنياء العبيد.

لقد قدمت لنا شخصية كليون بشكل هازل. يعلل هذا بداية أن ثوسيديد، أرسطو، بلوتارك،أرستوفان الذين وصفوه لنا، كانوا معتدلين ولايتعاطفون مع الديموقراطية الراديكالية. ثوسيديد يسمي كليون "المواطن الأسفه". وأرستوفان،في ملهاته، الفرسان، تمتع بأمر وصف عيوبه؛ ورأى أرسطو "أنه أفسد الشعب أكثر من أي شخص آخر بنزقه وحدة

مزاجه". على هذا، فقد كان قائدا مستقيما واسع النشاط والحيوية بين شريحته الديموقراطية اليسارية، التي كان لسان مصالحها.

أما نيسياس، خصمه، كان يتمتع بدعم الأغنياء والأرستقراطيين. يصنفه بعض المحافظين مثل أرسطو بين أفضل قادة أثينا السياسيين. لكن بلوتارك، العدو الأزرق لكليون، يشير لدى مقارنته بنيسياس،أن هذا الأخير كان خائفا، يسهل ثنيه عن الإقدام، متطيرا، بدون مواهب متفردة. ترجع شعبيته إلى سلوكه الذرائعي.

لقد خاض الحزب الراديكالي، بقيادة كليون، الحرب بألمعية وجرأة. وشن الأثينيون عمليات في البر والبحر.

وبقيادة قائد قادر، ديموستين، احتلوا بيلوس، الجهة البحرية من مسينا، لتحريض فقراء مسينا على الانتقال إلى حزبهم. وبولوج هذه المنطقة الآهلة بالفقراء بخاصة أنزل الاثينيون ضربة إلى النقطة الأكثر حساسية في الدولة السبارطية. لذا سارع السبارطيون إلى محاصرة بيلوس عن طريق البر، ومركزوا فيها أسطولهم، واحتلوا جزيرة سفاكتري، الواقعة قبالة بيلوس، وأرسلوا إليها أكثر من ٤٠٠ جندي. ووجه إليها الأثينيون أيضا أسطولهم، الذي تصدى للبلوبونيزيين. استلم كليون نفسه القيادة، وطوق سفاكتري بمساعدة ديموستين، وفرض الاستسلام علىالسبارطيين، وأخذ الجنود الموجودين في الجزيرة رهائن، ووضع شرط علىالبلوبونزيين عدم مهاجمة أرض أتيكيا، وإلا ذبحت الرهائن. وبدأ كليون العائد إلى أثينا مكللا بالمجد، سياسة هجومية واسعة المدى: احتل المرفأ الميغاري والنيسيا، وجزيرة سيثير، وأرسل حملة غازية إلى سيسيليا. لكن هذه العمليات كانت تتطلب نفقات ضخمة. فتوجب رفع الضرائب على أعضاء الاتحاد (٦٠٠-١٠٠٠تالنت). فتشوشت العلاقة بينهم، الأمر الذي كان شؤما على دولة أثينا. وفي العام ٤٢٧، انفصلت ليسبوس بمساعدة اللاسدمونيين عن الاتحاد. واضطرت مدينة متلين، مركز التمرد على الأثينيين، على الاستسلام أما القوات الأثينية بعد حصار طويل. ولم يستطع الأثينيون أن يجمعوا حلفاءهم إلا بالإرهاب.

وفي العام نفسه، نشب عراك مرير بين الأرستقراطيين والديموقراطيين في جزيرة كورسير. كان وراء هذا العراك الكورنثيين الذين، ليفصلوا كورسير عن أثينا، دعموا الأرستقراطية. ونشبت معارك دامية في الشوارع، اشترك فيها النساء والعبيد. "لقد أرسل

كلا الطرفين رسلا إلى الأرياف ليدعموا العبيد واعدين إياهم بالحريـــة، وانضـــم أغلبـــهم الشعب"، كما يقص ثوسيديد (٣،٧٣). وتسعر الصراع الطبقي في الدول المتحالفة، بتشجيع البلوبونيزيين.

قد أثار انقضاض الأثينيين على البلوبونيز تعقيدات داخلية في ســبارطة. ولتحويــل انتباه العدو، دعمت اسبارطة، من جهتها، التمردات بين أحلاف أثينا. وبهذا الـــهدف وجــه السبارطيون الحرب إلى الساحل الشمالي من بحر إيجة. حيث يوجد عدد من مدن الاتحاد، كان أهمها بوتيديا، أولينث وأمفبولس؛ كان البلوبنيزيون يأملون تفكك حلفاء أثينا. ولم يكونوا خاطئين. فقد تحقق مشروعهم بغزو المستعمرات الأثينية على شواطيء ثراسيا، بفن قتــالي حاسم وماهر، بقيادة الشاب السبارطي برازداس. وعلى رأس فوج من المتطوعين اجتـــاز بجسارة بيوتيا، وثيساليا وتمردت على أثينا مدن شلسديك.

تمت الأحداث الحاسمة لهذه المعمعة أمام امفبولس، المستعمرة الأثينية التي انتقلت إلى العدو. احتل برازداس المدينة بمساعدة أبنائها. كان المؤرخ ثوسيديد هو الذي يقود آنئذ (في العام٤٢٤) اللواء الأثيني قرب شواطئ ثراسيا. ولم ينجح بالحفاظ على المستعمرة، الأمـــر الذي جعل أثينا تنفيه. وتضع محله كليون قائد الجيش الأثيني، لتصليح الوضع. وفي العـــام ٤٢٢، انتهت معركة امفبولس الضارية بهزيمة قاسية للأثينيين (قضى فيها القائدان كليـــون وبرازداس). واتسع مدى التمرد في البلدان المتحدة.

أثارت الهزائم العسكرية الرأي العام الأثيني ضد حزب الحرب ووسعت نفوذ حـــزب الصلح، نيسياس. وفي العام ٤٢١ عقد صلح نيسياس الذي رسخ الوضـــع الراهـــن. وفـــي ملهاته "الصلح"، التي كتبت في نفس العام، يرفع أرستوفان عاليا فرحـــة الحيـــاة الســلمية؛ وعوض الرمح "الملعون"، ليؤخذ المعول لغرس الكروم والزيتـــون. إن إهمـــال مصـــالح الفلاحين وبعض الحلفاء كان السبب الرئيس في هزيمة الديموقراطية الأثينية طيلة المرحلـــة الأولى من الحرب.

المرحلة الثانية من الحرب البلوبونيزية

وقعت حملة سيسيليا الكبرى وحرب دسيليا لأن صلح نيسياس لم يكن متينا. فلم يحـــل التناقضات الأساسية لما قبل الحرب. ولم تنفذ شروط المعـــاهدة: احتفـــظ كـــلا الطرفيـــن بالأراضي المغتصبة الواجبة الإعادة لأصحابها. ثم، وقف المجتمع الأثيني المدمر نفســـه،

فضلا عن الصناعيين والتجار، إلى جانب تجدد المعارك. أمل كثير من الناس التخلص من ورطته عن طريق الغنائم والأسلاب التي تأتي بها معركة مظفرة فيما وراء البحار.

ولقد لعب أحد ذوي بيكلس، ألسبياد، وقد صار على رأس الأوساط العدوانية لديموقراطية أثينا الرقية، دورا هاما في حياة أثينا السياسية انطلاقا من العام ٤٢٠. كان ألسبياد شابا موهوبا ورفيع الثقافة.

ولقد أكسبتهُ ثروته، ظرافته، مروءته، تسامحه وفتنته الشخصية الغريبة، شعبية لا مثيل لها. لكن انعدام الاهتمام والتدقيق، والقدرة على التلاؤم مع الظروف وتغيير السلوك حسب الثوب الذي تلبسه الأمور، كلفه كل هذا لقب "الحرباء"[٧]. بنيت سياسة ألسبياد كلها على مشروعات الفتوحات الواسعة، التي تفرز المغامرة. فتبنى خطة جريئة لاحتلال مناطق غنية بالقمح في غرب البحر المتوسط: سيسيليا، إيطاليا وقرطاجة. وافق على هذا المشروع الأثينيون الشرهون للتوسع، الطامعون منذ زمن بثروات سيسيليا من الحبوب وغيرها.

استخدم سيسيليا حمايتها من اضطهاد سيراكوز ذريعة لحملة عليها. وأفاد منها ألسبياد لتحريض الأثينيين. وفي كل مكان، في الشوارع، في ميادين الرياضة، كان الكلام يدور حول سيسيليا فقط؛ رسمت خرائط لهذه الجزيرة، وليبيا، وقرطاجة. ورغم معارضة خصوم ألسبياد، وبينهم نيسياس، حصل الحزب الديموقراطي من الجمعية الوطنية على الموافقة بتنظيم حملة سيسيليا بقيادة ألسبياد، نيسياس ولاماشوس. وتجهيز أسطول ضخم وجيش جرار (١٣٤ مركب ثلاثي المجاذيف، ٤٠سفينة نقل وقرابة٢٠ ألف مقاتل).

لكن الصراع المرير بين الأحزاب في أثينا انعكس شؤماً، منذ البداية، على مسار الحملة. فعشية الانطلاق، مزقت صور الإله هرمس، حامي المسافرين، الموزعة على مفارق الطرق. لم يكن هذا في نظر اليونان الأسبقين مجرد تدنيس وانتهاك للحرمات، بل نذير شؤم. تحرص بعضهم أن خصوم ألسبياد، أنصار حكم الأقلية المتحكمة، كانوا والغين في العملية. ورغبة منهم في استبعاد الحملة، نشروا شائعة تقول إن الفاعل هو ألسبياد نفسه، تلميذ "الفلاسفة الملحدين"، وألحوا على إحالته إلى القضاء. لكنهم لم يقدروا أن يصلوا إلى غايتهم في الحال، لأنهم خشوا القوات المخلصة كلياً لألسبياد.

---

[٧] – التقلب والتلون.

غادر الأسطول رسمياً البيري بالتاريخ المحدد. وما أن وصل إلى سيسيليا، حتى بدأ ألسبياد العمليات القتالية. لكن باخرة تصل، تحمل أمر عودته إلى أثينا ليقاضى: اتهم الآن بالتآمر على الديموقراطية. لكنه في الطريق، فرّ إلى اسبارطة. أفضى كل هذا إلى تفكك الجيش وانبعاث الفوضى مما هدد بالفشل لفقدان الجاهزية القتالية.

بعد رحيل ألسبياد، استلم نيسياس القيادة العليا. أبحر هذا بنجاح إلى سيراكوز، حاصر أولا المدينة، بألمعية معاكسة لطبيعته، وحاول صعود الجدران بأضيق وقت. ضحك الحظ للأثينيين حتى أن السبارطي جلبوس استسلم في سيراكوز مع قوات المدن السيسيلية الأخرى، التي تقلد الدفاع عنها. وساعدت كورنثيا السيراكوزيين. وفي العام ٤١٣ عزز الأسطول الأثيني بـ ٧٥مركب ثلاثي المجاذيف، بقيادة دمستين، الذي لمع نجمه في بيلوس. لكن وصول القوات من إيطاليا وبلوبنيز زاد من قدرة سيراكوز على المقاومة وفاقم في وضع الجيش الأثيني، فقرر الستراتيجيون العودة إلى أثينا. يتحدث ثوسيديد عن درامية وضع الجيش الأثيني المحاصر في سيراكوز. فبعد محاولة الأسطول العابثة أي خرق صفوف العدو وحرق مراكبهم، أراد الجيش الانسحاب إلى داجل الجزيرة. وأجبرهم تفوق العدو العددي والجوع على الاستسلام. وانتهت حملة سيسيليا إلى نكبة رهيبة: دمر الاسطول والجيش، استعبد من بقي حيا وأرسل إلى المقالع، وأعدم الاستراتيجيون (٤١٣).

وفي أتيكيا بالذات، خضع الأثينيون إلى نازلة شنعاء: كان السبارطيون قد احتلوا ديسيليا، المركز الستراتيجي الهام جدا، الواقع في شمال-شرق أثينا. وهكذا عزلت المدينة عن الجزء من أتيكيا وأوبيا الذي يمدها بالمواد الغذائية. لقد تصرف العدو هكذا بناء على إلحاح ألسبياد الذي، بعد أن لجأ إلى اسبارطة، كان يتحرق ليثأر لوطنه. حتى الآن، كانت الغزوات البلوبونيزية قصيرة الأمد. إنما هذه المرة، تشبثوا بسيسيليا، ولم يغادروا أتيكيا، بل دمروها وشلوا اقتصادها. أكثر من ٢٠ ألف عبد أثيني، أغلبهم أصحاب مهن، انتقلوا إلى العدو. وتأثرت الصناعة وكل الاقتصاد الأثيني العبودي بهذه الخسائر.حث هذا الوضع الأثيني الحرج اسبارطة على مضاعفة نشاطها في البحر لكبح هيمنة الاثينيين البحرية. لبناء أسطولهم، أهمل السبارطيون مصالح اليونان وعقدوا حلفا مع الفرس، من أجل الحصول على معونات مالية. توجه ألسبياد إلى آسيا الصغرى، حيث تيسر له أن يعقد صلات صداقة مع المزربان تسافيرن. ونجح بضم أيونيا إلى أثينا، لكن السبارطيين، الذين

لم يثقوا به، أرسلوا مكانه قائد الأسطول ليزاندر. كان هذا الأخير رجلا موهوبا وبدلوماسيا محنكا، ماكرا؛ كان يقول حيث لاتستطيع أن تحصل على لبدة الأسد، ارتد جلد ثعلب. أفسد ليزاندر أساليب ألسبياد. فتنت لهجته وعباراته الخنوعة سيروس، حفيد ملك الفرس، فوعده بإعطائه كل ما يريد. أفاد ليزاندر من خطوته لدى هذا الأمير لزيادة المعونات المالية الممنوحة لسبارطة لخلق أسطول بلوبونيزي ضارب، يهيمن في بحر إيجة.

عجل كل هذا في وهن عزيمة الدولة الأثينية التي لاقت هزائم قتالية. أهمها تفكك الحلف الأثيني، الذي عزل مدن آسيا الصغى وكل الجزر تقريبا. وكانت خسارة حلفاء مثل سيو، لسبوس وميليت شديدة الأثر. الأمر الذي قلص كثيرا دفق الخيرات، وبلغت الأزمة المالية نسبا مهددة.

لقد هزت النكبات التي ضربت أثينا موقف الديموقراطية ودعمت معسكر الخصم. وانفلت الصراع السياسي بعنف لم يعرف من قبل. فقد صارت الجماعات السرية الأولغارشية، التي أقسم أعضاؤها على قلب النظام الديموقراطي، الحلقات الرئيسية في هذا الصراع. وفي العام ٤١١نجحت، بمساعدة الجيش والأسطول، بانقلاب أولغارشي وانتخبت عشر ولاة، والٍ لكل ولاية ، لايقل عمر كل منهم عن ٤٠عاما. وكلف هؤلاء الولاة بإعداد دستور جديد. وبانتظار هذا، أقيم :"نظام الأباء"، وكما يقول الأولغارك: صار مجلس الأربع-مائة، المكون حصرا من أعتى الرجعيين، الحاكم الأعلى للدولة. وحسب ثوسيديد، "كان هذا المجلس يحكم بصورة استبدادية"، بتعذيب واضطهاد الديموقراطيين بدون رحمة. ألغيت مؤسسة سماع شكوى خرق القانون التي كانت تحمي القواعد الديموقراطية، وألغيت الوظائف المأجورة. لكن تبين أن هذه الأولغارشية المتطرفة غير مستقرة. فبعد أربعة أشهر من الحياة، اعدم فرنكوس، انتفون وغيرهما، أكثر الألغاركيين حماسا وشطب من الوجود مجلس الأربعمائة.

كان الدستور الذي أعده الولاة يسلم السلطة لخمسة آلاف "شخص سلاحهم ثقيل". أي إلى الشرائح الوسطى من الشعب. كان ثرامين يكره الديموقراطية التي أتت بدولة حكمت العبيد والفقراء الذين، كما يقول، "كانوا مستعدين لبيع البلد مقابل دراخما" لكن ثرامين لم يكن يحب الأولغارشية أيضا. إنما كان ممثلا نموذجيا للشرائح الوسطى المرتاحة، إنسانا متقلبا، يحدب على التسويات، لقب بـ"كوثرن" (حذاء تستعمل فردتاه للقدمين). (خنوفون، الهللينيون، ٢، ٣،٣٠).

لكن النظام المعتدل أو الوسط أثار أيضا الغضب بين شرائح ديموقراطية واسعة. كان بحارة ومجذفو الأسطول الموجودون آنئذ قرب جزيرة ساموس، الشريحة الأكثر تنظيمـــا. ولما اكان الأسطول بدون قائد كفء يربح ثقة الطواقم، قرر استدعاء ألســـبياد مــن آسـيا الصغرى, قبل، أملا بتحقيق رغبته العارمة في العودة إلى الوطـــن. ومرةأخـــرى، غـــير مبادئه.

كانت المهمة الأساسية للأثينيين في هذه المرحلة من الحرب، التي دشنها ألسبياد، تقوم في تحرير هلسبونت وطريق ساحل البحر الأسود من البلوبونيزيين. فقد عمقت انتصـــارات ألسبياد العظيمة قرب أبدوس وسزيك نفوذ أثينا في البحر، وأكرهت بعـــض المـــدن التـــي انفصلت على العودة لتكمل الإمبراطورية الأثينية. وأفضت انتصارات ألسبياد القتالية إلـــى سقوط حكومة الـــ ٥٠٠ (في العام ٤١٠) وإعادة النظام الديموقراطي. في هذه الحقبة لعـــب ألسبياد دورا كبيرا في إدارة الدولة، لكن نجاحات أثينا وانتصاراتها كانت أمرا عارضا. فقد استمرت إسبارطة تعزز وضعها على نفقة العجم. كان ســـيرس يســـاعد بســـعة القـــوات السبارطية؛ إلى ذلك، كان لزاندر قد ركز بين يديه قيادة الجمعيات الالغارشـــية الســـرية التي يقضي بواسطتها على الديموقراطية. كان موقف ألسبياد غير مســـتقر، لأن الأوســـاط الحاكمة كانت تعيقه بكل السبل. دون أن يتخذ ضدهم أي تدبير. وبعـــد هزيمـــة بســـيطة، تراجعت سلطته حتى في الأوساط التي هللت له حديثا. فاضطر إلى مبارحة أثينا وعـــاش ردحا من الزمن في منفى تطوعي، على ضفة هلسبونت. ثم ذهب إلى فارس، بأمل دعـــم مليكها. لكن هذا أمر، على الأرجح بأمر من لأزندر، بقتله في الطريق.

لقد نجم عن الصراع الضاري بين الأحزاب في أثينا تقلبات في سياستها الخارجيـــة والداخلية.فالأحداث المرتبطة بمعركة الأرغنوز، غير بعيد عن لســـبوس (٤٠٦)، كـــانت متفردة في بابها. حوصر الأسطول الأثيني في مرفأ متلين. لملم الأثينيون آخر مصـــادرهم، وجهزوا ١١٠ مراكب وجندوا كل الرجال القابلين للتجنيد، بما فيهم العبيد. لكـــن عاصفـــة منعت الستراتيجين الأثينيين من مساعدة المراكب المشتتة ودفن الموتى. الأمر الذي خـــول الرجعيين، أعداء الستراتيجين، رفع دعوى لمقاضاة المنتصرين وإدانتهم بالموت (كان ابـــن بيركلس أحد المدانيين). وعند عقد الجلسة، ندم الأثنيون، حسب خنوفـــون، وقـــرروا محاكمـــة أولئك الذي ضللوا الشعب. طبعا، كانت هذه الأزمات تضعف الوضع المتفاقم في دولة أثينا.

وكانت المعركة التي دارت في العام ٤٠٥ قرب أغوس-بوتاموس (نهر العنزة) في هلسبونت حاسمة واستنفدت نصر الجامعة البلوبونيزية. خسر فيها الأثينيون كل أسطولهم تقريبا. ثم ظهر الأسطول البلوبنيزي، بقيادة لزندر، قرب بيريا وبدأ محاصرة الأثينيين بحرا وبرا. طلب المحافظون عقد الصلح، وشرع الديموقراطيون قانونا يدين بالموت أي اقتراح من هذا النوع. لكن الجوع والأمراض المتفاقمة أزم وضع المدينة المحاصرة، فاستسلمت أثينا في العام ٤٠٤. وقع الصلح بشروط قاسية جدا على الأثينيين الذين توجب عليهم:

١) تسليم كل أسطولهم، عدا ١٢ حارسا؛

٢) هدم التحصينات ("الجدران الطويلة")؛

٣) حل الاتحاد البحري؛

٤) دفن الديموقراطية.

تفتتت الطاقة القتالية الأثينية؛ وأفل نجم الإمبراطورية البحرية الأثينية؛ وقمعت الديموقراطية اليونانية. فالتناقضات الأساسية، الملازمة للنظام العبودي القديم، تبدت بخاصة في أثينا، التي بلغت درجة عالية من النضج. ولم تعد طبقة العبيد تجد مصلحة في دعم آثينا التي تستغلها.

مهما كانت نتيجة الحرب البلوبونيزية فاجعة، فلم تستطع قهر النظام الديموقراطي في دولة أثينا. صحيح أن سلطة أثينا انتقلت في العام ٤٠٤، بناء على طلب لزاندر، إلى أيدي لجنة الغارشية، بأعضائها الثلاثين، الملقبين "الثلاثون الطغاة"، برئاسة كرتياس، الأرستقراطي الحقود، وثرامين. حكموا الدولة بالإرهاب، بإهمال الشريعة وتنظيم حملة فعلية لطرد وملاحقة رواد الديموقراطية، وذبح أحيانا، خلف هذه الذريعة، رجالا أغنياء لاحتلال أرزاقهم. لم يبق أحد مطمئنا على حياته. وتقلص عدد سكان المدينة إلى ٣٠٠٠؛ وكان القانون الذي شرعه الطغاة يخولهم إعدام أي مديني لاينتسب إلى هذه الطغمة. لكن سرعان ماشبت النزاعات بين الطغاة. ثيرامين، الأكثر اعتدالا، شطبه كرتياس من قائمة الـ ٣٠٠٠ مديني وحكمه بالموت. إن دعوى ثيرامين، يكتب خنوفون، تقدم دليلا فاضحا على التحكم والعنف الذي ساد في أيام الثلاثين (الـهلينيون، ٢، ٣؛ انظر ليزياس، خطابات،١٢،١٣).

على ذلك، لم يدم النظام الألغارشي سوى ثمانية أشهر. كان الديموقراطيون

المهاجرون قد كتلوا، بزعامة ثراسبول، قواهم في طيبة، ومن هنا هاجموا أتيكيا. واحتلـــوا بالتتابع البيري، أثينا وإلوزيس، حيث حاول فلول الألغارشيين، الــــهاربين مـــن أثينــــا، أن يعتصموا. وهنا ساهمت الصراعات الداخلية التي تمزق إسبارطة في ســـقوط الطواغيـــت الثلاثين. ولقد أقلق تنصيب لزندر، الذي كان آنئذ يــــرأس مصـــائر الأثينييـــن، الأوســـاط السبارطية الحاكمة. فعمل ملك اسبارطة بوزانياس على مصالحة الديموقراطية الأثينيين مع الالغارشيين المعتدلين، بدون معرفة لزندر. وهكذا عادت الديموقراطية الأثينية فـــي العـــام ٤٠١ تماما وبأشكالها السابقة، لكنها فقدت كل أسباب وإمكانيات أن تصير القوة السياســـية المسيطرة والعامل الرئيس في توحيد اليونان.

فهرس الجزء الأول

من منشورات دار علاء الدين التاريخية

* مغامرة العقل الأولى
فراس السواح
* الحدث التوراتي
فراس السواح
* آرام دمشق وإسرائيل
فراس السواح
* الأسطورة والمعنى
فراس السواح
* بدايات الحضارة
عبد الحكيم الذنون
* سويداء سورية
مجموعة من المؤلفين
* أضواء على الثورة السورية الكبرى
عطا الله الزاقوت
* السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين
ت سالم العيسى
* صرح ومهد الحضارة السورية
مفيد عرنوق
* المصادر التاريخية في الأندلس
ت نايف أبو كرم
* أميرات سوريات حكمن روما
ت خالد عيسى
* الحضور اليماني في تاريخ الشرق الأدنى
فضل عبد الله الجثام
* بيو غرافيا حية لمشاهير الحكام في العالم
ت خالد أبة الليل
* أهم الغزوات في صفحات الإسلام الخالدة
عبد أحمد عبد الكريم السعدي
* لغز عشتار
فراس السواح
* دين الإنسان
فراس السواح
* جلجامش
فراس السواح
* التاو
فراس السواح
* الرحمن والشيطان
فراس السواح
* من هم الموحدون الدروز
جميل أبو ترابة
* العادات والتقاليد في محافظة السويداء
عطا الله الزاقوت
* سلسلة الأساطير السورية
ت مفيد عرنوق
* كليوباترا وعصرها
ت يوسف شلب الشام
* الفكر الإغريقي
ت محمد الخطيب
* تاريخ اليابان
ت يوسف شلب الشام
* الحضارة بين النعمة والنقمة
إحسان البني
* التراث من منظور مختلف
عبد الغفار نصر
* الاقتباس والجنس في التوراة
خالص مسرور

* الأسطورة في بلاد الرافدين
عبد الحميد محمد
* إله الشمس الحمصي
ت إيرينا داوود
* البلدان النامية–مشكلات العلاقات الاقتصادية
ت د ماجد علاء الدين
* تاريخ القانون في العراق
عبد الحكيم الذنون
* الديانة الفرعونية
ت نهاد خياطة
* دراسات حول الأكراد
ت عبدي حاجي
* الشركس في فجر التاريخ
برزج سمكوغ
* حدث ذات مرة في سورية
سمير عبده
* المسيحيون السوريون خلال ألفي عام
سمير عبده
* السريانية العربية
سمير عبده
* الإيديولوجية اليهودية
مفيد عرنوق
* تيارات الفلسفة الشرقية
محمد حسن
* دراسات في الفلسفة الأوروبية
سليمان حسن
* التشريعات البابلية
عبد الحكيم الذنون
* العولمة والتبادل الإعلامي
د صابر فلحوط
* من أنساب العرب العاربة
صالح هواش المسلط

* أساطير في أصل النار
ت يوسف شلب الشام
* هل هبط آدم في القفقاس
محمد عمر بغداي
* الحضارات القديمة
ت نسيم واكيم اليازجي
* الجنس في العالم القديم
ت فائق دحدوح
* الديانة الزرادشتية
نوري إسماعيل
* شريعة حمورابي
ت أسامة سراس
* طقوس الجنس المقدس
ت نهاد خياطة
* موسوعة تاريخ القفقاس والجركس
محمد جمال صادق ابه زاو
* معجم الأساطير
ت حنا عبود
* صراع بين الحرية والاستبداد
فارس الحناوي
* تجارة الأسلحة في الخليج العربي
رحيم كاظم محمد الهاشمي
* الإثنولوجيا
محمد الخطيب
* الطريق إلى القيادة وتنمية الشخصية
ت سالم العيسى
* دراسات في المكتبة العربية التراثية
عادل فريجات
* الخيول الأصيلة في الصحراء العربية
أحمد غسان سبانو
* المعراج والرمز الصوفي
د. نذير العظمة

هذا الكتاب

غزارة علمية، غنى معرفي.. تميز بالأسلوب، تفرد بالموضوع.

دراسة تتناول الحضارات القديمة بمنظار علمي تتصاعد من بداية الحضارات البدائية المشاعية، وترتقي إلى الحضارة السومرية فالآكادية فالبابلية، ثم الحضارة المصرية القديمة العريقة... حتى تصل إلى الحضارة اليونانية عظيمة الأثر في التاريخ الإنساني في جزئه الأول.

الكتاب مفيد للدارسين في كليات التاريخ والعلوم الإنسانية والاجتماعية، ولكل من يهتم بتاريخ الحضارة الإنسانية عبر عصورها المختلفة والمتعاقبة.

الناشر



يطلب الكتاب على العنوان التالي:
دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة
دمشق ص.ب ٣٠٥٩٨
هاتف : ٥٦١٧٠٧١
فاكس : ٥٦١٣٢٤١